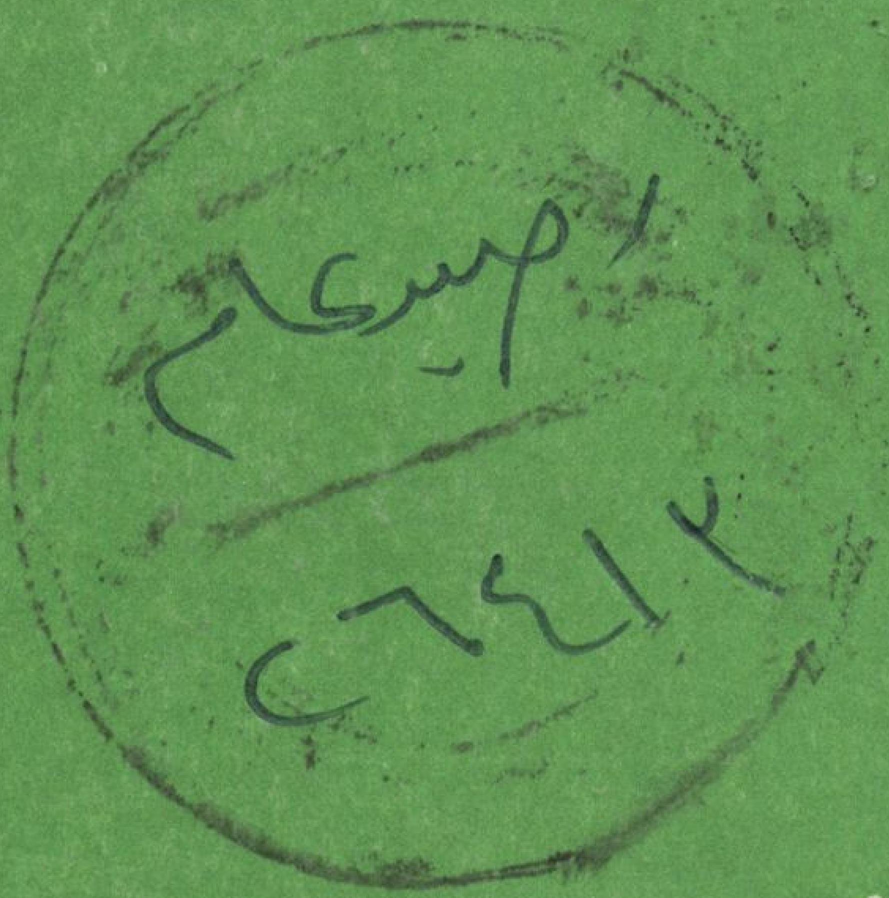
جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية

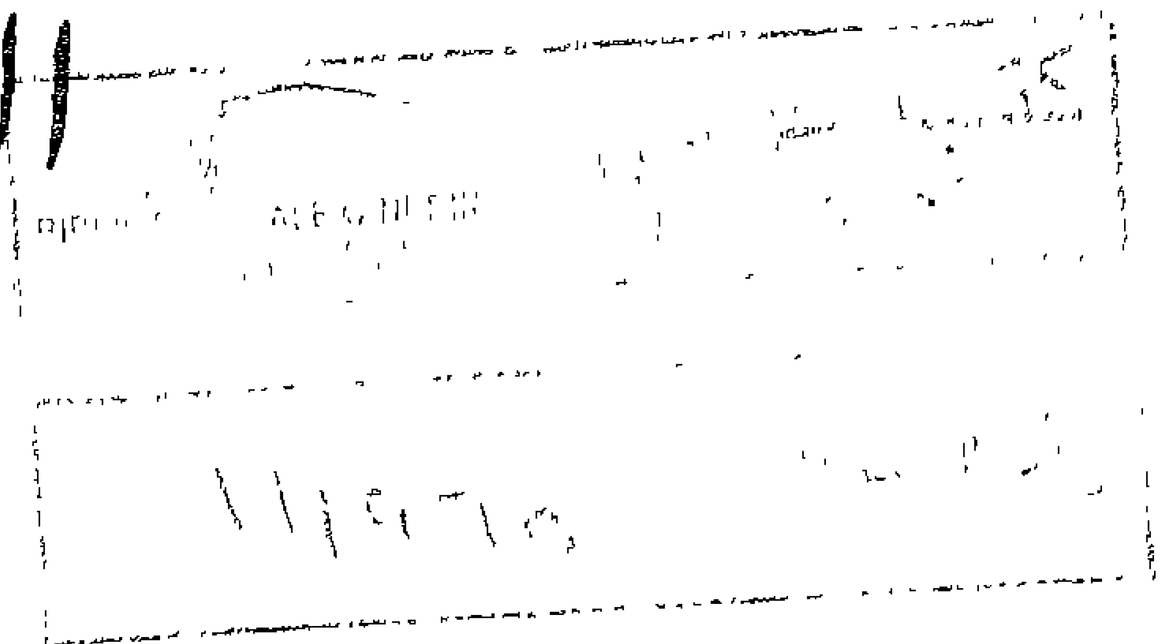


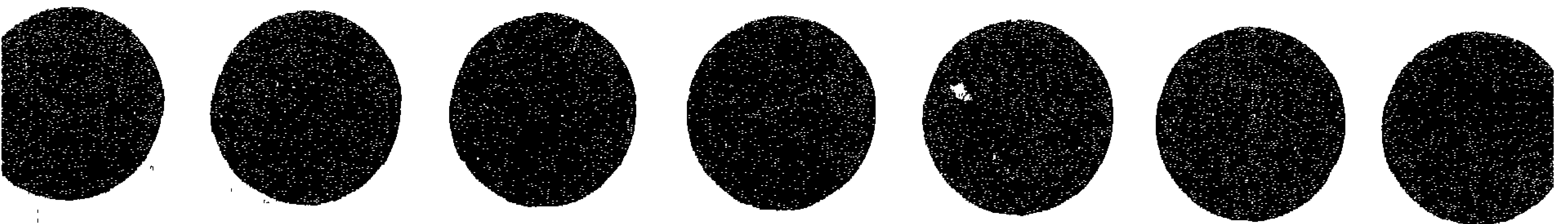
تأليف
الدكتور مختار القاضى

جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

أثر المدنية الإسلامية فى الحضارة الغربية

تأليف
الدكتور مختار القاضى





الكتاب الثانى والتسعون
يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

والصلاة والسلام على محمد نبيه الكريم ، وبعد ، فهذه مقدمة لكتاب وضعته فى أثر المدنية الاسلامية على الحضارة الغربية وكنت مشوقا الى الكتابة فيه منذ عشر سنين ، فالموضوع مغر لكل من يريد ان يربط بين المدنية القديمة والمدنية الحاضرة ، ومن يريد أن يتقصى اصل الحضارات وبوجه خاص اصل الحضارة الغربية الحديثة التى يزعم لهـا بعض دعاتهـا الاستقلال فى النشأة والاستئثار بالفضل ، والزهو على العالم بما لها وما ليس لها دون الاعتراف لغيرها من الحضارات بالأسهام فى وضع دعائمها .

لقد كانت اوروبـا فى العصـور الوسـطى مسيحية شديدة التعصب ، بدرجة أنها جندت قوتها كلها ضد المسـلمين فى حـروب صليبية دامت قرنـين ، ومـع ذلك فلم تـكن أوروبا فى ذلك العصر الا قطعة من ظلمات وجهل . وفى القرن الثامن عشر ، لمـا أراد مواطنو الفيلسوف «فكتور كوزان» الفرنسيون من أمثال فولتير وروسو ومنتسكيو تجريد حملة على الطغيان السياسى للحكام والتسوية بين الطبقات واطلاق الحرية من عقالها ، خجلوا من ان يحاربوا الطغيان باسم الدين المسيحى ، لا لأن مبادئه تناهض المساواة والحرية ، بل لأن رجال الدين المسيحى انفسهم كانوا قد خلقوا لأنفسهم طبقة ممتازة تعلو على طبقة العامة مما اضـطر هؤلاء الفلاسـفة الى الاحتماء فى مبادىء القانون الطبيعى التى كانت معروفة عند قدماء الاغريق مفضلين ذلك على الاحتماء وراء المسيحية التى ضرب حماتها أسوأ المثل للاديان ، وباسم المسيحية أهدروا الحريات وفرقوا بين الناس .

واذا كان هذا رأى كوزان ورينان وجولد تسيهر وغيرهم ، فان المنصفين من الغربيين لحضارة الاسلام غير قليلين وسوف ترى عديدا منهم وانت تقرأ هذا الكتاب .

والموضوع ذو نفع تاريخى عظيم ، فيه تصحيح اخطاء وقع فيها كثير من المؤرخين قصدا أو عن غير قصد،وبه تستجلى عناصر ران عليها الصدا قرونا طويلة ، فلم يعرها المؤرخون الا نظرة عابرة أو مروا عليها معرضين ، لست أدرى لأى سبب من الأسباب ، أو قل لاسباب عديدة لا أستطيع لها حصرا ، وانما أستطيع ان أقرب للقارىء بعض هذه الأسباب ، ومن بينها أن نزعة التعصب الكامنة فى نفوس بعض الغربيين كانت شديدة لدرجة أنهم لا يريدون أن يبحثوا جديا عن مدى تأثير المدنية الاسلامية على العالم الغربى حتى لا يكون للاسلام فضل على العالم عامة ، وعلى العالم الغربى خاصة ، بل أن نزعة التعصب بلغت ببعض كتـاب الغرب الى حد القول بـأن العقيدة الاسـلامية والشريعة الاسلامية من نتاج العالم الغربى ، ويكفى أن نستعرض البـاب الأول من كتاب « العقيـدة والشريعة فى الاسلام » للمستشرق المجرى اجناس جولد تسيهر لنعرف مدى ماوصل اليه تعصب بعض كتاب الغرب وافتياتهم على التاريخ وانكارهم للبديهيات وتعاليهم على الحقائق !!

ولقد قيض الله لى فرصة وانا اكتب رسالتى « الرأى فى الفقه الاسلامى » عام ١٩٤٩ ان ارد على هؤلاء الكتاب الذين زعموا أن للغرب فضلا على الشريعة الاسلامية ، ولكنى لم أكن راضيا

عن نفسى كل الرضا ، ذلك بانه لا يكفى ان انفى أن للغرب فضلا على الاسلام ، بل ينبغى ان اضيف الى ذلك الدور الذى لعبته المدنية الاسلامية فى الحضارة الغربية ، وبهذه الاضافة يستكمل البحث ، غير أن موضوع تلك الرسالة كان يضيق بكل ما ينبغى أن يقال ، لذلك حاولت أن احقق ما وعدت به نفسى من اشباع رغبتها القديمة فى تكملة الموضوع الذى بدات الجولة الأولى منه عام ١٩٤٩ م .

والموضوع ليس بالهوان الذى يعتقده كثير من الناس ، ذلك بأن آثار المدنية الاسلامية على العالم الغربى لا تقتصر على باب واحد ، بل هى ابواب متفرقة عديدة تشمل العلوم الطبيعية والرياضة والاجتماع والهندسة والطب والأدب واللغة والموسيقى وغيرها من العلوم ، وكل فرع من هذه العلوم فى حاجة الى متخصص عالم بتاريخ هذا الفرع ، ملم بشتاته متقص لجذوره التى نبت منها وأصوله التى يعيش عليها ، أما أن يقوم بهذا العبء فرد بعينه فهذه معجزة الزمان التى لا يجود بها فى كل حين ، وانما يستطيع فرد بعينه أن يرسم خطوط الموضوع ويكون عنه فكرة ، وعلى المتخصصين فى كل فرع من فروع العلوم أن يستكملوه بما لهم من دقة وفن . وانا لا أستطيع ان ادعى لنفسى فضلا سوى محاولة بذلت فيها جهد المقل لأرسم خطوط الموضوع وأعرض عنه فكرة أولية ، ولا اريد بكتابى هذا أن يدركه الخلود مثلما اريد الخلود للفكرة التى يحتويها ، فالعمل الفردى للانسان ، كما يقول الأستاذ سافينى M. F. C. Savigny احد مؤلفاته ، زائل كزوال الفرد نفسه فى مظهره المادى ، وانما الذى لا يعتريه الزوال هو الفكر ، والفكر حين ينتقل من جيل الى جيل يجمع تحت لوائه خدام العلم فى شكل اتحاد عظيم حيث يجد نصيب الفرد فيه ، مهما كان ضئيلا ، مكانه الى الخلود(١) .

واذن فالفرد وحده لا يستطيع أن يصل الى الحقيقة المرجوة دون أن تسانده جهود المخلصين فى خدمة قضية العلم ، وهنا يستطيع الفرد أن يشعر بانه أسهم فى بناء العلم بنصيب ما .

ووجه الصعوبة الآخر فى هذا الأمر الخطير يرجع الى أن المدنية الاسلامية التى اضاءت الطريق للعالم الغربى هى بعينها مدينة للغرب القديم ، وعلى الأخص لليونان ببعض الفضل ، فالباحث المدقق ينبغى ان يتجرد عن التعصب والهوى والنزعة العنصرية ، والا فكيف نعيب على كتاب الغرب تعصبهم لمدنيتهم ثم نقع نحن فى خطيئة التعصب لمدنيتنا ؟ !

لا أريد ، بل لا أستطيع وانا فى صدد هذه المقدمة أن اقدم لك اثر الحضارة الغربية القديمة على العالم الاسلامى ، فهذا ليس موضعه الآن ، ولا يحل لامرىء أن يقطع فيه برأى عاجل فى مقدمة الكتاب ، وقد يكون أثر اليونان على المدنية الاسلامية قويا وقد يكون ضعيفا هينا ، ولكن يكفى أن أذكر لك أن القول بوجود هذا الاثر لابد أن يصل الى ذهن الباحث قبل أن يزن حقيقته ، أن من يعلم أن كتاب المنطق المسمى « ايساغوجى » لفورفوريوس الصورى زعيم المدرسة اليونانية فى فترة ما ، وتلميذ أفلوطين — هذا الكتاب كان الى عهد قريب يتلى على طلاب المنطق فى جامعة الأزهر ، وان من لم يدرس ايساغوجى فى نظر أساتذة المنطق ليس من المناطقة فى شىء ، الا يثير مثل هذا فضول الباحث ليعرف أن كان للمدنية اليونانية فضل على الحضارة الاسلامية ؟

هل المدنية على هذه الأرض سلسلة متصلة يؤثر بعضها على بعض فلا تستطيع أن تميز السبب فيها من المسبب ، او بعبارة أدق ، هل المدنية وحدة لا تتجزأ فى الزمان أو المكان مثلها فى ذلك مثل وحدة الوجود التى يقول بها الصوفيون ؟ هل المدنية تجرى كما تجرى أنظمة الحكم فى دائرة مفرغة كما تخيلها فيلسوف اليونان الكبير ارسطاليس ؟ ! أم أن المدنية تدين الأرض بعينها فهى لا تزال مهدا لها ، ولقوم بعينهم فهم لا يزالون سادتها ؟ هذه هى المسائل المعقدة التى نحاول أن نجد لها حلا فى هذا البحث . وانا استعير فى هذا المقام عبارة وردت فى مقدمة كتاب آخر(٢) ربما القت ضوءا على حقيقة هذه المشكلة . قال المؤلف هناك شبه قوى بين المدنية والمرض المعدى ، فكلاهما ينتقل من مجتمع الى آخر بالمخالطة ، وكلما انتشر احدهما خطر

(١) Traité de Droit Romain, préface.

(٢) اوليرى فى كتاب « مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب » — ترجمة دكتور تمام حسان ص ١ ط لجنة البيان العربى ١٩٥٧ .

توا على بالنا سؤال عن المكان الذى اتى منه . كليهما سؤال لم يجب عنه وهو : أين يبدأ كل منهما ، وهل لانتشاره دائما مصدر وبداية واحدة او مصادر وبدايات يستقل كل منهما عن الآخر ؟

بيد أنى لا استطيع — ولا غيرى — أن أدعى بأن حضارة الاسلام عند ما تسلمها الغرب وقبس منها كانت تضارع الحضارة الحديثة التى نعيش فى كنفها اليوم ، على الأقل فى بعض جوانبها ، واذا استطاع أحد أن يبرز آراء المسلمين فى فلسفة مثلا ويضعها فى ظلال الفلسفة الحديثة ، فأن الآراء الاسلامية أن لم تزد فى أحكامها على فلسفة الغرب فأنها لاتنقص عنها قيمة ، فالفلسفة الاسلامية مزجت بين المعقول والمنقول ، وعاشت فى عصر كانت فيه علوم اللاهوت قد تخلصت من شوائبها ، وكذلك الحال بالنسبة لنظريات التربية ، فان هذه النظريات قد قبست كثيرا من مقررات القرآن والسنة ومشت فى ركاب متزن من المقاييس السماوية ، فما كان من المسلمين الا أن وفقوا بين الآراء المقدسة التى لا يعتريها الباطل وبين البيئة التى عاشت فيها هذه الاراء .

ولكن الحال يبدو مختلفا اذا تعرضنا للعلوم الطبيعية والرياضية كالهندسة والطب والكيمياء والفلك ، فمهما قيل فى تقدم المسلمين فى هذه العلوم ، فأن هذا القول يقصر عن اقامة التماثل بين العلوم الاسلامية القديمة وبين العلوم الحديثة ، والقول بغير ذلك يعتبر من قبيل المبالغة . ومع ذلك فأننا لا نستطيع أن نقلل من قيمة المجهود الرائع الذى قام به المسلمون فى سبيل الأخذ بيد العلوم البدائية التى تركتها الحضارات السابقة عليهم ، ذلك بأن الكفاح من أجل العلم لا يبلغ غايته أبدا ، أنه سباق نحو اللانهائية ، فاذا ظننا أننا قد بلغنا الغاية فلانكون الا آلهة .

والعلماء وهم يدفعون العلم أمامهم كالكرة يستطيعون أن يقيسوا المسافة بينها وبين نقطة البدء ، ولكنهم يعجزون عن أدراك ما بقى على الهدف من مسافة ، وفى عصرنا الحالى تبهر أعيننا اضواء الكهرباء ، وتطرب آذاننا نغمات يحملها الأثير من أقصى الارض وتحمل أجسامنا طائرات تفر كالبرق ونعتبر ذلك تقدما وارتقاء لا ينبغى أن نقيس عليه حياة قديمة كحياة القرون الوسطى بل أن الواحد فينا عندما يريد أن يسفه عقل أخيه يتهمه بأنه من رواسب القرن التاسع عشر ، وكأن القرن العشرين هو الغاية التى بلغت الحضارة عنده منتهاها ، ولكن هذه النظرة ليست نظرة منصف ، او على الاقل ليست هى نظرة العالم الحكيم . أترى أن حضارة القرن العشرين ما كانت لتصل الينا الا بجهود علماء القرن التاسع عشر ؟ ! وكما أن السقف وهو أعلى جزء فى البناء لا يمكن أن يقوم الا على دعامات أصلها ثابت ، فكذلك العلم وكذلك الحضارة .

وكما أن القرون الوسطى كانت مظلمة فى أوروبا بالقياس اليها فى القرن العشرين ، فان القرن الحالى لن يبدو بعد انقضائه خيرا من العصور الوسطى اذا قيس بما قد تناله المدنية من تقدم فى المستقبل القريب أو البعيد .

ونحن اذا نظرنا الى الحضارة من زاوية أخرى من حيث أن غايتها هى اسعاد الانسان ، فقد لانجد أننا تقدمنا فى هذا المضمار كثيرا ، وأخشى الا يصدقنى بعض الناس اذا قلت أننا فى كثير من الميادين أصبنا تأخرا ملحوظا ، فالمدنية الحديثة نشرت طائفة من الأمراض الجسمية سميت بأمراض المدنية ، فقد زادت اصابات السرطان وضغط الدم وتصلب الشرايين والجلطة والذبحة الصدرية فى العصر الحديث ، فهل وجدنا علاجا ناجحا لهذه الأمراض على النحو الذى يرجوه المرضى ؟ وربما نصاب بالعقم نتيجة انتشار الغبار الذرى ، وبأمراض أخرى لا نعلم مداها ، فهل هذه هى الطريق التى تؤدى الى اسعاد البشر ؟ وقد تصاب الانسانية بما هو أدهى وأمر فتفنى نتيجة الصراع الذرى الذى اتخذ سبيله حتى اليوم للابادة الجماعية كما حدث فى هيروشيما ونجازاكى .

والمدنية الحديثة نشرت طائفة أخرى من الأمراض السياسية والاجتماعية أقلها انتشار المذهب المكيافيلى فى السياسة ، وهى لا تزال ترى أمرا مشروعا أن تسترق جماعة جماعة أخرى ، حتى بعد الغاء الرق الفردى ، وما التفرقة العنصرية الموجودة فى الدول التى تزعم أنها بلغت غاية الغايات من الديمقراطية الا نوعا خطيرا من الجراثيم الاجتماعية التى تعيش على عفن المدنية الحاضرة ؟

ونحن اذا قسنا مدنية الاسلام فى عصوره المزهرة حيث كانت تسود المساواة والحرية والعدل ، بهذه المدنية الزائفة التى نعيش فيها على الوهم والترقيع واضطراب النفوس لم نتردد فى الحكم بأن مدنية الاسلام كانت خيرا وأبقى . فالمدنية الاسلامية قدمت للعالم مبادىء خلقية ومثلا عليا ، ولكن العالم الحديث اطرحها

ظهريا ، ثم هي قـدمت للعالم وسائل اخرى اسهاما منها في تقدم العـلوم التطبيقيه كالطب والهندسة والفلك فأفاد منها ، ولم تكن لتستطيع ان تسهم بأكثر من القدر الذى قدمته في عهد كانت الظلمات تحول دون تقدم العلوم ، واذن فهى لاتلام على أن ما قدمت من العلوم لم يبلغ درجة الكمال ، فليس يطلب من فرد بعينه ولا أمة بعينها أن تبلغ منتهى الطريق العلمى ، وقد قلت انه طريق طويل ينتهى بنا الى غير نهاية فاذا أمكن لأمة أن تدفع الكرة الى الامام خطوة أو خطوات بعيدة عن نقطة البدء فهى قد شاركت في الحضارة واجزت مستوجبة الشكر والتقدير . ويقاس جهد كل أمة بالمسافة التى قطعتها الكرة من النقطة التى كانت عندها الى النقطة التى وصلت اليها ، أما ما بقى من المسافة فينبغى عدم الاعتداد به ، اذ لا يمكن أن يقاس أبدا .

على هذه الأسس قامت قصـة الحضـارة البشرية ، قامت كالكرة في أيدى اللاعبين يقذفها هذا ويتلقاها ذاك ، وكل فريق حريص على أن تبقى له ، فهم يتنافسون عليها كالخصـوم المختلفين ، ولكنهم يجمعون على شيء واحد ، أن تبقى الكرة داخل الملعب ، وأن تبقى سليمة .

وقد كانت الحضارة في أيدى الكلدانيين مرة ، والآشوريين مرة ، والفينيقيين والمصريين واليونان والمسلمين ، ثم استقرت الآن عند من يسمون بالامم الغربية ، ولا ندرى في أى يد تكون غدا وبعد غد .

وعندما تستقر الحضـارة في أمة من الامم لا يكفى أن يقوم على رعايتها علماء وهبوا أنفسهم للبحث والدرس ، بل لابد أن يكون الى جانب هؤلاء العلماء المخلصين جنود ومال وعتاد ، فأولئك من وسائل تقدم المدنية ، قل أن الحياة العلمية لا تزدهر الا في دولة قوية من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية . فالحضارة الاسلامية مثلا ازدهرت في عهد هارون الرشيد وخلفائه لما كانت امبراطوريتهم لا تغيب عنها الشمس ، ثم أفلت شموس هذه المدنية لما تقطعت أوصال الدولة الاسلامية . والامر كذلك بالنسبة للمصريين القدمـاء واليونان وكافة الشعوب .

ومع ذلك فالمـال والعتـاد والقوة وحدها لا تستطيع أن تخلق المدنية ، ما دامت الشعوب التى تتسلح بهـذه الامكانيات لم تؤت العقلية

الجديرة بالبحث العلمى ، ونحن نشاهد ذلك في أمة الرومان ، كانت تغزو الأرض وترعب أهلها ورغم ذلك عاشت هذه الدولة عالة على مدنية الاغريق ، حتى القـانون الرومانى الذى تسود نظمه الآن نصف العالم لم تتهذب أصوله الا بعد أن أخذ يقتـرب من القانون الطبيعى وقواعد العدالة ، وهى صنع الاغريق .

والاتراك الذين غزوا العالم شرقيه وغربيه لم يضيفوا الى كتاب الحضارة فصلا جديدا باسم الحضارة التركية ، بـل نستطيع أن نقول أنهم فعلوا بالمدنية الاسلامية شرا ، فهم أول من بث الفوضى في مدينة بغداد وأفسدوا الحياة فيها . قال المسعودى (١) « كانت الاتراك تؤذى العوام بمدينة السـلام يجريها بالخيـول في الاسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك فكان أهل بغداد ربمـا ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير فعزم المعتصم على النقمة منهم .. فانتهى الى موضع سـامرا فأحضر الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الامصار ونقل اليها من سائر البقاع أنواع الغروس والاشجار فجعل للاتراك مواضع متميزة وجاورهم بالفراعنة والأشروسنية .

وهم الذين حكموا العالم الاسلامى والنصرانى اكثر من أربعة قرون ، فأخروا المسلمين وأساءوا الى سمعة الاسلام ، الأمر الذى استدعى كاتبا غربيا منصفا ، هوجوستاف لوبون ، أن يدفع عن الاسلام مفاسد التراث ، قال(٢) « ونشـأ عن سيادة الترك الطويلة ونظامهم السياسى انحطاط في أخلاق الشرقيين الذين خضعوا لحكمها ، اذ كانت مكارم الأخلاق تتبخر ويعم الفساد في بلاد كتركية ، حيث يـكون دين ولى الامر وعماله اهواءهم ، وحيث يكون كل انسان عرضة لمظالم هؤلاء الطامعين في انتهاب ما في أيدى الناس ليفتنوا ، وحيث يقنط الناس من العدل فلاينالون شيئا الا بالرشوة ، فانك ترى أخلاق الشرقيين الخاضعين لسلطان الترك قـد انحطت بحكم الضرورة ، ولكن القرآن برىء من هذا الانحطاط

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٢ .
(٢) حضارة العرب ص ٤٣١ (ترجمة عادل زعيتر) .

براءة الانجيل من انحطاط النصارى الخاضعين لمثل ذلك السلطان » .

وانحطاط الحالة السياسية فى أمة تزدهر علومها لا يستتبع فورا زوال المدنية من أرضها ، فسوء الحالة السياسية يحفز العلماء الأحرار على الاحتماء بالعلم فى فترة القلق فيطول عمره ، ولكنه لا يلبث أن تدركه الشيخوخة .

وليس معنى غروب شمس العلم فى أمة أن العلوم قد انتهى أمرها وصارت الى الزوال ، وانما معناه أن التقدم العلمى قد وقف عند درجه معينة ، وأن هذا العلم لابد أن يهاجر الى بيئة أصلح ، ليلقى حمايته فى هذه البيئة .

« أن الحضارة لا تموت ولكنها تهاجر من بلد الى بلد ، فهى تغير مسكنها وملبسها ، ولكنها تظل حية ، وموت احدى الحضارات ، كموت احد الأفراد ، يفسح المكان لنشأة حضارة اخرى . فالحياة تخلع غشاءها القديم وتفاجىء الموت بشباب غض جديد غير أن الهجرة قد تتأخر زمانا طويلا تختبىء خلالها كنوز العلم فى بيئته الأولى وتبقى كذلك حتى يهيىء الله لها قوما آخرين . وعندما فتح الله على العرب واتجه نشاطهم الى الاخذ بيد العلوم اليونانية لم يأخذوا هذه العلوم من موطنها الاول أثينا ، ذلك بأن المدنية اليونانية فى كثير من جوانبها المتحركة كانت قد هاجرت الى حران وجند يسابور والاسكندرية منذ زمن بعيد . ومن يدرى فلعل الهرم الثانى الذى لم تفتح كنوزه بعد يستطيع أن يهدينا الى أسرار أكبر للمدنية الهيروغليفية فى يوم ما ، لأن هذه الاسرار لم يقدر لها أن تهاجر من هذا البناء الضخم المغلق منذ آلاف السنين . والأرض فى عهدها القديم والحديث لم تخل يوما ما من مدنية مزهرة ، غير أن مراكز المدنية متنقلة لا يقر قرارها فى بلد حتى تهاجر الى بلد آخر(1) .

لقد تقدمنا الآن فى كثير من العلوم ، وعرفنا الوانا من المدنية لم يعرفها القدماء كالراديو والتلفزيون والقطار والطائرة وفلقنا الذرة وما الى ذلك ، ولكن القدماء لا يزالون يتيهون علينا ببعض أسرارهم التى تبين عن مدنية كانت عتيدة ، فالأهرام تشهد للفراعنة بالتفوق فى الهندسة ، والتحنيط يشهد لهم بسبق طيب فى علوم الكيمياء والتشريح وكذلك الامر بالنسبة لتلك الأصباغ المثبتة على الجدران منذ آلاف السنين ولا تزال تزهو ببريق صناع مصر القديمة . وعلم السحر الذى كانت تغص به أرجاء المدن المصرية فى عهد موسى عليه السلام ، وصرح سليمان وجنوده من الجن والطير ، والمعجزات التى يعالجها فقراء الهند من آلاف السنين ولا تزال ، أليس كل أولئك شهودا على أن المدنيات القديمة كانت تعرف الوانا من العلوم عجزنا نحن عن أن نصل اليها فى عصرنا الحاضر ؟

ومهما يكن من شىء فاننا الآن نبحث فى المدنية الغربية وأصولها ، فالكرة الان فى أيديهم وهم سادتها ولابد أن يدركوا عن يقين أن هذه الكرة التى يدعون أنها للاغريق والرومان كانت فى أيدينا نحن المسلمين فترة ما تسلمناها ممن قبلنا ضعيفة هيئة القوى فحفظناها ورعيناها ونفخنا فيها من روح الاسلام فاشتدت وصلحت للاعبين .. وعمل الأمة الاسلامية فى هذه الامانة لايخرج عن النطاق الذى رسمه سافينى لعمل الفرد حيث يقول ، أن عمل الفرد زائل كزوال الفرد نفسه فى مظهره المادى ، وانما الذى لا يعتريه الزوال هو الفكر ، والفكر حين ينتقل من جيل الى جيل يجمع تحت لوائه خدام العلم فى شكل اتحاد عظيم حيث يجد نصيب الفرد فيه ، مهما كان ضئيلا ، مكانه الى الخلود !

وبعد، فالكتاب الذى بين يديك يطوف بك فى مدار المدنية الاسلامية منذ كانت طفلا وليدا الى أن أصبحت فتية يافعة تشع أضواؤها على العالم ، ويبين لك كيف ولدت هذه الحضارة وكيف تطورت الى أن بلغت مالم تبلغه حضارة أخرى فى العصر الوسيط ، وكيف كانت سببا فى انبثاق الحضارة الغربية الحاضرة .

وربما تجد كل مافى هذا الكتاب من وقائع تاريخية فى كتب أخرى وربما تجد كثيرا من الأفكار التى دونتها نتاجا لجماعة من أولى الفضل على العلم ، ولكن المنهاج الذى أفرغت فيه كتابى هذا جدير بأن يكون ذا طابع فريد ، على الأقل بالنسبة لموضوع الحضارة الاسلامية ، فلقد وجد تاريخ الادب العربى من يعنى به عناية علمية حقيقية يتمثل بعضها فى كتب المرحوم الاستاذ احمد أمين . ولكن تاريخ الحضارة عامة لا يزال ميدانا بكرا الى اليوم . نعم لقد ألفت كتب شرقية وغربية جمعت معلومات عن الحضارة غزيرة

(1) قصة الحضارة — ول ديورانت ترجمة محمد بدران — مجلد ٢ ج ٣ ص ٢١١ .

ولكنها لم ترتب ترتيبا منطقيا يبدأ بالمقدمات وينتهى بالنتائج ، فهى اذن لاتفى بالغرض ، وأنا اكتفى بأن أورد لك جزءا من مقدمة الاستاذ محمد فؤاد كوبريلى التى قدم بها لترجمة كتاب فاسيلى فلاديمرويج بارتولد المستشرق الروسى « تاريخ الحضارة الاسلامية » الى اللغة التركية(١) ، قال : —

وينبغى الا يستغرق اذا قلنا أن أحدث الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع المنشورة فى بلادنا (تركيا) وأعظمها لا تسد هذه الحاجة ، فكتاب « التمدن الاسلامى لجرجى زيدان ، المرتب على خمسة أجزاء والمترجم الى التركية ترجمة حسنة ، وتاريخ الاسلام للسيد امير على الهندى المرتب على جزءين ، يمكن أن يزودا قراءهما بمعلومات كثيرة مشتتة غير منسجمة ، ولكن لا يمكن ان نعرف من هذين التاريخين مكانة الحضارة الاسلامية الحقيقية فى تاريخ العالم ، المنبعثة فى مئات الصفحات لأنهما ينقلبان أحيانا الى تاريخ قصصى وأحيانا الى مدائح » ....

« وينبغى أن نعذر فى هذا قارئا غير متخصص لا يعنيه غير اتمام ثقافته العامة ، ولكن لا شك أن هناك فرقا بين الكتب المؤلفة لاقناع المتخصصين المتبحرين والعلماء فى ساحة من ساحات العلم وبين الكتب المؤلفة لسد حاجة الطبقة المثقفة العامة » (٢) .

القاهرة فى
سنة ١٣٩٣ الهجرية
سنة ١٩٧٤ الميلادية

د. محمد مختار القاضى

---

(١) ترجم الكتاب مع مقدمته الى العربية حمزة طاهر .
(٢) ص ١٦ — ١٩ من الترجمة العربية .

باب تمهيدى

التعريف بالمدنية الاسلامية

معنى المدنية

جاء فى الصحاح : مدن بالمكان اى أقام به ، ومدن المدائن كمصر الأمصار . ومن اللفظ اشتق اسم المدينة ، وجمعها مدائن ومدن . ومن المدينة اشتق لفظ المدنيــة ، وهى حال الاستقرار فى المدينــة وما يتبع هذه الحــال من رقى مادى ومعنوى .

ويرادف لفظ المدينة لفظ الحاضرة وهى المدن والقرى والريف ، ومنه اشتق لفظ الحضــارة (بكسر الحــاء) وهى الاقامة فى المدن ، وقال الأصمعى وهو يفتح الحاء ، وهى خلاف البادية . ومن البادية اشتق لفظ البداوة (بكسر الباء) . قال ثعلب : لا أعرف الفتح (فتح الباء) الا عن أبى زيد وحده . والبداوة الاقامة فى البادية .

وفى الحــديث : من بدا جفا ، أى من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب . وعلى كل حال فالحضارة بالكسر وبالفتح تقابل البداوة ، بالكسر وبالفتح أيضا .

قال الشاعر :

حسن الحضــارة مجلوب بتطــرية
وفى البــداوة حسن غــير مجلوب

والمدنية والحضــارة لفظان لمعنى واحــد ، لا يختلفان فى مدلولهما اللغــوى ولا الاصطلاح العرفى .

ويطلق لفظ البداوة على الذين يعيشون فى الصحراء من العرب الرحل ممن يسكنون الخيام ويرعون الغنم . ويمكن أن يقاس عليهم اهل الريف ممن يزرعون الأرض ، فحظهم من المدنية قليل بالقياس الى اهل المدن والحضر .

والفــارق الحسى والعقلى الذى يلمسه من طوف بين الحضر والبدو وبين المدينة والقرية هو الذى يمكن أن يعطينا صورة واضحة عن معنى المدنية او الحضارة ، فالناس فى المدينة قوم أوتوا حظا من الحياة المــادية غير قليل ، فهم يسكنون القصور ويأخــذون بوسائل الراحة والترف ، ويتفننون فى الطعــام والشراب والملبس ، فلا يقتصرون على لون واحــد منه ، بل أن اللون الواحــد من الطعام والشراب واللباس ليصير مختلف الألوان عندما تمتد اليه يد الفن والتنميق ، هذا من الناحية المــادية ، أما من الناحية العقلية فحظ أهل المدن أوفر من حظ غيرهم ، ويدهم أعلى من يد غيرهم من البدو وأهل الريف . فمجالس العلم والمحــاضرات والمناظرات والعلوم والفنون لا تعيش الا فى المدن ، وهى فى ذلك أثر من آثار الحياة المدنية ، فالناس فى المدينة اكبر عــددا وأعظم ثروة ، وهم بذلك أقدر على الأخذ بيــد العلوم والفنون من سكان البادية والريف .

وفى ذلك يقول ابن خلدون تحت عنوان — فصل فى أن العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة — « والسبب فى ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع ، وقد كنــا قدمنا أن الصنائع انما تكثر فى الأمصار ، وعلى نسبة عمرانها فى الكثرة والقلة والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع فى الجودة والكثرة ، لأنه امر زائد على المعاش ، فمتى فضلت اعمال اهل العمران عن معاشهم انصرفت الى مــا وراء المعاش من التصرف فى خاصية الانسان ، وهى العلوم والصنائع،ومن تشوف بفطرته الى العلم ممن نشأ فى القرى والأمصار غير المتمدينة فلا يجــد فيها التعليم الذى هو صناعى لفقــدان الصنائع فى أهل البدو كما قدمنا ، ولا بد له من الرحلة فى طلبه الى الأمصار المستبحرة ، شأن الصنائع كلها . واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لمــا كثــر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة ، كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا فى اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والفنون

حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين . ولما تناقص عمرانها وانذعر سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام . ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جملتها تعليم العلم » (١) .

بيد أن العلوم والفنون اذا كانت اثرا من آثار المدينة فهى مؤثرة فيها ، فالمدنيون لا يسهمون فى تقدم العلوم والفنون لذاتها ، بل لأنها وسائل يستخدمونها فى سبيل البحث عن غنم مادى أو متعة عقلية ، فهى تخدم اهل المدن بدورها وتعينهم على الكسب والعيش الرغد ، كما خدمها أهل المدن واعانوها بدورهم على الظهور والنمو والنضوج .

وبالقياس الى أهل المدن نجد البدو واهل القرى يعيشون على الفطرة ، يحلبون الابل والشاة ويردون الكلا أو يزرعون الأرض على ماء المطر ليأكلوا وتأكل أنعامهم ، ويتخذون من الحطب وصوف الغنم ووبر الابل بيوتا لهم ولباسا . ومن الحطب وقودا ودفئا . فحياة البدو على الفطرة بعيدة عن عوامل العلوم والفنون ومؤثراتها ، فلا تؤثر فيها ولا تتأثر بها كما هى الحال فى المدينة .

ومن هذه الصورة الموجزة التى أجملناها للمدينة والحضر ، والبدو والريف يمكننا أن نتمثل معنى المدنية أو الحضارة ، وهى عندى كافة الأسباب والمظاهر التى تنقل الجماعة من الحياة الفطرية الى مستوى تتوافر فيه أسباب الراحة الحسية أو التقدم العقلى للانسان .

ونحن اذا استعرضنا مظاهر المدنية الحديثة لا نجدها تخرج عن هذا النطاق ، فالقطار والطائرة والتليفون والتلغراف يسرت للناس وسائل الاتصال بعضهم ببعض ، والراديو والتلفزيون وآلات الطباعة والموسيقى جلبت المتعة العقلية للأجيال الحديثة ، وما يقال عن هذا وذاك يقال عن كافة المخترعات الكهربائية والحرارية والكيميائية . فالطبيعة البشرية لا تقف عند العلوم النظرية ولا تبحث فيها دائما لذاتها ، بل لانها وسائل الى جلب منفعة أو دفع مضرة . وما العلوم الا أداة للفنون التطبيقية فى الطب الهندسة والحروب والزراعة والصناعة وما اليها مما يحتاج اليه الناس .

وما قيل عن العلوم والفنون يمكن قوله عن أخلاق المجتمع ، فقواعد الأخلاق فى العالم المتمدن سواء أكان مصدرها الدين أم كانت من وضع البشر ، هذه القواعد لم توضع لذاتها ، وانما وضعت كوسيلة لحياة فاضلة ، شأنها شأن المخترعات الكهربائية وآلات الصناعة ، فالكذب والنفاق والاعتداء على الحقوق الخاصة والعامة أمور تأباها الأخلاق لأنها تورث الناس آلاما وقلقا ومتاعب فى حياتهم وتنغص عليهم عيشهم .

نطاق المدنية الاسلامية :

بعد أن استعرضنا معنى المدنية والحضارة بقى علينا أن نستعرض معنى المدنية الاسلامية ونطاقها . أما معناها فهو لا يخرج عما أسلفنا ، اقصد المظاهر المادية والعقلية فى الحياة الاسلامية وما أسهمت به فى الأخذ بيد المجتمع التائه المريض من الظلمات الى النور ، ومن المستوى السيء الذى كان يعيش فيه الناس قبيل ظهور الاسلام الى مستوى أوفر منه حظا وأعلى مرتبة ، سواء من الناحية المادية أو الناحية العقلية أما نطاق الحضارة الاسلامية فانه لا يقتصر على العرب ، وانما يمتد الى كافة المسلمين فى الأقطار التى انتشر فيها الاسلام ، وأصبح للمسلمين فيها طابع خاص فى حياتهم الحسية والمعنوية ، فنحن الآن لا نبحث فى حضارة العرب وآثارها ، وذلك لسببين : الأول أن العرب كجنس لم تكن لهم حضارة قبل الاسلام ، بل كانوا يدعون بعرب الجاهلية ، وكانت حياتهم قائمة على رعى الابل والماشية ، يطعمون منها ويشربون ويلبسون ، وفى مدنهم يتجرون بما زاد عن حاجتهم فيها ، هذا من الناحية المادية ،

أما من الناحية العقلية فكان نصيبهم أسوأ . يئدون البنات ويطلقون ظهارا ويعبدون الأصنام ويقضون معظم حياتهم فى الكر والفر وشرب الخمر وفى الأنصاب والأزلام ، أما أنهم أصبحوا أمة ذات حضارة فالفضل لا يرجع كله الى أصلهم العربى ، وانما يرجع الى تعاليم الاسلام ، فهو الذى أمر بالعلم وتشجيع العلماء فأخرج العرب

---

(١) المقدمة ج ٣ ص ٩٩٠ ، ٩٩١ ط . لجنة البيان العربى ١٩٦٠ .

وغيرهم من الجاهلية ، وهو الذى أرسى قواعد الاخلاق على أساس متين .

وبالاسلام صار العرب أمة ذات حضارة اسلامية لا عربية . واذا وجد من يخلط بين الحضارة الاسلامية والحضارة العربية فانما يفعل ذلك من قبيل التجوز ، لأن العرب انفسهم قد عمروا البلاد التى فتحوها فصارت بعد ذلك تدعى بلادا عربية ، ولأن اللغة العربية سادت معظم البلاد الاسلامية فسميت هذه البلاد بالبلاد العربية ، لان الاسلام عندما بشر به بشر به فى جزيرة العرب ، وأخيرا انه كما قال Hammer Purgstall قد بدأ تاريخ العرب بمولد الاسلام(١) ، فالعرب كانوا مجهولين كأمة بين الأمم ولم يرتفع شأنهم ولا اتسع ذكرهم الا بابتداء الاسلام .

وأما السبب الثانى الذى من أجله لا ينبغى ان نقصر البحث فى حضارة المسلمين على حضارة العرب ، حتى ولو كانت لهم حضارة قبل الاسلام، فذلك لأن هناك من العناصر غير العربية من أسهم بنصيب ضخم فى تقديم العلوم والفنون ، بل لا أكون مغاليا لو قلت أن من أسهموا من الموالى فى الحياة الاسلامية الجديدة كانوا اكبر عددا واغزر انتاجا من العرب أنفسهم .

ونحن لا ينبغى أن ننتيه بقوميتنا العربية بين الأمم لمجرد أننا من جنس عربى ، بل لأن لغتنا هى اللغة التى أنزل بها كتاب الله الكريم الذى هو هادى المسلمين ودستورهم ، ولأن ديننا هو الاسلام الذى انبثق منه فجر المدنية على الشرق فأضاء العالم الغربى فى عهد الظلم والظلمات ، ونحن لا نفخر الا بالاسلام ولا نفخر بكوننا من العرب الا لأن اللفظين فى العرف الدارج والأغلب الأعم لفظان مرادفان أو يكادان .

وفى هذا المعنى يقول أوليرى(٢) « ويجب أن يؤخذ اصطلاح » عرب « بمعناه العام ، فهو لا يستعمل ليدل على الذين يجرى فى عروقهم الدم العربى ، وانما يشمل كل هؤلاء الذين كانوا من الناحية السياسية تحت الحكم العربى وتكلموا اللغة العربية واعتنقوا دين العرب . لقد كان بعضهم كالفرس فى حكم العباسيين الأوائل فى القرن الثامن الميلادى ضد العرب بكل تأكيد ، ولكنهم عاشوا تحت راية العرب وكتبوا باللغة العربية واظهروا على الاقل اعتناقهم لدين محمد (صلى الله عليه وسلم) . فلما كانت الحال كذلك شاركوا حكامهم العرب فى الحياة العامة التى اصطبغ بها الأدب والتعليم والمصالح بصفة عامة . وحتى لو أن الأدب الفارسى والديانة الفارسية انشعبا فى اتجاه خاص ، فانهما بدآ فى نقطة بداية عربية . ولا تجرى الثقافة ولا اللغة على طريقة مطابقة لما تجرى عليه الروح الشعبية ، فالفتح والمدنية المتفوقة والعادات الاقتصادية غالبا ما دعت المجتمعات الى اتخاذ لغة جديدة وثقافة جديدة ، ومع هذا كان للمجتمع الذى ضمه حكم الخلافة اعتبار يبرر اعتباره وحده » .

ويرى جوستاف لوبون أن الحضارة الاسلامية ان هى الا حضارة عربية وفى ذلك يقول « ان فضل الشرق فى تأثيره فى الغرب يعود الى العرب وحدهم ، وأما الشعوب المتأخرة التى حلت محل العرب ، وان اتفق لها شىء من التأثير السياسى أو الدينى لم يكن تأثيرها العلمى والأدبى والفلسفى فى غير درجة الصفر(٣) » .

ويقول فى موضع آخر :

« انه كان للحضارة الاسلامية تأثير عظيم فى العالم ، وأن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم ، فلا يشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التى اعتنقت دينهم » (٤) .

ونحن لا نشارك الأستاذ لوبون هذا الرأى ، أما عن الشعوب غير العربية التى حلت محل العرب بعد تضاؤل سلطانهم السياسى كالترك والشركس ، كانت متأخرة ، فهذا صحيح ، ولكن سببه يرجع الى أن هذه العناصر الأجنبية بالذات كانت لا تملك من المقومات العقلية ومن أسباب العلم ما يؤهلهم له ، ذلك بأنهم شعوب ركبت طبيعتها لغير العلم ، لا فى الزمن القديم ولا فى الحديث ففى العصور الوسطى لا نجد عالما فذا

---

(١) انظر خودا بخش المؤرخ الهندى فى « الحضارة الاسلامية » ص ١٤٧ ، ترجمة على حسن الخربوطلى — ط الحلبى سنة ١٩٦٠ .

(٢) مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ص ٤ .

(٣) حضارة العرب ص ٧١ ٥.

(٤) حضارة العرب ص ٥٧٩ .

من الترك اذا استثنينا الفارابى الذى يقال انه كان من أصل تركى (كما يقال انه من اصل فارسى(١)) . وكذلك الأمر فى العصور الحديثة، فان تركيا وهى تعيش فى قلب أوربا المتمدنة ليس لها اى تفوق علمى ، وما يقال عن الترك يقال عن الشركس ولكن هذا لا يصدق بحال على أئمة المسلمين من الفرس الذين أسهموا فى بناء الحضارة الاسلامية بقسط غير منكور وكانت لهم حضارة شامخة البنيان قبل الاسلام بقرون عديدة .

وقد ثار هذا الموضوع بالنسبة لوصف الفلسفة أهى عربية أم اسلامية ، وكان ممن انتصر « للعربية » الدكتور جميل صليبا فى رسالته « بحث فى الفلسفة الالهية لابن سيناء » (٢) فقال :

« ان الذين يجحدون وجود فلسفة عربية يثبتون وجود فلسفة اسلامية ، بيد أن الاسلام برغم كل ما نفذ اليه من العناصر الأجنبية ظل أثرا من آثار العبقرية العربية . أما أن أكثر الفلاسفة من أصل عربى فلا نكران له ، لكن الذى لا نجد له مستساغا هو القول بأن الفلسفة التى يسميها العامة فلسفة اسلامية ليست تستند الى الجنس العربى ، نحن نتكلم عن فلسفة عربية كما نتكلم عن دين عربى » .

وتسوية الدكتور صليبا بين الفلسفة العربية والدين العربى محل نظر ، فنحن اذا استسغنا منه اصطلاح الفلسفة العربية ، فلا نستطيع بحال أن يقبل اصطلاح « الدين العربى » الا على وجه ضعيف جدا وهو أن الاسلام كما قلت بشر بـه فى جزيرة العرب ، ولكن الدين الاسلامى لم يوجد للعرب ، وحدهم ، ولذلك لم نسمع بهذا المصطلح .

نحن لا نؤرخ للعرب ولكننا نؤرخ للمسلمين ، والدين الاسلامى لم يوجد للعرب وانما وجد للناس كافة ، فهوان علينا أن نقول حضارة عربية وفلسفة عربية ، اذ أن هذا يخالف الكائن فعلا .

وروى الأستاذ كارلو نللينو أن اللفظين تعوزهما الدقة ، ومع ذلك فهو يفضل لفظ « عربى » وفقا لجارى العادة فى نظره ، كما يرى أن استعمال هذا اللفظ فى بداية الاسلام ، كان استعمالا حقيقيا ، أما استعماله بعد اتساع رقعه الاسلام فهو من قبيل التجوز لا الحقيقة .

قال فى احدى محاضراته عن علم الفلك وتاريخه عند العرب فى العصور الوسطى (٣)

« عندما يكون الكلام عن زمان الجاهلية او أوائل الاسلام ، لا شك ان كلمة العرب مستعملة بمعناها الحقيقى الطبيعى ، المشير الى الأمة القاطنة فى شبه الجزيرة المعروفة بجزيرة العرب ، ولكن اذا كان الكلام عن العصور التالية للقرن الأول من الهجرة ، اتخذنا ذلك اللفظ بمعنى اصطلاحى واطلقناه على جميع الأمم والشعوب الساكنين فى الممالك الاسلامية المستخدمين اللغة العربية فى أكثر تأليفهم العلمية ، فيدخل فى تسمية العرب الفرس والهند والترك والسوريون والمصريون والبربر والاندلسيون وهلم جرا ، المتشاركون فى لغة كتب العلم وفى كونهم تبعة الدول الاسلامية — ولو لم نطلق عليهم لفظ « العرب » كدنا نعجز عن أن نتحدث عن علم الهيئة عند (العرب) لقلة البارعين فيه من أولاد قحطان وعدنان .

قال ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٦ م فى مقدمته : من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الاسلامية اكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا فى القليل النادر ، وان كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى » .

« فان اعترض أحد على هذا الاصطلاح وقال : ان استعمال لفظ « المسلمين » أصح واصلح من استعمال لفظ « العرب » ، قلت ان هذا أيضا غير مصيب لسببين :

الأول ان لفظ المسلمين يخرج النصارى والاسرائيليين والصابئة وأصحاب الديانات الأخرى الذين لهم نصيب غير يسير فى العلوم

---

(١) قال به ابن أبى أصيبعة . انظر ترجمته فى هذا الكتاب .

Djemil Saliba : Etude sur la Métaphysique d'Avicenne. Paris, 1926.

(٢) مطبوعة باللغة الفرنسية ص ٢٤ و ٢٥ .

(٣) ج ١ ص ١٦ — ١٨ .

والتصانيف العربية ، وخصوصا فيمـــا يتعلق بالرياضيات والهيئة والطب والفلسفة .

« والثانى أن لفظ المسلمين يستلزم البحث أيضا عما صنفه أهل الاسلام بلغات غير العربية كالفارسية والتركية ، وهذا خارج عن موضوعنا، فالأرجح أن نتفق فيما كثر استعماله عن الكتبة الحديثين ونتخـــذ لفظ « العـــرب » ...... بالاصطلاح المذكور ، أى نسبة الى لغة الكتب لا الى الأمة » .

ومن السهل أن نرد على الشطر الأخير الذى يعترض فيه الأستاذ نللينو على لفظ « مسلمين ». فقوله ان هذا اللفظ يخرج النصارى و .... الذين لهم نصيب فى العلوم والتصنيفات العربية، هذا القول لا محل له ، لأن الأحكام تبنى على الغـــالب الأعم ، ولا داعى لاخراج هؤلاء من الوصف باعتبارهم ينتمون الى ديار الاسلام . وقد عـــد الشهرستانى(١) حنين بن اسحاق من بين « فلاسفة الاســـلام » مع ان حنين كان نصرانيـــا .

وأما قولـــه أن لفظ مسلمين يستلزم البحث أيضا عما صنفه أهل الاسلام بلغات غير العربية كالفارسية والتركية وهذا خارج عن بحثنا ، هذا القول فيه مصادرة على المطلوب ، فمن قال أن من الف من المسلمين بغير العربية يعتبر خارجا عن دائرة المعارف الاسلامية ؟ انما يقول ذلك من ربط بغير حق بين الدين الاسلامى واللغة العربية ، ونحن لا نسلم بضرورة هذا الرباط ونطالب من يدعيه بايراد الدليل عليه وربمـــا كانت هذه الصورة الخاطئة التى فرضها نللينو على نفسه من دواعى تفضيله لفظ « العرب » على لفظ « المسلمين » .

(١) الملل والنحل لابى الفتح الشهرستانى ج ٤ ص ١٨ طبعة صبيح .

الباب الأول

عصر التكوين للفكر الإسلامي

الفصل الأول
بداية التفكير الاسلامي

لم يكن العرب ذوى حضارة قبل الاسلام ، وانما كانت لهم بعض العلوم التى اضطرتهم اليها ضرورات الحياة الملحة ، وتفصيلا لذلك يقول القاضي صاعد بن أحمد[1] » وكان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجـوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها ، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك فى أسـباب المعيشة ، لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدريب فى العلوم ، ولأبى حنيفة الدينورى ، احمد بن داود اللغوى كتاب شريف فى الأنواء تضمن ما كان عند العرب من العلم بالسماء والأنواء ومهاب الرياح وتفصيل الأزمان وغير ذلك من هذا الفن ، فهذا ما كان عند العرب من المعرفة ، فلم يمنحهم الله عز وجل شيئا منه ولا هيأ طباعهم للعناية به » .

وكانت معرفتهم باللغـة على هذا النحو ، يعرفونها بالسمع والسليقة فقد كانوا أهل حفظ ورواية .

وعنـدما دان العرب للاسلام اتسـع أفق تفكيرهم ، وبدءوا يمارسـون علـوم الشريعـة الاسلامية ، ومنها علم الفقه . وكان الفقه فى أول أمره شاملا لكافة علوم الدين ، كما كان يتضمن كافة المسائل الفرعية الخاصة بالمعاملات والعبادات وغيرها[2] .

جاء فى كتاب أبجد العلوم لحسن صديق خان ، علم الفقه : قال فى كشاف اصطلاحات الفنون : علم الفقه ويسمى هو وعلم أصول الفقه بعـلم الدراية على ما فى مجمع السلوك وهو معرفة النفس ما لها وما عليها . وقوله ما لها وما عليها يمكن أن يراد به ما تنتفع النفس وما تتضرر به فى الآخرة . والمشعر بهذا شهرة أن علم الفقه من العلوم الدينية ويمكن أن يراد به ما يجوز لها وما يحرم عليها . ثم مالها وما عليها يتناول الاعتقادات كوجوب الايمان ونحوه ، والوجدانيات أى الأخلاقيـات الباطنة والملكات النفسانية ، والعمليات كالصوم والصـلاة والبيع ونحوه . فالأول علم الكلام والثانى علم الأخلاق والتصوف والثالث هو الفقه المصطلح . وذكر الغزالى أن الناس تصرفوا فى اسم الفقه فخصوه بعلم الفتاوى والوقوف على دلائلها وعللها ، واسم الفقه فى العصر الأول كان مطلقا على علم الآخرة وحقارة الدنيـا[3] .

ظل التفكير الاسلامى متجها فى جملته الى علم الفقه بمعناه الواسع العقيدة والشريعة ، وظل مصبوغا بصبغة عربية ، محصورا فى تفسير القرآن والحديث ، تفسـيرا لا يشذ عن دائرة الحياة العلمية ، فقد نهى القرآن عن كثرة الجدل فى مسائل العقيدة . ومع أن القائمين على علوم الدين كان أكثرهم من العجم ، الا أن هـذا لم يخرج الفقه الاسلامى عن صبغته العربية فقـد كانت اللغة العربية أساس تفسيرهم للنصوص المقدسة .

أما صبغة الأدب العربى فكانت عربية قبل الاسلام وظلت كذلك بعده ، وانما اتسع مجال الفكر والغوص عن المعانى الدقيقة بعد الاسلام لما دخل على حياة العرب من تطور فى مظاهرها ، اذ لم يعرف عرب الجاهلية ما عرفه المسلمون من حيـاة البذخ واللهو ، ومجالس الشراب والجوارى الحسان . وقد ظل الأدب كذلك حتى

---

(1) طبقات الامم ص ٧٠ .
(2) الرأى فى الفقه الاسلامى للمؤلف ص ٧ ط ١٩٤٩ .
(3) ج ٢ ص ٥٥٩ و ٥٦٠ .

بعد ان دخل الموالى حلبة الأدب من أمثال بشار ابن برد وابن الرومى وغيرهما،فقد حافظ الجميع على قواعد اللغة العربية وأصول العروض والقافيه . وما يقال عن الفقه والأدب ، يقال عن النحو والصرف وما اليهما .

بيد أن القرن الثانى الهجرى لم يكد يبدأ حتى طرأ على العلوم الاسلامية تطور أثر فى منحى التفكير عند المسلمين .

اما من حيث العلوم الفقهية فقد تناولها التطور من جانبين ، يتلخص أولهما فى أن الفقه بمعناه الشامل قد انشعبت منه مادة العقيدة التى تعنى بوحدانية الله وبالايمان به وبملائكته وكتبه ورسله وقدره واليوم الآخر ، وأصبحت تعرف هذه الشعبة بعلم الكلام ، وقد تبنت هذه الشعبة فرق جدلية كفرقة الشيعة والخوارج والمعتزلة والأشعرية والماتريدية وغيرهم ، واقتصر معنى الفقه على مسائل الفروع ، كالزواج والطلاق والعتق والمعاملات والحدود وغيرها .

قال الغزالى ، الفقه عبارة عن العلم والفهم فى أصل الوضع يقال فلان يفقه الخير والشر أى يعلمه ويفهمه . ولكن صار بعرف العلماء عبارة عن العلم بالأحكام الشرعية الثابتة لأفعال المكلفين خاصة حتى لا يطلق بحكم العادة على متكلم وفلسفى ونحوى ومحدث ومفسر بل يختص بالعلم بالأحكام الشرعية الثابتة للأفعال الانسانية كالوجوب والحظر والاباحة والندب والكراهة وكون العقد صحيحا وفاسدا باطلا ....(١) » (المستصفى ج ١ ص ٤) .

والظاهر أن الفقه بمعناه المصطلح السابق لم يعرف الا فى عهد الشافعى وتلاميذه . والشافعى هو واضع أصول الفقه . فقد جاء فى أبجد العلوم :

« قال أصحاب الشافعى : الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية » .

والمراد بالحكم النسبة التامة الخبرية التى العلم بها تصديق وبغيرها تصور فالفقه عبارة عن التصديق بالقضايا الشرعية المتعلقة بكيفية العمل تصديقا حاصلا من الأدلة التفصيلية التى نصت فى الشرع على تلك القضايا وهى الأدلة الأربعة : الكتاب والسنة والاجماع والقياس(٢) ..

وقوله عن الفقه أنه التصديق بالقضايا الشرعية المتعلقة بكيفية العمل يريد به العلم بالأحكام الشرعية العملية فيخرج منه الاعتقادات والوجدانيات وما الى ذلك .

واذا كان أصحاب الشافعى قد عرفوا ذلك المعنى المصطلح للفقه كما ذكره صاحب أبجد العلوم فاننا نستطيع أن نحكم بأن هذا المعنى المصطلح كان معروفا على الأقل من بداية القرن الثالث الهجرى وهذا ما نرجحه لأن عهد تميز العلوم نشأ مع النهضة الفكرية أيام الرشيد والمأمون وأصحاب الشافعى كانوا فى ذلك العهد .

لقد كان من أثر استقلال علم الكلام أن بدأ علماؤه يتخذون لهم طريقا مستقلا فى التفكير ، فقد تعلقوا بالفرق السياسية التى نشأت فى المجتمع الاسلامى بعد وفاة الرسول « صلى الله عليه وسلم » ، ومع أن هذه الفرق نشأت أول أمرها عربية خالصة الا أن العناصر الأجنبية قد داخلها فيما بعد سواء فى الأشخاص أو فى المبادىء .

وتفصيل ذلك أن المجتمع الاسلامى لم يعرف الاختلاف حتى وفاة الرسول « صلى الله عليه وسلم » ، فلما قضى الرسول بدأ الاختلاف يدب فى صفوف المسلمين وكان أن ظهرت فرقة الشيعة تنادى بعلى خليفة للمسلمين وتجعله أولى بالخلافة من أبى بكر وعمر — رضى الله عنهم — ومع أن هذه الفكرة كانت عربية خالصة ولها مبررات قوية أو ضعيفة ، الا أن العناصر الأجنبية التى أسهمت فيها فيما بعد مخلصة أو غير مخلصة ، نجحت فى ازالة الصبغة العربية الخالصة وصبغتها بمبادىء مستقاة من مذاهب الفرس ومن اليهودية والنصرانية ، وكلها ديانات كانت تغص بها البلاد الفرس . لقد تبنت الشيعة مبدأ تقديس الأئمة ، قال به عبد الله بن سبا اليهودى (٣) ليدلس بها فى عقائد المسلمين

---

(١) المستصفى ج ١٠ ص ٤ .
(٢) ج٢ ص ٥٥٩ و ٥٦٠ .
(٣) أنظر مقال « المذاهب السياسية فى الاسلام » للمؤلف

واتسعت لمذاهب تناسخ الأرواح ورجعتها ، وعنها نشأت خرافة المهدى المنتظر أما فرقة الخوارج فقد تولدت هي الأخرى عن فرقة الشيعة في صورتها الأولى فالخوارج هم الشيعة المتطرفون الذين لم يرضهم مبدأ التحكيم فخرجوا على امامهم ، لأن قبول على لمبدأ التحكيم معناه انه غير مؤمن بحقه في الامامة ثم صار الخوارج بعد ذلك فرقا متناثرة متنافرة مختصمة ، يجمعهم تكفير مرتكبي الذنوب لكي يثبتوا الكفر على على ومعاوية ممن قبلوا التحكيم(١) ، والخروج على الامام الجائر لكي يبرروا خروجهم على الخلافة الاسلامية . ورغم أن العناصر الأجنبية تكاد تنعدم في مذهب الخوارج الا أن هذا لا يمنع القول بانبثاق روح جديدة من التفكير على أيدى هؤلاء الخوارج(٢) .

ومن المذهب الخارجي انشعبت فرقة جديدة هي المعتزلة ، فعندما قام الحسن البصرى يقرر مبدأ الخوارج في تكفير مرتكب الكبيرة انبرى له واصل بن عطاء الغزال قائلا ، أنا لا أقول انه يؤمن باطلاق ولا كافر باطلاق ، ولكنه في منزلة بين المنزلتين ، فأمره الحسن بأن يعتزل المجلس ، أو كما قال اعتزل واصل مجلسنا ثم خرج واصل ومن خلفه عمرو بن عبيد بن باب الى اسطوانة اخرى من أساطين مسجد البصرة وانشأ لهما مذهبا جديدا سمى بمذهب المعتزلة . وقد داخل المذهب فيما بعد آراء في التحسين والتقبيح بالعقل ، والعدل ، وصفات الله ...(٣) .

لقد كانت نتيجة وجود هذه الفرق أن بدأ الطابع العربى الاسلامى لعلم التوحيد يحول شيئا فشيئا ويصطبغ بصبغة شرقية عامة أسهمت فيها المذاهب والديانات الشرقية ، ولكنه ظل بعيدا عن مؤثرات الغرب ، على الأقل حتى نهاية الدولة الأموية .

وسبب ذلك أن المسلمين لم يكونوا قد اتصلوا بعد بالفكر اليونانى . لقد كانت هنالك مدارس يونانية فعلا في بلاد فارس وفي الشام والاسكندرية ومع ذلك فان الاتصال الحقيقى بهذه المدارس لم يحدث الا في الدولة العباسية .

وأما الجانب الثانى من التطور في الفقه فيتلخص في أنه بعد انكماش معناه الى الواقعات التي هي الفروع ، فان قصور النصوص الشرعية عن متابعة هذه الواقعات أدى الى نشوء مدرسة الراى في العراق التى أصبحت تنافس مدرسة السنة في الحجاز .

لقد كان فقهاء الراى يأخذون بالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة الى حد كبير ، فتحرر الفكر الفقهى من التفسير الحرفى للنصوص ، وبدأ الفقهاء يبحثون عن حكمة النص وعلة الحكم فاتسع مجالهم في التفكير . وكان من نتيجة استعمال القياس أن نشأ الفقه الفرضى ، فالقياس بطبيعته يدفع الى تصور المسائل التى لم تقع في الذهن وذلك لايجاد حل لها كى يكون الفقيه مستعدا للاجابة عن كل ما يتصور وقوعه في المستقبل ، ولو كان هذا التصور بعيد الاحتمال .

وقد نشأت مدرسة الراى في أول عهدها على يد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فقد كان اماما للراى من غير ما تعرض للواقعات والفروض المقبلة ، ثم جاء من بعده جماعة من آل النخعى وحماد من أبى سليمان ، الى أن بلغ المذهب اشده على يد الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان .

قال الحجوى « كان الفقه في الزمن النبوى هو التصريح بحكم ما وقع بالفعل ، أما من بعده من الصحابة وكبار التابعين وصغارهم فكانوا يبينون حكم ما نزل بالفعل في زمنهم ويحفظون أحكام ما كان نزل في الزمن قبلهم . فنما الفقه وزادت فروعه نوعا أما أبو حنيفة فهو الذى تجرد لفرض المسائل وتقدير وقوعها وفرض أحكامها اما بالقياس على ما وقع وأما باندراجها في العموم مثلا فزاد الفقه نموا وعظمة وصار أعظم من ذى قبل بكثير . قالوا انه وضع ستين الف مسألة وقيل ثلاثمائة الف مسألة ، وقد تابع أبا حنيفة جل الفقهاء بعده ففرضوا المسائل وقدروا وقوعها ثم بينوا أحكامها(٤) » .

كان الاتجاه الى العمل بالراى بداية التفكير العقلى عند المسلمين ، وفي ذلك يقول الشيخ

---

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٤٥ وفيه أن هذا المبدأ لم يكن مجمعا عليه من كل الخوارج ، فالنجدات منهم لا يذهبون اليه .

(٢) أنظر البحث السابق الاشارة اليه للمؤلف وفيه قال عن « الخوارج والفقه الخارجى » .

(٣) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٠ ، ٦٨ ، ٨١ والتراث اليونانى في الحضارة الاسلامية لعبد الرحمن بدوى ص ١٧٣ وما بعدها والمواقف لعضد الدين الايجى ج ٨ ص ٣٧٧ و ٣٧٨ ، والملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٥٢ و ١٤٥ والفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٤ ص ١٣٢ والراى في الفقه الاسلامى للمؤلف ٨٦ — ٩١ .

(٤) الفكر السامى في تاريخ الفقه الاسلامى ج ٢ ص ١٢٧

مصطفى عبد الرازق(١) تحت عنوان « الاجتهاد بالرأى هو بداية النظر العقلى » ما يلى :

« هذا الاجتهاد بالرأى فى الأحكام الشرعية هو أول ما نبت من النظر العقلى عند المسلمين وقد نما وترعرع فى رعاية القرآن وبسبب من الدين ، ونشأت منه المذاهب الفقهية واينع فى جنباته علم فلسفى هو علم « أصول الفقه » .

ونبت فى تربته التصوف أيضا كما سنبينه ، وذلك من قبل أن تفعل الفلسفة اليونانية فعلها فى توجيه النظر عند المسلمين الى البحث فيما وراء الطبيعة والالهيات على انحاء خاصة » .

« والباحث فى تاريخ الفلسفة الاسلامية يجب عليه أولا أن يدرس الاجتهاد بالرأى منذ نشأته الساذجة الى أن صار فسقا من أساليب البحث العلمى له أصوله وقواعده . . » .

« يجب البدء بهذا البحث لانه بداية التفكير الفلسفى عند المسلمين ، والترتيب الطبيعى يقضى بتقديم السابق على اللاحق ، ولأن هذه الناحية أقل نواحى التفكير الاسلامى تأثرا بالعناصر الأجنبية ، فهى تمثل لنا هذا التفكير مخلصا بسيطا يكاد يكون مسيرا فى طريق النمو بقونه الذاتية وحدها . فيسهل بعد ذلك أن نتابع أطواره فى ثنايا التاريخ ، وان نتقصى فعله وانفعاله فيما اتصل به من أفكار الأمم » .

لم يصرف الاجتهاد بالرأى فى جميع أطوار التفكير الاسلامى الفقه عن طابعه العربى المستند الى طرق التفسير العربية ، وعن نطاق المعانى الدقيقة الواردة فى اللغة العربية ، فلم يلابسه قياس أرسطو ولا أصول القانون الرومانى ولا تدنس بالمزدكيه والزرادشنيه والمانوية ، بخلاف علم الكلام الذى استشرق فى خلافة دمشق واستغرب فى خلافة بغداد(٢) .

هذا هو مركز الفقه وقد انشعب شعبتين ، الفقه الأكبر ، أو علم الكلام والفقه العملى ، وهو علم الفروع ، خرج الأول عن أصوله العربية الى أصول شرقية فى عهده الأول وغربية فى عهده الأخير ، وظل الثانى عربيا بحتا الى يومنا هذا ، ومع ذلك فقد أسهم فى نهضة الفقه ، أكبره وأصغره جماعة من الموالى اخلصوا له عندما شعروا بأن ميدان السياسة قد أوصد من دونهم لصالح النصر العربى وقد جاءت فترة كان أئمة الفقه — ثم أئمة العلوم الأخرى من بعد — من بين مفكرى الموالى جاء فى العقد الفريد لابن عبد ربه :

« وقال ابن أبى ليلى ، قال لى عيسى بن موسى ، وكان ديانا شديد العصبية ، من كان فقيه البصرة ؟ قلت الحسن بن أبى الحسن قال ثم من ؟ قلت محمد بن سيرين . قال فما هما ؟ قلت موليان . قال فمن كان فقيه مكة ؟ قلت عطاء بن أبى رباح ومجاهد وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار ، قال فما هؤلاء ؟ قلت موالى . قال فمن فقهاء المدينة . قلت زيد بن أبى أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبى نجيح قال . فما هؤلاء ؟ قلت موالى ، فتغير لونه . قال من افقه أهل قباء ؟ قلت ربيعة الرأى وابن أبى الزناد . قال فما كانا ؟ قلت من الموالى ، فأربد وجهه ثم قال : فمن كان فقيه اليمن ؟ قلت طاوس وابنه وابن منبه . قال فما هؤلاء ؟ قلت من الموالى ، فانتفخت أوداجه وانتصب قاعدا : قال فمن كان فقيه خراسان ؟ قلت عطاء بن عبد الله الخراسانى ، قال فما كان عطاء ؟ قلت مولى فازداد وجهه تربدا واسودادا حتى خفته . ثم قال : فمن كان فقيه الشام ؟ قلت مكحول ، قال فما كان مكحول هذا ؟ قلت مولى ، قال فتنفس الصعداء ، ثم قال فمن كان فقيه الكوفة ؟ قال : فو الله لولا خوفه لقلت الحكم بن عتيبة وحماد بن أبى سليمان ، ولكن رأيت فيه الشر ، فقلت ابراهيم والشعبى ، قال فما كانا ؟ قلت عربيان ، قال الله أكبر وسكن جأشه(٣) .

على أن بابا آخر للتفكير الاسلامى قد فتح للمسلمين ، وأدى الى مزيد من الصقل لعقليتهم تمهيدا لقبولها الثقافات الأجنبية وهضمها ، وهذا الباب يشمل تدوين العلوم اللغوية وتبويبها تبويبا علميا ، فلقد أدى دخول الموالى فى الدولة الاسلامية واستقرار العرب فى المدن وبعدهم عن البادية الى كثرة اللحن فى اللغة ، الأمر الذى دعا الى وجوب تحرير النحو والصرف والشعر ، فأخذت علوم اللغة طابعا تنظيميا ووضعت لها القواعد والمقاييس والأوزان على يد الخليل بن احمد وأبى الأسود الدؤلى والأصمعى والمفضل الضبى وسيبويه والكسائى وأبى عبيدة عمرو بن المثنى والفراء(٤) .

---

(١) التمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ص ١٢٣ .

(٢) أنظر « الرأى فى الفقه الاسلامى » تحت عنوان« الاثر الاجنبى فى فقه الرأى » ص ١٥٦ وما بعدها .

(٣) ج ٢ ص ٢٦٢ المطبعة الازهرية .

(٤) من الغريب أن هؤلاء الثلاثة الاخيرين من أئمة اللغة كانوا من الموالى .

ولم يكن اللحن وحده هو الدافع الى تحرير اللغة العربية والأدب ووضع أصول لهما ، بل ان هنالك اسبابا أخرى دعت الى ذلك ، من بينها أن الاسلام جاء بطائفة من المصطلحات لم تكن شائعة الاستعمال من قبل ، كمؤمن ومسلم وصلاة وزكاة وركوع وسجود ، وكان لابد من تحرير معانى هذه الألفاظ لارتباطها بالفقه كما أن العلوم الحديثة التى ادخلها العرب الى ديار الاسلام عن طريق الترجمة كان ينبغى أن تدون لها مصطلحات جديدة ، وأسماء لم تعرف من قبل لمذاهب مستحدثة كالمعتزلة والمرجئة والقدرية ، والفاظ أجنبية كلفظ الديوان ...كان ذلك حافزا على شحذهم ائمة اللغة والأدب(١) .

ومع ان علم النحو كان من نتاج عربى خالص المادة ، فان الغربيين سمحوا لأنفسهم بأن يربطوه باليونان كما فعلوا بالفقه . وقد نقل الأستاذ احمد أمين بعض ما ورد فى محاضرات ليتمان فى هذا الشأن ونصه « اختلف العلماء الأوربيون فى اصل هذا العلم ، فمنهم ، من قال أنه نقل عن اليونان الى بلاد العرب ، وقال آخرون ليس كذلك ، وانما كما تنبت الشجرة فى أرضها ، كذلك نبت علم النحو عند العرب وهذا هو الذى ورد فى كتب العرب من زمن ، ونحن نذهب فى هذه المسألة مذهبا وسطا ونقول كما أثبته فى هذه السنة عالم اسمه ...Joseph Le Blanc وترجمته يوسف الأبيض ، وهو أنه أبدع العرب علم النحو فى الابتداء ، وأنه لا يوجد فى كتاب سيبويه الا ما اخترعه هو والذين تقدموه ، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان فى بلاد العراق تعلموا أيضا شيئا من النحو ، وهو النحو الذى كتبه ارسطاليس الفيلسوف ، وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة مختلف ، قال سيبويه « فالكلم اسم وفعل ، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، وهذا تقسيم أصلى ، أما الفلسفة فيقسم فيها الكلام الى اسم وكلمة ورباط ، أى الاسم هو الاسم والكلمة هي الفصل،كما يقال له فى اللغات الأوروبية (.Verb) ، والرباط هو الحرف كما يقال له فى اللغات الأوروبية (Conjunction) أى ارتباط وهذه الكلمات اسم وكلمة ورباط ، ترجمت من اليونانى الى السريانى ، ومن السريانى الى العربى ، فسميت هكذا فى كتب الفلسفة لا فى كتب النحو ، أما كلمات اسم وفعل وحرف فانها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت » .

وقد تكفل الأستاذ احمد امين بالرد على ذلك الرأى قال « والذى يظهر لى أن تأثير اليونان والسريان فى العصر الأول لوضع النحو كان تأثيرا ضعيفا ، وربما كان أكبر الأثر اثرا غير مباشر ، كاستخدام آلة القياس والتوسع بواسطتها فى وضع القواعد النحوية كما رأيت ، فلما نقلت الفلسفة اليونانية واشتغل بها المتكلمون أولا والفلاسفة ثانيا ، وعرفوا المنطق وما اليه ، تأثر النحو بذلك فى قواعده وعلله »(٢) .

على أن أفقا آخر جديدا قد اتسع للتفكير الاسلامى وخرج بمناهج التفكير عن النطاق المحلى الى نطاق الثقافات الأجنبية ، وقد بدأ ذلك الفتح فى الدولة الأموية وان لم يؤت ثماره كاملة الا فى الدولة العباسية ، فقد لفت الخليفة الأموى عمر ابن عبد العزيز نظر قومه الى تقدم العلوم الطبية فى مصر لما استقدم معه طبيبا اسكندرانيا هو ابن ابجر ليعالجه (٣) ، كما لفت يزيد بن معاوية أنظارهم أيضا الى تقدم علم الصنعة (الكيمياء) فى مصر أيضا ، وكان خالد بن يزيد قد أقصى عن الخلافة الأموية لصالح آل مروان ، فأحفظه ذلك ودفعه الى الرغبة فى تعويض ما ضاع عليه أو الى استغلال فراغه فى أمر قد يجلب له الشهرة عن طريق تحويل المعادن المختلفة الى ذهب خالص ، ولم يكن طريقه الى ذلك الا علم الصنعة ، فطلب الى اصطفن الاسكندرانى أن يترجم له فيها(٤) .

هذه هى بداية الاتصال العلمى بين المسلمين والعناصر الأجنبية التى ثقفت بثقافة الغرب (مدرسة الاسكندرية) ، ومع ذلك يجب أن نقرر هنا أن الصلة بين العرب والغرب كانت أقدم من ذلك ، فقد أثبت بروكلمان أن قطعا من الانجيل ترجمت الى العربية من قبل الاسلام(٥) ، كما أن ملوك غسان كانوا على صلة بمدينة القسطنطينية فقد زارها الحارث بن أبى شمر سنة ٥٦٣ م ، وتبعه امرؤ القيس(٦) .

---

(١) احمد امين فى المرجع السابق ج ٢٥٠ و ٢٥١ .
(٢) احمد امين فى المرجع السابق ص ٢٩٢ و ٢٩٣ .
(٣) عيون الانباء فى طبقات الاطباء لابن ابى اصبيعة .
(٤) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٧٥ و ٢٧٦ .
(٥) Gal. Suppl. T. I pp. 572 - 3.
(٦) جورجى زيدان « العرب قبل الاسلام » ص ٢١٧ ، وانظر الاغانى لابى الفرج ج ١٩ ص ٩٩ .

الفصل الثانى
أصل الحضارة الإسلامية

يخطىء الظن من يعتقد أن حضارة بعينها نشأت مستقلة عن غيرها من الحضارات السابقة عليها ، فالحضارات كما قال أوليرى كالمرض المعدى ينتقل من وسط الى وسط غيره فتؤثر فيه . وهذا ما حدث بالنسبة للحضارة الاسلامية فهى لم تنشأ مقطوعة الصلة بالعلوم والفنون القديمة التى سبقتها فى البلاد الشرقية والغربية كالفرس والهند واليونان . واذا صح هذا النظر بالنسبة لحضارة الاسلام وهى متأثرة بغيرها يصح أيضا بالنسبة لها وهى فى دور التأثير فى الحضارات الأخرى وخاصة فى حضارة كحضارة الغرب ، ولكن بعضا من المتعصبين يهملون الحضارة الاسلامية كعنصر فعال فى بناء الحضارة الغربية ، لأن حضارة الاسلام فى نظرهم غير متميزة بعناصرها ولا مستقلة بأصولها وانما هى مزيج من تعاليم الديانات الأخرى كاليهودية والنصرانية فى بعض الميادين ، وخليط من الثقافات الهندية والفارسية واليونانية والرومانية فى ميادين أخرى كما سبق أن صرح بعضهم فيما سبق أن ذكرته .

فحضارة الاسلام عندهم سواء فى العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق أو العلوم والفنون لم تخرج عن كونها ترديدا لحضارة غيرهم ، ولذلك فان البعض يتعمد اهمالها أو يشر اليها شذرافالاسلام فى نظرهم لم يقم الا بدور الوسيط بين الحضارات الأخرى وخاصة اليونانية وبين حضارة الغرب ، أو دور الأمين على التراث اليونانى القديم طوال حقبة من الزمن سلم الاسلام بانتهائها الأمانة الى ذويها من أمم الغرب الذى تعتبر الوارثة الشرعية لهذا التراث القديم ، بحكم أنه تراث غربى . ونحن لو سلمنا به لحق القول على كافة الحضارات شرقيها وغربيها ، اذ ما من حضارة سلمت من الاتصال بالحضارات الأخرى ، وما من عالم الا أخذ بقسط من علم غيره ، ولو قلنا بغير ذلك لحق علينا أن ننكر فى اصرار كبير فضل بطليموس باعتباره يونانيا على العلم لمجرد أنه نقل بعض النظريات البابلية فى بلاد الأرصاد وصحح لها حركات الكواكب فى كتابه «المجسطى» « اذ لم نجد لأصحابه اليونانيين فى ذلك أرصاد أيثق بها(١) كما يروى لنا صاحب طبقات الأمم؟، وكذلك الأمر بالقياس الى بندقليس اليونانى الذى يقول عنه صاحب الطبقات انه أخذ الحكمة عن لقمان بالشام،وكذلك فيثاغورث الذى أخذ الحكمة عن أصحاب سليمان بن داود بمصر حين دخلوا اليها من بلاد الشام(٢) أو كما يقول عنه الأستاذ أوليرى(٣) انه تبع أساتذة طاليس الى مصر وأنه تعلم على كهنتها وأخذ عنهم مذهب النتائج ؟ وهل يمكن أخيرا انكار فضل فورفوريوس الصورى على العلم لمجرد أنه تلقى العلم على أستاذ مصرى هو الفيلسوف أفلوطن ؟ .

من أجل هذا وذلك وجب علينا أن نبدأ بتحديد أصول الحضارة الاسلامية وعناصرها المختلفة فاذا انتهينا الى التسليم بوجود عنصر أجنبى فى اطار التاريخ الاسلامى وجب علينا أن ننتقل الى مرحلة أخرى من مراحل البحث وهى تحقيق ما اذا كانت هذه العناصر الغريبة قد ظلت متميزة بطابعها الأصلى القديم لم تمتد اليها يد العلماء المسلمين بالتغيير فى جوهرها والتشكيل فى طابعها ، أم أنه قد جرى عليها تعديل وتطوير فطبعت بالطابع الاسلامى واستؤنست فى بلاد الاسلام حتى صارت مقطوعة الصلة بأصلها القديم وانتسبت الى الحضارة الاسلامية الحديثة وكونت جزءا من بنائها وركنا من أركانها : لا ضير أن تنتقل الفكرة

(١ و ٢) طبقات الامم للقاضى صاعدين أحمد ص ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤ — مطبعة السعادة .
(٣) مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ص ٢٩ .

من عالم الى عالم ، فالفكرة ملك للجميع ، وانما الذى يعطى لكل حضارة طابعها وذوقها ومميزاتها هو عنصر التصميم ، فالتصميم لا الفكرة ذاتها هى مقياس الابتكار ، وبالتصميم ، لا الفكرة نفسها يقال هذا خلق جديد وهذا تقليدا(١). بيد ان امانة البحث تقتضينا ان نفصل العناصر التى قامت عليها الحضارة الاسلامية ، فلعل فيها عناصر اسلامية بحتة ينقطع بها دابر كل شك فى نسبتها الى حضارة اخرى او لعل فيها عناصر أجنبية دخلت فى البناء الاسلامى وظلت متميزة بأصولها الأولى دون سائر البناء ، فهى كالنغمة النشاز فى اللحن الموسيقى .

من المستطاع وفق ما أرى رد أصول الحضارة الاسلامية الى عنصرين اثنين : أما العنصر الأول فاسلامى بحت ، لم ينقل عن حضارة اخرى ولا يدين بتعاليمه ونظرياته الى عوامل أجنبية سابقة وهذا ما يتمثل فى علوم القرآن والحديث واللغة العربية التى نزل بها القرآن ونطق بها صاحب الحديث عليه الصلاة والسلام ، ويشمل هذا العنصر اللغة العربية فقها وأدبا ، وعلوم الفقه والأخلاق والتربية وما الى ذلك من العلوم التى نشأت أصيلة فى ديار الاسلام .

ومع ذلك فقد قامت ضجة حول تأثر الفقه الاسلامى بالقانون الرومانى ، ففى المقال الذى كتبه جولد يسهر فى دائرة المعارف الاسلامية عن « الفقه » يقول : « ومن السهل أن نفهم أن ما أفاده المشتغلون بالتشريع فى الشام والعراق من القانون الرومانى ومن القوانين الخاصة ببعض الولايات كان له أثر كبير فى تكامل الفقه الاسلامى » .

وفى مقال نشره فرانز فردريك شميدت فى ستراسبورج سنة ١٩١٠ فى موضوع المقارنة بين القوانين ، فى فصل من فصول القانون الخاص حاول أن يثبت قبول الفقهاء المسلمين لكثير من أحكام القانون الرومانى ويقول دى بوير المستشرق الهولندى :

« ولكن بعد أن فتح المسلمون بلادا ذات مدنيات قديمة نشأت حاجات لم يكن للاسلام بها عهد ، وحلت محل شئون الحياة العربية البسيطة عادات وانظمة لم يرشد الشرع ارشادا دقيقا الى وجه الحق فيها . ولم يرد فى السنة بالنص ولا بالتأويل ما يبين الطريق الى معالجتها . ثم أخذ عدد الوقائع الجزئية يزداد كل يوم ، وهى وقائع لم ترد فيها نصوص ولم يكن للمسلمين بد من الحكم فيها ، أما بما يتفق مع العرف أو بما يهديهم اليه ادراكهم لمعنى الخير . ولابد أن يكون القانون الرومانى قد ظل زمانا طويلا يؤثر تأثيرا كبيرا فى هذا الاتجاه ، فى الشام والعراق ، وهما من ولايات الامبراطورية الرومانية القديمة .

ويقول كارادى فو(٢) عند كلامى عن الفقه ، بعد أن أبان الفرق بين القرآن الذى هو فى نظره نص ساذج مبهم فى صورة من صور البداوة الأولى وشبه مسودة جافة بالية قائمة فى صحراء وبين الفقه فى الكتب الاسلامية وهو فى نظره تحليل علمى دقيق من آثار التفكير المثقف ، وممحص ومصقول متسق مع الرقى المدنى يقول « لما كانت دمشق دار الخلافة كان الفقه عرضة للتأثر بالقوانين البيزنطية (الرومانية الشرقية) . . « ويقول الأستاذ شاخت »(٣) ان الفقه الاسلامى لم يوجد بالحالة التى نعرفه بها طيلة القرن الأول الهجرى .

والمتخصصون فى القانون الدينى الاسلامى بدأوا يهتمون بالمسائل ذات الصبغة الدينية منذ أوائل ذلك القرن . ولم يتعرض أحد للمشكلات القانونية من الوجهة الفنية بالمعنى الذى نفهمه بها الآن الا منذ أوائل القرن الثانى الهجرى . وأول مركز لهذا النشاط العلمى لم يكن فى المدينة بل كان فى العراق . والآراء المنسوبة الى المشتغلين بهذا النشاط العلمى فى القرن الأول الهجرى كانت غير محدودة ومشكوكا فى صحة نسبتها اليهم وينتج من ذلك أن القرن الأول يمثل من الوجهة القانونية فراغا كبيرا بحيث استطاعت الثقافة الأجنبية والثقافة البيزنطية فى موضوعنا هذا أن تتسرب الى المسلمين . واهم من ذلك أن الفقه الاسلامى بدأ يتكون فى فترة كانت أبواب المدنية الاسلامية مفتوحة على مصراعيها أمام حاملى الثقافات الأجنبية الذين اعتنقوا الاسلام » .

والرد على هؤلاء لا يحتاج الى دليل ايجابى يقوم على نفى دعواهم ، وانما يوجه الى دليلهم

(١) « حق المؤلف » للمؤلف ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ ط ١٩٥٨

(٢) Les Penseurs de l'Islam. من الجزء الثالث من كتاب (خمسة مجلدات نشر فى باريس بين سنتى ١٩٢١ و ١٩٦١) .

(٣) محاضرة القاها فى الاكاديمية الايطالية للعلوم فى يونيوسنة ١٩٥٦ عنوانها Droit byzantin et droit musulman......... ص ٤ — ٦ .

الناقص لانهم لم يستطيعوا أن يقدموا وقائع معينة أخذتها الشريعة من القانون الرومانى حتى يمكن تفنيدها . ولو صحت هذه الدعوى لكان الأوزاعى فقيه الشام ، تلك الولاية الرومانية ، ممن تأثروا بالفقه الرومانى ولكن الأوزاعى كان من فقهاء السنة المتعصبين .

وان وجود تشابه بين نظامين قانونيين لا يعنى أن احدهما نقل عن الآخر وخاصة اذا كان هذا التشابه فى المبادىء العامة لا فى الحلول الجزئية كما اعترف به شاخت نفسه(١) .

نعم قد يكون لنظرية القانون الطبيعى التى وجدت عند الاغريق مرة وعند الرومان مرة أخرى، قد يكون لها تأثير على آراء أبى الهذيل العلاف المعتزلى (توفى سنة ٢٣٥ هـ) فى التحسين والتقبيح بالعقل . ومؤدى هذه الآراء أن الانسان يجب عليه أن يعرف الله تعالى بالدليل من غير خاطر . وان قصر فى المعرفة استوجب العقوبة أبدا ، ويعلم أيضا حسن الحسن وقبح القبيح فيجب عليه الاقدام على الحسن كالصدق والعدل والاعراض عن القبيح كالكذب والجور »(٢) .

واشار اليه شارح التوضيح على التنقيح لصدر الشريعة عبيد الله بن مسعود « ثم عند المعتزلة العقل حاكم بالحسن والقبح موجب للعلم بهما ، فيخلق الله العلم عقب نظر العقل نظرا صحيحا »(٣) . قد يكون ذلك ، ولكن هذا المذهب مخالف لما عليه جمهور الفقهاء حتى الأشعرية الذين وفقوا بين آراء المعتزلة العقلية وآراء الفقهاء فصل أبو الحسن الأشعرى هذا الموضوع تفصيلا حسنا قال : « والواجبات كلها سمعية والعقل ليس يوجب شيئا ولا يقتضى تحسينا وتقبيحا ، فمعرفة الله تعالى بالعقل تحصل وبالسمع تجب . قال الله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » وكذلك شكر المنعم واثابة المطيع وعقاب العاصى يجب بالسمع دون العقل »(٤) .

قد تكون الصلة ظاهرة بين نظرية القانون الطبيعى الغربية والنظرية الاسلامية فى التحسين والتقبيح بالعقل ، ولكن النظرية الاسلامية دبجت فى محافل الفرق الكلامية المحبة للتجديد دون المذاهب الفقهية لأهل السنة وما قيل عن أثر القانون الرومانى على الفقه الاسلامى قيل أيضا عن تأثر هذا الفقه بمنطق اليونان . قال دى بوير المستشرق الهولندى — تحت عنوان القياس « كان تعلم المنطق مؤذنا بدخول عنصر جديد فى الجدل القائم بين الفريقين (أهل السنة وأهل الرأى) هو القياس ، ولا شك أن الفقهاء استعملوا القياس على قلة منذ العهد الأول ، أما وقد اتخذ أصلا من أصول الأحكام فلا بد أن يكون قد سبقه تأثير التفكير العلمى(٥) .

وقال جولد تسيهر : الا انا نشاهد بعد هذه الظاهرة الصادرة عن التعصب (للسنة) أن واحدا من أشد المتحمسين لنصرة السنة بمعناها الضيق ، هو ابن حزم كان من المؤيدين لعلم المنطق تأييدا مصدره الاعجاب » .

وهو يستشهد بما جاء فى كتاب الملل لابن حزم من أن « الكتب التى جمعها ارسططاليس فى حدود الكلام (المنطق) مفيدة دالة على توحيد الله عز وجل ، وقدرته عظيمة المنفعة فى انتقاد جميع العلوم ، وعظم منفعة الكتب التى ذكرنا فى الحدود، فى مسائل الأحكام الشرعية بها يتعرف كيف يتوصل الى الاستنباط (يقصد ابن حزم بقوله هذا أن المنطق مفيد لعلم التوحيد ، وفى النقد العلمى على العموم ، وفى أصول الفقه كالقياس) .

وبفقرة وردت فى طبقات لأمم لأبى القاسم صاعد بن أحمد قاضى طليطلة ، قال فيها : فعنى ابن حزم بعلم المنطق والف فيه كتابا سماه « التقريب لحدود المنطق » بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية » .

ويقول ابن طملوس فى كتب الغزالى : «فهذه الكتب التى الفها أبو حامد هى فى صناعة المنطق لكن أبا حامد غير الكتب وأسماء المعانى المستعملة فيها ونكب عن ألفاظ أهل الصناعة الى ألفاظ مألوفة عند الفقهاء » .

وقال جولد تسيهر نفسه عن الغزالى « فتراه فى كتاب القسطاس يحاول جهده أن يستخرج أشكال القياس المختلفة التى هى وحدها موازين الحقيقة من القرآن نفسه » وفى كتاب المعيار يقدم الينا بحثا منظما كاملا فى المنطق واضعا نصب عينيه دائما استخدامه فى الفقه وتطبيقه على مسائله ، فالأمثلة التى يضربها لاشكال القياس وضروبه مأخوذة كلها من الفقه »(٦) .

(١) شاخت فى المقالة السابقة ص ٧ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٩ .
(٣) ج ٢ ص ١٥٧ .
(٤) الملل والنحل ج ١ ص ٨ .
(٥) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٤٣ .
(٦) العقيدة والشريعة فى الاسلام ترجمة الدكتور علىحسن عبد القادر وآخرين ص ١٥١ — ١٥٥ .

من هذه الأقوال نفهم أن المنطق اليونانى كان له أثر فى أصل من أصول الفقه وهو القياس ونحن نفصل هذا الأمر .

١ — ان اتخاذ القياس أصلا من أصول الفقه كان سابقا على العصر الذى اتصل فيه المسلمون بحضارة اليونان وترجموا كتبهم . فالقياس اتخذ أصلا فقهيا منذ عهد الصحابة ومنطق اليونان لم يترجم الا فى الدولة العباسية .

٢ — ان أول من نهج فى أصول الفقه نهجا علميا ونظمه تنظيما منطقيا هو الشافعى ولم يكن يعرف منطق اليونان حين وضع رسالته فى الأصول . صحيح أن الرازى ذكر قول الشافعى للرشيد لما جىء به متهما مع العلويين ، اعرف ماقالت الروم مثل ارسطاطاليس وبقراط وجالينوس وفورفوريوس واينوقليس بلغاتها وما نطقه أطباء العرب وقننته فلاسفة الهند ونمقته علماء الفرس مثل جاما ساب وسامهرد وبزر جمهر » (١) .

هذه الرواية مكذوبة على الشافعى . جاء فى كتاب مفتاح السعادة « انها كذب مفترى على الشافعى والبلاء فيها عند محمد بن عبد الله البلوى هذا ، فانه كذاب وضاع .. فان الشافعى لم يعرف لغة هؤلاء اليونان البحتة حتى يقول انى أعرف ما قالوه بلغاتهم »(٢) .

والظاهر أن المنطق قد أخذه الشافعى من معالجته لفقه المذاهب المقارن وتحقيقه للفروق الدقيقة فى مسائله وكثرة مناظراته فيه .

٣ — ان القياس الشرعى مختلف فى شكله عن القياس المنطقى . فالفقهاء لا يعرفون فى قياسهم الا البحث عن الأوصاف المؤثرة فى حكم الأصل ، وهذا يعرف عندهم بتخريج المناط ، فاذا وجدوا جملة من أوصاف أختاروا انسبها وهذا يعرف عندهم بتنقيح المناط ، ثم يحققونها فى الفرع ليعرفوا وجودها فيه وهذا يعرف .. عندهم بتحقيق المناط . فاذا انتهوا من ذلك طبقوا حكم الأصل على الفرع ، وليست هذه طريقة المناطقة الذين اتخذوا المنطق قضايا : المقدمة الأولى والمقدمة الثانية والنتيجة ، والعكس والنقيض وعكس النقيض ....

٤ — ان ضرب الأمثال لأنواع الأقيسة المنطقية من مسائل الفقه ، ليس معناه أن المنطق صار ذا أثر فى الفقه ... الخوارزمى ضرب أمثلة لمسائل الجبر من المواريث . ولم يقل أحد ان الجبر أثر فى نظام المواريث لأن علم المنطق كعلم الجبر من العلوم المساعدة التى لا تقوم وحدها مستقلة عن العلوم الأخرى بل لابد من تطبيقها عمليا ، وهى لا تعارض بحال من الأحوال العلوم الفقهية ...

ولكننا لا نستطيع ان نجرد المنطق من كل اثر له فى مسائل الفقه ، لأن الفقهاء الذين اخذوا بشىء من المنطق كانوا من الترتيب العقلى بدرجة أنهم غربلوا الأدلة الفقهية ونسقوا بينها . ويكفى أن نذكر أن الشافعى — فى رسالته التى رتبها ترتيبا منطقيا — ابطل الاستحسان الذى لا يعد دليلا مستقلا عند امعان النظر فيه . ثم تلاه فى ذلك ابن حزم والغزالى ولو أن هؤلاء كانوا على عهد أبى حنيفة ومالك ما ظهر اصطلاح الاستحسان فى كتب الفقه .

هذا هو العنصر المستقل عن المؤثرات الأجنبية الدخيلة ، أما العنصر الثانى فقد أخذه المسلمون عن غيرهم من الأمم كالفرس والهنود واليونان . وهم وان كانوا قد تصرفوا فى هذه العلوم ، الا انها محسوبة فى غير مصادرهم ، وهذا أمر معترف به عن مؤرخى المسلمين أنفسهم ، فيقول الاستاذ احمد أمين مثلا « يكاد مؤرخو علم المسلمين من طب وجبر وهندسة وكيمياء وفلسفة ، يقسمون ما وصل اليه المسلمون قسمين : قسم أخذوه عن اليونان ، وقسم ابتكروه بأنفسهم »(٣) .

وفى الحق لا يستطيع الباحث المنصف أن ينكر فضل اليونان وغيرهم على المسلمين فى فلسفتهم وطبهم وهندستهم ، لا ينكر ذلك الا متعصب أعمى . هذا حتى مع التسليم بأن المسلمين قد ورثوا عن العرب قبل الاسلام بعض العلوم والفنون كما يقول قاضى طليطلة(٤) « وكان للعرب مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها ، على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة ، لاحتياجهم الى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة ، لا على طريق تعلم الحقائق ، ولا على سبيل التدرب فى العلوم ، ولأبى حنيفة الدينورى — أحمد بن داود اللغوى — كتاب شريف فى الأنواء

(١) مناقب الشافعى للفخر الرازى ص ٢٦ .

(٢) « مفتاح السعادة ومصباح السيادة » لطاش كبرى زاده ص ٥٦٥ ويقول Wigmore ان الفقهاء المسلمين كانوا يجهلون حتى اللغة السريانية (تعليق له على مقال للاستاذ عبد الرحمن حسن نشر بمجلة Archives d'histoire de oriental, t. 4, 1949 p. 321.

(٣) أحمد أمين — ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٧٧ .

(٤) طبقات الامم ص ٧٠ .

تضمن ما كان عند العرب من العلم بالسماء والأنواء ومهاب الرياح وتفصيل الأزمان وغير ذلك من هذا الفن » .

وكما يقول فى موضع آخر(١) يصف بعض ما كان عليه المسلمون من العلم قبل أن تتصل ثقافتهم بالثقافات الأجنبية « فكان من الأطباء على عهد النبى صلى الله عليه وسلم من العرب الحرث بن كلدة الثقفى ، كان تعلم الطلب بفارس واليمن ، وكان يضرب العود ، وبقى الى أيام معاوية بن أبى سفيان ، وكان منهم ابن أبى رمثة التميمى وهو الذى قال : رأيت بين كتفى النبى صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة فقلت له انى طبيب به ودعنى أعالجه فقال أنت رفيق والطبيب الله ، وكان منهم ابن الجر وهو الكنانى ، طبيب ماهر ، كان فى أيام عمر بن عبد العزيز ، وكان عمر يبعث اليه بمائة اذا مرض » .

بيد أن هذا الذى قد وصل اليه العرب قبل الاسلام أو بعده بقليل لا ينبغى أن يعد فى سجل الثقافات والعلوم وبالتالى لا ينشىء حضارة جديرة بهذا الاسم انما هى أمور وصل اليها هؤلاء ، عن طريق التجربة المحضة التى الجأتهم اليها ضرورات الحياة لا الرغبة الخالصة فى الاستقراء والاستنباط بيد أن الثابت ان المسلمين قد اتصلوا فى العصر العباسى بالثقافات الأجنبية وخاصة حضارة الهند والفرس واليونان ومن الثابت أيضا أن هذه الحضارات كان لها تأثير ما على حضارة المسلمين ولست أريد أن أبين لك جملة ما أفاده المسلمون من علوم الشرق والغرب فى العصور الوسطى أو اقل لا أستطيع ذلك ، ولذلك أقصر بحثى فى هذا الجانب على مدى تأثر المدنية الاسلامية بالحضارات الأجنبية فى نفس الميادين التى أثرت بها الحضارة الاسلامية على المدنية الغربية . سوف ترانى مثلا ابتعد عن البحث فى العلاقة بين النظام الوراثى فى الدولة الفارسية وبين نظرية الميراث الشرعى فى الخلافة الاسلامية عند الشيعة ، هذه العلاقة التى أرادت بعض المصادر الأجنبية أن تجعلها بين النظامين وطيدة(٢) .

لقد ابتعدت عن هذا البحث وتحقيقه الآن ، ذلك بأن نظرية الميراث الشرعى فى الخلافة الاسلامية سواء أخذت عن الفرس أم عن غيرهم لم تنطلق من ديار الاسلام الى أوروبا ، بل كانت مستقرة فى النظم السياسية الأوروبية حتى قبل ظهور الاسلام . وانما نقتصر على بحث الأثر الأجنبى فى الحضارة الاسلامية فى الناحية التى أثرت بها هذه الحضارة على مدنية الغرب كالطب والفلك والرياضيات وعلم الاجتماع والموسيقى والهندسة والجبر وما الى ذلك من العلوم الحية التى ولع العالم بها من قديم وتعهدها فى القديم والحديث بالرعاية والتشجيع .

اكبر الظن أن الحضارة الاسلامية تأثرت بمؤثرات أجنبية شرقية وغربية معا ، أما الشرقية فقد جاءت اليها عن طريق الهند وفارس ، وأما الغربية فقد وصلت اليها عن طريق الأغريق على وجه الخصوص ، وسوف نفرد لكل من هذه الحضارات القديمة فصلا نبين فيه وسائل اتصال هذه الحضارات بالحضارة الاسلامية ومقدار ما أخذ المسلمون من كل منها . . .

---

(١) طبقات الامم ص ٧٤ .

(٢) أنظر « الرأى فى الفقه الاسلامى للمؤلف » ص١٥٦ طبعة ١٩٤٩ م

الفصل الثالث

الأصول الأجنبية في المدنية الإسلامية

أولا : حضارة الهند

اتصل المسلمون بالهند عن طريق الفتح ، وقد بدأ ذلك الفتح حين وجه الحجاج بن يوسف محمد ابن القاسم الثقفى الى الهند فى خلافة الوليد ، ففتح السند سنة أحدى وتسعين الهجرية ، ثم فتح ديبل ونيرانكوت (حيدر أباد) ورادر ملتان . وفى سنة ١٤٢ هـ ولى ابو جعفر المنصور هشام ابن عمرو التغلبى على السند فتوسع فى الفتح شمالا ، حيث فتح كابل وكشمير . وقد توالت حملات الفتحونشر الاسلام على يدمحمود غزنوى (القرن الخامس الهجرى) وتيمور الذى فتح دلهى من مدن الهند(١) . وقد شجع السلطان محمد الغورى على نشر الاسلام فى الهند ، ومثله فعل الخلجيون(٢) ، فى الهند ، ومن ثم انتشر الاسلام فى السند والبنجاب وجنوب الهند وكثير من انحائها .

واذ تحقق فتح الهند أصبحت الأقاليم التى فتحها المسلمون جزءا من الدولة الاسلامية ، وورثت الحضارة الاسلامية من حضارة الهند الشيء الكثير وتبادلت ... الدولتان العلماء وكانت الثقافة الهندية تقوم فى الدولة الاسلامية بجانب الثقافة اليونانية ، ويشترك بعض الهنود فى التدريس باللغة الفهلوية(٣) ، كما أن الدولة الاسلامية غصت بالسبايا والموالى ، ونبغ من هؤلاء الموالى كثيرون ، منهم أبو العطاء السندى ، وكان شاعرا ، وابن الاعرابى ، وكان لغويا ، وابو معشر نجيح السندى صاحب المغازى ، وكان محدثا بيد أن الطريق بين البلاد العربية والهند كانت مفتوحة للتجارة قبل ظهور الاسلام ، يدلك عليه وجود الفاظ هندية فى اللغة العربية كزنجبيل وكافور وآبنوس وببغاء وخيزران وفلفل واهليلج(٤) ، فلما فتحت بعض الأقاليم الهندية قويت أسباب الاتصال التجارى بين البلدين ، فكان يجلبمن السند اليود والسكر والغاب الهندى(٥) ، وتبعا لذلك زاد الاتصال العلمى بينهما ومع ذلك فان هنالك طريقة أخرى كانت أقرب للعرب منا لا للحضارة الهندية فقد نقل المسلمون الحضارة الهندية التى دونها الفرس فى كتبهم ، وذلك بالقيام بنقل الكتب الفارسية الى اللغة العربية . وتفصيل ذلك أنه لبعد الهند عن عاصمة الدولة الاسلامية قل النقلة عنهم ، فلم يشتهر من المترجمين عن الهندية سوى منكه الهندى وكان فى جملة اسحاق بن سليمان بن على الهاشمى حيث كان ينقل من اللغة الهندية الى العربية وابن دهن الهندى ، وكان اليه بيمارستان البرامكة ، ونقل الى العربى من اللسان الهندى(٦) .. وانما عنى الفرس بنقل ثقافة الهند لقربهم منهم ثم نقلت آثارهم عن الفارسية الى العربية لما امتزجت ثقافة الفرس بثقافة المسلمين .

---

(١) الدعوة الى الاسلام للسير توماس ارنولد ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخرين ص ٢٨٧ و ٢٨٨ .
(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٣ ص ١٩٧ .
(٣) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٦٩ .
(٤) أحمد أمين فى ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٥٨ .
(٥) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ٦٢ .
(٦) الفهرست لابن النديم ص ٣٤٢ طبعة الرحمانية .

ومع ذلك نقل التراجمة بعض كتب الهند عن الفارسية وفسروها ، ونذكر على سبيل المثال كتاب « سيرك » وهو كتاب فى الطب الهندى ، ترجم أولا الى الفارسية ثم نقله عن الفارسية الى العربية عبد الله بن على(١) .

واذا صحت نسبة كتاب بانجاتانترا « كليلة ودمنة » الى الهند ، او صحة نسبة سندباد الحكيم اليهم ، وهو ما يؤيده ابن النديم(٢) ، لكانت ترجمة الكتابين الى العربية عن الفارسية مثلين آخرين .

ولقد كان للهند حضارة قديمة لم تكن فى يوم من الأيام موضع شك عند احد من الباحثين . جاءفىطبقات الأمم ما يلى(٣) « فأما الطبقة التى عنيت بالعلوم فثمانية أمم الهند والفرس والكلدانيون والعبرانيون واليونانيون والروم واهل مصر والعرب » فأنت ترى أن صاحب الطبقات قد وضع الهند على راس الأمم التى عنيت بالعلوم وبرزت فيها . ويقول فى موضع آخر(٤) « وبعد هذا فانهم أعلم الناس بصناعة الطب وابصرهم بقوى الأدوية وطبائع المولدات وخواص الموجودات » ...

وجاء فىمحاضرات الأدباء للأصفهانى مايلى(٥) « ان الهند لهم معرفة الحساب والخط الهندى واسرار الطب وعلاج فى أحسن الأدواء والرقى ، وعلم الأوهام ، وخرط التماثيل ، ونحت الصور ، وطبع السيوف ، والشطرنج والجنكلة ، وهو وتر واحد يجعل على قرعة فيقوم مقام العود » ...

واذا شئت أن تعرف شيئا عن حضارة الهند فعليك بكتاب تاريخ الهند لأبى الريحان البيرونى المعروف باسم « فى ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » .

فى الرياضيات :

ومما وصل الى المسلمين من علم الهند فى الرياضيات وكانوا مبرزين فيها « حساب الغبار الذى بسطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى، وهو أوجز حساب وأخصره واقربه تناولا واسهله مأخذا وأبدعه تركيبا ، يشهد للسند بذكاء الخواطر وحسن التوليد وبراعة الاختيار » هكذا يقول القاضى صاعد بن أحمد(٦) ...

وقد أخذ العرب بعض الاصطلاحات الرياضية من الهنود كلفظة الجيب فى حساب المثلثات(٧) .

واخذ العرب عن الهنود أرقام الحساب ، وهى تسعة ، وكذلك رقم الصفر وكان يعبر عنه بدائرة، وهو الأمر الذى لا يزال فى لغة الحساب الغربية وقد جاء فى تاريخ اليعقوبى ما يلى : « قال اهل العلم أن أول ملوك الهند الذين اجتمعت عليه كلمتهم ، برهمن ، الملك الذى كان فى زمنه البدء الأول ، وهو أول من تكلم فى النجوم واخذ عنه علمها والكتاب الأول الذى تسميه الهند « السند هند » وتفسيره « دهر الدهور » دمغه اختصر « الأرجهير » « والمجسطى » ثم اختصروا من الأرجهير « الأركسند » ومن المجسطى كتاب بطليموس ، ثم عملوا من ذلك المختصرات والزيجات وما أشبهها من الحساب ووضع التسعة الأحرف الهندية التى يخرج منها جميع الحساب الذى لا يدرك معرفتها وهى ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، فالأول منها واحد وهو عشرة ومائة وهو الف وهو مائة وهو الف الف وهو عشرة آلاف الف وهو مائة الف الف ، وعلى هذا الحساب أبدا فصاعدا . والثانى وهو اثنان وهو عشرون وهو مائتان وهو الفان وهو الفان وهو عشرون الفا وهو مائتا الف وهو الفا الف . وعلى هذا الحساب يجرى التسعة الأحرف فصاعدا ، غير أن بيت الواحد معروف من العشرة وكذلك بيت العشرة معروف من المائة ، وكذلك كل بيت ، واذا خلا بيت منها يجعل فيه صفر ، ويكون الصفر دائرة صغيرة » .

وقد أدى البحث الذى اجراه كثير من العلماء(٨) الى التأكيد بأن الأعداد العربية ليست من اختراع العرب بدليل كتابتها من الشمال الى اليمين ، على خلاف ما نعرفه من كتابة الأبجدية فى معظم اللغات السامية ، أعنى من اليمين الى الشمال . الا أن العرب كانوا وسطاء هنا فقط » ...

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٢١ .
(٢) ص ٤٢٥ و ٤٢٦ .
(٣) ص ٩ . ومثله جاء فى أخبار الحكماء للقفطى ص ٢٧ .
(٤) ص ١٧ .
(٥) ج ١ ص ٩٣ .
(٦) ص ٢١ .
(٧) نللينو فى كتاب علم الفلك ــ تاريخه عند العرب ص ١٦٨ .
(٨) أثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى للمستشرق الالمانى جورج يعقوب ترجمة الدكتور فؤاد حسين على ص ٢٥ .

واتماما للبحث نقول ان الأعداد العربية الحالية انما هى صورة متطورة من الأعداد الهندية القديمة ، وعندما نقلت الأعداد الأوروبية عن الأعداد العربية كان النقل قبل هذا التطور ، واحتفظت الأعداد الأوروبية بالصورة الهندية القديمة ، كما احتفظت بها بعض الولايات الاسلامية فى غرب أفريقيا ، ولذلك تجد الأعداد العربية فى المغرب صورة مطابقة للأعداد الافرنجية حتى أن الانسان ليظن أنها أعداد افرنجية وحقيقتها أنها الأعداد الهندية الأصلية . يؤكد هذا المعنى ما ذكره الأستاذ جورج يعقوب(١) حيث قال(٢) : « ومما هو جدير بالملاحظة ان الأعداد المستعملة فى غرب العالم الاسلامى أقرب الى تلك المستعملة فى أوروبا من هذه التى نجدها فى شرقه ، والسبب فى ذلك أن القسم الغربى ظل محافظا زمنا طويلا فأخلص للصورة الهندية الأصلية وحافظ عليها وهو يستعملها الى اليوم . وهذه الظاهرة تذكرنا بالأبجدية المغربية ، فهى أقرب الى الكوفية منها الى الخط النسخى . وقد عثر أيضا على مخطوطة شيرازية ترجع الى القرن العاشر الميلادى يتجلى فيها بوضوح انتقال الأعداد من صورتها الهندية القديمة الى تلك الصورة التى نجدها مستعملة الى اليوم فى شرق العالم الاسلامى » .

واذا كان الرأى الراجح فى هذا الأمر هو أن الأعداد انتقلت من الهند الى العالم عن طريق العرب ، الا ان هنالك آراء تقول بغير ذلك . وقد أجمل الأستاذ جورج حداد هذا الاختلاف فقال(٣) « فالعالم كلارك يؤيد اختراع الهنود للأرقام أو معرفتهم لها على الأقل منذ زمن بعيد ، فقد اكتشفت نقوش بين عام ٥٩٥ والقرن التاسع احتوت على أرقام ، كما انه يشير الى الأعداد الهندية التى عرفها كاتب سريانى على الفرات الأعلى فى عام ٦٢٢ واتى بها من الهند . بينما من جهة أخرى نرى كاى (مؤلف كتاب الرياضيات الهندية) يقول ان الأرقام المعروفة بالعربية المستعملة الى اليوم فى بلاد المغرب ، والأرقام التسعة والصفر ومكانة الفاصلة فى العدد العشرى ، جميع هذه لم توجد فى الهند حتى القرن التاسع . ويوافقه كارادى فو Carra de Vause على القول بأن أصل هذه كلها يونانى أفلاطونى انتقل الى الهند عن طريق العرب . هذا بينما المعروف هو أن الأرقام انتقلت من الهند الى الغرب عن طريق العرب . ولذا فان تاريخ الترقيم والتعداد معقد ، ولم يوجد حل نهائى حتى الآن عن قضية الأصل الهندى للأرقام أو عدمه ، غير ان مؤرخ العلوم سارتون يقول انه بينما تقدم الفلك الهندى بتأثير الأغريق فان الرياضيات الهندية لم تنتظر الهيلينية ، ولذلك فالهنود غالبا ابتكروا الأرقام التسعة والنظام العشرى » .

فى الفلك :

تحوى كتب السد هانتا الهندية ، وهى خمسة ، خمسة ، أهم عناصر الفلك الهندى . ومعنى السدهانتا (النتيجة الثابتة) .

وفى القرن السادس الميلادى اختصر فاراهاميرا Varahamira كتب السد هانت .

ومن أهم الفلكيين الهنود آريابهاتا Aryabhata وكان له فضل على الرياضيات أيضا ، فقد كتب فى الجبر والكسور والجذر المربع والمكعب والمساحات والجيب والتصاعد الحسابى(٤) .

وقد ذكر المستشرق كارلو نيللينو فى كتابه « علم الفلك — تاريخه عند العرب(٥) » أن وفدا من الهنود وفد على أبى جعفر المنصور سنة ١٥٤ هـ ، وفيهم رجل ماهر فى معرفة حركات النجوم وحسابها ، وسائر أعلام الفلك على مذهب علماء أمته ، وخصوصا على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه «براهمسبهط سدهانت»(٦) الفه سنة ٦٢٨ ميلادية (أو سنة ٦٢٦ أو ٦٢٧) الفلكى الرياضى « برهمكبت » ، فكلف المنصور ذلك الهندى باملاء مختصر الكتاب ، ثم أمر بترجمته الى اللغة العربية ، وباتخاذ كتاب منه تتخذه العرب أصلا فى حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال ، فتولى ذلك الفزارى ، وعمل منه زيجا اشتهر بين علماء العرب ، حتى انهم لم يعملوا الا به الى أيام المأمون ، حيث ابتدأ مذهب بطليموس فى الحساب والجداول الفلكية » . وقد أخذ عن الرجل الذى وفد على المنصور ، ابراهيم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦ .
(٢) مرجعه السابق ص ٢٦ .
(٣) المدخل الى تاريخ الحضارة ج ٢ ص ١٠٥ .
(٤) جورج حداد ج ٢ ص ١٠٢ .
(٥) ص ١٤٩ .
(٦) حرفت كلمة سدهانت فصار يعرف الكتاب باسم كتاب السند هند — المرجع السابق ص ١٥٠ .

ابن حبيب الفزارى ويعقوب بن طارق(١) . كما ترجم العرب عن الهند كتابى الأركند والأرجبهر فى الفلك(٢) .

وذكر الأستاذ كارلو نيللينو فى موضع آخر(٣) أن العرب اخذوا طرقا مهمة كثيرة النفع مجهولة لليونان فى حل جملة من المسائل المتعلقة بعلم حساب المثلثات الكروية » الى أن قال(٤) « فاتضح مما بينته أن تأثير علماء الهند والفرس فى نشأة ميل العرب الى ذلك العلم الجليل سبق تأثير اليونان ولوبز من قليل » .

ويقول صاحب طبقات الأمم(٥) « ولبعد الهند من بلادنا واعتراض الممالك بيننا وبينهم قلت عندنا تآليفهم ، فلم يصل الينا الا طرف من علومهم ، ولا وردت علينا الا نبذ من مذاهبهم ، ولا سمعنا الا بالقليل من علمائهم ، فمن مذاهب الهند فى علم النجوم المذاهب الثلاثة المشهورة عنهم ، وهو مذهب السند هند ومذهب الأرجبهر ومذهب الأركسند . ولم يصل الينا منهم على التحصيل الا مذهب السند هند وهو المذهب الذى تقلده جماعة من الاسلام والفوا فيه الأزياج كمحمد بن ابراهيم الفزارى وحنس بن عبد الله البغدادى ومحمد بن موسى الخوارزمى والحسين بن محمد المعروف بابن الآدمى وغيرهم . وتفسير السند والهند ــ الدهر ــ الداهر ــ كذلكحكى الحسين ابن الآدمى فى زيجه » .

فى الطب :

كان الطب من أهم العلوم المعروفة فى الهند . وكان الطب والجراحة يمارسان منذ القرن السادس ق.م ويدرسان . وكانت توجد جامعتان فى الهند فى عهد بوذا الواحدة جامعة Kazi أوبنارس فى وادى الفانج والثانية جامعة تكسيلا فى وادى السند . وكان الطبيب آتريا Atreya يدرس فى هذه الأخيرة بينما معاصره سوسروتا يدرس فى الأولى . وكان سوسروتا طبيبا وعالما يقرن الملاحظة بالتجربة ويصف عمليات تتعلق بالفتق وأمراض العين والجراحة التجميلية ، كما انه كان يصف الآلات الجراحية المستعملة . وكانت بعض مبادىء التشريح والفيزيولوجيا وأمراض النساء والأطفال وتشخيص المرض والنباتات الطبية معروفة(٦) .

ومن أطباء الهند الذين نقل عنهم المسلمون فى العصر العباسى كنكه الهند ، طبيب وفلكى ، وقد كتب جملة مؤلفات منها : كتاب النمودار فى الاعمار ، وكتاب اسرار المواليد ، وكتاب القرانات الكبير والصغير ، وكتاب فى الطب يجرى مجرى الكناش .

ومن كبار أطبائهم أيضا منكه الهندى ، استقدمه يحيى بن خالد لمعالجة الرشيد ، فشفاه فأجرى عليه الرشيد الرزق ، ولمعرفته بالفارسية أخذ ينقل الكتب عن اللغة الهندية الى الفارسية(٧) . ومنهم شاناق ، وله كتاب فى السموم نقله الى الفارسية منكه الهندى ، ثم الى العربية العباس ابن سعيد الجوهرى للخليفة المأمون . ثم جودر الحكيم وله كتاب فى المواليد نقل الى العربية ، وصالح بن بهلة استقدمه الرشيد وخالط أطباء المسلمين ، وان لم ينقلوا عنه شيئا مكتوبا . ومنهم صنجل وباكهر ، وكثيرون غير هؤلاء .

ومن الكتب الطبية التى نقلت عن الهند الى لسان العرب فى العصر العباسى غير ما ذكرنا كتاب سسرد ، نقله منكه ليحيى بن خالد البرمكى، كتاب أسماء عقاقير الهند ، نقله منكه لاسحاق ابن سليمان ، كتاب أستانكر الجامع ، نقله ابن دهن ، كتاب سندستاق أو صفوة النجح ، نقله ابن دهن كتاب مختصر الهند فى العقاقير ، كتاب علاجات الحبالى للهند ، كتاب روسا الهندية فى علاجات النساء ، كتاب السكر للهند ، كتاب التوهم فى الأمراض والعلل ، كتاب رأى الهند فى أجناس الحيات وسمومها (٨) ، كتاب سيرك الهندى ، نقله عبد الله بن على . كتاب علامات الأدواء نقل ليحيى بن خالد البرمكى ، وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند فى الحار والبارد وقوى الأدوية(٩) وغير ذلك من الكتب كثير .

---

(١) ص ١٥٦ .
(٢) ص ١٧٢ و ١٧٣ .
(٣) ص ١٨٠ .
(٤) ص ٢١٤ .
(٥) ص ١٨ و ١٩ .
(٦) جورج حداد ص ٩١.
(٧) طبقات الاطباء لابن أبى أصيبعة ص ٣٣ .
(٨) الفهرست ص ٤٢١ .
(٩) تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ج ٣ ص١٧٨

القصص والآداب :

تعتبر الهند القديمة مصدرا مهما من مصادر الآداب القصصية ، وان كثيرا مما وصل الينا والى الغرب جاء عن الهند . وفى الحق برز الهنود فى القصص وخاصة القصص الحيوانى . « وقد انتشرت هذه القصص الحيوانية — على ما يبدو فى بلاد الهند وما جاورها قبل انتشارها فى غيرها من البلاد ، وذلك لكثرة أدغالها وأجماتها التى تسكنها الحيوانات المفترسة والطيور على اختلاف أنواعها . فمن المعقول جدا أن يكون اشتبك سكان هـذه البلاد بتلك الحيوانات فى ظروف مختلفة قد لفت أنظارهم اليها والى حيـاتها فى مساكنها والى طباعها وعاداتها التى الفتها فى بيئاتها الطبيعية فكانت هذه الحياة مادة غزيرة ومنبعا فياضا استقى منه السكان تلك الحكايات التى جرت على السنة عامتهم ، ثم دونها بعد تهذيبها حكماؤهم ، ومن ثم انتشرت فى بقاع أخرى من الأرض .

وارتقى النوع الانسانى فى سلم الحضارة فأخذ الأدباء يتباهون بمواهبهم العقلية واسـتعدادهم الفنى ويتسابقون فى مضمار الأدب فأحدثوا من فنونه ما أحدثوا ، وابتكروا من صورة ما شاءت لهم عقلياتهم وأذواقهم الفنية أن يبتكروا . وكان من الفنون المحببة اليهم تقديم النصح والأرشاد الخلقى فى صورة حكايات تروى عن الحيوانات والطيور مصوغة فى أسلوب شعرى قصصى طلى أو فى قالب نثرى طريف فكاهى»(١) .

وصاحب هذا الرأى لا شك أنه قد وضع نصب عينيه كتاب كليلة ودمنة ، ومن الكتب العربية التى نقلها المسلمون عن الهند ايضا كتاب سندباد الكبير ، كتاب سندباد الصغير ، كتاب السيد ، كتاب بونلسف وبلوهر ، كتاب بوناسف مفرد ، كتاب أدب الهند والصين ، كتاب هابل فى الحكمة ، كتاب الهند فى قصة هبوط آدم ، كتاب طرق ، كتاب دبك الهندى فى الرجل والمرأة ، كتاب حدود منطق الهند ، كتاب ساديوم ، كتاب ملك الهند القتال والسياح ، كتاب بيدبا فى الحكمة(٢) .

كتاب كليلة ودمنة :

هو مجموعة من القصص الحيوانية اخذت عن مجمـوعة أخرى اسـمها بنجه تانترا ، الفها فشنوشر من الملقب ببيدبا الفيلسوف البرهمى(٣) . وقد جعل المؤلف فاتحة كل قصة على شكل سؤال من دبشليم الملك الى الفيلسوف يطلب اليه فيه ضرب الأمثال لأمر من الأمور فيصوغ الفيلسوف حكاية على لسان الحيوان . وقد بلغ من شدة ولع الملك بالكتاب أن جعله مرجعه فى حكم رعيته وسياسة ملكه ، كما أخفاه عن أعين الناس . وقد عهد الملك الفارسى كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) الى وزيره الأول « بزرجمهر » أن يعمل على جلب الكتاب من الهند فعهد هذا كبير أطبائه بالرحيل الى الهند لجلب الكتاب ففعل ، وكان ذلك فى سنة ٥٧٠ م (قبل مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بنحو عام) .

وقد نقـل الكتاب من اللغـة الفهلوية الى العربية(٤) أو من السريانية الى العربية ، وكان اسمه بالسريانية « كليلاج ودمناج » وترجمـة عبد الله بن المقفع فى رأى ، أو ترجمة مجهول نسبة الى ابن المقفع فى رأى آخر ، ثم ترجم الى جميع اللغات الأوروبية عن النسخة العربية ، ترجمة مباشرة أو عن طريق لغة اخرى ، أما أصله الفارسى فقد ضاع .

ولقد قام جماعة بنظم الكتاب شعرا « والظاهر أن أول من نظم الكتاب بالعربية أبو سهل الفضل ابن نوبخت،من حاشية أبىجعفر المنصور وابنه المهدى ، وتلاه عبد الله بن هلال الاهوازى ، فنقله شعرا ليحيى بن خالد البرمكى فى خلافة المهدى . وجاء سهل بن هارون أحد كتاب المأمون فعارض نظم عبد الله بن هلال بمنظومه سماها « ثقلة » وعفرة » . وممن نظموا الكتاب بشر بن المعتمد وعلى بن داود كاتب زبيدة زوج الرشيد . ومما يؤسف له أن هذه المنظومات كلها قد فقدت ولم يبق لها اثرا فيما أعلم(٥) . كما نظم الكتاب أيضا ابان بن عبد الحميد اللاحقى(٦) ، نظمه ليحيى

(١) القصص الحيوانى وكتاب كليلة ودمنة فى الآداب الشرقية والغربية تاليف حامد عبد القادر طبعة لجنة البيان العربى ١٩٥٠ .

(٢) الفهرست ص ٤٢٤ و ٤٢٥ .

(٣) القصص الحيوانى وكتاب كليلة ودمنة فى الآداب الشرقية والغربية لحامد عبد القـادر ط لجنة البيـان العربى ١٩٥٠.

(٤) أنظر براون فى التاريخ الادبى لبلاد فارس ج ٢ ص٣٥٠ . وفيه عرض للاراء المتضاربة فى هذا الموضوع وانظر أيضا كتاب طبقات الامم ص ٢٠ و ٢١

(٥) حامد عبـد القادرص ٣٩ و ٤٠ .

(٦) أورد الصولى من هذه المنظومة اكثر من سبعينبيتا — أنظـر كتاب « الاوراق » نشره هيوارث دون ط الصـاوى .

ابن خالد البرمكي ايضا . ونظمه كذلك الشريف ابو يعلي علي بن احمد بن الحسين المعروف بابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ هـ ، نظمه تحت عنوان « نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة » كما نظمه الشاعر المصري القاضي ابو المكارم الاسعد المعروف باسم « ابن مماتي المصري » ، وعبد المؤمن ابن حسن الصاغاني من أدباء القرن السابع الهجري ، وجلال الدين النقاش من رجال القرن التاسع »(١) .

وعلى كل حال فاللاحقي هو المبرز دائما عند مؤرخي الأدب في ترجمة الكتاب شعرا .

جاء في كتاب الفهرست لابن النديم ما نصه : « كتاب كليلة ودمنة وهو سبعة عشر بابا ، وقيل ثمانية عشر بابا ، فسره عبد الله بن المقفع وغيره، وقد نقل هذا الكتاب الى الشعر ، نقله ابان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي ، ونقله علي بن داود الى الشعر ، ونقله بشر بن المعتمد ، والذى خرج بعضه . ورأيت أنا في نسخة زيادة بابين . وقد عملت شعراء العجم هذا الكتاب شعرا ، ونقل الى اللغة الفارسية بالعربية . ولهذا الكتاب جوامع وانتزاعات عملها جماعة منهم عبد الله بن المقفع وسهل بن هارون وسلم صاحب بيت الحكمة والمريد الأسود الذى استدعاه المتوكل في ايامه من فارس » .

والظاهر ان ابن لاحق جلب الكتاب من البصرة بعد أن ترجمه عبد الله بن المقفع الذى نشأ بالبصرة في ولاء آل الأهم ، فقد جاء في تاريخ بغداد ما نصه(٢) « أبان بن عبد لحميد بن لاحق بن عفير ، مولى بنى رقاش من أهل البصرة ، شاعر مطبوع مقدم في العلم بالشعر والحفظ له ، قدم بغداد فاتصل بالبرامكة وانقطع اليهم وحمل لهم كتاب كليلة ودمنه فحسن موقعه منهم ، ويقال انه قلب الكتاب في ثلاثة أشهر الى الشعر .. الزم يحيى بن خالد البرمكي أبان بن عبد الحميد دارا لا يخرج منها حتى ينقل كتاب كليلة ودمنه الى الشعر فنقله ، فوهب له عشرة آلاف دينار . أحب يحيى بن خالد أن يحفظ كتاب كليلة ودمنه فاشتد عليه ذلك فقال له ابان بن عبد الحميد : انا اعمله شعرا ليخف على الوزير حفظه فنقله في قصيدة عملها مزدوجة عدد أبياتها أربعة عشر الف بيت في ثلاثة اشهر ... قلت واول قصيدته هـذه :

هـذا كتـاب ادب ومحنـة
وهو الذى يدعى كليلة ودمنة

وكثير من الباحثين يشكون في أن يكون كتاب كليلة ودمنة هو نفس كتاب بانجه تانترا الهندى ، او على الأقل لم يكن عبد الله بن المقفع أمينا في ترجمته للكتاب(٣) . فالكتاب الهندى كان مكونا من خمسة ابواب أولها باب التفريق بين الأصدقاء، ويقابل في النسخة العربية باب الأسد والثور . الثاني باب اكتساب الأصدقاء ويقابل باب الحمامة المطوقة . الثالث باب حرب البوم والغربان ويقابل باب البوم والغربان . الرابع باب ضياع الحاجة بعد الظفر بها ، ويقابل باب القرد والغيلم . الخامس باب خطر ما لا روية فيه من الأعمال ، ويقابل باب الناسك وابن عرس .

هذا هو الجزء المتشابه بين الكتابين غير أن هنالك من يرى أن النسخة الأصلية للكتاب الهندى كانت تشمل ثلاثة عشر فصلا(٤) م فقدت .

وهناك من يرى(٥) ان الكتاب الهندى الأول كان يشمل ٨٧ قصة لا ثلاثة عشر وان اسمه الأصلي « تانترا خايابيكا » .

ويقول بعض الكتاب أن سبب ترجمة الكتاب أن ابن المقفع أراد وعظ المنصور فكتب له رسالة الصحابة ، فلما لم تفلح ترجم له كتاب كليلة ودمنة لعله يتعظ(٦) وربما كانت هذه العظة سببا في أن المنصور أغضى عن الاقتصاص لابن المقفع لما قتله عامل البصرة متهما اياه بالزندقة. ويؤيد هذا الرأى ما رواه البعض من أن مقتل ابن المقفع كان في السنة التى نقل فيها الكتاب.

واثر الكتاب في الأدب العربي غير مجحود فقد احدث نشاطا لدى الكتاب ، فيهم من نظمه شعرا على الوجه الذى مضى ، وفيهم من ألف على شاكلته ومن الأخيرين ابن الهبارية في كتاب الصادح والباغم ، وعبد الله محمد بن أبى قاسم المعروف بابن ظفر في كتاب سلوان المطاع في

---

(١) حامد عبد القادر ص ٤٠ — ٤٧ .
(٢) تاريخ بغداد لابى بكر احمد بن على الخطيب البغدادى ج ٧ ص ٤٤ طبعة الخانجى ١٩٣١ .
(٣) ص ٢٢٣ Aubation : Fables de La Fontaine p. 20.
(٤) The Wisdom of India, by Michel Jareth p. 245.
(٥) قصص الحيوان في الادب العربى لعبد الرازق حميده ص ١٢٥ .
(٦) كشف الظنون لكاتب حلبى ص ٣٢٩ .

عدوان الطباع . وابن عرب شاه فى كتابى فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، ومرزبان نامه. وسهل ابن هارون فى كتاب ثقلة وعفرة وهو شديد الشبه بكتاب كليلة ودمنة فى ابوابه وامثاله (١) .

وفى كشف الظنون أن أبا العلاء المعرى الف كتابا اسمه « القائف » على نسق كتاب كليلة ودمنة فى ستين كراسة ولم يتمه، ومنار «القائف» من عشر كراسات فى شرح القائف (٢) .

أما أثره فى الادب الغربى فليس هذا موضعه، وسوف يجىء .

قصة السندباد

وملخص هذه القصة أن أميرا اتهمته زوجة أبيه بأنه أراد أن يغصبها ، فقضى أبوه بموته ، ولكن تنفيذ الحكم أجل سبعة أيام وأمر ابن الملك أن يلزم الصمت خلال هذه الفترة ، ثم دارت مناقشات بين زوجة الأب وسبعة من العلماء . ومضى هؤلاء يقصون قصصا تدور حول مكايد المرأة وحيلها وشذوذ طبعها . وفى اليوم الثامن ينتهى الأجل الذى كان الطالع قد أنذر الامير بشر مستطير اذا هو تكلم خلاله ، ويباح للامير الكلام فيخرج عن صمته المصطنع ، ويظهر لأبيه الملك براءته ، فيعفو عنه ويلقى بزوجته فى النار .

وتعرف هذه القصة بقصة الوزراء السبعة . واصلها الهندى لم يصل الينا (٣) وقد ترجمت عن الفارسية .

قصة برلام ويواسف

وملخصها أنه كان بأرض الهند ملك عظيم حريص على الاحتفاظ بملكه فباعد بينه وبين رجال الدين وتبع الوثنية ، وكان للملك صديق انقطع عنه ولحق بالنساك . فيرسل له الملك ويناقشه، فيزهد الصديق الناسك الملك فى الدنيا ، فالدنيا هى الصاحب الذى لا يؤمن جانبه ، وهى الطريق المهلك والسفينة الخلقه والبيت الكثير الأفاعى والجنان ذات الوحوش ، وهى التى تعقد التاج على رأس الملك ثم تدفن راسه فى التراب ، وتحلى الايدى بالذهب وتغلها بالحديد ....

والناس مختلفون ، فمنهم من هو كالأسد فى البطش ، ومنهم كالذئب فى الخطف ، ومنهم كالكلب فى الهرير تارة والبصبصة تارة ، ومنهم كالثعلب فى الحيل والسرقة ، والقصد واحد والطرق مختلفة ...

وهنا يغضب الملك ويثور ثم يصيح بالحكيم : أيها الحكيم أنك لم تبصر شيئا ولم تظفر الا بالشقاء العاجل والأمل الباطل والحرمان النازل، فاخرج من مملكتى فانك فاسد .

وتنتقل القصة الى ولد للملك ولد حديثا وقد تنبأ له العرافون بأنه سيبلغ فى المرتبة شأنا كبيرا ، فظن أحد العلماء أنه سيكون أماما فى فى النسك . يحزن الملك لذلك ، ويعزل الصبى عن العالم ، ثم يتخير لتربيته الثقاة على الا يذكروا للصبى موتا ولا آخرة ولا دنيا . وزيادة فى الحرص طرد النساك وأمر بتشتيتهم .. ثم يدرك الملك بعد ذلك أن الكبت قد يؤدى بالغلام الى الاغراء فيطلق سراحه ، ولكنه يأمر بأن ينحى عن موكب الغلام كل منظر سوء ولكن الحراس يغفلون عن رجلين يمران فى طريقه أحدهما مورم مرهل بشع المنظر دائب الأنين ، والآخر اعمى، فلما رآهما اقشعر الغلام وبغض له العيش وزهد فى الملك . ثم رأى مرة شيخا عجوزا أبيض الشعر أسود الأهاب ، فلما سأل عنه قيل أنه الهرم . قال : وفى كم يبلغه المرء ؟ قيل : فى مائة عام ونحوها قال : وما وراء ذلك ؟ قيل له الموت قال : ما أسرع اليوم فى الشهر والشهر فى السنة والسنة فى العمر ثم تنصرف نفسه عن الدنيا وشهواتها . ولما شهر أمر الغلام سمع به أحد النساك فى جزيرة سرنديب ، اسمه برلام ، فقال الناسك : لاخرجن هذا الحى من بين اولئك الموتى ، ثم رحل الى الغلام متنكرا فى زى التجار وتلطف فى الدخول اليه ، واقنعه بحياة الزهد ، فلما سمع الملك غضب غضبا شديدا ، ولكنه لم يمض كبير وقت حتى اعتنق الملك ما استنكره بالأمس(٤) .

هذه هى خلاصة القصة وقد انتقلت من الهند فى القرن السادس عندما ترجمت الى الفهلوية أيام خسرو ، وعن الفهلوية نقلت الى العربية فى النصف الثانى من القرن الثامن(٥) .

---

(١) قصص الحيوان ص ١٣٦ و ١٣٧ .
(٢) ج ٢ ص ٦١٠ — أنظر ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٣١
(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، وانظر البيرونى ، فى تحقيق ماللهند من مقولة ج ١ ص ١٨٣ — ١٨٥ ترجمة سخاو ١٩١٠ .
(٤) F. Hommel : Die alteste arabische Barlaam — Version, 1884.
(٥) المرجع السابق وجورج يعقوب ص ٧٥ — ٧٧ والفكر الاندلسى

فى الفلســفة :

يطلق لفظ الفلسفة فى القديم على علوم الطب والكيمياء والرياضة والفلك بالاضافة الى علوم ما وراء الطبيعة (١) ونحن اذا اخذنا هذا المعنى الشامل كان للهند أثر كبير فى فلسفة المسلمين فى دور تكوينهم العقلى ، وفيما سبق فصلنا بعض ما وصل الينا من علمهم فى الرياضة والطب ..

ولكنا رأينا أن نشير الى الفلسفة فى نطاقها الضيق الذى انحصرت فيه فى العصر الحــديث وهو البحث عن الحقيقة فى علوم ماوراء الطبيعة (الميتافيريكية) ، اذ ان مثل هذا النظر يتفق مع الفهم فى عصرنا الحاضر ، بعد أن تميزت العلوم الطبيعية واتخذت لها كيانا مستقلا .

ونحن اذا اخذنا بهــذا النظر بالنســبة الى الهند وجدنا أنها كانت ذات فلسفة متميزة ، أبرز ما فيها مذهب تناسخ الأرواح وهو احدى الظواهر السائدة فى الفلسفة الهنـدية ، حــكاه عنهــم البيرونى (٢) ، ونقــل عنهم نصوصــا نجتزىء منها : ــ

وقال له (باسديو لأرجن يحرضه على القتال وكان خائفا) كيف يذكر الموت والقتل من عــرف أن النفس أبدية الوجود ، لا عــن ولادة ولا الى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ولا ريح تيبسها ، ولكنها تنتقل عن بدنها اذا عتق نحو آخر ليس كذلك ، كما يستبدل البدل اللباس اذا خلق ..)

ونظرا لان هذا المذهب كان موجودا فى الديانة المانوية نفى من ايرانشهر فدخل الهند ونشر فيها مذهبه ، فلا ندرى أن كانت الفرق الاســلامية كالحائط من أنصار احمد بن حائط (٣) قد اخذت هذه المذاهب عن الهند أو الفــرس ، وان كان الاخذ عن الفرس اقــرب الى الترجيح لقربهــا الى المسلمين من الهند .

تجب الاشارة الى أن مبدأ التناسخ كان معروفا عند فلاسفة اليونان . قــال البيرونى : قــال سقراط فى كتاب « فاذن » نحن نذكر فى أقاويل القدماء ان الانفس تصير من هاهنا الى « ايذس » ...... بل تخرج من الجسد وهى مملوءة منه ، حتى أنها تقع فى جســد آخر سريعا (٤) ، كما ان المذهب كان يقول به فيثاغورس وامبذ كليس وافلاطون . بل يرى بعض المؤرخين ان المذهب انتقل الى اليونان عن الهند (٥) .

من اجل ذلك نكون فى غير حــاجة الى بحث أصول هذا المذهب فى الفلسفة الاسلامية طالما انه انتقل من الهند الى أوروبا قبل الاسلام وبغير وساطة المسلمين ، وذلك جريا على ما التزمناه من قصر دائرة البحث فى نطاق العلوم والفنون الاسلامية التى أثرت فى الحضارة الغربية مباشرة دون غيرها من العلوم .

فى الفنون ــ

الشطرنج

الشطرنج لعبة قديمة ، مثلها مثل النرد . وقد ورد فى الفهرست لابن النديم (٦) تحت عنــوان « الشطرنجيون الذين ألفوا فى الشطرنج كتبا » ــ ورد اسم (العدلى) ... وله من الكتب كتاب الشطرنج ، وهو أول كتاب عمل فى الشطرنج ــ كتاب النرد واسبابها واللعب بها . وورد اسم « الرازى » ... وكان نظــير العــدلى ، وكانا جميعا يلعبان بين يدى المتوكل ، وللرازى كتاب لطيف فى الشطرنج ثم ورد اسم ابى بكر محمــد ابن يحيى الصولى .... ولــه فيهــا كتــاب الشــطرنج النسخة الأولى ــ كتاب الشطرنج النسخة الثانية . ثم ورد أيضا اسم أبى الفرج محمد بن عبيد الله اللجلاج .... وخــرج الى شيراز الى الملك عضد الدولة وبشيراز مات فى سنة نيف وستين وثلاثمائة ، وكان فيهــا بارعا وله من الكتب فيها منصوبات الشطرنج . وأخيرا ورد اسم ابن الأقليدسى ... أبو اسحق ابراهيم ابن محمد بن صالح وكان من الحذاق بها ، وله كتاب مجموع فى منصوبات الشطرنج .

---

(١) احمد أمين فى ظهر الاسلام ج ٢ ص ١٢٧ و ١٢٨ .

(٢) الجزء الخاص بالفلسفة من كتاب « فى تحقيق ما للهند من مقولة » ٥٢ ــ ٥٨ وقد نشر هذا الجزء الدكتوران عبد الحليم محمود وعثمان عبد المنعم يوسف .

(٣) الملل والنحل للشهرستانى . ج ١ ص ٦٨ .

(٤) البيرونى ص ٥٧ .

(٥) أحمد أمين ــ ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٥١ .

(٦) ص ٢٢١ و ٢٢٢ .

ولعبة الشطرنج ليست عربية الاصل،والرأى الراجح انها جاءت عن الهند .

جاء فى مروج الذهب للمسعودى(١) فى صدد حديثه عن ملوك الهند أنــه فى أيام الملك بلهيت صنعت الشطرنج وجعلها مصورة تماثيل متكلمة على صورة الناطقين وغيرهم من الحيوان ممـا ليس بناطق ، وأقام لذلك أمثالا للأجسام العلوية التى هى الاجسام السماوية من السبعة والاثنى عشر ، وأفرد كل قطعة منها تكوكب ، وجعلهـا ضابطة للملكة ، ويقر البيرونى هــذه الصــورة التى تربط بين الشطرنج والفلك (٢) .

ولعل اقدم اشارة اليه قول ابن المعتز وحيطان كشطرنج صفوف ، فما تنفك تضرب شاه ماتا .

ويقول اليعقوبى فى تاريخه (٣) فاجتمعوا على حكم من حكمائهم « حكماء الهند » يقال له قفلان ، وكان ذا فطنة وحكمة ورأى فذكروا ذلك له ، فقال : انظرونى ثلاثا ، ففعلوا ذلك ، وخـلا مفكرا ، ثم قال لتلميـذ له : أحضرنى نجـارا وخشبا من لونين مختلفين،أسود وأبيض،فصور صورة الشطرنج وأمر النجار فنجرها ، ثم قال له احضرنى جلدا مدبوغا ، فأمره أن يخط فيـه أربعة وستين بيتا ففعل ذلك ، فنصب ناحيـة ثم تجاولا حتى فهمـاها فأحكماها ، ثم قـال لتلميذه : هذه حرب بلا ذهاب أنفس ، ثم حضره أهل الملكة فأخرجها لهم ، فلما رأوها علمـوا انها حكمة لا يهتدى اليها أحد ...

ويؤكد الأستاذ هابر لندت(٤) مصدرها الهندى فيقول أن الوطن الاصلى لهذه اللعبة هو بـلاد الهند كمـا يدل على ذلك اسـمها ويتبين من خصائصها ، فالعالم الاسلامى يطلق عليهـا شطرنج وهـو اسم مشـتق من السنسكريتية (تشطورنجا) اعنى أربعة أقسام ، اى جيش وفى النص الفهلوى (مادهيمن شطرنج) نقرأ خبرا عن الملك الهندى « ديسوسرم » الذى أرسل الى كسرى أنوشروان هذه اللعبة مكونة من سـتة عشر شخصا من الزمرد ومثلهذا من الياقوت.

ويقول المستشرق الالمانى جورج يعقوب (٥) وردت اشارتان فى الكتاب الثـانى من بسـتان سعدى يفهم منهما انه فى القرن الثالث عشر كان يجوز ترقية الفلاح (العسكرى) الذى يبلغ صف العدو الخلفى الى وزير (الملكة عند الغرب) وان اللاعب الماهر قد يتنازل عن بعض شخوصه (الاحجار) لخصمه الضعيف . أما اباحة انتقال الملك الى البيت الثانى بعد بيته يمينا أو يسارا وقفز الطابية على الملك اشاراليه حافظأما كلمة Schach ففارسية الاصل وهى شاه معناها ملك ، وكلمة مات التى تستعمل فى المانيـا فى عبـارة ــ شخ مات ــ فهى الكلمة العربية ــ مات ــ وقد ورد هذا الاصطلاح مرتين فى تاريخ اليعقوبى حيث نقرأ ــ شاه مات ــ .

أما الشخص الذى يطلق عليه فى المانيا ملكة فهو فى الشرق الوزير ، وذلك لان الملكة الشرقية لا تنتقل بحرية بين الرجال كما هى الحـال مع ملكة الشطرنج . أما الاسم القـديم فى أوروبا للطابية فهو الذى مازلنا نجده فى الفرنسية Roc وفى الكلمة الالمانية (٦) Rochiern وهو اسم الطائر العظيم المعروف باسم رخ ، ويقـال أن بيضه وجد فى مدغشقر .

وتأييدا لذلك يقول عمر الخيام فىرباعياته(٧).

وانمـا نحن **رخـاخ** القضاء
ينقلنا فى اللـوح أنى يشـاء
وكل مـن يفـرغ مـن دوره
يلقى به فى مسـتقر الفنـاء

وقد كتب الفردوسى فى الشاهنامة صحائف طريفة عن الشطرنج ، وقص أخبار لعبه شعرا. وقد كان للشطرنج أثر غير مبـاشر فى معـرفة حساب المتوالية الهندسية (٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦) ... وسبب ذلك أن واضع الشطرنج كما يقال ، طلب أجراء له ، أن يعطى حبا من القمح بعدد ما يوضع فى عيون رقعة الشطرنج ، فى الاولى واحدة ، وفى الثانية ضعفها وفى الثالثـة ضعف

---

(١) ج ١ ص ١٥٩ طبع باريس ١٨٦١ .
(٢) فى تحقيق ماللهند من مقولة ــ ترجمة سخاو ج ١ص ١٨٣ ــ ١٨٥ ط ١٩١٠ .
(٣) ج ١ ص ١٠٣ ط أوروبا .
(٤) M. Haberlandt : Der Altin dischte Geist.
طبعة ١٨٨٧ ويؤكده المسعودى فى مروج الذهب ج ١ص ١٥٧ ــ ١٦١ .
(٥) أثر الشرق فى الغرب وخاصة فى العصور الوسطىص ٩٠ .
(٦) بالانجليزية Rook .
(٧) رباعيات الخيام ترجمة أحمد رامى ص ٦٤ الطبعةالخامسة .

ما فى الثانية ، وهكذا الى العين الرابعة والستين، وقد ظنت أمرا هينا ، فلما بدءوا فى التنفيذ وجدوا ان ما فى خزائنهم لا يكفى ! وقد ذكر الصفدى هذه الاسطورة واثرها فى الحساب ، وقال البيرونى انه حين اختصر الحساب وصل الى ملاحظات طريفة فى هذا الشأن(١) .

ويقول البعض أن الشطرنج كان معروفا عند قدماء اليونان وينسبونه الى « بالاميدس » ولكن الأخبار المتعلقة بذلك اسطورية ، والاغلب انه جاء اليهم من بلاد الفرس (٢) .

والراجح عند المحققين ان الشطرنج هندى الاصل ولكن المسلمين نقلوه عن طريق الفرس .

اصل الحضارة الهندية

يثير بعض الباحثين الشك فى اصالة الحضارة الهندية ، ويردها البعض الى مدرسة الاسكندرية ذات الطابع الاغريقى فيقول أوليرى (٣) أن مدينة ينالى يوترا من مدن الهند اصبحت فى عهد اسرة غبطا موطنا للدراسات وخصوصا للفلك والرياضيات وهما علمان يبدو فيهما الطابع الاغريقى السائد فى الدراسات المعاصرة فى مدرسة الاسكندرية .

وقد كان اريا بهاتا(٤) معلما فى ينالى يوترا والف كتابا فى هندسة الدوائر اسمه غولا تعرض فيه للرياضيات ، فحل المعادلات الرياضية التى استعمله قبله ديوفا نتوس الاسكندرى ..

.. والف فاراهامى هيسا كتابا سماه Pance + Sidhanlika وهو مجموع فنون خمسة فى الفلك يبدو فى اربعة منها النفوذ الاسكندرى الثقافى ، فاثنان منها يحملان اسماء غير هندية ، الاول Romank والثانى Peulisa وهذا الأخير يشتمل على جدول الاوتار الذى وضعه كلوديوس بطليموس(٥) . وتشير هذه المتون الى الاغريق ... باعتبارهم حجة فى العلم ..

ويستشهد كذلك ببواهما غبطا (٦) ، فقد كان يعمل فى اجين حيث كان تحت مرصد وكتب متنا فى الفلك تحت اسم ......Brahma Siddhanta والذى حرفه العرب فيما بعد الى «السند هند» ويرجح اوليرى أن براهما غبطا أخذه من أصل أغريقى عن طريق مدرسة الاسكندرية ، وواضح من هذا انه فى العهد الذى كان الطريق البحرى فيه مستخدما بين الاسكندرية واجين كانت الرياضيات مبنية على التعاليم الاسكندرية الاغريقية(٧) ، ويقول فى موضع آخر (٨) . لقد كان الفلك والرياضيات التى تعلمها العرب من معلميهم الهنود باللغة الفارسية ذوات أصل اغريقى انتقلت من الاسكندرية الى شمال الهند الغربى ، ولكنه لا يبدو أن المؤلفات الاغريقية الاصلية قد انتشرت فى الهند .

ويرى هذا الرأى آخرون، من بينهم هويتنى(٩) Whitney معتمدا على أن عدم وجود التحسينات التى ادخلها بطليموس على الفلك الهندى معناه أن الهنود أخذوا عن اليونان قبل عصر بطليموس ، وان الهنود كانوا يتصلون بالحضارة الأغريقية مع التجارة الناشطة بين الاسكندرية وساحل الهند الغربى بطريق البحر فى العصر الميلادى الاول . أما كاى G.R. Kaye فيذكر ان الاتصال بين اليونان والهند كان عن طريق البر بواسطة فارس والصين كما كان يوجد عدد من الرياضيين اليونان فى بلاط كسرى الاول ، وان السوريين كانوا رسل الثقافة اليونانية فى الهند، لا فى الرياضيات فحسب ولكن فى النحت والعمارة والنقود والفلك والتنجيم .

أما برجس Burgess وكان مبشرا فى الهند وترجم السوريا سدهانتا فقد رأى أن الهنود بالرغم من أنهم لم يضعوا ما يشبه كتاب المجسطى فانهم كانوا مبتكرين فى معظم الحقائق الاولية فى مبادىء الفلك ، وان اليونان استعاروا منهم هذه

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ج ١ ص ١٨٣ — ١٨٥ ترجمة سخاو لندن ١٩١٠ ، والآثار الباقية ج ١ ص ١٨٣— ١٨٥ ترجمة سخاو لندن ١٩١٠ .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية .
(٣) مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ص ١٥٦ .
(٤) ولد بين سنتى ٤٧٦ — ٤٩٩ .
(٥) كان أستاذا فى أثينا والاسكندرية معا .
(٦) توفى سنة ٦٢٨ ميلادية .
(٧) ص ١٦٣ .
(٨) ص ١٥٩ .
(٩) جورج حداد ج ٢ ص ١٠٢ .

المبادىء ، وربما يكون الهنود واليونان أخذا مصدر مشترك .

ويقول كلارك W. E. Clark في كتاب تراث الهند ، أنه وأن كان الحافز لعلم فلك جديد اتى من اليونان ، فأن الافكار الجديدة تبناها الهنود ووفقوا بينها وبين معلوماتهم وطرق حسابهم (١) .

ومهما يكن من شيء فان الثابت تاريخيا أن اليونان اتصلوا في فترة ما بالهند ، فقد غزا الاسكندر المقدوني وادى السند وفتحه سنة ٣٢٧ ق.م. واحتل تاكسيلا وكان فيها جامعة تدرس الطب والقانون وغيره من العلوم . واستعان كانيشكا ملك الكوشان ببعض رجال الفن من اليونان لزخرفة مبانيه وكان يوجد فنان يوناني في خدمته اسمه اجيسلاوس ووضع الفنانون اليونان صورا لبوذا بشكل الالهابولون، وبقى تأثير هذا الشكل اليوناني فيالصين والهند. وعرفت مدرسة الفن الهندى اليوناني باسم مدرسة غندرة بالنسبة الى المدينة الرئيسية في شمال غربي الهند .

وربما تاثرت المسرحية الهندية باليونانية ، لان روايات اليونان كانت تمثل في بلاط مناندر ملك باكتيريا وكانت كثير من سفن اليونان تزور موانى الهند (٢) . وهناك تشابه في النظر الى القوى الالهية في اشعار هوميروس وفي الريغفيدا كقوى مجردة وليست كاشخاص ، كما أن كثيرا من القصائد الفلسفية المتعلقة باللانهاية وبالعناصر وبالتقمص متشابهة عند الهنود واليونان وكذلك نجد التدرج نحو التوحيد في كتاب كزينوفانس اليوناني وفي الأوبنيشاد وبعض العلماء يرجعون بهذه التشابهات الى الأزمنة البعيدة التي كان فيها أجداد الهنود واليونان شعبا واحدا (٣) .

على أن هنالك وجهة نظر عكسية ترى أن الهنود هم الذين أمدوا اليونان واثروا على الفلسفة اليونانية وقد قامت مناقشات وبحوث تؤيد هذا النظر (٤) .

---

(١) انظر جميع هذه الآراء في جورج حداد ج ٢ ص١٠٢ ، ١٠٣ .
(٢) جورج حداد ج ٢ ص ٨٩ و ٩٠ .
(٣) جورج حداد ج ٢ ص ٩٠ — ٩١ .
(٤) انظر رسالة George P. Conger في : Did India influence early Greek philosophy East and West ? V. 2 (1952).

ثانيا : الحضارة الفارسية

ربما كانت الحضارة الفارسية من ناحية العلوم الطبيعية والرياضة والفلسفة أضعف أثرا فى حياة المسلمين ومن تأثروا بهم من الحضارة الاغريقية ، أو ربما كان الذى وصل الينا من نتاج الحضارة الاغريقية ، ذلك بأن علوم فارس فى التنجيم والهندسة والجغرافية قد ضاعت عند غزو الاسكندر لبلادهم وتلفت معظم خزائن كتبهم ، وان كانت الدولة الساسانية قد أعادت الى الفرس بعض أمجادهم العلمية . وفى هذا المعنى يقول حمزة الأصفهانى »(١) فأما تاريخ من كان قبل الساسانية من ملوك الأشغانية فلم أشتغل بها للآفات المعترضة فيها — كانت فى أزمنة أولئك الملك — وذلك أن الاسكندر لما استولى على أرض فارس وقهر أهلها صدهم على ما كان اجتمع لهم من العلوم التى لم تجمع قط لأمة من الأمم مثلها ، فأحرق من كتبهم ما نالته يده ثم قصد الى قتل الموابذة والهرابذة والعلماء والحكماء وما كان يحفظ عليهم فى أثناء علومهم وتواريخهم حتى أتى على عامتهم ، هذا بعد أن نقل ما احتاج اليه من علومهم الى لسان اليونانيين » .

ومع ذلك فقد وصل الينا كثير من آثارهم التى ترجمت فى عهد المنصور من العباسيين ، واهتم المأمون بترجمة الكتب الفارسية ، فكلف سهل ابن هارون بهذه المهمة(٢) .

بيد أن قلة ما انتج الفرس من العلوم بالقياس للفيض العميم الذى جاءنا من قبل اليونان لا يقدح فى المجهود العظيم الذى قام به العجم والذى أثر فى حضارة الاسلام تأثيرا ان لم يكن مباشرا فهو تأثير غير مباشر على الأقل ، فالعلوم الاسلامية وجدت فى عقلية الفرس أرضا خصبة للنمو والنضوج حتى أصبح الفرس سادة العلوم فى قلب الدولة الاسلامية . وتتمثل هذه السيادة نثرا فى أسلوب ابن المقفع الرائع فيما ألف وفيما ترجم ، وتظهر كذلك فى حكمها التى لا تخرج الا عن عقلية جبارة .

وتتمثل نحوا وصرفا فى سيبويه والكسائى والفراء ، وتتمثل شعرا فى شاهنامة الفردوسى التى عارض بها الياذة هوميروس وفى رباعيات عمر الخيام وفى ديوان الصادح والباغم لابن الهبارية ، وتتمثل قصصا فى كتاب ألف ليلة وليلة ، وفلسفة وطبا ابن سينا وفقها فى أبى حنيفة النعمان ، وهى آثار لا يزال العالم الشرقى والغربى على وحى كثير منها الى اليوم .

لقد ظهرت العقلية الفارسية حتى فى العلوم الخالصة للعرب ، وهى علوم القرآن والسنة ، فقد نبغ فيها الموالى وهم من العجم ، وقد نقلت لك عن العقد الفريد(٣) حديث ابن أبى ليلى وعيسى ابن موسى عن فقهاء العجم فى الدولة الاسلامية ، والآن أنقل لك نصا عن ابن خلدون(٤) . قال تحت عنوان — فصل فى أن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من العجم — « من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم من العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا فى القليل النادر ، وان كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى . والسبب فى ذلك أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ، وانما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف

---

(١) تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء لحمزة الاصفهانى ص ٢٢ .

(٢) خودابخش ص ١٦٥ .

(٣) ج ٢ ص ٢٦٢ — الطبعة الازهرية .

(٤) المقدمة ص ٥٤٠ — ٥٤٢ طبعة لجنة البيان العربى .

والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعتهم اليه حاجة .. ثم احتيج الى معرفة وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فأصبح الى وضع القوانين النحوية ، وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات فى الاستنباطات والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت الى علوم أخرى وهى وسائل لها من معرفة قوانين العربية وقوانين ذلك الاستنباط والقياس والذب عن العقائد الايمانية بالأدلة لكثرة البدع والالحاد ، فصارت هذه العلوم كلها علوما ذات ملكات محتاجة الى التعليم فاندمجت فى جملة الصنائع ، وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضروان العرب(١) أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها ، والحضر لذلك العهد هم العجم أو من فى معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس ، فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم فى انسابهم ، وانما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيرورة قوانين وفنا لمن بعدهم ، وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الاسلام واكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجما كما يعرف ، وكذا حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الأعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلق العلم بأكناف السماء لناله قوم من أهل الفرس » .. وأما العلوم العقلية أيضا فلم تظهر فى الملة الا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه واستقر العلم كله صناعة،فاختصت بالعجم وتركتها العرب وانصرفوا عن انتحالها فلم يحملها الا المعربون من العجم ، شأن الصنائع كما قلناه أولا ، فلم يزل ذلك فى الأمصار ما دامت الحضارة فى العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر ، فلما خرجت تلك الأمصار وذهبت منها الحضارة التى هى سر الله فى حصول العلم والصنائع ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة ، واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر فهى أم العالم وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع » .

الترجمة عن الفارسية :

اهم من ترجموا عن اللسان الفارسى الى العربى عبد الله بن المقفع ثم آل نوبخت وموسى بن خالد ويوسف بن خالد وعلى بن زياد التميمى والحسن ابن سهل والبلاذرى وأحمد بن يحيى بن جابر وجبلة بن سالم واسحاق بن يزيد ومحمد بن الجهم البرمكى وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردى وزادويه بن شاهويه الأصفهانى ومحمد بن بهرام وبهرام بن مردام وعمر بن الفرخان(٢) . ومن نقلة الابط بن وحشيه .

الكتب الفارسية المترجمة للعربية فى الأدب والتاريخ :

أغلب الكتب التى نقلها العرب عن الفرس فى الأدب وخاصة فى الأدب القصصى والحكمة ، وأهم ما نقلوه : كتاب رسم واسفندياز وكتاب بهرام وشوس ، نقلهما جبلة بن سالم . كتاب خداى نامة فى السير ، كتاب آيين نامه ، كتاب مزدك ، كتاب التاج فى سيرة انوشروان ، كتاب الآداب الصغير ، كتاب الاداب الكبير ، كتاب اليتيمة ، نقلها عبد الله بن المقفع ، سير ملوك الفرس وهى اكثر من كتاب ، ترجم أحدها محمد بن جهم البرمكى وآخر ترجمة زادويه ابن شاهويه وثالث ترجمة محمد بن بهرام بن مطيار الاصفهانى . كما نقل الفرس هزار افسانه (الف ليلة وليلة) ، شهر زاد مع أبرويز ، كتاب الكارنامج فى سيرة أنو شيروان ، كتاب دارا والصنم الذهب ، كتاب بهرام وترسى ، كتاب هزاردستان ، كتاب الدب والثعلب(٣) وهذه لم يعرف ناقلوها .

الف ليلة وليلة :

أهم الكتب المترجمة عن الفارسية هو كتاب الف ليلة — هزار أفسان — وذلك لأن أثر الكتاب فى الأدب الغربى لا يزال ملحوظا منذ أجيال بعيدة وقد ذكر صاحب الفهرست (٤) عن هذا الكتاب ما يلى : كتاب هزار أفسان ، ومعناه الف خرافة ، وكان السبب فى ذلك أن ملكا من ملوكهم (الفرس) كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة

---

(١) الظاهر ان ابن خلدون يقصد بلفظ العرب فى هذا المقام « الاعراب » أى البدو من العرب .
(٢) انظر الفهرست ص ٣٤١ و ٣٤٢ .
(٣) الفهرست ص ٤٢٤ ، والتمدن الاسلامى لجورجى زيدان ج ٣ ص ١٧٦ .
(٤) ص ٤٢٢ و ٤٢٣ .

قتلها من الغد ، فتزوج بجارية من أولاد الملوك ممن لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه ابتدات تخرفه وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ويسألها فى الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن اتى عليها الف ليلة وهو مع ذلك يطأها الى أن رزقت منه ولدا أظهرته ، وأوقفته على حيلتها عليه فاستعقلها ومال اليها واستبقاها . وكان للملك قهرمانةتقال لها دينارزاد فكانتموافقة لها على ذلك . وقد قيل أن هذا الكتاب الف لحمانى ابنة بهمن وجاء وافيه بخبر غير هذا . والصحيح ان شاء الله أن أول من سمر بالليل الاسكندر وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لا يريدبذلك اللذة ، وانما كان يريد الحفظ والحرس أو استعمل لذلك بعده الملوك كتاب هزار افسان ، ويحتوى على الف ليلة وعلى دون المائتى سمر لأن السمر ربما حدث به فى عدة ليال . وقد رأيته بتمامه دفعات ، وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث . قال محمد بن اسحاق : ابتدأ ابو عبد الله محمد ابن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسماء العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته لا يعلق بغيره واحضر المسامرين فأخذ عنهم أحسن ما يعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة فى الأسمار . والخرافات ما يحلو بنفسه ، وكان فاضلا فاجتمع له من ذلك اربعمائة ليلة وثمانون ليلة كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة واقل او أكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما فى نفسه من تتميمه ألف سمر . ورأيت من ذلك عدة أجزاء بخط ابى الطيب اخى الشافعى .

وقد بدأ المستشرقون الأوروبيون(١) فى بحث أصل هذا الكتاب بحثا جديا منذ بداية القرن التاسع عشر . ويدور هذا البحث حول موضوعين . أولهما معرفة ما اذا كان واضع الكتاب واحدا أم أكثر والثانى معرفة العناصر التى تداخلت فى انشاء القصص الواردة فى هذا الكتاب .

اما عن الموضوع الأول فالرأى فيه مختلف عليه، اذ يرى وليم لين William Lane أن الكتاب بأكمله لمؤلف واحد(٢) .

ويرى سلفستر دى ساسى(٣) Silvestre de Sacy انه لا يمكن أن يكون الكتاب من صنع مؤلف واحد .

أما عن الموضوع الثانى فقد اختلف الباحثون حول العناصر التى أسهمت فى تكوين الكتاب . وقد نشأ هذا الاختلاف حول تفسير نص أورده المسعودى وهو فى صدد كلامه عن أخبار شداد ابن عاد ومدينته ارم ذات العماد . قال «ان هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة نظمها من تقرب من الملوك برواياتها ، وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة من الفارسية والهندية والرومية (وفى رواية أخرى الفهلوية بدل الهندية) مثل كتاب هزار افسانه والناس يسمون هذا الكتاب الف ليلة (وفى روايتين أخريين الف ليلة وليلة) .

وقد استنتج فون هامر(٤) Hammer أن الكتاب مكون من عدة عناصر أجنبية وأيد هذا الرأى كثيرون من الباحثين ، منهم أوسترب(٥) Oestrup الذى قال بوجود ثلاث طبقات : فارسية ، تضمنت كتاب هزار أفسانه القديم ، ثم طبقة بغدادية ثم طبقة مصرية ويرى هذا الرأى نلوكه(٦) Nuldeke وشوفان(٧) Chauvin وأحمد حسن الزيات(٨) .

أما دى ساسى فقد أنكر وجود عناصر هندية أو فارسية كما قال المسعودى ، وان الفقرة الواردة فى كتابه مدسوسة عليه(٩) .

وفى رأيى أن نص المسعودى لا يقطع بوجود طبقات فى الكتاب ، اذ أن قوله فى أخبار شداد

---

(١) أنظر دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) مقدمة كتاب ألف ليلة وليلة المترجم الى الانجليزيةتحت اسم : The Abian Nights (لندن ١٨٣٩ — ١٨٤١) .
(٣) سنة ١٨١٧ ص ٦٧٨ Journal des Savants
Recherches sur l'origine du recueil des contes intitulés les Milles et une Nuit (Paris, 1829)
Mémoires de l'Académie des inscriptions des Belles Lettres.
(٤) ص ٢٣٦ سنة ١٨١٩ م . Wiener Zahrbucher
مجلد ١ ج ١٠ مجموعة ٢ ج ٨ . Journal Asiatique
(٥) كوبنهاجن ١٨٩١ . Studier 1001 nat
(٦) ج ٤٢ ص ٦٨ . Zu den Agyptischen Nurchen Zettchr d, Deutsch, Morgent Gesellech.
(٧) La recension égyptienne de Mille et une Nuit.
(٨) أصول الادب ص ٥٠ .
(٩) مراجعه السابقة التى أشرنا اليها .

«وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة الفارسية والهندية الرومية مثل كتاب هزار افسانة » هذا النص لا يفيد قطعا ان الكتاب به هذه العناصر كلها ، انما هو يضرب المثل بالكتب الأخرى المترجمة اما من الفارسية واما من الهندية واما من الرومية ومنها كتاب هزار افسانه ، وليس ضروريا أن تجتمع كل هذه العناصر فى الكتاب المذكور . كل ما يفيد النص أن الكتاب به عنصر اجنبى على نحو ما .

واقرب الروايات التاريخية الى التصديق رواية محمد بن اسحاق التى تقول بأن الجهشيارى هو واضع كتاب الف ليلة ، اختاره من اسمار العرب والعجم والروم وانه لم يتم منه الا اربعمائة ليلة ثم مات والظاهر أن نفرا ممن جاءوا بعد الجهشيارى بزمن متأخر أعاد كتابة ما ألفه الجهشيارى بلغة عامية ثم أتمه الى الف ليلة ثم زاد ليلة بعد الألف .

ووجود العناصر الأجنبية فى الكتاب لا يدل الا على المادة التى الف منها أما بالنسبة لمن أتم الكتاب ، فقد يكون فارسيا أو مصريا ، وان كانت اللهجة التى كتب بها الكتاب تقطع بأنه مصرى ، لأن هذه اللهجة ، والأسلوب المتلبس بهما الكتاب مما لا يرى فى غير مصر .

وليس فى رواية محمد بن اسحاق ولا فى رواية غيره ما يدل على أن من أتم الكتاب أكثر من واحد ، لأنه حتى مع التسليم بوجود عناصر أجنبية فى كتاب فان هذا لا يمنع أن يكون مؤلفه واحدا ، وانما جمعه من طائفة من مختارات الثقافات الأجنبية ، ولا شك أن فى الكتاب اثرا فارسيا تدل عليه الأسماء الفارسية التى غص بها الكتاب كشهريار وشهرزاد واصل هندى دليله تشابه بعض حكاياته بحكايات كليله ودمنه كقصة الحمار والثور التى وردت فى مقدمة الكتاب ، وأصل مصرى يرجع الى أسلوب الكتاب القريب من اللغة العامية المصرية(١) .

الشاهنامة :

نظمها بالفارسية أبو القاسم الفردوسى من ستين الف بيت من الشعر(٢) يروى فيها قصة الفرس للسلطان محمود الغزنوى . وبها قسم تاريخى لدولة الساسانيين وقصة دارا والاسكندر المقدونى وبها قسم خرافات وأساطير .

وقد ترجمها نثرا الفتح بن على البندارى(٣) الأصبهانى للملك المعظم عيسى الأيوبى سنة ٦٩٧ هـ . وقام الدكتور عبد الوهاب عزام بترجمة فصل منها أغفلت ترجمته وهى تذكرنا بالألياذة(٤) والأوديسة(٥) التى نظمها هوميروس عن حرب طروادة .

وقد كتبت الشاهنامة قبل أن ينظمها الفردوسى بالفهلوية ، وعرفت عند الفرس باسم خداى نامة أو خوتاى نامك ، اى كتاب السادة . وقد ترجم عبد الله بن المقفع هذا الكتاب الى العربية مع كتب اخرى(٦) فهل نظم الفردوسى الشاهنامةعن خداى نامة هذه أم انه أخذ عن كتب تاريخية اخرى تعرضت لحياة الفرس ؟

من المؤكد انه كان يوجد فى عصر الفردوسى اكثر من كتاب مترجم عن حياة الفرس ، اذ يذكر حمزة الأصفهانى(٧) بعد أن تكلم عن تاريخ الفرس انه نقح ما كتب وراجعه على كتب أخرى مترجمة عن الفارسية . قال : « فاتفق لى ثمانى نسخ ، وهى : كتاب سيرملوك الفرس من نقل ابن المقفع،وكتاب سير ملوك الفرس من نقل محمد بن الجهم البرمكى وكتاب تاريخ ملوك الفرس المستخرج من خزانة المأمون ، وكتاب سير ملوك الفرس من نقل أو جمع محمد بن بهرام بن مطيار الاصبهانى ، وكتاب تاريخ ملوك بنى ساسان من نقل أو جمع هشام بن قاسم الأصفهانى ، وكتاب تاريخ ملوك بنى ساسان من اصلاح بهرام بن مراد نشاه موبذكورة شابور من بلاد فارس . فلما اجتمعت لى هذه النسخ ضربت بعضها ببعض حتى استوفيت منها حق هذا الباب » .

---

(١) أنظر الزيات فى الموضع السابق .
(٢) يقول الفردوسى فى مقدمة الشاهنامة أن الدقيقى نظم منها قبله ألف بيت ثم قتل .
(٣) كشف الظنون لكاتب حلبى (حاجى خليفة ج ٢ص ٤٧) .
(٤) هى غضبة من أخيل بطل اليونان على قومه ثم حميته لهم وكان قد اعتزلهم فى حرب طرواده نقمة على اجاممنون الذى اغتصب فتاة أسرها أثناء الحرب . وهى تتناول العشر سنين التى حاصر فيها اليونان طروادة .
(٥) تتناول تيه أوذيس ملك جزر ايثاكه وداهية الاغريق ، عشر سنين على لجة الماء حيث هاجت العواصف على سفنه وهو راجع من حرب طرواده .
(٦) كتاب مزدك ، والتاج فى أخبار أنو شروان وكتاب آئين نامه .
(٧) تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء ص ٩ .

والراجح أن الشاهنامة اخـذت من اكثر من كتاب . يؤكد ذلك ما ذكره البيرونى(١) عن البلخى الشاعر أنه صحح كتاب الشاهنامة من خمسة كتب (منها أربعة من الكتب الثمانية التى ذكرها حمزة الأصفهانى) وانه قابل ذلك بما أورده بهرام الهروى المجوسى .

هذا القول يدل من غير شك على أن ما ورد فى الشاهنامة لابد أن تكون أصوله فى هـذه الكتب الخمسة لا فى خداى نامة التى ترجمها ابن المقفع فحسب .

ويذكر باى سنقر حفيد تيمور لنك فى مقدمته التى وضعها للشاهنامة ان الذى ترجمهـا من الفارسية الى العربية (قبل أن ينظمها الفردوسى) كانوا خمسة ، ذكر منهم مسعود بن منصور المعمرى ، ولم يذكر الأربعة الباقين ولكن أمكن الاسندلال عليهم(٢) من مصادر أخرى،وهم تاج ابن خراسانى من هراه ويزدان داذ بنشابور من سيستان وما هوى خورشـيذ بن بهرام من نيسابور . وشاذان بن برزين من طوس .

والآن نتساءل : هل جمعت أكثر من شاهنامة ؟

لقد ذكر بايسنقر فى مقدمته على الشاهنامة انها جمعت لأبى منصور عبد الرزاق بن عبد الله فرخ ، وأشار البيرونى فى أكثر من مناسبة الى أبى منصور بن عبد الرزاق الطوسى(٣) .

ويقول الفردوسى فى مقدمة الشاهنامة المنظومة أن منصور بن محمد أغدق عليـه من ماله حتى يفرغ من نظم الشاهنامة ولا شك أن منصـور ابن محمد هذا هو منصـور بن عبد الرزاق الطوسى وقد ولى خراسان من قبل السامانيين وجعله منصور بن نوح قائد خراسان سـنة ٣٥١(٤) . واذا كان الطوسى لم يدرك تاريخ جمع الشاهنامة الذى ذكره بايسنقر وهو سنة ٩٦٠ ، الا انه أمر بجمعها سنة ٣٤٦ وهذا يلائم تاريخ أبى منصور .

أما أبو منصور عبد الرزاق بن عبد الله فرخ الذى ورد فى مقدمة بايسنقر انما ورد من قبيل الخطأ الشائع فى هذه المقدمة .

فى الطب :

اما عن الكتب الطبية المنقولة عن الفرس فقد ذكر ابن النديم تحت عنوان « أسماء كتب الفرس فى الطب » ما يلى :

« المشهورون بالطب فى أيام ملوك الأعاجم من وصل الينا تأليفه ونقل الى العربى تيادورس، وكان نصرانيا ، وبنى له سـابور ذو الأكتاف البيع فى بلده ، ويقال ان الذى بنى له بهـرام جور ، ونقل له الى العربى : كتـاب كناش تيادورس » .

فى النجـوم :

تكلم القاضى صاعد بن احمد عن علاقة الفرس بعلم النجوم فقال « وكانت لهم ارصاد للكواكب قديمة ومذاهب فى حركاتها مختلفة ، فمن ذلك المذهب الذى الف عليه أبو معشر جعفر بن محمد البلخى زيجـه الكبير وذكر أنه مذهب العلماء المتقدمين من أهل فارس وكثير من علماء سائر النواحى »(٥) الى أن قال :

وللفرس كتب جليلة فى أحكام النجوم منهـا كتاب فى صور درجات الفلك ينسب الى ازردشت وكتاب التفسير وكتاب جاماساف ، وهو جليل جدا »(٦) .

فى اللاهـوت :

لم يكن للفرس اثر على المبادىء الفقهية من مذاهب أهل السـنة ، فالعلوم الشرعية ظلت تابعة للكتاب والسنة دون انحراف عن الجادة ، وانمـا كان للمذاهب الفارسية أثر فى مذاهب المتكلمين المسلمين وخاصة الفرق الشاذة .

---

(١) الآثار الباقية ص ٩٩ .
(٢) مقـدمة الشاهنامة طبعة تبريـز ١٢٧٥ هـ ونلدكه« الحماسة الايرانية » ص ١٢ نقـلا من مقدمة اخـرى للشاهنامة غير مقدمة بايسنقر .
(٣) الآثار الباقية ص ١١٦ و ٣٨ .
(٤) الحماسة الايرانية لنولدكه ص ٢٦ .
(٥) ص ٢٤ .
(٦) ص ٢٥ .

كانت فارس مهدا للزرادشتية وهم اتباع زرادشت الحكيم بن بورشت(١) ويقول الأستاذ جاكسون فى « حياة زرادشت » أنه توفى حوالى سنة ٥٨٣ وأن له كتابا مقدسا اسمه أفستا(٢) وانه يقول بتنازع القوى المختلفة للخيروالشر . وقد قضى الاسكندر على الزرادشتية ولكنها انتعشت فى ظل الدولة الساسانية(٣) .

وكانت فارس أيضا مهدا للمانوية ، وهىديانة تنسب الى مؤسسها مانى وهو ابن فاتك الحكيم كما يقول الشهرستانى فى الملل والنحل(٤) ، ولد عام ٢١٥ أو ٢١٦ م كما يقول البيرونى فى كتابه الآثار الباقية ، وظل مذهبه الى القرن السابع الهجرى .

وتشبه تعاليم المانوية تعاليم ، الزردشتية فى أن العالم تتنازعه قوتان : الخير والشر وتدين المانوية بمبدأ تناسخ الأرواح(٥) والزهو ، وتحريم النكاح ، والصوم ، وهى أمور من مقدمات التصرف ، ولعل تعاليمه هذه قد نقلت الى الهند عندما دخلها مخفيا كما ذكر البيرونى فيما أسلفنا .

ومن المذاهب الفارسية المذهب المزدكى المنسوب الى مزدك وقد ظهر حوالى ٤٨٧م ، وظهوره كان معاصرا لقباذ والدكسرى انوشروان كما يقول الشهرستانى « وكان يقول بالنور والظلمة أيضا ولكنه كان يدعو الى الاشتراكية وكان ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال ، أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ . وحكى أنه أمر بقتل الأنفس ليخلصها من الشرور ومزاج الظلمة » (٦) .

وليس يعنينا فى أمر الفلسفه الفارسية شىء كثير ، ذلك بأنها تقوم على التنويه ، فهى لم تؤثر على فلاسفة المسلمين الذين كرسوا جهودهم للتوفيق بين الفلسفة والشريعة الاسلامية القائمة على التوحيد ، كما أن العرب لم يكونوا وسطاء فى نقل الأفكار الفارسية الى الغرب ، فتناسخ الأرواح كان قائما منذ عهد سقراط اى قبل أن يظهر الاسلام ، بل قبل أن تظهر المسيحية . أما بعد ظهور المسيحية فان الفلاسفة الغربيين أسسوا مبادئهم على المذهب المثالى أو على الافلاطونية الحديثة .

وكلاهما بعيد عن المؤثرات الفارسية . ثم ان ديانتهم المسيحية قامت على التثليث ، وهو أبعد ما يكون عن مذاهب الفرس الثنوية .

فى الفنــون :

النرد (الطاولة)

ورد فى الفهرست لابن النديم تحت عنوان « الشطرنجيون » ورد اسم « العدل » ...... وله من الكتب كتاب الشطرنج ، وهو أول كتاب عمل فى الشطرنج ، كتاب النرد وأسبابها واللعب بها »(٧) .

وورد فى شعر البهاء زهير المصرى .

فاليك فى النرد عند حاجته

هو خير من الشيش فى اللعب

وهذا الشعر يضم نفس المصطلحات التى نستعملها الان فى « الطاولة » وهو الاسم العامى للنرد .

ويحكى المسعودى أن النرد كالشطرنج هندى الأصل(٨) . ومع ذلك فالراجح أن المسلمين أخذوه عن طريق الفرس ، يدلك عليه أن الاصطلاحات المستعملة فى لعبة النرد فارسية فلفظ : يك(١) ، دو (٢) ، سى (٣) ، جهار(٤) ، بيج(٥)،٩٤ شيش(٦) وكذلك هب يك ، دوبارة ، دوسى ، دورت جى ، دوبيش ، دوش (١٠) .

---

(١) الملل والنحل ج ٢ ص ٦٣ و ٦٤ .
(٢) يقول الشهرستانى ان اسم الكتاب « زندوستا ».
(٣) انظر الرأى فى الفقه الاسلامى .
(٤) ج ٢ ص ٦٥ .
(٥) الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى ص ١٦٢ .
(٦) الملل والنحل ج ٢ ص ١٩ ، وانظر أيضا الفرقبين الفرق ص ١٦٠ .
(٧) ص ٢٢١ .
(٨) مروج الذهب ج ١ ص ١٥٧ — ١٦١ .
(٩) بيش لفظ تركى ، وكذلك شيش بيش أى (٦ و ٥)فيها بيش لفظ تركى .
(١٠)دوش محرفة من دوشيش للتخفيف .

ويذكر الأستاذ جورج يعقوب فى مقدمة الجزء الخامس عشر من مطبوعات المكتبة التركية التى كان يتولى اصدارها أن لعبة « الطاولة » متصلا اتصالا قويا بالطاولة التركية والنرد الفارسية .

وتتبع هملى تاريخ هذه اللعبة ونشأتها فانتهى به البحث أن وطنها الأصلى هو بلاد الصين(١) .

وفى دائرة المعارف الحديثة(٢) ورد تحت اسم « نرد » انها لعبة « نشأت فى الهند أو فارس ، ويذكر أن الرشيد كان يلعبها ، كما كان يلعب الشطرنج . وكان عند الرومان لعبة تشبه النرد . انتشرت فى أوروبا فى العصر الوسيط ، وكانت شائعة فى انجلترا فى القرن السابع عشر وفى العصر الفكتورى . وتعرف فى فرنسا باسم ترك تراك Tric-Trak

وفى بعض المصادر الغربية (٣) ان الاغريق عرفوا النرد ، وكانوا يطلقون عليه لفظ Digrammismos وأن الرومان يعرفونه ايضا ويطلقون عليه Lidus scriptorum duodecim او Duodona scripta

وعلى أن القول بذلك ان صح — لا يمنع أن يكون اليونان قد أخذوها عن الهند أو الفرس ، وعن اليونان أخذوها الرومان ومع ذلك فان لعبة الليدو وهى المرجح أنها هى نفس لعبة الـ Lidus المعروفة عند الرومان ليست هى لعبة النرد بعينها اذ أن لعبة الليدو وهى معروفة فى مصر فى الوقت الحاضر ليست هى لعبة « الطاولة » وان اشبهتها .

ولما كان لعبة النرد غير مقطوع بمصدرها البعيد وانما نقطع بمصدرها المباشر وهو دولة الفرس ، فقد وضعناها بين الفنون الفارسية.

فن العمـــارة :

لا يكاد يخلو فن العمارة من الاقتباس من أمة أخرى ، وذلك لأن اقتباس هذا الفن بذاته ميسور أمره ، فالمنشآت المعمارية ذات الفن مباحة الزيارة للجميع (٤) ، والجمال يوحى بالاقتباس ، وانما الذى يميز فن العمارة لامة بعينها هو احتفاظها بعناصر فنية معينة تشترك عدة فى كل منشآتها أو فى غالبيتها على الأقل . فاذا نقل **عنصر أو أكثر من عناصر الفن الى أمة أخرى ،** فالغالب الا يكون عامة فى المنشآت الجديدة للأمة التى اقتبستها ، لان الأمة التى تقتبس فنا من الفنون لا تقتبسه من أمة واحدة ، فقد تختار لعمارتها عنصرا من هذه الأمة وعنصرا من تلك ، وقد تأخذ عناصر الفن مجتمعة ولكنها لا تطبق الا فى بعض المنشآت دون البعض الآخر . وليس يقدح فى استقلال أمة بفنها المعمارى أن يرى شبيه له فى أمة أخرى فى بعض منشآتها ، بل تظل هى صاحبة الفن ما استقر فيها منذ القدم وذاع فى ابنيتها حتى أصبح عاما حتى اذا شوهد فى مكان آخر قيل أنه مقتبس منها .

وينطبق هذا النظر على فن العمارة الفارسى فلا شك انه اثر فى فنون العرب المعمارية على الأقل فى عهده الأول ولا شك أنه تأثر بها على الأقل فى عهده الأخير ، ومع ذلك احتفظ بعناصر مميزة له ضمنت له الاستقلال عن فنون غيره من الأمم الأخرى . وفى ذلك يقول الأستاذ جورج حداد(٥) بعد أن بين انه قد جمعت فى الفن الساسانى أحسن عناصر التقاليد الفنية من بلاد البحر المتوسط والهندسوية ، يقول :

والعمارة الساسانية تبرز بعنصر جديد هو القنطرة التى ظهرت فى العهد الفرثى ، ومنذ ذلك الوقت يشيع استعمالها ونجد فى أول قصر ساسانى وهو قصر اردشير الأول فى فيروزاباد ايوانا فى وسط الواجهة بينما تغطى الغرف سقوف محدبة . ومن أهم البقايا الساسانية طاق كسرى فى المدائن التى تعرف أيضا باسم طسيفون Ctesiphon ، وقد بنى الطاق أو الايوان الذى هو أهم ما يميزه ، شابور الأول . ويبلغ ارتفاع الايوان ٣٠ مترا وعرضه ٢٥ مترا » بل ليس يقدح فى تمييز الفن الساسانى أنه يوجد على واجهة القصر نفسه وفى الجدران المحيطة بالايوان اقواس يعلو بعضها بعضا ومحاريب وأعمدة صغيرة حسب الأسلوب السورى المجاور(٦) . ذلك بأن الفن لا يسلم كما قلت من الاقتباس من بعض العناصر الأجنبية .

---

(١) جورج يعقوب ص ٩١ .
(٢) احمد عطية الله طبعة أولى سنة ١٩٥١ .
(٣) فى مادة : Dictionnaire encyclopédique Quillet Trictrac.
(٤) من المعروف أن المساجد الايرانية كان محرما دخولها لغير المسلمين الى عهد قريب .
(٥) ج ٢ ص ١٩٧ .
(٦) نفس المرجع فى نفس الموضع .

وبعد أن أبان الدكتور لوبون صعوبة تمثلنا تاريخ فن العمارة الفارسي ومدى تأثيره فى الفن العربى ، والعكس ، لقلة ما لدينا من بقايا المبانى التى شيدت فى الصدر الأول من الخلافة قال(١) :

« قال باتيسييه فى كتاب « تاريخ فن العمارة » وذلك فى معرض الكلام عن مساجد فارس « يظهر أن مساجد بلاد الفرس لا تختلف عن مساجد بلاد سوريا » .

وترانى أجهل الأسس التى تبنى عليها زعمه هذا ما فقده الشبه بين هذه المبانى . والواقع أن المقابلة بين مساجد سوريا القديمة (أى بين مساجد دمشق والقدس وجرون) ومساجد أصبهان أمر متعذر ، ولا نجادل فى وجود طابع خاص للفن الفارسى مع ما بين الفن الفارسى والفن العربى من صلة القرابة الواضحة التى مصدرها ما فى الفن الفارسى من تأثر بالفن العربى بعد أن كان مؤثرا فيه . ولمساجد الفرس صفات خاصة كثيرة يتجلى أهمها فى شكل مآذنها وأقواسها وقبابها وزينتها الخارجية . ويذكرنا شكل مآذن الفرس حتى القديم منها بمداخن مصانعنا ، وهى مخروطة الشكل قليلة الارتفاع مكسوة بالميناء ذات رواق واحد فى أعلاها ، وهى تختلف اختلافا جوهريا عن مآذن سوريا وأفريقيا والأندلس المربعة وهى تختلف أكثر من ذلك عن مآذن مصر ذات الأروقة الكثيرة التى يتغير مقطعها على حسب الطبقات ، والمزينة بأنواع النقوش البارزة . وللمساجد الفارسية طابع خاص أيضا ، فيرى لكل مسجد من المساجد القديمة الفارسية المتداعية كمسجد همذان مثلا ، باب عظيم يبلغ ارتفاعه علو المقدم ، وينتهى بقوس طريفة مفرطحة مصنوعة على رسم البيكارين من طراز خاص مما لا ترى فى أى مسجد عربى كان . ونرى لزخارف المساجد الفارسية من الخارج شكلا خاصا أيضا ، أى انها مكسوة بالميناء ذات الرسوم المنوعة ، ولا سيما رسم الأزهار ، مما امتاز به فن الزخرفة الفارسى . واذا حدث أن رؤى مثلها فى بعض المبانى العربية ، كجامع عمرو،أمكن القطع بأنها من صنع عمال من الفرس » .

على أن الشىء الذى لا نستطيع القطع به فى مجال فن العمارة الفارسى هو مدى تأثير فن العمارة العربى به ، وسبب ذلك ان المبانى الفارسية القديمة التى شادها آل ساسان قد هدمت هدما تاما وعلى الخصوص فى مدينة أصبهان ، وكذلك المبانى القديمة التى شادها العرب ، وذلك بتتابع الغزوات وما يرى الآن فى مدينة اصبهان فهو من صنع الشاه عباس الذى اتخذها عاصمة ملكه سنة ١٥٨٩/٩٩٨ .

فن التصوير والزخرفة :

لم يكن المسلمون يعنون بنحت التماثيل لأن الاسلام يحرمها سدا للذرائع الى الوثنية (٢) ولكن فن التصوير كان موجودا عند المانوية فى فارس.فيذكر لنا ابن الجوزى) (٣) (انه فى سنة ٩٢٣ م أحرقت صورة مانى على باب العاصمة ببغداد مع أربعة اعدال من كتب الزنادقة . كما يذكر أبو نواس فى شعره فى التصوير وينسبه الى فارس فيقول :

تدور علينا الرياح فى عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفى جنباتها
تكر عليها بالقسى الفوارس

ويتجلى تأثير فن التصوير الفارسى أيضا فى نسخ رباعيات الخيام التى وجدت مصورة تصويرا بلغ حد الروعة (٤) . ولم يلبث فن التصوير أن ذاع وقضى على الخطر القديم فقد ذكر المقريزى أنه لما نهب قصر المستنصر سنة ٤٦٠ هـ وجد فيه الف قطعة من القماش فيها تصاوير لرجال وحيوانات وذكر انه وجدت صورتان لمغنيتين احداهما تلبس ثوبا أبيض على أساس أسود ، والأخرى ثوبا أحمر على أساس أصفر . ولا تزال توجد نسخ من مقامات الحريرى مصورة ، وفى مكتبة الاسكوريال نحو اربعين صورة لملوك العرب والفرس والملكات والقادة واعاظم الرجال (٥) .

---

(١) لوبون ص ٥٤٤ ، ٥٤٦ .
(٢) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٤٧ .
(٣) المنتظم مخطوط رقم ٩٤٣٦ بالمكتبة الاهلية ببرلين ص ٢٣ — ١ .
(٤) أحمد رامى فى رباعيات الخيام .
(٥) لوبون ص ٥٠٨ و ٥٠٩ .

وكان فن الزخرفة في فارس متقدما جـدا ، وهو يبدو في طابع ديني فقد اظهر المانوية عناية كبيرة بزخرفة كتبهم . ولمـا احرقت كتب الزنادقة سنة ٣١١ ببغداد سقط منها ذهب وفضة(١) . وقـد قلد أصحاب الحـلاج الذى قتـل عـام ٩٢١/٣٠٩ المانوية في زخرفة الكتب ، فكانت كتبهم تكتب على ورق صيني وبعضها يكتب بماء الذهب ويبطن بالديباج والحـرير وتجلد بالأدم الجيدة(٢) . وانتشرت الزخارف في كافة المنشآت الفنية ، ولا تزال السجادة العجمية آية من آيات الفن الفارسي في الصباغة والزخرفة .

أصل الحضــارة الفارسية :

قامت دولة في الفرس سنة ٥٥٩ واستمرت الى سـنة ٣٣٠ ق.م. ونعرف بدولة الأخمينيين ، اسسها كورش الأول على أنقاض دولة الاشوريين والبابلين . ومن ملوكهـا داريوس وكان يحب الحق ويأمر بالا يتعرض النـاس لحقوق أرملة أو يتيم وكان يعاقب الكاذب والمرتشي ويكافىء الصادق والمجتهد .

وجاء بعـد الاخمينيين الاسكندر الأكبر الذى احتل بابل وسـوزا وبارسيوليس وغيرها من البلاد لما توفى الاسكندر خلفه قائده سليوقوس على دولته في آسيا ومنها فارس ، واتخـذ له عاصمة سلوقية على نهر دجلة ثم انشئت مدينة انطاكيـة في سـوريا ونقلت اليهـا حـكومة السليوقيين . وقد كان حكم السليوقيين لفارس صوريا اذ ان كل اهتمامهم كان موجها لسـوريا ومع ذلك فقد نشروا الحضارة الهيلينية في فارس وعرفت فيهـا الأساليب المعمـارية والزخارف اليونانية .

ثم جاء الفرثيون على أنقاض السليوقيين ، وأسـسوا دولة فارثيا نسـبة الى بارثـاوا Parthawa . وهى المنطقة التى احتلوها ، ومنها جاء لفظ فارس وأول ملوكهم ارشاق الاول « ٢٤٨ — ٢٤٦ ق.م. » وهو الذى ثار ضـد الحاكم السلوقي وبـدأ الفرثيون أول عهـدهم بمظاهر ايرانية وهيلينية ، خاصة في القرن الاول الميلادى نظرا لضعف الحضارة الايرانية وكـان تأثير الحضارة الهيلينية قويا في ذلك العهد ، حتى ان أحد ملوك الفرثيون لقب نفسـه بمحب الهيلينية .. وقد قيل انهم لما أتى برأس القـائد الروماني كراسوس الىأورودس كانهذا يشاهد قطعة مسرحية للشاعر اليـوناني أوروبيديس . ويشاهد الفن الفرثي غير التأثيرات الهيلينيـة عناصر بابلية وأخرى محلية فيالفنون والصنعة

ولكن الفرثيين لم يلبثوا أن عدلو عن أساليب الفكر الهيليني منذ القرن الاول الميـلادى الى اساليب مجوسية زراد شـتية ووضعوا أول كتاب ديني للمجوسية وهو الافستا . وفي سنة ٢٢٤ م قامت دولة آل ساسان وهى أسرة من أصل كهنوتي مجوسي ، وأول ملوكهم اردشير الاول الذى قتل آخر مـلك فرثي . وحـكمت السلالة الساسانية الفرس الى بداية الفتـح العربي ونجح أحد ملوكها — شابور الأول في حربه ضد الرومان في أسر الامبراطور الروماني فاليريان عام ٢٥٩. وازدهرت الدولة الساسانية في عهد كسرى « خسرو » أنوشروتن — ومعنـاه ذو النفس الخالد « ٥٣١ — ٥٧٩ م » وكان يقرأ اليونانية وأمر بترجمـة الكتب من اليونانيـة والسنسكريتية الى البهلوية . وقد حارب الرومان واستولى على انطاكية سنة ٥٤٠ م ، وجاء بعده كسرى الثاني برويز ففتـح سـوريا ومصر والاناضول وكاد يستولى على القسطنطينية ، غير أن الامبراطور البيزنطي هرقل حـاربه في معـركة نينـوى سنة ٦٢٨ م فضـعفت دولة آل ساسان .. وكان آخـر ملك سـاساني يزدجرد الذى قاوم العرب المسلمين وفشل .

وكانت ميول الفرثيين والساسـانيين ميولا مجوسية رغم أن الفرثيين في عهدهم الاول كانوا يميلون الى الهيلينية ومع ذلك فقد استعانوا كما بينت بالمصادر الاجنبية فترجموا عن الهند كتاب كليلة ودمنة وترجموا كتب جالينوس عناليونانية ومختصر لمنطق أرسطو وقسم من كتب افلاطون وساعد ذلك طرد النساطرة من الدولة اليونانية الشرقية فحملوا معهم الترجمـات السريانيـة للكتب الفلسفية والعلمية اليونانية والرومانية الى مدرسة جنديسـابور الطبية التى ازدهر الطب في عهدها ودرس كهان زراد شت الطب والجراحة واهتموا بأساليب تشخيص المرض واسـتخدموا المجرمين لاجراء بعض الملاحظات الطبية واهتم الكهنـة الزرادشتيون أيضـا بالفلك والتنجيم والجغرافيا .

(١) المنتظم في الموضع السابق .
(٢) صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعيد القـرطبي ص ٩٠ طبعة لندن ١٨٩٧ نقلا عن ابن مسكوية .

ومن المرجح أن الفرس لم يسلموا من مؤثرات الحضارة المصرية القديمة والحضارة المصرية الهيلينية ، فقد كانت لهم جالية فى مصر ، اجمع المؤرخون على كثرة عددها ، وان اختلفوا فى الأسباب التى من أجلها وجدت هذه الجالية فى أعداد كبيرة داخل مصر . وفى ذلك يقول الدكتور ابراهيم نصحى : —

ويكاد يجمع المؤرخون(١) على أنه كان يوجد فى مصر فى بداية حكم البطالمة عدد من الفرس الحقيقيين يحتمل أنهم كانوا بقية الحامية الفارسية التى وجدها الاسكندر هناك عندما فتح البلاد واندمجت فى خدمته عندئذ ويحتمل كذلك أنهم كانوا فرقا جندها الاسكندر فى آسيا وارسلها الى مصر أو أحضرها بطليموس الأول معه . ويحتمل أيضا أن يكون بطليموس الثالث هو الذى أرسل هؤلاء الجنود الى مصر فى خلال حملته فى الشرق ، فقد كان الاغريق يعتبرون الفرس أكثر الشرقيين شجاعة وحضارة .

ويضيف المؤرخ الى ذلك أن هذه الجالية كانت تتمتع بميزات عنصرية خطيرة فى أرض مصر ، ومهما تكن الآراء التى يذهب اليها المؤرخون المختلفين فى تفسير كثرة عدد الفرس فلا شك فى أن الفرس كانوا يتمتعون فى مصر البطلمية بالحرية الدينية ، وحسبنا دليلا على ذلك ماتحدثنا به الوثائق عن وجود معبد للاله الفارسى Mithras (٢) .

وفى الحق ، أن المؤثرات الأجنبية فى الحضارة الفارسية ، مهما بلغت قوتها ، لم تستطع ان تصبغ هذه الحضارة بصبغة أجنبية ، بل ظلت تزهو على ما عداها بصبغتها الدينية المجوسية ، فالديانة المجوسية ظلت قرونا طويلة تشع أضواؤها على الفن والفلسفة والأدب والدين ، الأمر الذى بثت آثاره حتى بعد الفتح الاسلامى متغلغلة فى آراء الفرق الكلامية والفنون الزخرفية التى بينت جانبا منها فيما مضى .

واذا كانت الحضارة الايرانية القديمة تمثل اتصالا بين الصين والهند فى الشرق ، وبين اليونان فى الغرب فانها استطاعت أن تحافظ على استقلالها الثقافى ، فالايرانيون لم يصبحوا يونانيين ولا هنودا ، وكان فى الافكار الزرادشتية حيوية ، كما أن الفن الايرانى أظهر ميزات الطبيعة الايرانية واحتفظ بشخصيته ولكن الاساليب الأخرى زادت فى ثروته ، ولما وقعت ايران تحت حكم العرب تهدمت ديانة زرادشت ولكن بعض عناصرها دخلت الديانات التوحيدية ، ومن هذه العناصر النزاع الاخلاقى فى الحياة البشرية ، والفرس لم يفقدوا حضارتهم بل أصبحوا معلمى الشعوب التى حكمتهم ، فى نواحى الأدب والفن والفلسفة(٣) .

---

(١) تاريخ مصر فى عهد البطالمة للدكتور ابراهيم نصحى ج ٢ ص ١٧٧ — ١٦٦٠ .
(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ١٨١ .
(٣) جورج حداد ج ٢ ص ١٩٩ و ٢٠٠ .

ثالثا : الحضارة اليونانية

المبحث الأول

مراكز الحضارة اليونانية فى الشرق

منذ عهد الاسكندر الاكبر انشئت فى الشرق طائفة من مراكز الثقافة اليونانية نذكر منهـــا مدينة الاسكندرية التى بناها الاسكندر فى مصر، واصبحت عاصمة لدولة البطالسة (١) طوال مدة حكمهم .

ومن هذه المراكز ايضا مدينة انطاكية ، بناها قائد الاسكندر ، سيليوتوس نيكاتور ، لتكـــون عاصمة ملكه فى سوريا .

ومدينة مرغيانه (مرو) بنـــاها انطيوكوس الاول ، وهو احد الملوك السيليوقيين وانتشرت المراكز الثقافية الهيلينية فى آسيا فصارت فى بلخ وصنديانه وفرغانة .. ولكن الجزء الشرقى من مملكة السيليوقيين خرج عن حكمهم وقامت فيه دولة جديدة باسم بارنيا (فـــارس) فانطفـــأت شموس معظم هذه المراكز العلمية شيئا فشيئا، كبلخ التى قضت عليها قبائل السقا الراحلة (٢) من بلاد الصين وتبعتها مرو وصفديانة ... غير أن مراكز اخرى ظلت تتابع نشاطها العـــلمى اليونانى زمنا طويلا الى ما بعد الفتح العربى ، وسنقتصر على التعرض لاهم هذه المراكز :

مدينة الاسكندرية : —

أسست مدينة الاسكندرية على يد الاسكندر المقدونى — عام ٣٢٣ قبل الميلاد وقد اسست على انقاض مدينة راقودة Rhakatis (٣) وعندما توفى الاسكندر تقاسم قوادهامبراطوريته، فكانت مصر من نصيب بطليموس سوتر أحـــد هؤلاء القواد ،ومن ذلك الحين صارت الاسكندرية عاصمة ملك البطالسة واكبر مدينة اغريقية فى العالم ، تفوق فى اتساعها أكبر المدن القديمة : اثينا وكورنثا وسيراكوز(٤) .

وقد أنشأ بطليموس سوتر متحفا للمدينـــة والحق به مكتبة لم تلبث أن أصبحت فى عهـــد بطليموس فيلا ديلفوس (٢٨٥ — ٢٠٧ ق.م.) أكبر مكتبة فى العالم ، وبها اصبحت الاسكندرية مدينة عالمية لا شرقية ولا غربية ، تجلب العلم من جميع انحاء الدنيا لتصقله بطابعها ثم تعيده الى جميع انحاء الدنيا كرة أخرى وانه من الخطأ الواضح أن يقال أن الاسكندرية كانت مدينـــة اغريقية خالصة فى ثقافتها ، ولكنها كانت مركزا للثقافات المصرية والبابلية وكذلك الاغريقية ، فعندما أنشىء المتحف والمكتبة نزح اليها طائفـــة من الحكماء الذين كانوا يعالجون العلوم المختلفة فى مدينة عين شمس المصرية ، كما نزح اليهـــا المستنيرون من علماء الاغريق الذين كانوا يعنون بالعلوم فى اثينا مدينة الثقافة الاغريقية القديمة(٥)

قال أوليرى : —

.. ويبدو أن العنصر المصرى قد تشربه الجو الاغريقى ، حتى لقد أصبحت الاسكندرية وريثة

---

(١) نسبة الى بطليموس سوتر أحد قواد الاسكندر ،وهو الذى خلف الاسكندر على حكم مصر . أما مملـــكة الاسكندر فى آسيا فقد خلفه عليها أحد قواده : سيليوقوس نيكاتور .

(٢) أنظر تفصيل ذلك فى كتاب المسالك لاولـــيرى ص٨ — ١٨ .

(٣) Strabo XVII p. 92. وقد اختطها المهندسان :دنقراطس الرودسى وستراتس النيدى (وِل ديورانت مجلد ٢ ج ٣ ص ٧٣) .

(٤) Rostoviseff p. 415.

(٥) انظر ذلك مفصلا فى ابراهيم نصحى ج ٢ ص ١٥٦ الى ١٨٤ .

اثينا أكثر مما كانت وريثة عين شمس ، ومع هذا فقد العالم الاغريقى الاسكندرى خصوصيته التى كانت طابع الفكر الاثينى ، فجعل لنفسه طابعا عالميا ، وأبدى من نفسه ميلا ملحوظا الى الفكر الشرقى . وبالرغم من تلك الخصوصية التى باهت بها الثقافة الاغريقية القديمة لمتسلم هذه الثقافة من النفوذ الشرقى حتى أن الكثير فى الحياة والافكار الاغريقية يمكن أرجاعه الى مصر وبابل . ويجب أن نلاحظ انه بالرغم من أن الاسكندرية أصبحت ظاهرة الاثر فى تنمية الفكر الاغريقى فى ذلك العصر المتأخر ، لم يكن هذا الاثر مقصورا عليها ، فلم يكن محليا ولا وطنيا ولكن عالميا ... هذه الحياة الاغريقية العالية التى نمت بعد أيام الاسكندر كانت متعددة الجوانب ، فكان لها ادب من طبقة خاصة ، ونقد أدبى علمى ، وتطورت بالفلسفة فى اتجاهات جديدة وانتجت بحثا جديدا فى الطب والفلك والرياضيات والفروع الاخرى من العلم، كل أولئك كان متشابك العلاقات متجانس الروح ويمكن اعتباره تطورا من ثقافةالاغريق القدماء(١)

واذن فلم تقتصر مدرسة الاسكندرية على النقل عن أثينا ، ولم تستمر تابعة لها ، بل كان لها جانب ايجابى مستقل فى كل فروع العلم سواء فى الفلسفة أو الرياضيات أو الطب ، وظلت حريصة على هذا الطابع حتى فى ظل الحكم الرومانى .

أما عن الفلسفة فقد اشتقت المدينة المصرية لها مذهبا خاصا هو مذهب الافلاطونية الحديثة، هذا المذهب الذى ترجع تعاليمه الاولى الى فيثا غورس ، وقد جاء الى مصر (٢) وراء طاليس (٣) وتعلم وتشرب علومها وآراء حكمائها فى القرن السادس قبل الميلاد ، ولعله لم يكن من قبيل الصدف اختيار تعاليم فيثاغورس اسسا للمدرسة الجديدة ، فلعل ذلك كان تكريما له باعتباره ممن أقاموا فى مصر ، ولعله ترك أثارا وتعاليم فى مصر جعلت الفلاسفة يتجهون اليها .

ومهما يكن من شيء فان المذهب الفيثاغورى قد تعثرت خطاه فى اثينا ، فقد كانت تعاليم المذهب سرية بالنسبة للعالم الخارجي ، مما دعا الى الشك فى هذه المدرسة والظن بأنها ذات ميول انقلابية . على أن المدرسة لم تلبث أن بعثت تعاليمها حوالى سنة ١٠٠ ق.م. تحت طائفة من الامثال الشعرية عنوانها « اشعار فيثاغورس الذهبية » ، ثم تنكبت هذه التعاليم مرة اخرى فى ظل الرومان ، ثم ظهرت من جديد فى ظل الافلاطونية الحديثة فى الاسكندرية .

ويظن ان أول مبشر بالافلاطونية الحديثة آمنيوس(٤) واشهر تلاميذه أفلوطين وادريجين ، وقد ظلت تعاليم المدرسة سرية كما كانت تعاليم فيثاغورس حتى أذاعها بعض تلاميذ آمينوس فى الاسكندرية .

اما افلوطين فقد كان مصريا من لوكوبوليس (أسيوط) ، ولد عام ٢٠٠ بعدالميلاد وتتلمذ على آمونيوس وورث عنه احترام الفكر الشرقى ، وهو طابع مدرسة الاسكندرية التى بقى فيها حتى بلغ عمره ٣٩ سنة ، وقد رغب الاستزادة من العلم فصحب جوريان الى بلاد الفرس ، ثم حاول العودة الى انطاكية فلم يستطع فذهبالى روما حيث حاضر فيها عشر سنين وكان له مستمعون كثيرون بعضهم من اعضاء مجلس الشيوخ(٥) .

واشهر تلاميذ افلوطين فورفوريوس الصورى وآمبليوس والطبيب العربى زيد ..... ومن اشهر تلاميذ فورفوريوس يمليخا الصورى .

ومع أن افلوطين قد تعلم فى الاسكندرية فأن تعاليمه قد ذاعت وتلقاها الناس فى روما .. ويظهر فى تعاليم افلوطين الجوهر الفرد فى صورة الاله الأعلى ، المنبع الأول للخير والنظام ، وهو موجود غير محدود ؛ وبين الله والعالم ، عالم من الأرواح يخلق فلا يكون خلقه خيرا دائما ولا منظما دائما ، على حين نجد عالم الظواهر نفسه غير مادى ولا ثابت . وهذا شبيه بموقف الغنوصيين(٦) من مشكلة الشر ، فالخالق الذى يخلق ما هو واضح النقص لا بد أن يكون ثانويا لاالها أعلى ، ومن ثم لا يكون كاملا . وربما لتحصل المعرفة بالادراك الحسى ولكن عليا

(١) أوليرى فى المسالك ص ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) انظر أوليرى فى المسالك ص٩ ٢ و Theodor Comperz T. 1. p. 100.
(٣) أوليرى فى المسالك ص ١٩ و جورج سارتون ج ١ص ٧٢ .
(٤) قيل أنه آمونيوس ساكاس أو ساكوفورس وكانجمالا فى صباه فى ميناءالاسكندرية واعتنق المسيحية ، وآخرون يرون انه آمونيوس آخر غير هذا الجمال .
(٥) راجع اوليرى فى المسالك ص ٣٦ ، وبرتراند رسلفى تاريخ الفلسفة الغربية ص ٤٥٣ ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود سنة ١٩٥٤ .
(٦) الغنوصية هى المعرفةالعليا ذات الاسرار .

المعارف وحسناها مـا جاءت مباشرة عن طريق الوحى(١) وتعتبر التساعيات التى الفها افلوطين دستور الافلاطونية الحـديثة وان كان خلفاؤه زادوا عليها .

واذا كـانت مدرسـة الاسـكندرية ملتقى الحضارات المختلفة فقد كانت الافلاطونية الحديثة حلقة اتصال بين الثقافات الفلسفية والدينية معا فقد اتصلت النصرانية بالافلاطونية الحديثة حين تفرق النصارى شيعا وتجادلوا فى طبيعة المسيح ناسوته ولاهوته ، وكان من أوائل النصارى الذين مزجوا النصرانية بالافلاطونية الحـديثة كليمان الاسكندرى وأوريجية تلميذ أفلوطين وقد اضطهد هذا الاخير ففر من الاسكندرية الى قيصرية فى فلسطين ، وانشـأ بهـا مدرسة على النمط الاسكندرى وسرعان ما انتشر هـذا النمـط فى نصيبين ثم فى الرها (أودسا) .

واتصلت الافلاطونية الحديثة باليهودية على يد فيلون ، كما اتصلت بالوثنية على يد آميليوس تلميـذ أفلوطين (٢) وقد فرضت الافلاطونيـة الحديثـة نفوذها القوى على العالم الاغريقى والرومانى قرونا عديدة .

هذا فى الفلسفة أما فى الرياضيات فقد نشأ اقليدس فى الاسكندرية (٣) وساعدت شهرته فى الهندسـة والرياضـة على جعل المتحف مركزا للدراسات الرياضية ، وأهم كتابه «العناصر»(٤) وهو يمثـل الرياضة الاغريقية بعد فيثاغورس . وجاء من بعده ، أريسطارخوس الساموس الفلكى المدرس بالاسكندرية وهو أول من كشـف عن المسافات النسبية بين الشمس والقمر والارض ، وأول من قال أن الشمـس لا الارض هى مركز الكون ، وهى نظرية كوبرنيق فى القرن السادس عشر الميلادى .

واراطوسيثينيس (٥) ، وهو عالم مشهور من علماء الاسكندرية ويعتبر زعيم الجـغرافيين فى العالم القديم ، وقد اخترع طريقة لقياس محيط الأرض وقطرها وذلك بتقدير الزاوية بين سمت الرأس والشمس فى اسوان ، وقياس الزاوية بينهما فى نفس الوقت فى الاسـكندرية ، وامكن بذلك معرفة محيط الارض بعد معرفة المسافة بين الاسكندرية وأسوان ، وهى طريقة دقيقة لم تفرق عن التقدير الصحيح سوى خمسين ميلا ، وقد طبقها المأمون عام ٨٢٩ ميلادية .

وتثقف أبولونيوس البورجى فى الاسـكندرية وعنى بالقطاعات المخروطية(٦) .

وهيبسيقليس الاسـكندرية (٧) الف سـبع نظريات عن المسطحات ذات السطوح المنتظمة المستوية . وبحث فى الاعداد المضلعة والمعادلات غير المحددة وقسم الدائرة الى ٣٦٠ درجة .

وهيرون (٨) الاسكدرى المؤلف فى العدسات والميكانيكا وحركات الريح .

وكان كلوديوس بطليمـوس (٩) اسـتاذا فى اثينا والاسكندرية معا ، وهو صـاحب كتاب المجسطى (الرئيسى) ، وقد توسع فى جدول الاوتار المنسوب الى هيبارخوس (من رودس) وتوسع فى استعمال الكسور الستينية ، ولخص جميع المؤلفات السابقة عليه فيما يختص بحجم الأرض(١٠) ومواقـع بعض الأماكن المشـهورة عليها ، وله كتاب فى التنجيم «Titrabiblos».

وديوفانتوس الاسكندرى الف ثلاثة عشر كتابا فى الحساب بقى منها ستة ، والف كذلك كتابا فى الاعداد المكعبة ، بقى لثامنه جزء ، ومجموعة من القضايا الحسابية سماها الفروض ، وأولها نظرية الاعداد ، وتشتمل على علاج جبرى لمسائل حسابية واقتصر فى حل المعادلات المحدودة على الجذر ، وتناول بعض المعادلات غير المحدودة ، وبعض المعادلات الآتية ، وبذلك مهد الطريق لعلم الجبر . ويقول الاستاذ أوليرى ان بحوثه كانت ذات أثر كبير على الرياضيين الهنود والعرب معا ، ولكن أحدا منهما لم يتبعه تتبع الواثق ولم تؤت طرقه ثمرتها فى أوروبا حتى اعادة الكشف عن

---

(١) أوليرى فى المسالك ص ٣٦ .
(٢) اوليرى فى المسالك ص ٣٥ .
(٣) ول ديورانت مجلد ٢ ج ٣ .
(٤) كتبه حوالى سنة ٣٠٠ ق. م.
(٥) توفى حوالى سنة ٢٣٠ ق.م.
(٦) توفى حوالى ٢٢٥ ق.م.
(٧) الفهرست ص ٣٧٣ .
(٨) توفى حوالى ١٨٠ ق.م.
(٩) توفى حوالى ٥٠ ميلادية .
(١٠) توفى بين ١٤٠ — ١٦٠ ميلادية .
اتخـذ هذا الكتاب أساسا لكتاب صورة الارض الذى الفه الخوارزمى ا أوليرى ص ١٤٨ .

عمله فى القرن السادس عشر ، وبهذا وضع أساس علم الجبر الحديث (١) .

وبابوس الاسكندرى (٢) الذى كتب فى الرياضيات ثمانية كتب ، بقى منها ستة ، تناولت التناسب والاحجام الماسة للاجسام وتضعيف المكعب والحلزونيات والمنحنيات المستوية والاشكال القصوى والمتساوية المحيط والكرة والتحليل والميكانيكا .

وبروكلوس الاسكندرى (٣) تلقى علومه فى الاسكندرية وعقد حلقاته فى اثينا وله كتاب فى التنجيم وآخر فى الفلك وشرح على الكتاب الاول من كتاب العناصر لاقليدس وشرح لبعض مؤلفات بطليموس .

ويظهر أن أرشميدس الصقلى (٤) جاء الى مدرسة الاسكندرية وتلقى فيها الرياضيات ثم عاد الى بلده سرقوسه .. وبقى من كتبه الى اليوم عشرة مؤلفات فى الهندسة والرياضة والطبيعة ، وهى : الطريقة ــ مجموعة من القضايا ــ تربيع القطع المكافىء ــ فى اللولبيات ــ الكرة والأسطوانة ــ فى اشباه المخروط واشباه الكرة ــ حاسب الرمل (فى الحساب) ــ فى الموازنات المستوية ــ فى الاجسام الطافية

وثاون الاسكندرانى وله كتاب العمل بذات الحق ، وكتاب جداول زيج بطليموس ، وكتاب فى الاسطرلاب ، وكتاب المدخل الى المجسطى (٥)

ويقال ان هباثيا الاسكندرية (٦) ابنة ثيون الرياضى شرحت الجدول الفلكى لديوفانتوس ، والمخروطات لابولونيوس ، ولكن لم يبق واحد من هذين الشرحين .

هذا فى الرياضيات أما فى الطب فأشهر مؤلف اسكندرى فيه هو غالين (٧) وقد تلقى العلم فى سمرنة وكورنثيا والاسكندرية ، وفى أواخر عهد مدرسة الاسكندرية اعتبرت مؤلفاته حجة فى الطب .

وجالينوس المولودفى برجاموس سنة ١٣٠ م ، سافر الى أزمير ثم الى الاسكندرية لاتقان فن التشريح ، ورجع الى بلده ثم عاد مرة أخرى الى روما (٨) ، وكتبه فى الطب معروفة .

وأسطفن الاسكندرانى وابن ابحر وبليطيان وسعيد بن توفيل (٩) ...

وآرون ، وهو قسيس وطبيب من الاسكندرية، قيل أن له مؤلفات ترجمت الى السوريانية ، وا نتشرت بين العرب وشوهد لها نفوذ قوى على الطب العربى ولا يعرف شىء عن تاريخ حياته .

وقد اختصت مدرسة الاسكندرية دون غيرها بالنبوغ فى التشريح لان ــ المصريين كانوا يفتحون الجثث لاجل تحنيطها ، فسهل عليهم درس فنون التشريح ، وكذلك الكيمياء التى أجادوها قبل اتصالهم باليونان ، فلما انشئت مدرسة الاسكندرية استمر علماؤها فى درس هذا العلم واضافوا ما كان لليونان فيه من معلومات(١٠) .

وحنين بن اسحاق العبادى وهو من نصارى الحيرة ولد سنة ١٩٤ هـ . وانتقل الى البصرة فتلقى فيها العلوم العربية ، ثم الى بغداد ليتعلم فيها الطب فلقى مشقة لان أطباء بغداد الذين وفدوا من جنديسابور كانوا يكرهون أن يدخل فى صناعتهم ابناء التجار ، فذهب الى الاسكندرية وتعلم اليونانية وآدابها وحفظ اشعار هوميروس (١١) فأصبح يجيد السريانية واليونانية والفارسية والعربية .. فترجم كتاب التشريح لجالينوس ثم صار مراجعا على المترجمين فى بيت الحكمة أيام المأمون فكان يعمل بين يديه الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة ، ومن النادر جدا أن يترجم كتاب الا وعليه مراجعة حنين بن اسحاق . وقد احتذى فى طريقته حذو الاسكندرانيين(١٢) ، وله كتاب المدخل فى الطب ترجم الى اللاتينية وذاع فى أوروبا .. وقد اختصره تحت عنوان « مسائل فى الطب للمتعلمين»

---

(١) ص ٤٩ ، وهذا القول مبالغ فيه كما سوف ترى .
(٢) توفى حوالى ٣٠٠ ق.م.
(٣) توفى حوالى ٤٨٥ م.
(٤) ولد سنة ٢٨٧ ق.م. ويقول أوليرى أنه لم يكن ذا صلة مباشرة بمدرسة الاسكندرية أوليرى فى المسالك ص ٤٤ العكس ول ديورانت مجلد ٢ ج ٣ ص ١٤ .
(٥) ول ديورانت ص ١٤١ .
(٦) توفيت حوالى ٤١٥ ميلادية .
(٧) مات سنة ٢٠٠ م.
(٨) التمدن الاسلامى ج ٣ ص ١٤٥ .
(٩) انظر الفهرست لابن النديم وبه تراجم هؤلاء .
(١٠) زيدان فى التمدن الاسلامى ج ٣ ص ١٤٦ .
(١١) طبقات الاطباء ج ١ ص ١٨٥ .
(١٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٩ .

. ، وكتاب « المولودين » وكتاب اجتماعات الفلاسفة فى بيوت الحكمة فى الاعياد وتفاوض الحكمة بينهم » وهو كتاب يشير الى نوع من الاكاديميات والمؤتمرات العلمية(١) .

ويحيى الخوى الاسكندرانى وكان اسقفا فى بعض الكنائس بمصر تعرض لنقد كتب ارسطاليس وفسر كتب جالينوس ، وعاش الى ما بعد فتح المسلمين لمصر (٢) .

مكتبة الاسكندرية :ـ

كان بطليموس الأول الملقب ببطليموس سوتر المتوفى سنة ٣٢٣ ق.م. محبا للعلم مشجعا للعلماء ، وقد أشار أحد المقربين اليه ، الخطيب الأثينى ديمتريوس فاليروس بانشاء مكتبة جامعة فقبل بطليموس ذلك وجمع فيها طائفة من الكتب التى أرسل بها الاسكندر من اصطخر وغيرها ، كما أنشأ متحفا أو ناديا Museum يجتمع فيه الادباء والعلماء للدرس والبحث . وكان هذا أساسا لمدرسة الاسكندرية الجامعية المشهورة .

وقد زاد بطليموس فيلادلفوس (بطليموس الثانى) على المكتبة كثيرا من المؤلفات جمعها من اليونان والبلاد الاخرى ومن اليهود وغير اليهود . فلما جاء بطليموس أورجيتس (بطليموس الثالث) أضاف اليها كتب الأدب والشعر والتمثيل مما يوجد فى خزائن أثينا حتى صار ما بها قبل وفاته مائة الف كتاب (٣) وفرض على صاحب كل كتاب يصل الاسكندرية أن يودع كتابه المكتبة لتنسخه وتعطيه صورة منه ، أما المكتبة فتحتفظ بالأصل (٤) .

احراق المكتبة :

فقدت مكتبة الاسكندرية . ــ والمؤرخون من شرقيين وغربيين غير متفقين على طريقة فقدها ــ ، ومما قيل أنها أحرقت وأن الذى أحرقها عمرو بن العاص بأمر من خليفة المسلمين عمر ابن الخطاب .

وتعتمد هذه الرواية على ما ورد فى بعض كتب المؤرخين المسلمين . فقد ذكر عبد اللطيف البغدادى (٥) (١١٦٢ ــ ١٢٣١) والقفطى (٦) (٥٦٥ ــ ٦٤٦) ثم أبو الفرج الملطى(٧) وهو مسيحى يهودى الأصل اسمه Bar Hebraeus (١٢٢٦ ــ ١٢٨٦) من شرقى الشام وكتب بالعربية باسم أبى الفرج .

وقد توسع أبو الفرج فى ذكر القصة ، فذكر ان رجلا من أهل الاسكندرية يسميه العرب حنا الاجرومى .

طلب الى عمرو ان يعطيه ما فى المكتبة من مخطوطات فكتب عمرو الى الخليفة عمر يستأذنه فى هذا فرد عليه عمر كما تقول الرواية « أما ما ذكرت من أمر الكتب فاذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنا به واذا خالفه فلا أرب لنا فيه وأحرقها ، ويضيف أبو الفرج أن عمرو بن العاص أمر بالكتب فوزعت على حمامات المدينة البالغ عددها أربعة آلاف حمام لتوقد فيها وما يزالون يوقدون بأوراق البردى والرق ستة أشهر .

والذين يذهبون هذا المذهب يعتمدون على قصة مماثلة ، ذكرها أبو الفرج نفسه ، وهى أن عمر بن الخطاب أمر سعد بن أبى وقاص أن تلقى مكتبات فارس فى الماء عقب الفتح الاسلامى (٨) .

وان المسلمين جروا بعد ذلك على احراق الكتب التى لا توافق دينهم (٩) وقد انتصر جورجى زيدان لهذا الرأى ودافع عنه دفاعا حماسيا(١٠) .

أما عن الرواية التى وردت عن بعض مؤرخى المسلمين فانها لا تخرج عن خبر رواه ابن القفطى

---

(١) انظر ابن أبى أصيبعة فى عيون الانباء ج ١ ص ١٨٤ ــ ٢٠٠ ونيات الاعيان لابن خلكان رقم ١٢٧ و ٢٠٨ ط نستنفلد والتمدن ج ٣ هامش ص ١٦٤ .

(٢) الفهرست ص ٣٥٦ .

(٣) أودع بطليموس الثالث فى أثينا ما يعادل تسعين الفريال أمريكى ضمانا لاستعارته لكتب ايسكلس وسفوكليز ويوربيدس . ثم أبقى عنده الكتب وطلب الى أثينا أن تحتفظ بالمبلغ (ول ديورانت مجلد ٢ ج ٣ ص ٨٩) .

(٤) ول ديورانت فى المرجع السابق .

(٥) الافادة والاعتبار ص ٢٨ .

(٦) هو جمال الدين أبو الحسن القفطى المولود فى قفطوتولى وزارة حلب تحت اسم القاضى الاكرم ، وكتابه «تراجم الحكماء » فى دار الكتب المصرية (نسخة خطية) وروايتهكرواية أبى الفرج .

(٧) مختصر الدول ص ١٨٠ طبعة بوك فى اكسفورد سنة١٦٦٣ أما طبعة الآباء اليسوعيين ببيروت فهى خلو من القصة

(٨) كشف الظنون ج ١ ص ٤٤٦ ، ويؤيده ابن خلدون ج ١ ص ٣٢ .

(٩) كشف الظنون ج ١ ص ٢٥ .

(١٠) ج ٣ ص ٤٥ وما بعدها .

ثم تداوله بعده المؤرخون فنقل ابو الفرج نصه ثم فعل ذلك من اتى بعده .. والمؤرخون عادة ينقل بعضهم عن بعض ، ما لم يكونوا معاصرين للواقعة المروية ذاتها ، وليس احد من هؤلاء كان معاصرا لواقعة احراق المكتبة ، فأول مثبت للرواية وهو القفطى انما كتبها فى القرن السابع الهجرى ، اى بعد تاريخ الواقعة بستة قرون .

مع أن هنالك من المؤرخين المسيحيين كان أولى باثبات هذه الواقعة التى سكت عنها العالم ٥٠٠ سنة ، فالمؤرخ أوتكيوس كبير اساقفة الاسكندرية سنة ٩٣٣ وصف فتح الاسكندرية وصفا مسهبا ولم يشر بشىء الى هذه الواقعة .

والظاهر أن تطاول العهد جعل القفطى يخلط الأمور ، فان جزءا كبيرا من المكتبة قد احرقه المسيحيون فى عهد البطريق توفيلس سنة ٣٩٢ م واهمل الباقى مما ادى الى ضياع هذه المكتبة قبل سنة ٦٤٢ م (١) .

والنص الوارد فى رواية القفطى وأبى الفرج يكذب نفسه ، اذ كيف يأمر عمر باحراق الكتب اذا كانت توافق ما جاء بكتاب الله ، بحجة انه لا حاجة له بها ثم كيف يفعل ذلك بكتب القبط وهو الذى اعطى للذميين عهدا بأن يحترم دياناتهم وكنائسهم ويحفظ أموالهم ما دفعوا الجزية ، وكان أولى به أن يحرق كنائسهم قبل كتبهم ؟ !

واخيرا فانا لا نرى وجها للمقارنة بين رواية احراق كتب الفرس حتى بفرض صحة ذلك وبين رواية احراق مكتبة الاسكندرية ، فالفرس كانوا مجوسا يحل قتلهم واتلاف كتبهم ان لم يسلموا ، أما الاقباط فأهل ذمة ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ما دفعوا الجزية .

وقد رفض كثير من الباحثين هذه الرواية(٢) .

اتصال العرب بمدرسة الاسكندرية :

وأول اتصال بين مدرسة الاسكندرية والمسلمين كان فى عهد خالد بن يزيد بن معاوية ، فعندما أقصى عن الخلافة اتخذ الكيمياء هواية له ، وكانت صناعة الكيمياء متقدمة فى الاسكندرية ، فاستقدم منها ماريانوس وهو راهب رومى وطلب اليه ان يعلمه صناعة الكيمياء ففعل ، ثم كلف رجلا اسمه اسطفان القديم فنقلها له الى اللغة العربية(٣) .

قال الجاحظ(٤) . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيبا شاعرا ، وجيد الراى اريبا ، كثير الادب حكيما .. وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والالات والصناعات » .

وقال ايضا (٥) « وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيبا شاعرا ، وفصيحا جامعا ، وجيد الرأى كثير الأدب ، وكان اول من ترجم كتب النجوم والطب والفلك » .

واستطب عمر بن عبد العزيز ، ابن ابجر ، وهو طبيب اسكندرانى ويعتمد عليه فى صناعة الطب ، وفى العصر العباسي استقدم الرشيد طبيبا مصريا ليعالج له جارية مصرية لانه ابصر بعلاجها .

وظلت تساعيات أفلوطين رمز الفلسفة اليونانية وقبلها المتقدمون من علماء بغداد من عصر ما قبل الكندى باعتبارها من أعمال ارسطو ، واعتبرها الكثيرون كذلك .. ومن السهل أن نرى قدر اسهام هذه الفلسفة فى خلق مادة فكرية حلولية وصوفية كالتى تبدو فى الفلسفة الاسلامية (٦) .

وتبدو النزعة الصوفية الحلولية فى تساعيات افلوطين ، فهو يقول فى التساعية الخامسة (٧) .

« .. واذا ما اتصلنا بالاله على هذا النحو عجزنا عن التدليل أو التعبير عن رؤيتنا بكلمات، فمثل هذا التعبير يأتى مؤخرا . أما ساعة المس نفسها فلا يكون لدينا قوة لاثباته ، لا يكون لدينا متسع من الوقت لهذا ، وانما يجىء التدليل لرؤيتنا فيما بعد فربما نعلم أننا قد مرت بنا الرؤية اذا أشرقت النفس اشراقا مباشرا . ومثل

---

(١) بتلر « فتح العرب لمصر » مترجم ص ٢٥٧ .
(٢) أنظر بتلر فى الموضع السابق وول ديورانت مجلد ٤ج ٢ ص ٢٦٢ و ٢٦٣ .
(٣) الفهرست ص ٣٤٠ .
(٤) كتاب فضل هاشم على عبد الشمس ـ نشر بين رسائل الجاحظ ـ جمع السندوبى ص ٩٣ .
(٥) كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ٢٦ طبع السندوبى .
(٦) عيون الانباء لابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٨٢ .
(٧) أوليرى فى المسالك ص ٣٧ .

هذا الضوء الذى تشرق به النفس هو من عند الأسمى وقد نؤمن بحضور الله فينا ، وذلك حين يشرق علينا الله بضوئه ، فيكون الضوء برهانا على حضوره ، وعلى ذلك فالنفس التى لا تضاء بضوئه تظل بغير رؤية ، أما اذا اضيئت فانهـا تحتوى على ما ننشده ، وهذه هى الغاية الحقيقية التى تسعى النفس نحوها ، أعنى أن تقتبس ذلك الضوء ، أن ترى الأسمى ، بالأسمى لا بضوء اى مبدأ آخر غيره ، أن ترى الأسمى الذى هو فى الوقت نفسه وسيلة الرؤيا ، لأن ما يضىء النفس هو نفسه الذى نريد رؤيته ، كما أننـا نرى الشمس بضوء الشمس نفسه .

ويلاحظ الأستاذ أحمد أمين (١) أن المسلمين قليلا ما لجأوا الى مدرسة الاسكندرية ليـأخذوا من معارفها بالقياس الى ما أخذوه عن جنـد يسابور وحران ، ويرد ذلك الى بعد الاسكندرية عن مقر الخلافة الاسلامية نسبيا والى أن هـذه المدينة قد انغمست فى الغرائم والرهبنة والمكاشفة بعيدة عن أمور الدنيا هذا بالاضافة الى ضعف مدرسـة الاسـكندرية قبيـل الفتح الاسـلامى واضطهاد أهلها واحراق كتبها حتى اضطر كثير من معتنقيها الى التنصر أو الفرار من البلاد .

جند يسابور :

هى مدينة فى خوزستان أسسها سابور الأول بالقرب من مدينة سوسة التى اتخذها ملوك فارس بلاطا شتويا لهم .. وقد كانت تسـمى فى القديم (به آن أنديو شابور) أو الشابورية كما يقول الطبرى(٢) أو جند يسابور أى معسكر شاهبور ، وقد سماها السوريون بيت لايات ، أى بيت الهزيمة ، وتقع على مكانها الآن شاه آبـاد .

وسبب تسمية المدينة جند يسابور (عسـكر شاهبور) أو بيت لايات (دار الهزيمة) يرجع الى أن بناءها كان الغرض منه أن تكون معسـكرا للأسرى الذين أخـذهم الفـرس من فالـيريان الرومانى وأرسلوا ليعملوا فى خزان شادوران أسفل تستر . ولـما كان شاهبور يعلم ما عليه الرومان من تفوق وثقافة عامل أسراهم معاملة كريمة فبنى المدينـة على شـكل القسطنطينية واستخدم الأسرى أطباء ومهندسين ، وترك لهم حرية البقاء على دينهم فبنوا الكنائس فى حين كانت المسيحية موضـع اضـطهاد فى الدولة الرومانيـة (٣) .

« وقد نقل فى المرة الأولى سكان انطاكيـة وبعض مدن أخرى فى زمن شابور الأول (٢٤١ — ٢٧٢ م) الذى أسر الامبراطـور فاليران Yalerien ، فأسكنهم شـابور فى مدينـة جنديسابور التى أنشأها فى خوزستان . ولم تكن جنديسابور مدينة كبيرة فى زمن الساسانيين ، وأسست فيها فى عهـد خسرو الأول « كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٩ م) مدرسة طب يونانية سورية لها فيما بعد تأثير على العرب . وكانت الغاية من حمل سكان المدن السـورية الى ايران كأنهم أسرى أن يعاونوا فى ترقيـة الصناعات فى ايران ، ولا سيما صناعة النسيج . وقـد اسـتفاد الساسانيون من صـناع روما المأسورين أيضا فى انشاء الحصون وتنظيم أعمال الرى (٤) .

انشأ كسرى فى جنديسابور بيمارستانا ، وأول من علم الطب بها أطباء من الروم . ويحكى القفطى أنهم لـما أقاموا بها بدأوا يعلمون أحداثا من أهلها ولم يزل أمرهم يقوى فى العلم ويتزايدون فيه ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم حتى برزوا فيه الفضائل (٥) . وفى سنة ست وعشرين من ملك كسرى اجتمع أطبـاء جنديسابور بأمر الملك وجرت بينهم مسـائل وأجوبتها واثبتت عنهم وكان أمرا مشهورا(٦) .

وقد جاء الأطباء المشهورون فى العصر العباسى من جنديسابور الى البلاط ، وبنجاحهم فى مهنتهم بقوا فى بغداد ليكونوا أطباء البلاط واصـبحوا أثرياء ذوى نفوذ ، وأوحى نجاحهم الى الأطبـاء الاخرين باتباعهم . وقد الف هؤلاء مع علمـاء مرو مجموعة تحت رعاية البلاط أصبحت شـيئا يشبه الأكاديمية ، وكانت جمعية من العلماء أكثر مما كانت جمعية تعليمية . وقد تعود رجـال جنديسابور أن يدرسوا العلم الأغريقى فى صورة

---

(١) أحمد أمين فى ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٧٦ .

(٢) توجد هذه التسمية فى تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٨٦١—٨٦٦ طبعة لايدن . أما فى الطبعة الحسينية ج ٢ ص ٦٧ كانت المدينة تسمى ايرانخرهسابور .

(٣) أوليرى فى المسالك ص ٢٠ .

(٤) ف. بارتولد — تاريخ الحضارة الاسلامية ترجمـةحمزة طاهر ص ٤٦ ط ١٩٥٨ .

(٥) أخبار الحكماء ص ١٣٣ .

(٦) نفس المرجع ص ١٧٤ .

ترجمته السريانية ، ثم الحقت الترجمات العربية بالترجمات السريانية بالتدريج ، ثم حلت محلها أخيرا (١) .

ومن زعماء هذه المدرسة آل بختيشوع(٢) وهم مجهولو الأصل ، وقد اشتهرت هذه الأسرة بالطب ، وأول من عرف بالطب من آل بختيشوع جرجيس طبيب المنصور وصاحب الكنائس المشهور ، وبختيشوع ابنه طبيب الهادى والرشيد . وكلا الطبيبين ترأس مدرسة جنديسابور ومستشفاها ، ثم جبريل بن بختيشوع الذى ذاع صيته فى الأفاق ، وابنه بختيشوع ابن جبريل ، صاحب كتاب التذكرة ، ثم جبريل ابن عبد الله (ابن بختيشوع) وابنه عبيد الله ابن جبريل .

وممن ترأس مدرسة الطب فى جنديسابور أبو زكريا يحيى بن ماسويه ، وقد خلف جبريل ابن بختيشوع على المدرسة والبيمارستان ، ثم ترأس بيمارستان بغداد بعد أبيه ماسويه ، وله كتب كثيرة من أهمها كتاب دغل العين ، وكتاب النوادر الطبية الذى ترجم الى اللاتينية(٣) .

وممن نبغ فى الطب فى هذه المدينة ايضا سابور بن سهل صاحب بيمارستان جنديسابور وصاحب كتابى الاقربازين وقوى الأطعمة ، وابن صهارنجت صاحب كتاب قوى الأدوية المفردة على الحروف .

مدرسة حران :

تقع مدينة حران بين الرها (أودسا) ورأس عين شمال العراق ، وهى مدينة قديمة جدا . جاء فى وفيات الأعيان ما يلى : « حران ، مدينة مشهورة بالجزيرة ، ذكر ابن جرير الطبرى — رحمه الله تعالى — فى تاريخه أن هاران عم ابراهيم الخليل عليه السلام عمرها فسميت باسمه فقيل « هاران » ثم انها عربت فقيل حران » (٤) .

وقد سكن المدينة وما حولها كثير من اليونانيين عقب فتح الاسكندر لهذه البلاد ، واختلطوا بسكان المدينة الأصليين ، وهم من السريان الوثنيين ، ولما جاءت النصرانية بقى سكان المدينة على دينهم سواء منهم الأصليون أو الوافدون ، وأصبحت المدينة مهجرا لكل فار من وجه النصرانية من اليونانيين ، ولذلك أطلق على المدينة هينوبوليس أى مدينة الوثنيين (٥) . وقد بقى هؤلاء على دينهم الذى أصبح مزيجا من الديانة البابلية واليونانية القديمة والافلاطونية الحديثة . . وفى عهد المأمون سموا أنفسهم صابئة هربا بأنفسهم من القتل اذا ما عدوا من الوثنيين ، لأن الصابئة قد اعتبرا من أهل الكتاب فى القرآن (٦) وكانوا قبل تطور ديانتهم يعبدون الكواكب ، وهم أول من خصص يوم الأحد لعبادة الشمس (ايليوس) والاثنين للقمر (سين) والثلاثاء للمريخ (أريس) والأربعاء لعطارد (نابق) والخميس للمشترى (بال) والجمعة لأزهرة (بلثى) والسبت لزجل (قرنس) (٧) ، وأسماء شهورهم لا تزال الى اليوم (نيسان — آيار — حزيران — تموز — آب — ايلول — تشرين أول — تشرين ثان — كانون أول — كانون ثان — شباط — آذار) وهى مستعملة الى اليوم فى سوريا ، وعنهم أخذوها .

ومن تلاميذ هذه المدرسة وأهمهم ثابت بن قرة ، وهو من الصابئة وكان حرفيا ، ثم تعلم الطب والفلسفة والنجوم ، وكان فى خدمة المعتضد العباسى أوصله اليه محمد بن موسى (من أولاد موسى بن شاكر الذين رباهم المأمون) .

وقد عدد ابن النديم (٨) كتبه وهى كثيرة وقد نبغ من أسرة ثابت بن قرة سنان بن ثابت وكان مقدما عند القاهر بالله ثم ثابت بن سنان .

---

(١) أوليرى فى المسالك ص ٢٣٦ .

(٢) معناه من انقذه يسوع .

(٣) وله كتاب لم امتنع الاطباء عن علاج الحوامل فى بعض شهور حملهن — محنة الطبيب — مجسة العروق — الصوت والبحة — ماء الشعير — الفصد والحجامة — المرة السوداء علاج النساء اللائى لا يحبلن — السواك والسنونات — اصلاح الادوية المسهلة — الحميات مشجر — القولنج — الكمال والتمام — الكامل — الحمام — دفع ضرر الاغذية — الاسهال — علاج الصداع السور والدوار (انظر كتاب الفهرست لابن النديم ص ٤١١ و ٤١٢) .

(٤) وفيات الاعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٣٧ مطبعة الحلبى .

(٥) دائرة المعارف الاسلامية مادة حران وصابئة .

(٦) الفهرست ص ٤٤٥ .

(٧) الفهرست ص ٤٤٧ وما بعدها .

(٨) حساب الاهلة ، سنة الشمس ، رسالة فى استخراج مسائل هندسية رسالة فى الاعداد ، الشكل القطاع ، الحجة المنسوبة الى سقراط ، أبطال الحركة فى فلك البروج ، الخص المتولد فى المثانة ، وجع المفاصل والنقرس ، السبب الذى من أجله جعلت مياه البحار مالحة ، البياض الذى يظهر فى البدن ، رسالة الى دانق ، جوامع لكتاب جالينوس فى الادوية المفردة ، رسالة فى الجدرى والحصبة (ص ٣٨٠) .

واشتهرت أيضا أسرة هلال ، ومنها هلال ابن ابراهيم الطبيب (وابنه ابراهيم ابو اسحاق الصعابى صاحب الرسائل) .

وتخرج فى المدرسة أيضا أبو عبد الله محمد ابن جابر البتانى صاحب كتاب الزيج وكتاب معرفة مطالع البروج فيها بين ارباع الفلك .

وفيها تخرج أبو جعفر الخازن صاحب زيج النفائح ، والمسائل العددية وابن وحشية المنسوب اليه طائفة من الكتب عددها ابن النديم (١) .

ومنها أيضا أبو الحسن الحرانى .

مدرسة بغداد

منذ أنشأ المنصور مدينة بغداد أخذت وفود العلماء تتقاطر على المدينة الجديدة ، فقد هرع اليها أطباء مدينة جنديسابور وأخذوا مكانهم فى بلاط الخلفاء العباسيين .. ولما كثر عددهم أنشأ الرشيد لهم مارستانا ترأسه لأول مرة ، ماسويه ثم ابنه يوحنا بن ماسويه(٢) .

وكان البرامكة يحبون الطب الهندى فأنشأوا مارستانا آخر ولوا عليه طبيبا هنديا اسمه ابن دهن (٣) .

ثم أنشأ الرشيد بيت الحكمة ليكون مكتبة ومدرسة للترجمة ومجتمعا علميا فلما ولى الخلافة المأمون قام بتوسيع بيت الحكمة الذى أنشأه أبوه واهتم بالثقافات المختلفة . فلم يقتصر اهتمامه على الثقافة الفارسية ، واهتم بجمع الكتب الأغريقية ، وبعث وفدا الى لسيو الأرمنى لجمع الكتب الأغريقية ليطلع عليها ، واضطره التبصر الى الموافقة على ذلك .. وفى ذلك الحين ، كان حنين ويعقوب الكندى على استعداد تام لترجمة الكتب الأغريقية الى اللغة العربية وقد درس حنين اللغة اليونانية فى الاسكندرية ، كما درس اللغة العربية على يد خليل بالبصرة . وبعد اجادة هاتين اللغتين ، بدأ تحت رعاية المأمون فى ترجمة الكتب الاغريقية ، وكانت مهارته عاملا لتقريب المأمون له ، فكان لا ينقطع عن اغداق الصلات عليه .. ولما كان حنين نفسه مغرما بالكتب ، فقد تجول فى آسيا الصغرى وسوريا للبحث عن الكتب .. وكان أول كتاب ترجم الى اللغة العربية هو كتاب بطليموس عن الفلك وعنوانه Terrabiblion وقام بترجمة هذا الكتاب ابراهيم بن صلت وراجعه وصححه حنين بن اسحاق (٤) .

المراكز المسيحية الثقافية اليونانية فى الشرق :

بالاضافة الى المدارس العلمية السابقة فى الاسكندرية وحران وجنديسابور ، كانت توجد مدارس أخرى مسيحية ، قامت أول نشأتها على دراسة اللاهوت .. ومع ذلك فقد ساعدت على نشر الثقافة اليونانية فى الشرق ، لقد كانت الكنيسة الرومانية نفسها تعيش فى جو هيلينى فى عهدها الأول ، فاتخذت من اللغة الاغريقية لغة لقداسها البدائى . ومما يؤكده أن الكتاب الرومان انفسهم فى ذلك العهد من أمثال كليمنت وهرماس وهيبويتوس قد كتبوا بالاغريقية (٥) وقد اسس جماعة من الأساقفة مدارس مسيحية فى الشرق ، فأسست مدرسة فى انطاكية على يد أسقف هذه المدينة بوسطانيوس حوالى سنة ٣٢٥ أراد أن ينافس بها مدرسة الاسكندرية .. وتبعه الأسقف يعقوب ، فأسس مدرسة فى نصيبين ، غرضها نشر اللاهوت الاغريقى بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية ، اذ كان لاهوتهم وترتيب كنائسهم كما يشير سترزيجرفسكى لا يطابقان المستوى المقبول فى الكنيسة الكاثوليكية (٦) .

وحوالى سنة ٣٦٣ ميلادية سقطت نصيبين فى يد الفرس ، وهم يدفعون عن أنفسهم حملة جوليان ، وفر ابرهيم رئيس المدرسة ، ثم تنكر واشتغل خادما فى أحد الحمامات العامة ولما كشفه جماعة من أصدقائه نصحوه بالمعاودة

---

(١) كتاب الفلاحين الكبير والصغير ، ومن كتبه فى الكيمياء،كتاب الاصول الكبير والاصول الصغير ، كتاب المدرجة ، المذكرات فى الصنعة .. وله كتب فى السحر والطلسمات : كتاب طرد الشياطين (ويعرف بالاسرار) ، كتاب السحر الكبير ، كتاب السحر الصغير .. كتاب دوار على مذهب النبط ــ مذاهب الكلدانيين فى الاصنام ــ الاثارة فى السحر ــ أسرار الكواكب ــ كتاب الاصنام ــ كتاب التسرابين ــ كتاب الطبيعة ــ هذا ما عدا ما نقل من الكتب عن الغير.. (الفهرست ٤٣٣) .

(٢) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٢١٩ .

(٣) الفهرست ص ٣٤٢ .

(٤) الحضارة الاسلامية لخودابخش ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٥) أوليرى فى المسالك ص ٥٣ .

(٦) المرجع السابق ص ٧٠ .

الى التدريس ، فانشأ مدرسة فى الرها . وبذلك انضمت مدرسة ثالثة الى مراكز التوزيع للثقافة الهيلينية .

وقد ترعرت الثقافة الهيلينية فى الرها وترجمت الى السوريانية كتب تيودور أسقف مويسيوسيتا، وكتب ديودوروس أسقف طرسوس لتستعمل فى الرها ، فلما صعب على الطلبة الشرقيين فهمها ترجم ايساغوجى لنورفوريوس الصورى وكذلك شروح أرسطو ، وكان معظم أساقفة فارس طلابا فى هذه المدرسة .

ثم قام انشقاق فى الكنيسة الرومانية بنى على اختلاف وجهة رجال الدين فى لاهوت السيد المسيح وناسوته فانقسمت الكنيسة شعبتين شعبة النساطرة (١) وتؤيدهم مدرسة الرها المسيحية ، وأعداء النساطرة الذين سموا فيما بعد باليعاقبة (نسبة الى الأسقف يعقوب السروجى الذى انشأ الكنيسة اليعقوبية بمصر فى القرن السادس) هذا عدا الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية فى القسطنطينية .

واذ أحس النساطرة الاضطهاد لمذهبهم فروا من سوريا الى بلاد الفرس ، وانتهى أمر مدرسة الرها الى أن أغلقها الامبراطور زينو سنة ٤٨٩ . فتحول من بقى فى هذه المدرسة الى مدينة نصيبيين الفارسية وانشأوا فيها مدرسة جديدة على الأسس النسطورية الخالصة .

ولم تكن مدرسة الرها ذات أثر مباشر على العرب ، وربما كان ذلك لأنها كانت لاهوتية محضة .. ولكن أثرها جاء من حيث كانت مسئولة بطريق غير مباشر عن تعريف المدارس النسطورية الأخرى فى جنديسابور وسيلوقيا بمنطق أرسطو .. أما الأثر الذى لحق العرب فقد جاءهم بصفة رئيسية عبر جنديسابور (٢) .

---

(١) عين نسطور راهب انطاكية بطريركيا على القسطنطينية سنة ٤٢٨ وصحبه أخوه انسطاس ثم لم يلبثا أن أبديا تطرفا فى العقيدة فزعما أن السيدة مريم لم تكن أما لعيسى عليه السلام الا باعتباره جسدا آدميا .. وبذلك يكون قد أنكر انطباق ما تسميه الكنيسة Theotocos على مريم . وقد فصل نسطور من الكنيسة عام ٤٣١ بواسطة مجلس عقد فى ايفنسوس بناء على طلب الامبراطور وتحريض سيريل بطريق الاسكندرية

(٢) اوليرى فى المسالك ص ٩٨ .

المبحث الثانى

المترجمون والكتب المترجمة

قلنا ان خالد بن يزيد بن معاوية كان اول من بدأ الترجمة عن مدرسة الاسكندرية ثم اتسع ميدان الترجمة منذ عهد أبى جعفر المنصور وبلغ أوج قوته فى عهد المأمون وكانت الترجمات العربية تنقل عن الفارسية أو الهندية أو اللاتينية أو اليونانية ، ولكن أكثر الكتب كان ينقل عن السريانية ، فقد كانت هذه اللغة تكاد تكون اللغة المشتركة للثقافات الأجنبية فى الميدان الشرقى ، نقلت اليها قبل عهد الترجمة الاسلامى كتب الهند .

واليونان والفرس ، وكانت لغة رسمية للدراسة فى مدينة جنديسابور ومع ذلك فان الترجمة على ذلك العهد لم تكن دقيقة فى كثير من الصور . ويعرف المؤلفون المسلمون بما وقع من اخطاء فى الترجمة .

قال أبو حيان التوحيدى(١) « على أن الترجمة من لغة يونان الى العبرانية ومن العبرانية الى السريانية ومن السريانية الى العربية ، قد اخلت بخواص المعانى فى أبدان الحقائق اخلالا لا يخفى على أحد .. ولو كانت معانى يونان تهجس فى انفس العرب مع بيانها الرائع ، وتصرفها الواسع وافتنانها المعجز وسعتها المشهورة ، لكانت الحكمة تصل الينا صافية بلا شوب ، وكاملة بلا نقص .. ولو كنا نفقه عن الأوائل اغراضهم بلغتهم ، كان ذلك أيضا — نافعا للغليل ، وناهجا للسبيل ومبلغا الى الحد المطلوب (٢) .

وقال الغزالى « ثم المترجمون لكلام ارسطوطاليس لم ينفك كلامهم عن تحريف وتبديل محوج الى تفسير وتأويل ، حتى اثار ذلك ايضا نزاعا بينهم ، وأقومهم بالنقل والتحقيق من المتفلسفة فى الاسلام ، الفارابى أبو نصر وابن سينا ..

ويقول القفطى (٣) « وكل من نقل كلامه (ارسطوطاليس) — من اليونانية الى الرومية والى السريانية ، والى الفارسية والى العربية حرف وجزف ، وظن بنقله الانصاف وما أنصف . وأقرب الجماعة حالا فى تفهم مقاصده فى كلامه ، الفارابى أبو نصر وابن سينا ، فانهما دققا وحققا فحملا علمه على الوجه المقصود ، وأعذبا منه لوارده منهله المورود » ..

واكبر الظن أن من أسباب عدم الدقة فى الترجمة ما يرجع الى أن المصطلحات الفنية الأجنبية كان يصعب ايجاد مقابل لها معروف فى اللغة المترجم اليها فى أول عهد الترجمة .

المترجمون

١ — آل حنين :

١ — حنين بن اسحاق العبادى وهو من نصارى الحيرة ، ولد سنة ١٩٤ الهجرية وتلقى علومه بالبصرة ثم رحل الى بغداد ليتعلم الطب فوجد معارضة من يوحنا بن ماسويه شيخ الأطباء فى بغداد فرحل الى مصر فتعلم اليونانية وآدابها ثم عاد الى بغداد وهو أعلم أهل زمانه بالسريانية واليونانية والفارسية والعربية فاستعمله الأطباء ، يوحنا بن ماسويه وجبريل ابن بختيشوع فى الترجمة فلما اراد المأمون نقل الكتب الفلسفية الى العربية عين حنينا مراجعا على المترجمين . وقيل أنه رحل الى بلاد الروم لطلب كتبهم من هناك لترجمتها .

---

(١) المقابسات ص ٢٥٨ — طبعة السندوبى .
(٢) تهافت الفلاسفة ص ٩ — المطبعة الكاثوليكية .
(٣) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٣٩ .

وكان لحنين ولدان شهر منهما فى الترجمة اسحاق بن حنين ، عمل مع أبيه فى الترجمة ثم انقطع للقاسم بن عبيد الله وزير المعتضد(1) .

٢ — حبيش بن اعشم الدمشقى هو ابن أخت حنين وتتلمذ عليه واشتغل معه فى الترجمة .

٣ — قسطا بن لوقا البعلبكى ، كان صنو حنين ، عالما باليونانية مبرزا فى الطب والفلسفة والهندسة ولاعداد والموسيقى(2) . ورحل الى بلاد الروم ، وكان عالما باللغات اليونانية والسريانية والعربية .

٤ — يوحنا بن بختيشوع (وهو غير بختيشوع الطبيب المعروف) ، وكان ينقل من اليونانى الى السوريانى لا الى العربى .

٥ — متى بن يونس ، (أبو بشر) وهو يونانى من أهل ديرقنى ممن نشأ فى مدرسة (اسكول) مارمارى ونقل من السوريانية الى العربية (3) .

٦ — يوحنا القس (ابن البطريق القس) كان يترجم من اليونانية وخاصة فى الهندسة (4) .

٧ — يحيى بن البطريق ، وكان مترجم من اللغة اللاتينية دون غيرها .

٨ — يحيى بن عدى — هو أبو زكريا يحيى بن عدى ، اليه انتهت رياسة المنطق .. قرأ على أبى بشر متى وأبى نصر الفارابى(5) وترجم من السريانية .

٩ — اسطفان بن باسيل ، وكان يقارب حنين فى الترجمة ولكن حنين كانت عبارته أفصح وأحلى .

ونستطيع أن نضيف الى هؤلاء التراجمة الذين نقلوا من السريانية الى العربية ما سرجويه وابنه عيسى وشهدى الكرخى وابنه وثابت بن قرة الحرانى والحجاج بن مطر مترجم كتاب المجسطى واقليدس للمأمون ، وابن ناعمة الحمصى وسرجيس الراس عينى والبطريق وأبو عثمان الدمشقى وعيسى بن يحيى وابن زرعه .

الكتب اليونانية المترجمة

أولا : فى الطب :

كتب ابقراط :

كتاب الفصول ، كتاب الكسر ، كتاب قاطيطون نقلها حنين بن اسحاق لمحمد بن موسى . كتاب الماء والهواء نقله حنين وحبيش الأعسم . كتاب طبعة الانسان وكتاب تقدمة المعرفة ، نقلها حنين وعيسى بن يحيى ، كتاب عهد أبقراط نقله حنين الى السريانية وحبيش الى العربية . كتاب تقدمة المعرفة . نقله حنين . كتاب الاخلاط ، نقله عيسى لأحمد بن موسى كتاب الأمراض الحادة ، كتاب أبيذيميا ، نقلها عيسى أيضا .

كتب جالينوس : —

كتاب التشريح الكبير ، كتاب اختلاف التشريح كتاب تشريح الحيوان الحى ، كتاب تشريح الحيوان الميت ، كتاب فى علم أبقراط بالتشريح، كتاب الحاجة الى النبض ، كتاب علم ارسطو طاليس فى التشريح ، كتاب تشريح الرحم ، كتاب آراء ابقراط وأفلاطون ، كتاب العادات ، كتاب خصب البدن ، كتاب المنى ، كتاب منافع الاعضاء ، كتاب تركيب الادوية ، كتاب الرياضة بالكرة الصغيرة ، كتاب الرياضة بالكرة الكبيرة، كتاب الحث على تعلم الطب ، كتاب قوى النفس ومزاج البدن كتاب العلل الباطنة ، كتاب النبض الكبير ، كتاب تدبير الاصحاء ، وكتاب حيلة البرء ، وقد نقلها الى العربية حبيش . كتاب الحركات المجهولة ، كتاب علل الصوت (6) ، كتاب أفضل الهيئات، كتاب سوء المزاج المختلف، كتاب الادوية المفردة ، كتاب المولود لسبعة اشهر ، كتاب رداءة التنفس ، كتاب الذبول ، كتاب قوى الأغذية ، كتاب التدبير الملطف ، كتاب مداواة الامراض ، كتاب ابقراط فى الامراض الحادة ، كتاب الى تراسوبولوس ، كتاب الطبيب والفيلسوف كتب ابقراط الصحية ،

---

(1) طبقات الاطباء ج ١ ص ١٨٩ ، عيون الانباء ج ١ص ١٨٤ — ٢٠٠ .
(2) الفهرست ٤١٠ .
(3) الفهرست ص ٣٦٨ .
(4) الفهرست ص ٣٩٣ .
(5) الفهرست ص ٣٩٣ .
(6) نقل بتكليف من محمد بن عبد الملك الزيات .

كتاب محنة الطبيب ، كتاب الفرق ، كتاب الصناعة ، كتاب شفاء الأمراض ، كتاب المقولات الخمس ، كتاب الاسطقصات ، كتاب المزاج ، كتاب تعرف علل الأعضاء ، كتاب القوى الطبيعية ، كتاب العلل والأمراض ، كتاب النبض الكبير ، كتاب الحميات ، كتاب البحران ، كتاب أيام البحران ، كتاب تدبير الاصحاء كتاب حيلة البرء ، ونقلها كلها حنين .. كتاب افلاطون فى طيماوس ، نقله حنين واسحق ابنه ، وكتاب علل النفس ، كتاب حركة العضل ا كتاب الحاجة الى النفس ، كتاب الامتلاء ، كتاب المرة والسوداء ، كتاب حركات الصدر ، نقلها اصطفان بن باسيل وراجعها حنين ، كتاب تقدمة المعرفة ، كتاب الادوية والادواء نقلها عيسى ، كتاب الفصد ، نقله عيسى واصطفان كتاب الترياق ، نقله يحيى بن البطريق ، كتاب صفات لصبى يصرخ ، كتاب الاورام ، نقلها ابراهيم بن الصلت . كتاب الكيموس نقله ثابت ابن قرة وشملى وحبيش .

كتب لورباسيوس :

كتاب الادوية المستعملة ، نقله اصطفان بن باسيل ، كتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى الى السريانية .. كتاب الى ابنه اسطاث ، وكتاب الى أبيه أرنافيس ، نقلهما حنين .

كتب ديسقوريدس السائح : —

كتاب فى الحشائش ، وله ملحق فى الدواب والسموم ، نقله حنين وقيل حبيش .

كتب اسكندروس : —

كتاب البرسام نقله ابن البطريق للقنطى كتاب علل العين وعلاجاتها كتاب الصغار والحيات والديدان التى تتولد فى البطن نقلها قديم .

كتب اخرى : —

كتاب الحتن لسورنوس ، نقله اسطاث وراجعه حنين ، كتاب طبيعة الانسان لارسيجانس ، لا يعرف ناقله ، كتاب الكناش لفولس الاجانيطى ، نقله حنين ، كتاب فى التوباء وكتاب فيما يعرض للثة والاسنان الفهما فيلفريوس ونقلهما ابوالحسن الحرانى(١)

ثانيا : كتب السياسة والفلسفة والأدب : —

كتب افلا طون : —

كتاب السياسة وكتاب سطسطس ، نقلهما حنين .. كتاب المناسبات وكتاب أفلاطن الى اقرطن ، نقلها يحيى بن عدى . كتاب النواميس، نقله حنين ويحيى كتاب طيماوس نقله ابن البطريق وراجعه حنين ونقلاه معا ، كتاب سوفسطس كتاب طيماوس (٢) نقلهما يحيى . ولافلاطون كتب أخرى لم يذكر عن نقلها شىء فاهملناها .

كتب ارسطو : —

فى المنطق : — كتاب قاتيغوراس (٣) (المقاولات) نقله حنين ، كتاب بارى ارمانياس (٤) «العبارة» نقله حنين الى السريانية واسحق الى العربية . كتاب أنا لوطيقا (٥) (تحليل القياس) نقله تيادورس وراجعه حنين . كتاب أبود قطيقا(٦) (البرهان) نقله اسحق الى السريانية ومتى الى العربية كتاب طوبيقا (٧) (الجدل) نقله اسحق الى السريانية ويحيى بن عدى الى العربية .. كتاب سوفسطيقا (٨) (المغالطات أو الحكمة الموهومة) نقله ابن ناعمة وأبو بشر الى السريانية ويحيى بن عدى الى العربية . كتاب ريطوريقا (٩) (الخطابة) نقله اسحق وابراهيم بن عبيد الله .. كتاب أبو طيقا

---

(١) هذه الكتب ملخصة من فهرست ابن النديم بين ص٤٠٠ و ٤٠٨ ويلاحظ أن بعض هذه الكتب لم تترجم كلها ، بل مقالات منها .. كما أن صاحب الفهرست ذكر بعض الاطباء وأسماء كتبهم دون أن يشير الى انها نقلت الى العربية فأهملناها ومؤلفيها .

(٢) راجع الفهرست لابن النديم ص ٣٤٣ و ٣٤٤ .

(٣) يسمى أفلاطون كتبه أحيانا باسم المصنف له ، فلابأس بأن يتكرر اسم الكتاب مع اختلاف موضوعه .

(٤) شرحه يحيى النحوى والفارابى وأبو بشر متى ، ولرجل يقال له ثاون شرح سريانى وعربى واختصره جماعة من المسلمين لا داعى لذكرهم .

(٥) شرحه حيى النحوى وتويرى ومتى والفارابى

(٦) شرحه يحيى النحوى وتويرى ومتى والكندى

(٧) شرحه يحيى النحوى وأبو يحيى المروزى ومتى والفارابى والكندى .

(٨) فسره يحيى النحوى والفارابى ويحيى النحوى ومتى كما شرحه أمونيوس والاسكندر الافروديسى وترجم الشرح اسحق .

(٩) شرحه يحيى النحوى وأحمد بن كرنيب وثابت بن قرة وأبو الفرج قدامه بن جعفر .

او بوطيقا (الشعر) نقله أبو بشر من السريانية الى العربية .

ثالثا : فى الطبيعيات والالهيات والاخلاق : —

كتب ارسطو

كتاب السماع الطبيعى ، ترجمة أبو روح الصابى وحنين يحيى بن عدى وقسطا وابن ناعمة ، كتاب السماء والعالم . نقله ابن البطريق وراجعه حنين (١) كتاب الكون والفساد(٢) نقله حنين الى السريانية واسحق الى العربية كتاب الآثار العلوية (٣) نقله متى ، كتاب النفس ، نقله حنين الى السريانية واسحق الى العربية .. كتاب الحس والمحسوس ، ذكر فى بعض المراجع اشارة الى شىء منه ترجمة متى كتاب الحيوان ، نقله ابن البطريق وابتدأ على ابن زرعه بنقله أيضا كتاب الحروف او الالهيات (٤) نقله أسحق ويحيى بن عدى وحنين ومتى .. كتاب الأخلاق » نقله اسحق .. كتاب المرآة ترجمة الحجاج بن مطر . كتاب اثولوجيا ولم يعرف مترجمه .

كتب جالينوس :

كتاب ما يعتقده رأيا ترجمة ثابت ، كتاب تعريف المرء عيوب نفسه ، ترجمة توما وراجعه حنين .. كتاب الأخلاق ، نقله حبيش . كتاب انتفاع الاخيار بأعدائهم نقله حبيش . كتاب المحرك الأول لا يتحرك ، نقله حنين وعيسى وآخرون .

---

(١) شرحه أبو زيد البلخى كما ترجم منه تفسير الاسكندرالافروديسى وثامسطيوس يحيى بن عدى وحنين .
(٢) شرحه يحيى النحوى .
(٣) شرحه الاسكندر الافروديسى ونقله الى العربية يحيى بن عدى .
(٤) فسر حروف الباء منه سوريانوس ، نقله يحيى وفسرثامسطيوس حرف اللام ونقله متى .
(٥) فسره فورفوريوس الصورى ونقله اسحق .

المبحث الثالث

أصل الثقافة الأغريقيـــة

دلت الأبحاث التى قام بها العلماء أن اليونان قد نقلوا عن مدنيات الشرق بطريق مباشر أو غير مباشر ، فمدارسهم التى كانت منتشرة فى الشرق لم تكن لتعطى فحسب ، انما كانت تأخذ من حضارات البلاد التى انتشرت فيهـا وهذه البـلاد كانت ذات مدنيات قديمة وتقدم كبير فى العلوم والفنون ، فمدرسة جند يسـابور مثلا والمدرسة الحرانية ، وهما مدرستان يونانيتان فى آســيا كانتا تعتمدان فى التدريس على اللغة السريانيـــة جنبـــا الى جنب مـــع اللغــــة اليونانية وقد قام أساتذة هاتين المدرستين على الكنوز العلمية التى تركها البابليون وخاصة فى الطب والفلك ، وقام أساتذة المدرستين بترجمة المؤلفات السوريانية وهى اللغة البابلية القديمة واللغة الكلدانية الى اللغة اليونانية . وفى نقل اليونانية عن الكلدانيين قول القـاضى صـاعد ابن أحمد .. ولم يصل الينا من مذهب البابليين فى حركات النجوم وصورة هيئـة الفلك مذهب مستقصى ولا جملة ، ولا عندنا من آدابهم فى ذلك ولا من أرصادهم غير الارصاد التى نقلها عنهم بطليموس اليونانى القلوذى فى كتاب المجسطى ، فانه اضطر اليهـا فى تصحيح حركات الكواكب المتحيرة اذ لم يجد لأصحابه اليونانيين فى ذلك أرصادا يثق بها »(١) .

ويقول الأســتاذ ج. هـ. برستد فى كتـابه « انتصـار الحضارة »(٢) :

The Conquest of Civilisation

ولقد ترك علم الفلك الكلدانى أثرا لا يمحى فى تقويمنا (التقويم الأفرنجى) فيما يتعلق بالأسماء التى نطلقها على أيام الأسبوع ، فهذه الكواكب الخمسـة التى ذكرت منذ هنيهة (عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل) بالاضافة الى الشمس والقمر تكون مجموعة من سبعة أجرام سماوية كان كل منها الها على جانب عظيم من الأهمية .. ولمـا كانت القيـادة الكلدانيـة قد انتشرت فى سوريا وذاعت فقد جرت العادة أخيرا على العبادة والتغنى بمدح كل اله منها فى يوم خاص معين ، وهكذا كانت عبادة كل اله تتكرر بعد مرور سبعة أيام ثم تطلق اسم الاله الذى يعبد فى يوم ما على ذلك اليوم نفسه ، وكذا أصبح اليوم المكرس لعبادة الشمس ـــ الأحد . (Sunday يوم الشمس) وبات اليوم الخـاص بعبـادة القمر الاثنين ، (Monday) يوم القمر) وهكذا حتى نهـاية الاسـبوع ، وعرف اليوم الأخير ـــ المخصص لعبـادة زحل باسم يوم ساتورن وهو يوم السبت .. ولمـا كانت اللغة الانجليزية قـد وصلت عن طريق الشـعوب الشمـالية فقد دخلت فيها بعض العناصر النورسية وظهرت فى أسـماء بعض أيام الاسـبوع مثل (Wodon's day, Wednesday) أى يوم الأربعاء أو (Thor's day, Thursday) أى يوم الخميس ومع هذا فان هذه الأسماء جميعها ترجع الى الالهة البابلية القديمة التى ما زالت أسماؤها محفوظة بين الشـعوب الغربية يذكرونها كلمـا نطقوا باسم أى يوم من أيام الأسبوع .

هذا القول يشبه الى حد كبير ما قاله ابن النديم « يوم الاحد للشمس واسمها ايليوس ، يوم الاثنين للقمر واسمه سين ، يوم الثـلاثاء للمريخ واسمه تريس ، يوم الاربعـاء لعطارد واسمه نابق ، يوم الخميس للمشترى واسمه بال ، يوم الجمعة للزهرة واسمها بلثى ، يوم السبت لزحل واسمه فرنس » (٣) .

---

(١) طبقات الامم ص ٣٠ .
(٢) ص ١٠٨ و ١٠٩ ترجمة أحمد فخرى سنة ١٩٥٧ .
(٣) الفهرست ص ٤٤٧ .

وذكر الأستاذ بريستيد عالمين فلكيين من الكلدان ، هما : نبوريمانو Nabu - Rimannu وضع جداول لتحركات الشمس والقمر على اختلاف انواعها وعرف مواقيت كسوف الشمس وخسوف القمر وحسب طول السنة بثلاثمائة وخمسة وستين يوما وست ساعات وخمسين دقيقة و ٤١ ثانية ، فان الدورة السنوية للشمس لم تفرق فى حسابات هذا الكلدانى الا عشر ثوان. أما العالم الكلدانى الآخر واسمه Kidinnu فقد جاء بعد قرن من سابقه ، أو يزيد قليلا فكان ادق من يطابقه فلم تزد أرقامه التى بين بهـا الوقت اللازم لدورة الشمس والقمر السنوية عن ثانية واحدة عن الوقت الحقيقى(١) ثم قال : « ولقد آلت الابحاث الفلكية التى استغرقت قرنا من الزمان والتى قام بها الكلدانيون بالاضافة الى حسابات نبوريمانو وكيدينو الى الاغريق فانكبوا على دراسة هذين الفلكيين الكلدانيين اللذين أطلقوا عليهما نبوريانوس Naburianos وكيديناس Kidenas وعندما حاول المهندس الاغريقى ميتون Meton أن يدخل تقويما علميا فى اثينا اقتبس طوب سنة من جداول نبو — ريمانو(٢) » .

والاغريق لم يقتصروا على الأخذ من الحضارة الكلدانية بل تعدوها الى — الأخذ عن الحضارة المصرية القديمة وخاصة أيام حكم البطالسة ، فقد كانت مدرسة الاسكندرية واسطة الاتصال المصرى الاغريقى وكانت مكتبة الاسكندرية منهلا عذبا يستقى منه كل من طلب العلم ، وكانت العلوم تدرس باللغات السوريانية واليونانية والقبطية ، ولقد أثبت المستشرق الألمانى جورج يعقوب(٣)أن آراء فيثاغورس كانت معروفة فى الهند . قال : « اعتادت المدرسة أن تلقن طلابها نظرية فيثاغورس ، كما لو أنها أرقى ما وصل اليه التفكير البشرى القديم .. ويقال أيضا أن فيثاغورس قدم مائة ثور قربانا للالهة شكرا على هذا الالهام العقلى العظيم لكن منذ ربع قرن تقريبا اثبت (برك) فى بحثه عن (ايشتمبا سلبا سوترا) أن نظرية (كنتور) القائلة بوجود أثر للرياضة الاسكندرانية فى الهند لا تقوم على دعائم قوية .. واثبت برك أيضا أن رأى فيثاغورس كان معروفا فى الهند فى مصر لا يمكن أن يكون أحدث من القرن الثامن قبل الميلاد .. واصبح الآن من الثابت أن تعاليم فيثاغورس تعتمد على اصول شرقية .. فنظرية الحلول مثلا هندية الأصل .. » .

وفى موضع آخر يقول الأستاذ أوليرى عن اليونانى طاليس « ويقال أن طاليس درس العلوم الطبيعية والرياضيات فى مصر ويصف فيثاغورس(٤) بأنه تبعه فذهب الى مصر وتعلم على كهنتها ، وكان من بين ما تعلمه على هؤلاء الكهنة مذهب التناسخ (قارن هيرودوت ٣ — ١٢٣) فحين رجع الى بلاده وجد أن ساموس قد استبد بها بوليقراط الطاغية ومن ثم هاجر الى المدن الاغريقية فى جنوب ايطاليا واستقر فى كروتون ، وهناك أنشأ مدرسة فى صورة جمعية تجرى على سوابق مصرية .. » (٥) .

ويتساءل الكاتب نفسه(٦) عما اذا كان مذهب خلود الروح قد وفد من مصر عبر وسط فيثاغورس اذ الملاحظ كما يقول أن معظم الاغريق الذين تقبلوا هذا المذهب كانوا على صلة بالمذهب الفيثاغورى .

وقد دخل العلم الاسكندرى على اليونان فى قلب مدينتهم أثينا ، فحين ضاق الفكر الاسكندرى بالافلاطونية الحديثة قام علماء اسكندريون ، أو على الأقل تعلموا فى — الاسكندرية يبشرون بالمذهب فىقلب اثينا ومنهم سريانوس الاسكندرى، ثم بركلوس ثم دماسيوس(٧) .

فاذا انتقلنا الى النحت وجدنا أن اليونان قد برعوا فيه وجاوزا الحد ، فقد كان من أثر استيطان اليونان غربى آسيا وفتح مصر لتجارة اليونان سنة ٦٦٠ ق٠م أن دخلت أشكال الشرق الأدنى ومصر وأساليبها الى أيونيا وبلاد اليونان الأوربية ، ذلك أن مثالين كريتيين هما ديوثينوس

---

(١) بريستيد ص ١١١ و ١١٢ .
(٢) بريستيد ص ١١١ و ١١٢ .
(٣) أثر الشرق فى الغرب وخاصة فى العصور الوسطىترجمة الدكتور فؤاد حسنين على ص ٢٧ طبعة ١٩٤٦ .
(٤) ينسبالى جزيرة ساموس أو الى صور (٥٨٠—٥٠٠).
(٥) مسالك الثقافة ص ٢٩ .
(٦) أوليرى فى المسالك ص ٣٠ و ٣١ .
(٧) المرجع السابق ص ٤٠ ، ٤١ .

Dippoenus واسكيلوس Scyllus استدعيا حوالى عام ٥٨٠ الى سكيون وارجوس ليقوما فيها بمهمة فنية ، ولما أن غادراها لم يتركا فيها تماثيل فحسب ، بل تركا فيها تلاميذ أيضا(١) .

وقد ارتقى خيال اليونان بالفن ، فكان متنوع الضروب ، تارة يصنعونه للالهة واخرى للفائزين فى الألعاب الرياضية وثالثة تخليدا للموتى .

وارتقى يوتان ايونيا بالثياب التى كان المصريون يصنعونها على تماثيلهم فبعد أن كانت لا تزيد على مئزر حجرى كبير يخفى الجسم ويلتصق به فى جمود ، ادخل اليونانيون الثنايا فى الثياب لتكشف عن جمال الجسم الحى .

وبعد ان كانت تماثيل المصريين تواجه الناظر، فى يدين مسترخيتين الى الجانبين ، وساقين مشدودتين حتى فى حالة الراحة ، وعينين لوزيتى الشكل مائلتين أحيانا كعيون معظم الشرقيين ، أخذت التماثيل وضعا جانبيا ، وبدأ الساقان تتحركان ، والذراعان تبتعدان عن الجانبين ، واليدان تتفتحان ، والوجه ينم عن الاحساس والاخلاق ، والجسم ينثنى ويتخذ أوضاعا مختلفة تكشف عن دراسات جديدة فى التشريح والحركة .. ومن ذلك الحين نبذ الفن اليونانى تأثير المصريين والشرقيين واصبح فنا يونانيا خالصا فاذا انتقلنا الى فن العمارة وجدنا أن ما ابدعه اليونانيون فى هذا الفن كان يفوقه الوصف واحتفظت روائع الفن اليونانى بطراز البناء المستطيل القائم الزوايا وباستخدام العمد فى داخل البناء وخارجه وبجسم العمود المستدير وتاجه المربع البسيط ثم تشعبت هذه النماذج وتطورت على أيدى الدوريين فى اليونان ، وكان هذا الطراز يتكيف فى أغلب الظن بأبهاء العمد التى فى الدير البحرى بينما كان اليونان الايونيون يتطورون بفن العمارة بتأثير الطرز الاسيوية ، فنشأ طراز أيونى يقوم فيه عمود رفيع على قاعدة خاصة ويبدأ فى أسفله كما ينتهى فى أعلاه بطوق ضيق(٢) .

---

(١) ول ديورانت مجلد ٢ ج ١ ص ٤٠٣ .
(٢) ول ديورانت مجلد ٢ ج ١ ص ٤٠٨ وما بعدها .

الفصل الرابع

العصر التكويني فى الأندلس

أولا: بداية العهد العلمى

١ ـ أسبانيا قبل الفتح الاسلامى :

كانت الأندلس قبيل الفتح الاسلامى محتلة بجماعة بربرية من الآلان والهون والقوط والوندال والسويف الذين اغتصبوا شبه جزيرة ايبريا من سكانها الأصليين من الرومان والغال والايبيريين.

احتل الوندال أول الأمر الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة المعروف بولاية بيتيكا التى سماها المسلمون فيما بعد « بيطى » وكانت منذ زمن طويل مركزا للثقافة الاغريقية وقد أخذت الوندال فى هذا الأقليم آثارا عميقة ، فغيروا اسم الاقليم الى « فندالوسيا » أى أقليم الوندال وهذا اللفظ هو الذى اشتق منه المسلمون الفاتحون لفظ الأندلس(١) .

ولكن العنصر الذى ساد فيما بعد هو العنصر القوطى المغربى ، فقد طردوا ـ الوندال الى افريقية سنة ٤٢٩ م واخذوا يتوسعون فى شبه الجزيرة شيئا فشيئا حتى استقر سلطانهم على الجزيرة كلها ، وأن ظل الأهلون رغم ذلك مزيجا من القبائل المتبربرة من كل جنس .

وعندما استقل أدواكر بالجزء الغربى من الامبراطورية الرومانية واقره على هذا الوضع الامبراطور البيزنطى زينون ، صارت اسبانيا تحت امرة القوط المغربيين ، وأعلن هؤلاء أنفسهم ملوكا عليها ، لا يدينون بالولاء لأحد من أباطرة الرومان .. واتخذ القوط عاصمتهم الأسبانية الجديدة مدينة طليطلة (توليدو) وقد كانت العاصمة فى العهد الرومانى مدينة « طركونة » .

وكان القوط مسيحيين آريين لا يعتقدون كسائر قومهم فى الوهية المسيح ، ولا بوساطة القساوسة بين الله والناس ، ولايجعلون للعذراء مكانا ممتازا فى العقيدة ، فلم يلبث السكان الأصليون من الغال والأيبيريين أن ينفروا منهم .. وقد رأى ليوفيجيلد آخر ملوكهم أن حسن السياسة يقتضى أن يكون اسبانيا أصليا لا قوطيا آريا ، فأعلن اعتناق الكاثوليكية هو وأهل بيته وذلك فى مجمع طليطلة الدينى عام ٥٨٧ وبهذا أصبحت الديانة الكاثوليكية هى الدين الرسمى لأسبانيا كلها .

منذ ذلك الحين اعتبرت اللغة اللاتينية هى اللغة الرسمية للبلاد وتوثقت الروابط بين البابا وحكام أسبانيا حتى بسط البابوات نفوذهم الدينى على طليطلة مركز الأسقف البابوى وتوافد القساوسة الكاثوليك الى شبه الجزيرة ، ولقد لقوا ترحابا كبيرا من سكان البلاد الاصليين الذين لم يتخلوا عن كاثوليكيتهم .

وقد اعتلى غبطة العرش فى نوفمبر سنة ٧٠٠م والأمور مضطربة بسبب ضعفه أو بسبب المؤامرات التى كان يدبرها قواده ، أو بسبب مجهول فاضطهد اليهود ثم مات سنة ٧٠٨ أو سنة ٧٠٩ وترك على العرش ابنا صبيا هو « أخيلا » لم يرض عنه كبار القوط وأعيانهم

---

(١) فجر الاندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٤ طبعة ١٩٥٩

فبايعوا واحدا منهم هو رود ريجو (لذريق) . ولكن أبناء غيطشة نقموا على لذريق أن يغتصب الحكم الذى كان مصيره اليهم ، واعانهم على السخط عليه أعمال السطو والنهب واصداره الأوامر الى رجال الدين ليصدروا قراراتهم باتهام غيطشة بكل نقيصة ، ويضاف الى هذا نقمة اليهود .. وقد تسامع أولاد غيطشة بالعرب الذين كانوا قد فتحوا المغرب الأقصى فأرسلوا اليهم الرسل يدعونهم الى القدوم .

هذه نبذة عن الحالة السياسية لأسبانيا قبل الفتح الاسلامى .. أما حالتها الثقافية فكانت على مستوى رفيع من العلم والفن وضع اصول الثقافة الفينيقيون وزاد عليها الأغريق والرومان الى أن جاء العهد المسيحى .

وقد « تأصلت المسيحية فى اسبانيا بأسرع مما اتصلت فى غالة مثلا ، ولم يكد القرن السادس يهل حتى كانت البلاد تفيض بالديور يقيم فيها الرهبان يدرسون ويتذاكرون والكنائس يقوم بها قسس معينون بالدرس مشغوفون بالكتابة والتأليف(١) » .

وأشهر الشخصيات فى العصر المسيحى قبل الفتح الاسلامى القديس ايزودور — الأشبيلى.. ولم يكن هذا الاشبيلى قوطيا وانما كان أيبيريا رومانيا ولم يكن كاتبا دينيا فحسب وانما كان أمة وحده . وأشهر مؤلف له كتاب أصول الكلمات جمع فيه اللغة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى والقانون . وسبب نبوغ هذا وأمثاله أن — البلد كان قبل ذلك موطن حضارة فكرية وفلسفة باقية الأثر من عهد الرومان . وقد سبقت أسبانيا المسيحية أوروبا الغربية كلها فى الحضارة كما سبقت أسبانيا الاسلامية بقية العالم الاسلامى فى نواحى شتى من نواحى التفكير الاسلامى ولعل مرد هذا الى أثر هذا القطر البديع فيمن يقيم فيه(٢) .

على أن هذا الرأى . القائل بوجود فلسفة قديمة فى الأندلس يرجع تاريخها الى ما قبل الفتح الاسلامى ، انما هو راى مبالغ فيه .. ولعل القديس ايزيدو الاشبيلى ومن نهج على نهجه قد أخذوا أصولهم عن مصادر لم تأت مباشرة عن اسبانيا ، ذلك بأن المؤرخين القدامى والمحدثين يجمعون على أن الثقافة القديمة لم تكن رفيعة المستوى عند الأسبان قبل الفتح الاسلامى.

فيذكر ابن صاعد فى طبقات الأمم مثلا أن الأندلس كانت قبل الفتح « خالية من العلم ، لم يشتهر عند أهلها أحد بالاعتناء به ، الا أنه يوجد فيها طلسمات قديمة فى مواضع مختلفة وقع الاجماع على أنها من عمل ملوك رومية ، اذ كانت الأندلس منتظمة بمملكتهم ولم تزل على ذلك عاطلة من الحكمة الى أن افتتحها المسلمون فى شهر رمضان سنة اثنين وتسعين من الهجرة فتمادت على ذلك أيضا ، لا يعنى أهلها بشىء من العلوم الا بعلوم الشريعة وعلم اللغة الى أن توطد الملك لبنى أمية بعد عهد أهلها بالفتنة فتنبه ذوو الهمم منهم لطلب العلوم(٣) » .

يؤيد ذلك قول الأستاذ آسين بلاثيوس(٤) :

« ان تاريخ الفكر الفلسفى ، فى أسبانيا الاسلامية هو صورة مطابقة لما كانت عليه الثقافة المشرقية (فى الشرق الاسلامى) دون أن تكون له بالتراث المحلى صلة حقيقية يقوم عليها الدليل(٥) » .

هذا القول أيده المستشرق الأسبانى آنجيل جيثالث بالنثيا ، حيث يقول فى كتابه الفكر الأندلسى « ويؤيده ما يقوله بلاثيوس فيما نذكره، ما هو معروف من أقفار العصر القوطى من التفكير الفلسفى اقفارا يكاد يكون تاما(٦) » .

٢ — أسبانيا فى بدء الفتح الاسلامى :

فاذا انتقلنا من العصر المسيحى فى أسبانيا الى العصر الاسلامى وجدنا الحال على ما هى عليه

(١) فجر الاندلس ص ٢٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٩ — ٣١ وأظن أن المؤلف لا يقصد بالسبق هنا السبق الزمنى وانما يقصد التفوق العلمى من حيث النضوج والدقة والفن .
(٣) ص ٩٧ .
(٤) أسبانى من علماء القرن الحالى .
(٥) النص مترجم عن الاسبانية ضمن ترجمة كتاب الفكر الاندلسى ص ٢٢٣ .
(٦) ص ٢٢٣ .

منذ فتح الأندلس ، طارق بن زياد وموسى بن نصير بل واستمر الحال على هــذا المنوال فى عهد عبــد الرحمن بن معــــاوية ١٣٨/٧٥٥ ــ ١٧٢/٧٨٨ . فلم نر شـــيئا من التجــديد فى الحضارة . وان كانت بذور التقدم بدأت تظهر اجنبهـا .. والأمر لم تمسه يد التغيير فى عهــد عبد الرحمن الأوسط أو عبد الرحمن الثــانى ٢٠٦/٨٢١ ــ ٢٣٨/٨٥٢ ، الا أن الناس بدءوا مظاهر الترف فى حياتهم المادية والفكرية ، ففى ذلك العهد ابتدع مقدم بن معافى القبرى الضرير نظاما للقوافى والأوزان ونسقا جديدا للابيات ظهر فى الموشحات الأندلسية والزجل(١) .. الا أن هذا التجديد فى الشعر لا يعنى الا انقلابا فى الأدب جزئيا ، لا نستطيع أن نجمع على الحكم عليه ان كان تقدما أم تأخرا ، وأن كنا نجمع على أن له لونا جميلا ..

ومهما يكن من شىء فان حاضرة الأمويين فى الأندلس ــ قرطبة ــ ظلت خاملة الذكر زمنا طويلا ولم تستيقظ الا فى عهد عبد الرحمن الناصر .

وسبب ذلك أن الأندلس ذاتها كانت تابعــة فى ثقافتها للمشرق الاســلامى الذى بدأ عهــده العلمى أيام دولة بنى العباس ، وكان لابد أن يمضى وقت كاف لنقل العلوم الاســلامية من المشرق الى المغرب .. وقد بدأ هذا النقل بطيئا فى أول أمره ، واقتصر اتصال الأندلسيين بالمشرق على الرحلات التى يقوم بها المسلمون فى مواسم الحج وعلى رحلات خاصة طلبا للعلم ، وكانت قليلة .. ونستطيع أن نشير فى هذا العهــد الى يحيى بن يحيى المعروف بابن اليتيمية ، وكان بصيرا بحساب النجوم والطب والجــدل وعلوم الدين ، وكان معتزلى المذهب ، رحل الى المشرق ثم انصرف ، وتوفى سنة ٣١٥هـ (٢) .

بيد أن التقدم الحقيقى للحضارة بدأ فى عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠/٩١٢ ــ ٣٥٠/٩٦١) حيث خف ابنه الأمير الحكم « الى العناية بالعلوم والى ايثار أهلها ، واستجلب من بغداد ومصر وغيرها من ديار المشرق عيون التواليف الجليلة والمصنفات الغريبة فى العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها فى بقية أيام أبيه ثم فى مدة ملكه من بعده ما كاد يضاهى ما جمعه ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة ونهيأ له ذلك لفرط محبته للعلم وبعد همته فى اكتساب الفضائل وسمو نفسه الى التشبه بأهل الحكمة من الملوك فكثر تحرك الناس فى زمانه الى قراءة الكتب الأوائل وتعلم مذاهبهم(٣) .

ويمكن أن يقاس هذا العصر الأندلسى بعصر المأمون فى بغداد حين أجتبى العلماء والمترجمين ، فنقلوا الكتب من اليونانية والفارسية والسريانية .

لقد أراد خلفاء قرطبة أن ينافســوا خلفــاء بغداد ، فبدأ البلاط القرطبى يستقبل نوعا جديدا من الموالى الصــقالبة الذين جلبوا من أوروبا الوسطى وشمال اسبانيا على غرار الموالى فى العهد العباسى ، ثم أنشأ الحكم المستنصر على غرار بيت الحكمة العباسى مكتبة فى قرطبة ، اجتمع له فيها ما ان فهارسه وحدها لتبلغ أربعة وأربعين فى كل فهرس عشرون ورقة(٤) .

لقد فعل الحكم ذلك فى خلافة أبيه وظلت الحال كذلك فى عهد خلافة الحكم نفسه ، وقد سمى المستنصر بالله .. فلما توفى سنة ٣٦٦ هـ تولى بعده ابنه هشام المؤيد بالله وكان غلاما لم يبلغ الحلم « فتغلب على تدبير ملكه بالأندلس حاجبه أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى القحطانى ، وعمدا أول تغلبه عليه ، الى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب المذكورة وغيرها وأبرز ما فيها من ضروب التأليف بمحضر خواص من أهل العلم وأمرهم باخراج مافى جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة فى علوم المنطق وعلوم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل ، حاشا كتب الطب والحساب والنحو والاشــعار والأخبار والطب والفقه والحديث وغير ذلك من العــلوم المباحة عند أهل الأندلس ، الا ما أفلت منها فى أثنــاء الكتب وذلك أقلها ، أمرباحراقها ، فأحرق بعضها وطرح بعضها فى آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغايير ، وفعل ذلك تحببــا الى عوام الأندلس وتقبيحا لمذهب الخليفة الحكم عندهم اذ كانت تلك العلوم مهجورة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٨ ط لجنة البيان العربى .
(٢) طبقات الامم ص ١٠١ .
(٣) طبقات الامم ص ١٠٢ .
(٤) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

عند اسلافهم مذمومة بالسنة رؤسائهم ، وكان كل من قراها متهمـــا عندهم بالخروج من الملة ومظنونا به الالحاد فى الشريعة فسكن أكثر من كان تحرك للحكمة عند ذلك وخملت نفوسهم»(١)

وقد ظل عهد الخمول الفكرى مخيما على مدينة قرطبة فى خلافة بنى أمية ومع ذلك فانها كانت مركز الاشعاع الثقافى الذى انبثق فى عهد ملوك الطوائف فى المدن الأخرى من الأندلس .. وسبب ذلك أن قرطبة شغلت بالمنزعات الدينية وامتحان الناس فى عقيدتهم حتى أفلست خزائنها من المال فاضطروا الى بيع ما تبقى لديهم بأوكس ثمن .

« وانتشرت تلك الكتب بأقطار الاندلس ووجد خلالها اعلاق من العلوم القديمة كانت أفلتت من أيدى المتحنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبى عامر واظهر كل من كان عنده من الرعية شىء منها ، ما كان لديه منها ، فلم تزل الرغبة ترتفع من حين فى طلب العـــلم القديم شـــيئا فشيئا ، وقواعد الطوائف تتمصر قليلا قليلا(٢) .

---

(١) طبقات الاندلس ص ١٠٢ و ١٠٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ .

ثانيا: مظاهر النهضة فى الأندلس

فى الفلســـفة :

تأخر العهد الفلسفى فى الأندلس عنه فى بغداد وسبب ذلك يرجع الى أن مسلمى المشرق كانوا فى عهدهم الأول عيالا على انتاج مسلمى بغداد ومراكز الحضارة الاسلامية الأخرى فى المشرق .. لقد بدأ علماء الأندلس دراساتهم الفلسفية الأولى فى الرياضة والفلك وغيرهما على ما اختاره علماء بغداد من كتب أفلاطون ، وأرسطو وفيثاغورس مما نقل الى العربية فى عهد الخلفاء العباسيين .. ومن الفلاسفة الأولين أبو عبيده مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، توفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ويحيى القرطبى . وقد توفى سنة ٣١٥ هـ . ومن تلاميذه ابن السمح المهندس الغرناطى وابن الصـــفار الرياضى القـــرطبى والزهراوى والكرمانى .

ومنهم أيضا أحمـــد بن عبد الله التحبيبى وأبو وهب عبد العلى القرطبى وخليل بن عبدالملك المعروف بخليل الغفلة ، وتلميذه الشـهير محمد ابن مسرة الذى يعد أول فيلسوف صاحب مدرسة من مدارس الفلســـفة وقد تأثر كثير من هؤلاء الفلاسفة الأولين باراء المعتزلة التى كانوا يلمون بها فى المشرق أثناء رحلاتهم المختلفة .

ومن المحتمل أن تكون الفلســـفة قد أصابت تقدما بعد أن دخلت الى الأندلس رسائل اخوان الصفا .. والظاهر أن أخوان الصفا لم يتصلوا بالأندلس عن طريق رسائلهم فحسب بل أنه كانت لهم جماعة هناك ،وفى ذلك يقول دوزى :

« وبعد أن تحول هؤلاء الأسبان الى الاسلام ظهروا بمظهر الغيورين لدينهم الجديد وانضموا هم وأولادهم الى جماعة أخوان الصفا الذين عرفوا بالتقشف وشدة تمسكهم بالدين ولم يحفلوا بأن يعيشوا عيشة الترف والاهمال التى سادت الطبقة الارستقراطية العربية(١) .

وقد ســـاعد المستعربون Musarabes بعد اعتناقهم الدين الاسلامى على النهوض بالحركة الفلسفية ، كما فعل الموالى فى المشرق الاسلامى، وكان هؤلاء المستعربون أغلبية بالقيـــاس الى العرب الأصليين ، يؤكد هذه الحقيقة أن مدينة غرناطة فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى كان بها مائتا ألف مسلم ليس فيهم من أصل عربى ســـوى خمسين ألف ، أما البـــاقون فهم من الأندلسيين الأصليين الذين اسلموا(٢) ومع ذلك فان المذهب المشائى لم يبلغ ذروته فى عهد مبكر فى الأندلس وانما تغلغل فى أواخر القرن الخامس وفى القرن السادس وما بعده ، فترى أبا الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى (١٠٦٧/٤٥٩ — ٥٢٨/ ١١٣٤) يؤلف كتابا عنوانه «تقويم الذهن» فى المنطق يعرض فيه آراء أرسطو فى ذمة وأمانة وابن السيد البطليوسى ، يورد فى كتاب الحقائق فقرات من محاورة تتمارس لأفلاطون ويحـــاول التوفيق بين الشريعة الاسلامية والفكر اليونانى(٣) ولكن المذهب لم يكتمل الا على يد ابن باجة ، وتلميذه الفيلسوف العالمى ذائع الصيت ابن رشد.

فى التصـــوف :

يعتبر محمد بن عبد الله مسرة (٨٨٣/٢٦٩ — ٩٣١/٣١٨) منشىء الأفلاطونية الحديثة فى الأندلس ، كما يعتبر أول من نهج نهجا منظمـــا واتخذ طريقة موضـــوعة من طرق الصوفية .

---

(١) Histoire des Musulmans d'Espagne T. 2. p. 45, 46.

(٢) Morgan, T. 2, p. 289.

(٣) الفكر الاسلامى ص ٣٣٤ .

وقد نشأ فى قرطبة وتتلمذ على خليل الغفلة ، واتخذ له تلاميذ وهو فى سن مبكرة (١٧ سنة) ، وكان يعيش مع اقربهم منه فى معتزل بجبل قرطبة ، ويقال انه كان يلقن تلاميذه بدعة الاعتزال وينشر آراء — انباذ قليس التى تنحو نحو وحدة الوجـود(١) .

ويقوم مذهب ابن مسرة على آراء أمباذ قليس وهى خليط امتزجت فيه مذاهب الغنوصية التى قامت بها الافلاطونية الحديثة كما كونها الاسكندرانيون وزينها للناس بنسبتها الى فيلسوف أغرغنت (أى أمباذ قليس) لكى يكسبوها ، ما لهذا الفيلسوف من مكانة(٢) .

اما حقيقة الآراء التى وجدت فى كتب ابن مسرة فهى مأخوذة من أفكار فيلون الاسكندرى وأفلاطون فى تاسوعاته وفورفوريوس الصورى وبرقلس . وقد أبرز فى آرائه نظرية ثانوية كانت موجودة فى تاسوعات أفلوطن تقول بوجود مادة تشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الالهية ، واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلى الذى يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية .. وبهذا يكون ابن مسرة قد دافع عن آراء المعتزلة والباطنية تحت ستار اسلامى(٣) .

فى الطب والصيدلة والنبات :

يقول القاضى صاعد بن أحمد فى طبقات الأمم(٤) « وأما صناعة الطب فلم يكن بالأندلس من استوعبها ولا لحق بأحد المتقدمين فيها ، وانما كان غرض أكبرهم من علم الطب قراءة الكنانيش المؤلفة فى موسوعته فقط دون الكتب المصنفة فى أصوله مثل كتاب أبقراط وجالينوس ، وليستعجلوا بذلك ثمرة الصناعة ويستفيدوا به خدمة الملوك فى اقرب مدة ، الا ؤفرادا منهم رغبوا عن هذا الغرض وطلبوا الصناعة ذاتها ، وقرأوا كتبها على مراتبها .

ومن أوائل الأطباء يونس بن أحمد الحرانى(٥) ورد من حران الى الأندلس فى عهد امارة محمد ابن عبد الرحمن (٢٣٧/٨٥٢ — ٢٧٢/٨٨٦).

ومنهم عزوا أحمد ابنايوس بن أحمد العرابى ، رحلا الى المشرق فى دولة الناصر واقاما هنالك عشرة أعوام ودخلا بغداد وقرأ فيها على ثابت ابن سنان بن ثابت بن قرة الصائبى كتاب جالينوس عرضا ، وخدما ابن وصيف فى عمل علل العين وانصرفا الى الأندلس فى دولة المستنصر بالله وذلك فى سنة احدى وخمسين وثلاثمائة فالحقهما بخدمته فى الطب(٦) .

ومنهم محمد بن عبدون الجبلى ، رحل الى المشرق سنة سبع وأربعين وثلاثمائة ، ودخل البصرة ومصر ودير مارستانيهما وتمهر فى الطب ونبل فيه وأحكم كثيرا من أصوله(٧) .

ومنهم أحمد بن حكم بن حفصون ، خدم المستنصر بالله فى الطب « وكان طبيبا نبيلا جيد القريحة دقيق النظر» ومنهم محمدبن تمليخ طبيب الناصر والمستنصر وأبو الوليد محمد بن الحسين المعروف بابن الكتابى . خدم الناصر والمستنصر أيضا كان عالما بالظب حسن العلاج لطيف المعافاة .

ومنهم عبد الله الثقفى ، كان عالما بالطب والهندسة وكان الطب أغلب عليه وقد خدم كسابقه الناصر والمستنصر .. ومنهم أيضا عمر ابن حفص بن برتق ، وقد درس فى القيروان على ابن الجزار وأخذ عنه كتاب زاد المسافر(٨) وذلك فى النصف الأول من القرن العاشر الميلادى .. ومنهم حمد بن أبان وهو طبيب من النباتيين عاش أيام الأمير مجمد بن عبد الرحمن ، وكان صهر بنى خالد ، وله بقرطبة أصول ومكاسب، وكان لا يركب الدواب الا من نتاجه ولا يأكل الا من زرعه ولا يلبس الا من كتان ضيعته ولايستخدم الا بتلاده من أبناء عبيده(٩) .

---

(١) الفكر الاندلسى ص ٣٢٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٢٨ نقلا عن آسين .. ويقول المؤلف أن أمباذقليس هذا غير امبادقليس المعروف لنا وانما هو شخصية أسطورية عاشت فى عهد داود وخالطت بعلم سليمان واليونان .

(٣) نفس المصدر ص ٣٣٠ .

(٤) ص ١٢٠ .

(٥) طبقات الاطباء لابن ابى أصيبعة ج ٢ ص ٣٧ .

(٦) طبقات الامم ص ١٢٤ .

(٧) المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٨) طبقات الامم ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٩) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٤٢ .

ولم يتقدم الطب والصيدلة والنبات فى الأندلس الا فى عهد عبد الرحمن الناصر وذلك بعد ترجمة كتاب ديوسقوريديس فى الطب والنباتات الطبية، ففى سنة ٩٤٨/٣٣٧ — ٩٤٩ أرسل امبراطور بيزنطة قسطنطين السابع المعروف بـ (يورفيروجونيت) أى لابس الأرجوان سفارة الى عبد الرحمن الناصر ، وكان من بين ما حمله الرسل من الهدايا نسخة أغريقية من هذا الكتاب وفيه الحشائش مصورة بالتصوير الرومى العجيب(١) وفى سنة ٣٤٠ هـ أرسل الامبراطور الى الناصر — بناء على طلبه الراهب نيقولا العالم باللاتينية والأغريقية معا . فترجم الكتاب الى العربية بمعاونة حسداى بن شيروط ومحمد النباتى والبسباسى وأبى عثمان الخزار ومحمد بن سعيد وعبد الرحمن بن اسحاق بن الهيثم وأبى عبد الله الصقلى ، وكان عارفا باليونانية ويتحدث بها ويبدو أن أهل الأندلس لم يكونوا يعرفون فى ذلك الوقت أن الكتاب ترجم فى بغداد على يد اسطفان ابن باسيل فى أيام المتوكل وترجم مرة أخرى على يد حسان الناتلى (استاذ ابن سينا) سنة ٩٨٥/٣٧٤(٢) .

ومع ذلك فيقول الأستاذ جورجى زيدان أن سبب اعادة الترجمة ترجمة اصطفان وكانت متداولة فعلا فى الأندلس وكانت غير دقيقة « فالعقاقير التى لم يعرف لها أسماء فى العربية تركها على لفظها اليونانى اتكالا على أن يبعث الله بعده من يعرف ذلك ويفسره(٣) .

وقد استفاد من هذا الكتاب من علماء النبات المتأخرين ابن جلجل فى آخر القرن الرابع ، فألف كتابا فيما فات ديقوريدس ذكره من أسماء العقاقير والأدوية وجعله ذيلا على ذلك الكتاب ثم جاء ابن البيطار فى آخر القرن السابع الهجرى فدرس هذا الكتاب وتفهمه وسافر الى بلاد الروم واليونان والمغرب والشام ومصر ، وانتهى بتأليف كتابه فى النبات وهو فريد فى بابه(٤) على مايدرس الا فى عهد الحكم المستنصر الذى شجع العلماء ومن بينهم الفلاسفة والفلكيون والرياضيون ، فظهر قرب ذلك العهد مسلمة المجريطى المتوفى سنة ١٠٠٤/٣٩٤ ، واعتبره أهل الأندلس أقليدس الأندلس . ألف رسالته فى الأسطرلاب وثمار علم العدد ، ولخص زيج البتانى فى كتاب سماه « تعديل الكواكب » وعنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى وصرف تاريخه الفارسى الى التاريخ العربى(٥) . ومن تلاميذه ابن السمح أبو القاسم اصبغ بن محمد المهدى (٩٨٠/٣٦٩ — ٤٢٥ / ١٠٣٤) من أهل غرناطة . كتب المدخل الى الهندسة ا وثمار العدد المعروف بالمعاملات ، وطبيعة العدد،وكتابين فى الالة المسماة بالاسطرلاب الأول فى طريقة عملها ، والثانى فى طريقة استعمالها .. ومنهم ايضا أحمد بن الصفار .

وظهر فى ميدان الفلك أيضا ابن برغوث (٤٤٣/ ١٠٥٢) وابراهيم بن يحيى النقاش الزرقالى القرطبى فيما بين سنتى ٤٥٢ ، ٤٧٢ هـ .

على ان هؤلاء قله بالقياس الى من ذكرهم صاحب طبقات الأمم ، فارجع اليه .

فى الأدب :

(أ) الزجل والموشحات :

نشأ فى الاندلس نوع جديد من الشعر يعرف بالزجل ، وتتركب أبسط مجموعة منه على الوجه الآتى :

١ — بيت شعر لكل شطر منه قافية تشبه قافية الشطر الثانى (ويسمى المركز أو السمط).

٢ — ثلاث بيوت هى فى الواقع ثلاث شطرات متجانسة القافية ولكن قافيتها غير قافية البيت الأول (وتسمى هذه البيوت الثلاثة الأغصان) .

٣ — بيت شعر ذو قافية واحدة من نوع قافية البيت الأول (ويسمى الخرجة) .. وتتكرر المجموعة على طول المنظومة بعد أن يسقط منها المركز (تنوب عنه الخرجة) ثم تتغير فيها قافية الأغصان الى قافية أخرى تتشابه فيها تلك الأغصان الثلاثة ، وتبقى قافية الخرجة هى هى على طول المنظومة مع تغيير عبارتها طبعا .

وهاك مثلا من أزجال ابن قزمان المتوفى سنة ٥٥٤ هـ .

---

(١) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٤٦ .
(٢) الفكر الاسلامى ص ٤٦٣ .
(٣) التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢٠٧ .
(٤) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٣٣ .
(٥) طبقات الامم ص ١٠٧ .

على اش يا بن ملوك (مركز)
يا مليح الدنيـــا قول
اى أنا عنـــدك وجيه (١)
يتمجج من وفيـــه (٢) اغصـــان
ثم فاحـــــلى مـــا نتيـــــه (٣)

ترجع انسانك وصول (خـــرجة)

مر بعـــد جيــــده سرف (١)
لم يـــرا مثـــل نصـــف (٢) اغصـــان
ولمس أت الا طـــــــــرف (٣)

والذى قلنـــا فضـــول (خـــرجة)

هذا النموذج من الزجل ، وقد يختلف تركيب كل مجموعة منه زيادة ونقصا ويلاحظ أن لغته دارجة كلغة العوام ، بل هى اقل بكثير جدا من لغة العوام فى مصر .. وكان أول من ابتـــدع الزجل سعيد بن عبد ربه المتوفى سنة ٣٤١ هـ (وهو ابن عم صاحب العقد الفريد) وهنـــالك نوع آخر من الشعر الاندلسى .

( ) فى لغة من الزجل ، هو ليس بعـــامى ولكنه غير فصيح ويسمى هذا النوع الموشحات وتتكون كل موشحة من بيتين ، الشطر الأول من كل من البيتين له قافية موحدة ، وكذلك الشطر الثانى منهما .

واليك مثلا من موشحات الاعمى الطليطلى(١) :

كيـــف الســـــبيل الـــى
صبرى وفى المعالم أشجان
والركب فى وســــــط الفلا
بالخـــرد النواعم قـــد بان

وله أيضا :

مســـــافر عـــن بــــــدر
ضـــــاحك عن جمــــــان
وحـــــــواه صـــــــدرى
ضـــــاق عنـــه الزمـــان

هذه هى بعض فصائل الزجل والموشحات وهى نوع من الشعر اختص به الأدب الاسلامى فى الاندلس ، فما هو مصدر هذا الصنف الجديد من صنوف الشعر ؟

يرى ابن خلدون أن أول من ابتدع الموشحات هو مقدم بن معاق القبرى الضرير المتوفى سنة ٢٩٩ كما يقول ابن خلدون . ولكن ابن بسام(٢) يرى أن السبق فى وضع الموشحات يدور بين القبرى هذا وبين ابن عبد ربه صـــاحب كتاب العقد الفريد . ثم تتابع بعد ذلك الموشـــحون كيوسف بن هارون الرومادى ومكرم بن سعيد وابن أبى الحسن وأبى العباس الأعمى الطليطلى ويحيى بن بقى ومحمـــد بن أحمد الأنصـــارى وأبى بكر بن باجه وأبى بكر بن زهر .. وفى أصل الزجل يقول المستشرق الأسبانى منـــذ بيدال(٣) أن فى هذا الفن من الشـــعر طابعا رومانسيا ، وهو أن كان عربيا فى لغته الا أنه لا يبدو عربيا فى لغته الا أنه لا يبدو عربيا فى نظمه على طريقة الفقرات ، ولا فى استعمال الخرجة فى نهاية كل فقرة ، وكذلك فى بعض الموضوعات التى يطرقها مثل الالبادا la abbada أى الفجريات ، وهى مقطعات شـــعرية عرفها اللاتين باسم albeta ثم فى خلو موضـــوعه من مميزات الشـــعر العربى كوصف الرحـــلات فى القفار والاطلال وانما هو أسبانى الأصل لأنه يتحدث عن مواسم وأعياد لا توجد الا فى التقويم اللاتينى ولاستعماله ألفاظا وعبارات من عجمية الأندلس مختلطة باللغة العربية الدارجة .

ويتعرض المستشرق الأسبانى جوليان ويبيرا لنشأة الموشحات فى الأندلس فيقول انها وان كانت من الشعر العربى الا أنها مبنية على اغنية شعبية كانت شـــائعة باللغة اللاتينية الحديثة التى تعـــرف بالرومانســـية .. ومع ذلك فان الشواهد كانت تعوز الكاتب لاثبات نظريته ، وان كان اشترن قد كشف فى سنة ١٩٤٨ عن احدى وعشرين خرجة باللغة الرومانسية(٤) .

ويطبق ريبيرا نفس النظرية على شعر الملاحم الذى ظهر فى أسبانيا فى القرن التاسع أو العاشر

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٨ .
(٢) الذخيرة — ق ١ ج ٢ ص ١ — ٢ .
(٣) نقله عنه آنجيل جيثالث فى الفكر الاندلسى ص ١٥٥ و ١٥٦ .
(٤) الدكتور لطفى عبد البديع فى كتاب الاسلام فى أسبانيا ص ٧٩ ط ١٩٥٨ .
Julian Ribera : Disert Y Opusc. T. 1, p. 97.

الميلادى مذهب الى أن الاساطير والقصص التى تضمنها هذا الشعر هى جزء من التراث القومى الذى كان شائعا بين الأسبان باللغة اللاتينية ويضرب مثلا لذلك بما ورد فى تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية عن قصة أرطبس وغيرها من القصص التى توحى بأنها من جنس الشعر القصصى المنثور(١) . وقد تبع ريبيرا تلميذه غارسيه غومس فى كتاب أخرجه أخيرا عن أصل الموشحات وعرض فيه رأيا أكثر جراة إذ يرجع الموشحات والأزجال الى أصول أسبانية صرفة .

هذا رأى ، ويذهب آخرون الى أن أصل الموشحات جليقى ، ويذهب نفر ثالث الى ان أصلها البعيد رومانى ، بل قال بعضهم أن الموشحات أتت الأندلس من بغداد وأن أصلها يلتمس فى الرباعيات العربية الفارسية .. وأخيرا حاول ميلياس فيليكروسا millas villicrosa أن يجد علاقة ما بين الموشحة والزجل من ناحية والفن الشعرى العبرى المعروف باليزمون والتسبيحات اللاتينية التى يرددها جمهور المصلين عقب كل فقرة من فقرات الترتيل الدينى responsorio Latino وهى فى الغالب آيات من الكتاب المقدس(٢) .

هذه آراء ، والمستشرقون عادة ولعون بالآراء الجديدة ، وخاصة الأسبان الذين يحاولون أن يردوا كثيرا من أصول الحضارة الاسلامية للعصر الاسلامى فى الأندلس لم تكمل بعد .. ولكننا اذا درسنا هذا النوع من الشعر دراسة مقارنة فى الأندلس وصقلية ومصر نجد أن الازجال والموشحات فى كل بيئة ظهرت فيها لم تخرج عن كونها تطورا طبيعيا للشعر العربى نفسه .. وتنطبق هذه النظرية على أزجال الأندلس وموشحاته .. ورأينا يعتمد على الحجج الآتية :

أولا : أن العرب عندما دخلوا الأندلس كانوا قلة بين شعوب غير متجانسة من الرومان والبربر ، وذلك بالقياس الى من فتحوا البلاد الأخرى كمصر وبقية الدول التى سادت فيها اللغة العربية بعد الفتح الاسلامى ، ومن أجل ذلك لم تستطع اللغة العربية الفصحى أن تفرض نفسها الا كلغة رسمية للمكاتبات أو للتعليم ، أما العامة فكانوا يتكلمون لاتينية ركيكة ثم بداوا يتكلمون اللغة العربية فى وقت متأخر ، وتعلموها ركيكة ، فأصبح لا يلائمهم الشعر المشرقى الفصيح ولا القصيدة الطويلة .. كذلك الأمر بالنسبة لمن تاقت نفسه الى التأليف ، فهو أما من المستعمرين الذين لم يهضموا العربية هضما كافيا واما من العرب الذين وجدوا أن اللهجة الفصحى لا تتمشى مع الأدب الشعبى فوضعوا الأزجال والموشحات ، ترويجا لأدبهم فى سوق العامة . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فانه كان عسيرا على بعض متأدبى الأندلس أن يقولوا قصيدة طويلة يلتزمون فيها قافية واحدة ، اذ لا يتأتى مثل هذا الا لمن عاش فى بداية العرب أو تمرس الأدب العربى زمنا طويلا ، أما شعراء الأندلس ، فكثير منهم — مستعربين وعرب — لم يعيشوا فى الجو العربى الخالص ، ولم يخاطبوا بأشعارهم من أمراء الأندلس من كان عربيا خالصا ، فالفاتحون الأولون قد أثبت ما بينهم وبين أرض العرب بعد زوال الدولة الاموية الشرقية بقليل ، ولم تتصل حياتهم بالعرب الا فى رحلات قصيرة لا تقوم لسانا عربيا فصيحا ، والأمر بالنسبة لخلفاء الفاتحين الأولين كان أمر وأدهى ، هذا فضلا عن أن بعض ملوك الأندلس لم يكونوا من العرب الخالصين .

ثانيا : ان الجمال والسحر اللذين تغرى بهما الحياة فى الأندلس ، والمجون والجوارى والخمر ، كل أولئك كان يستلزم نوعا آخر من الشعر غير الذى التزمه العرب فى بلادهم الأصلية ، نوعا خفيفا فى الفاظه لطيفا فى معانيه كالحياة الأندلسية نفسها . ورب قائل يقول : اذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نجد ذلك فى بغداد على عهد الرشيد وخلفائه والحياة يومئذ كانت غاصة بمثل هذا اللون من حياة الترف والنعيم ؟

الجواب عن ذلك ان بغداد كان يوجد فيها شعب يفهم العربية الفصحى ويلتذ بها ، وهذا لم يكن متوافر الا عند الخاصة فى الأندلس . ومع ذلك فان الشعر العباسى قد تطور فى بعض نواحيه عما كان عليه فى عهد بنى أمية ، فلو قرأت شعر ابى دلامة وأبى نواس فى المجون لوجدته لونا آخر رقيقا عذبا ذا جرس موسيقى جميل ، وقد نشأ عندهم « الموال » من الشعر ، وهو يميل الى لغة العامة أكثر من ميله الى الفصحى .. والأمر كذلك فى مصر ، فأنت ترى الشعر ، فى

(١) الفكر الاندلسى ص ١٥٤ و ١٥٥ .
(٢) نظرية جوليان ريبيرا (الفكر الاندلسى ص ١٤٢) .

فترة ما قد تأثر باللغة العامية السائدة فى العصور المتأخرة فنجد مثلا فى شعر ابراهيم المعمار الذى عاش فى مصر فى القرن السابع الهجرى (عهد السلطان بيبرس) تجد هذا النمط من الزجل . قال :

منعونا ماء العنب ياسين
رب مسلم لم يمنعونا التين
هات قل لى اذا منعنا الراح
وحرمنا من الوجوه الصباح
بين نبقى نستجلب الأفراح
والخليج كيف نراه بعين ممكين
على ماء ذا العنب بكى الراووق
والشمع صار بغيرتو مخنوق
والوتر بات من الغروب لشروق
من أنينه تسمع له فى الليل حنين
. . . . . .

والأمر كذلك فى صقلية .

فقد عمل الصقليون فى الشعر العربى أوزانا جديدة ، مثال ذلك قول الحسن بن أبى بشر فى راقصة(١) .

وغزال مشنف
قد رثى لى بعد بعدى
لما راى ما لقيت
وجهه البدر طالعا
تاه لما حاز ودى
فاننى قد سقيت
. . . . .

قد يقال أن مثل هذا النمط من الشعر المصرى والصقلى جاء من الأندلس ولكن الدليل القاطع على مثل هذا القول مفقود الى اليوم .

ثالثا : ان ظهور الزجل ، وهو أحط لغة من الموشحة سنة ٣٤١ ، أى بعد ظهور الموشحة (سنة ٢٩٩) بخمسين سنة لانجد تعليله المنطقى الا فى تدهور اللغة العربية لانفصال الأندلس عن العالم العربى الأصيل ، انفصالا تزايد بمرور الزمن .

رابعا : أنه لو صح العكس وكان الزجل شعرا أندلسيا محليا نشأت أوزانه قبل الفتح الاسلامى لكان أولى به أن يظهر فى لغة العرب فى عهد مبكر من الفتح العربى ، حيث الآداب الاسبانية المحلية كانت واضحه الأثر . أما ظهوره بعد الفتح بما يقرب من ثلاثة قرون فأمر لايؤدى الى النتيجة التى يزعمونها .

وليس اتفاق الأوزان الزجلية العربية مع أوزان الشعر الرومانسى الذى كان مستعملا من قبل بأسبانيا : ليس هذا الاتفاق نتيجة لأخذ العرب عن السكان الأصليين فى أسبانيا ، وانما العكس هو الصحيح بعد ما ذكرت من القرائن الدالة عليه .

(ب) فى الفن القصصى :

عرف مسلمو الأندلس كثيرا من القصص التى ترجمها المشرقيون ككليلة ودمنة ، وألف ليله وليه والسندباد وبرلام ويواسف ، أو التى ألفها هؤلاء المشرقيون كمقامات الحريرى وكان لهذا القصص أثر كبير فى الأدب الأسبانى النصرانى الأمر الذى سندرسه فيما بعد ، كما الف مسلمو الأندلس قصصا من عندهم ، كقصة حى بن يقظان أو الفلسفة المشرقية (الاشراقية) لابن طفيل .. ونحن لم نورد نص هذه القصة هنا ، لأن مكانها فى العهد اللاحق لدور التكوين حيث وضعت فى القرن السادس الهجرى .

فى القانون :

تعرض الأستاذ حسين مؤنس فى كتابه « فجر الأندلس(٢) » لموضوع خاص هو أثر القانون القوطى على الفقه الاسلامى ، وهذا الموضوع أثاره أكثر من مستشرق لا بالنسبة للدولة الاسلامية جميعا ، ولا بالنسبة للقانون القوطى وحده ، بل بالنسبة للقانون الرومانى .. وهم يكادون يجمعون على أن القوانين الأجنبية كالقانون الرومانى والقانون القوطى كانت ذات أثر كبير على الفقه الاسلامى . وقد تعرضت قبل ذلك لأثر القانون الرومانى فى المشرق ، أما الآن فانى أتعرض للقانون القوطى فى الأندلس .

اعتمد صاحب هذا الرأى للتدليل على وجود أثر القانون القوطى فى القانون الاسلامى على الحجج الآتية :

---

(١) المختار من بدائع الزهور فى وقائع الدهر لمحمد بن أحمد بن أياس ج ١ ص ٨٧ « كتاب الشعب رقم ٨٧ » .
(٢) ص ٤٤٦ — ٤٥٨ .

أولا : عندما افتتح المسلمون الأندلس تركوا اهلهـــا ممن لم يعتنقوا الاســـلام على حريتهم الدينية وخاضـــعين لقوانينهم الخاصـــة ، وهى الشرائع القوطية فى الغالب .. أما المسلمون فكانت تطبق عليهم الشريعة الاســـلامية مـــع تفصيلات ليس هذا محلها :

قال : « فها نحن أمام حالة فريدة فى بابها : تشريعن ساريان جنبا الى جنب ، تقر الادارة الاسلامية ما يصدر عنهما : تشريع اســـلامى يطبق على المســـلمين وتشريع قوطى رومانى نصرانى يطبق على النصارى فاذا ذكرنا أن معظم أهل الأندلس فى الفترة بعد الفتح كانوا نصارى اى يطبق عليهم القانون القوطى ، وأن القاضى المسلم كان اذا جلس للحكم جلس فى موضـــع يصل اليه فيه النصـــارى واليهود ، وأنه كان يستمع الى متخاصمين قد يكون بعضهم مسلمين وبعضهم نصارى ، ويجتهد فى أن يصدر حكما يرضاه المتخاصـــمون ، ويكون فى نفس الوقت متمشيا مع أحكام الشريعة الاسلامية ويكون قابلا للتنفيذ فى نفس الوقت ، أفليس من المعقول فى هذه الحالة أن يستمع القاضى وهو فى مجلســـه الى ما يقوله النصرانى معتمدا على ما جـــرى عليه العمل من القانون القوطى ولم يكن كله متعارضـــا أو بعيـــدا عما يقـــول به الشرع الاســـلامى .. ؟ » .

ويدعم صاحب الراى هذا النظر بقضايا تقول ان القاضى أخذ فيها بالعرف الجارى ونحن نلخص القصص فيما يلى :

(أ) خاصم أحد جاره فى مدخنة كانت ترســـل عليـــه دخانها فقضى فيها سليمان بن اســـود القاضى بأن يرفع المالك أنبوبا فوقها فيرتفع الدخان الى الفضاء .

(ب) صلب القاضى الحبيب بن أحمد بن زياد اللخمى جماعة من المفسدين يتلاعبون بأقـــوات الناس فى سنة مجاعة ، ثم أتاه جماعة بحدث يتطاول على الناس فشهدوا عليـــه ، فقال ما تقولون ، قال أحدهم : « على المثل(١) » مشيرا الى المصلوبين ، فصلب الحدث ، فأتاه الجماعة لائمين لانهم لم يكونوا يقصدون الى قتل الصبى ، وانما أرادوا زجره ، فقال لهم القاضى او لم تقولوا على المثل ؟ أنكم لم تحسنوا الابانة ، فاثم هذا عليكم(٢) .

ثم يعلق على هاتين الواقعتين بقوله :

« وظاهر أن هذين الحكمين مســـتقيان من جارى العرف والقانون القوطى فوضع المداخن أمر لم يكن معروفا فى المشرق ، والحكم به يعتبر تجديدا مقتبسا من البيئة الأندلسية ، وقتل الحدث للذنب البسيط غير جائز فى الشريعة الاسلامية ولكنه جائز فى شريعة القوطية(٣) » .

وفى رأيى ان المثالين والتعليق عليهما موضـــع نظر . فمثال المدخنة لم يخرج عن قضية طبق فيها المبدأ المعروف فى الشريعة الاسلامية وهو سوء استعمال الحق ، فمن أساء اســـتعمال حقه منع مع استعماله أن لم يكن هنالك طريق أقل ضررا من المنع ، وهو مبدأ مقرر فى كافة المذاهب وهو تطبيق لمبدأ أعم منه هو نظرية المصالح المرسلة .

وأما المثال الثانى فان الذين صلبوا كانوا من المفسدين وهو تطبيق سليم للشرع الاسلامى ..

« انما جزاء الذين يحاربون الله ورســـوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وارجلهم من خلاف ، أو ينفـــوا من الارض .. » . وأشـــارة الجمـــاعة الى المصلوبين تعنى أن الحدث مفسد مثلهم ، وأما أنه حدث فان الرواية لم تبين لنا فى اى سن كان ولعل سنة تدور حول العشرين ، ومع ذلك فيسمى فى بعض المقامات حدثا .

(جـ) والمثل الثالث الذى ضربه المؤلف هو قوله نقلا عن الخشنى(٤) أن القاضى محمـــد ابن زيادة اللخمى كان يتساهل مع السكارى ، وقد جىء يوما بسكير ليوقع عليه الحد ففر منه ، فقال « أحسن » .

---

(١) الخشنى ـــ قضاة الاندلس ص ١٣٧ .
(٢) الظاهر أن المتكلم كان يقصد أنه يعاتب كما عوقب هؤلاء أى أنه يرد مبدأ العقاب لا نوعه .
(٣) راجع مقالنا عن النزعة الشخصية والمادية فى الالتزامات المدنية مقارنة بالشريعة الاسلامية والقـــانون الرومانى ـــ المحاماة فى الاعداد الصادرة ومقال طبيعـــة القـــانون بين القديم والحديث فى المجموعة الرسمية ص ٥٦ عدد ٩ ، ١٠ « وأصول القانون » ط ١٩٦٠ .
(٤) قضاة الاندلس ص ٣٥ .

وقد اورد صاحب الرأى بتليق الخشنى على الحكم[1] وما أتى عن القضاة فى هذا المعنى خاصة من الاغضاء عن السكارى والتغافل لهم والرقة عليهم فلا اعرف لذلك وجها من الوجوه يتسع لهم فيه القول الا وجها واحدا ، وهو أن حد السكير من بين الحدود كلها لم ينصه الكتاب المنزل ولا أتى فيه حديث ثابت عن الرسول صلى الله عليه وسلم[2] ..

ويعقب الأستاذ حسين مؤنس على التعليق بقوله : « وقد فات الخشنى وهو من فقهاء القرن الرابع الهجرى أن قضاة الأندلس ايام محمد بن زياد ، أى منتصف القرن الثانى الهجرى لم يكونوا يحكمون بالنصوص فقط بل كانوا يجتهدون ويراعون البيئة المحلية ويتأثرون بما حولهم وأن القانون كائن حى يتغذى بما حوله وينمو ويتطور ..

وفى رأيى أنه لا المعلق اصاب ولا المعقب اصاب ، فالخشنى يعتذر عن القاضى بأن حد الخمر غير ثابت بقرآن أو بسنة صحيحة ، قد يكون هنالك رأى بذلك ، ولكن كيف يصبح هذا العذر والقاضى نفسه تد دعا بلسكران ليجده فلم يجده ، كما يقول هو نفسه فى روايته ؟

وأما المعقب فيعتذر عن القاضى بأنه راعى العرف المحلى والبيئة مع أن الحدود لا يلغيها عرف محلى ولا عرف عام . أرأيت لو تعارف الناس جميعا على الزنا ، أيمنع ذلك من حدهم جميعا . ومع ذلك فلنا أن نسائله فى اى شىء اجتهد القاضى ؟ فى قوله « أحسن » لعله كان قاضيا كسولا وقد جنبه هرب المتهم نظر قضيته من سماع الشهود وتعديل شهادتهم ، ومن توقيع حد الخمر وما فى ذلك من متاعب !

فى الموسيقى والفنون التجميلية

ورد فى كتاب الشعر الأندلسى للأستاذ غرسيا غومس[3] ما يلى :

« وقد بلغ التأثير المشرقى أوجه خلال هذه الفترة بوفود على بن نافع الملقب بزرياب — الطائر الأسود — على الأندلس ، فقد خرج من بغداد الرشيد ناجيا بنفسه من غيرة أستاذه اسحاق الموصلى ، فتلقاه عبد الرحمن الأوسط (معاصر شرلمان : ٢٠٦ / ٨٢١ — ٢٣٨ / ٨٥٢) فى قرطبة وأغدق عليه كرمه . وقد حمل زرياب الى الأندلس فيضا من الأنغام المشرقية التى ترجع فى مناشئها البعيدة الى أصول يونانية وفارسية ، فأصبحت هذه الأغانى الأصل النغمى لموسيقانا (أى الموسيقى الاسبانية) . وكان زرياب ينشد هذه الأغانى على عوده الخاص ، الذى كان يضربه بمضراب من ريش الطيور ، بعد أن زاد فيه وترا خامسا ، وكانت الأوتار الأربعة الأولى هى الأصفر والأحمر والأبيض والأسود ..

وعن زرياب كذلك تلقن سروات قرطبة وكبار أهلها الطف مستحدثات المشارقة : « كتقصير الشعر دون الجباه ، وتسويته على الحواجب وتدويره الى الأذن ، واسداله الى الصدغين ، وأكل بقلة الهليون المسماة بلسانهم «الاسفراج» واستعمال آنية الزجاج ، وايثار فرش لنطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحفنا الكتان » .

---

(1) قضاة الأندلس ص ١٠٢ و ١٠٣ .
(2) راجع مؤلفنا « الرأى فى الفقه الاسلامى » ط ١٩٤٩ .
(3) ترجمة الدكتور حسين مؤنس بين مجموعة الالف كتاب ص ٣٣ ، ٣٤ .

ثالثا: أصول الحضارة الإسلامية في الأندلس

تختلف نهضة الأندلس فى طريقة بنائها عنهـا فى المشرق الاسلامى ، فبينما نجـد العباسيين يلجأون الى موارد أجنبية بحتة يترجمون عنها ، كما فعلوا بمؤلفات الهند والفرس واليـونان ، نجد الأندلس لا تلجأ مباشرة الى المصـادر الأجنبية ، وانما تلجأ الى ما ألفه العـرب أو ترجموه عن مصادر أخرى .. ويرجع ذلك الى أن أمر المسلمين فى الشرق كان قد اسـتقر من جميع نواحيه للدولة العباسية ، وانتهت متاعبها السياسية بعد خلافة المنصور ، انتهت هـذه المتاعب واستقرت الأمور الى الدرجة التى تسمح بالتفكير العلمى . واذا كانت الدولة العباسـية فى الفترة ما بين خلافة أبى جعفر وخلافة المأمون قد تخللتهـا اضـطرابات وخاصـة بين الأمين وأخيـه .

لم تكن حضارة العرب قبل الاسلام بمستطيعة أن تمد خلفاء العباسيين بما يحقق لهم طموحهم الى بنـاء حضارة اسـلامية وطيـدة الأركان فاضطروا الى الالتجاء الى المصادر الأجنبية ، لم يكن ذلك عسيرا عليهم ، فقد دخلت عليهم ثقافات أجنبية وأصبحت الآن فى متناول أيديهم بسبب اتساع الدولة الاسلامية وفتوحاتهـا فى فارس والشام ومصر ، وأصبحت الكنوز العلمية فى جند يسابور وحران والاسكندرية والرها ونصيبين منهلا علميا ميسرا لخلفاء بغداد ، فأخذوا فى النقل والترجمـة ، يعاونهم فيض كبير ممن ثقفـوا بالثقافات الأجنبية وكانوا كثيرين ، وفيض من الأموال التى كانت تجود بها ولايات الدولة .. وليس الأمر كذلك فى قرطبة ، فالدولة الأموية فى الاندلس لم تكن على اتصال بدمشق الا أربعين سنة ، وكانت دمشق فى هذه الفترة قفرا من العلم (خلا العلوم الشرعية) فلم يكن الاتصال يجدى شيئا ، فلما سقطت دمشق وقام العباسيون أنبت ما بين المشرق والمغرب أوكاد .. ولم تكن موارد الدولة الأموية فى قرطبة بعد سقوط دمشق وقيام حكومة بغداد تسمح باستجلاب كتب الهند واليونان والفرس وترجمتها فى الأندلس . فالمال قليل ، والفنيون معدومون ، والخلفاء مشغولون طورا بالمنازعات السياسية وطورا بالملذات والسكان الأصليون لاسبانيا كانوا جملة من سقط المتاع لا يعرفون العلم ولايريدون أن يعرفوه . واذن فكان لزاما على من يريد أن يكون عالما اندلسيا أن يولى وجهه شطر المشرق ، وكان الاتصـال الفردى بين شطرى ديار الاسلام ميسورا وذلك بسبب فتح الطريق بين الناس والمسجد الحرام والمسجد الأقصى ومن هذه الناحية بدأ الاتصال العلمى بين المشرق والمغرب . لجأ الاندلسيون الى المؤلفات الشرقية التى وضعت باللغة العربية فى بغداد فأخذوا نسخا منها(١) ولم يكن ذلك عسيرا ، فالوراقون كانوا يقومون فى بغداد مقام آلات الطباعة ، وما على طالب العلم الأندلسى الا أن يرحل الى بغداد ، أو يوصى مسافرا اليها بشراء ذلك الكتاب أو ذاك ، أو باستطلاع رأى فلان البغدادى فى مسألة ما من مسائل العلم ونحن اذا أمعنا النظر فى عصر التكوين العلمى فى الاندلس وجدناه متميزا بأمور : أهمها انه كاد يكون خلوا من الترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية(٢) ، وأنه جاء متأخـرا عنه فى العراق(٣) . وبينما كان العلم فى المشرق قد بلغ غايته فى القرن الرابع الهجرى ، نجد أن هـذه النتيجة لم يصل اليها علماء الأندلس الا فى القرن الخامس والسادس .

---

(١) أنظر ما كتبناه فى الفصل الثالث من هذا الباب عن الطب وكيف تحرى عبد الرحمن النـاصر فى ترجمة كتاب ديوسقوريدس فى الطب لـما أهدى اليه من امبراطور بيزنطة .

(٢) نقل بسلمة المجريطى تبـسة الفلك لبطليموس الى العربية (وترجم الى اللاتينية سنة ١٥٣٦ م . وسـبق ذكرنا ترجمة كتاب ديوسقوريدس فى الطب .

(٣) يدلك على ذلك أن عصر النهضة العلمية فى بغداد بلغ أشده فى عصر المأمون (١٩٨ هـ) وعصر النهضـة العلمية فى الاندلس يبدأ بخلافة عبد الرحمن الناصر(٣٠٠هـ).

كما تميزت الحياة الفكرية الاسلامية فى الاندلس بطابع الاتصـــال الشخصى بين علماء الأندلس وعلماء المشرق عن طريق الرحلات التى كان يقوم بها الاندلسيون ألى عواصم الدول الاسلامية . وقد ظل هذا طابع العهد ، حتى بعد موت الحكم الذى أهتم اهتماما رسميا بجمع الكتب .

كان طـــلاب العلم الاندلسيون يرحلون الى المشرق طلبا للعلم ، أو طلبا للعلم والحج أو هربا من فتنة ، فهـــذا عبد الله بن مسرة الصوفى الأندلسى (٢٦٩ — ٣١٨) يهرب مع تلميذه ، محمد بن حزم التنوخى وابن صقيل القرطبى ذهب الى القيروان ثم الى مكة وسمع أبا سعيد بن العربى وكان يروى الحديث ولكنه يلبس اراءه بآراء الباطنية وبعلم الصوفية وآرائهم الاشراقية .

وهذا محيى الدين بن عربى (١١٦٤/٥٦٠) ١٢٤٠/٦٣٨ يذهب الى الغرب فتونس فمكة ، ثم يزور ارمينية والاناضول ثم يتوجه الى بغداد ويلتقى بشهاب الدين السهروردى قطب الصوفية ، ثم يعود الى مكة مرة اخرى وينتهى به المطاف فى دمشق . وقد شق طريق ابن عربى تلميذه ابن سبعين المرسى ١٢١٨/٦١٤ — ١٢٧٠/٦٦٩ ، حين خرج من الاندلس الى مكة حاجا واتصل بصاحب مكة(١) .

وفى غير الرحلة الى المشرق كان مسلمو الاندلس على اتصال دائم بعلماء — المغرب وتونس .

حقيقة ان طابع الرحلات فى سبيل العلم كان عاما فى شرق الدولة الاسلامية وغربها ، ولكن هذا الطابع كان اظهر فى القسم الغربى منه فى القسم الشرقى ، فأنت لا تكاد تجد عالمــا أندلسيا ملحوظا لم يدخل الى الخارج ، ولكنك تستطيع أن تظفر بالكثيرين من علماء المشرق لم يغادروا مدينتهم أو اقليمهم الا لسبب طارىء على أن اخذ علماء الاندلس عن المشرقيين لا يعنى أن الثقافات الاجنبية لم تجد طريقها اليهم ، بل الصحيح هو العكس ولكن المقصود هنا هو أن الثقافة الاجنبية لم تصل الى علماء الاندلس عن طريق مباشر ، بل وصلت اليهم فى ثنايا المؤلفات الاسلامية المؤلفة باللغة العربية ؛ وهى تتضمن كثيرا من الافكار الاجنبية التى أودعهـــا المسلمون مؤلفاتهم أو ترجموهـــا(٢) .. وعن هـــذا الطريق تغلغلت الافلاطونية الحديثة فى مذهب ابن مسرة ثم فى آراء محيى الدين بن عربى ، وتغلغلت المشائية فى تأليف ابن باجة وابن رشد .

واخيرا ، يتميز الفكر الاندلسى بسرعة النضوج ، ذلك بأنه كان يغترف من معين قد امتلا فى المشرق ، وحضارة تطورت ونظريات صقلت وعلوم وضعت أصولها وقواعدها ومصطلحاتها من أجل ذلك ، ولجمال الطبيعة فى الاندلس ، كان الفكر الاندلسى سريع النضوج وافر الغلة ، بالقياس الى هذه البقعة الضيقة من الارض — ايبريا — التى كانت فردوس العالم فى العصور الوسطى .

---

(١) انظر نفح الطيب للمقرى ج ١ ص ٥٩٥ .

(٢) المعروف أن الاندلسيين لم يترجموا عن اليونان أو الرومان الا قليلا ومع ذلك فقد وجد جزء من قاموس عربى لاتينى لا يزال محفوظا فى مكتبة الاسكوريال ، ويدل هذا على انهم لم يكونوا مقطوعى الصلة تمـاما عن الثقافات الاجنبية فى مواطنها الاصلية .

الفصل الخامس
العناصر الأجنبية فى الفنون الإسلامية

لم يكن العرب الاولون ذوى حضارة تليدة ، ولم تكن لهم فنون خالدة ، ولكن عقلية العرب كانت مستعدة لان تتقبل الفنون عندما تتاح لها الفرصة ، وأن تتمثل هذه الفنون وتصبغها بصبغة اسلامية ، فالعربى دقيق الملاحظة بطبعه ، منظم الفكر عفيف الروح ، دؤوب ، وهذه صفات الفنان .. وما كان ينقص العربى قبل الاسلام ، الا استاذ ينير طريقه الى الفن ، وقد أوجد الاسلام له أساتذة — لا استاذا واحدا — من جميع بقاع الارض ، ومن جميع عصور التاريخ ! فالآثار القديمة منملاعب ومعابد ، وكانت منتشرة فى مصر وأثينا وسوريا وروما وبيزنطة ، الهمت هذا العربى بوحى القدماء ، وما كان عليه الا ان يرحل اليها ليشاهد تقسيماتها وزخارفها والوانها ومادتها . فان أراد الا يبرح مكانه من عاصمة الدولة الاسلامية ، بغداد ، فما عليه الا أن يتصل بالوافدين الى هذه العاصمة من تجار ، أو يحضر مجالس الشراب والغناء حيث الاماء والعبيد ليرى فنون العالم المستحدثة تفد اليه دون أن يتكبد مشقة السفر .. ففى هذه العاصمة تقابلت الفنون وتنافست الاذواق على يد الاحرار ، وعلى يد العبيد .

واليك بعض البيان :

فن العمارة : —

نستطيع أن ندرس الأثر الأجنبى فى تكوين فن العمارة الاسلامى من خلال المساجد ، فهى التى بقيت لنا الى اليوم .. ومن يحقق النظر فى المساجد الأولى فى أى بلد اسلامى ، أو كان اسلاميا ، **يستطيع أن يميزها كلها .. ويتألف كل** مسجد من ساحة مستطيلة محاطة بأروقة واسعة كانتسقوف مستندة الى صفوف كثيرة من الأعمدة، ويخصص أكبر هذه الأروقة لاقامة الصلوات . وفى وسط الساحة بركة مـــاء تسمى الموضاة (الميضة) . ويقوم على ركن أو اكثر من أركان المسجد ، برج أو ابراج هى المآذن .

ويمثل جامـــع عمرو بن العاص فى مصر فن العمارة الاسلامى فى بداية دور التكوين ، وقد استعيرت أعمـــدة من مختلف المبانى اليونانية والرومانية ، اذ تعلوها أقواس لا تختلف عن الاقواس القديمة الا بانكسار خفيف فى اعلاها ، وبأشكالها التى تشبه نعل الفرس فى أسفلها ، والتى اصبحت ، بعد تعديل ، من صفات فن العمارة العربى .

واذا كانت نماذجالأعمدة التى ترى فى المساجد معروفة عند اليونان وعند الرومان فان الاقواس المشكلة بشكل حدوة الفرس ، والتى اصبحت من مميزات الفن الاسلامى فيما بعد ، كانت أيضا معروفة فى العالم القديم قبل الفتح الاسلامى ففى كنيسة كابنيكاريا التى أقامتها القيصرة أودوكسفى اثينا سنة ٤١٨ م توجد أقواس تميل الى شكل حدوة الحصان قليلا ، وترتد عن القوس العادى بعض الارتداد وان كان هذا الانموذج نادرا عند البيزنطيين .. وكانت القباب معروفة فى قصور الاكاسرة من بنى ساسان ، كما كانت معروفة عند البيزنطيين . ولكن المسلمين عدلوا فى هذه القباب فجعلوها أكثر ارتفاعا الى أعلى بما يشبه القوس العربى أو حدوة الفرس ، فما لبث الفرس أن نقلوا عن العرب **نماذجهم الجديدة وتمادوا فيها** فانتهوا الى شكل القبة البصلى ، وبذلك تفادى الفن العربى والفارسى القباب البيزنطية الفطسى

واهم ما تمتاز به المساجد هو المئذنة ، والظاهر

ان المسلمين فى بلاد الشام قد اخذوا فكرة المئذنة من الزجورات — الصرح — البابلى وبرج الجرس فى الكنائس المسيحية ، واخذ الهنود المسلمون الشكل الاسطوانى من بلاد الهند وتاثر مسلمو افريقية فى تخطيطهـا بمنارة الاسكندرية ذات الاركان الاربعة . وليس ببعيد ان تكون الابراج ذات الاركان الاربعة فى المساحة التى اقيم عليها الهيكل القـديم فى دمشق ، ذات اثر فى شكل المئذنة(١) .

وعلى كل حال ، فان نماذج المـآذن كانت معروفة عند الفرس أيام آل ساسان وان كانت أقل تنوعا مما صارت اليه المـآذن الاسلامية .

اما عن الالوان التى تتحلى بها المساجد فان المصريين القدماء كانوا يعرفونها ، كما ان الابحاث الحـديثة دلت على ان اليونان كانوا يسترون مبانيهم بالالوان الازرق والاصفر والاحمر ، وان اعالى العمد فى معبد اجين كان مصبوغا باللون الاحمر ، وتتشعب منه تروس مذهبة ، وكان مقدمه مصـبوغا باللون الأزرق المموه بأطرف حمراء وخضراء(٢) .

واذا كان فن العمارة العربى فى المساجد قد استعار بعض العنـاصر اليونانية والفـارسية والبيزنطية « الرومانية » ثم تمثلها سريعا وتخلص منها ، فان هنالك عناصر أساسية أصيلة فى فن العمارة العربى ، واول هذه العناصر الاصلية المتدليات أو المقرنصات التى كانوا يغطون بها زوايا الجدر القائمة ووصل القباب المستديرة بما تقوم عليه من الردهـات المربعة وصـلا غير محسوس ،وكأن الناظر اليها ، وهو يرى الكواتـ الصغيرة الناتئة تتدلى بعضها فوق بعض فى الفضاء تدليا هندسيا تدريجيا انما ينظر الى خلايا النحل . ويظهر ان العرب كانوا يكرهون ما كان يحبـه اليونان من الاوجـه الملس والزوايا والاشكال القائمة . .

أما العنصر الثانى الاصيل فى فن العمـارة الاسلامى فهو الخط العربى الذى مزجه المسلمون بالزخارف المؤلفة من رسوم هندسية أو زينوا به جدران عمائرهم دون مزج فحفروه أو صبوه فى قوالب ، الامر الذى جعل زخارف المبانى العربية ذات طابع خاص يتنبه اليه فى الحال حتى اجهل الناس بفن العمارة .

وجامع قرطبة هو اقدم مبانى العرب فى بلاد الاندلس ويشتمل بوضوح على عنـاصر الفن البيزنطى كتيجان عمده التى هى على شكل أوراق الشجر ، ونقوشه التى هى على شكل أوراق الشجر ، ونقوشه التى هى على شكل الاغصان ، وزينته المتشابكة وفسيفسائه وزخارفه التى هى على اساس من ذهب . ومع ذلك يختـلف عن المبانى البيزنطية بما فيه من الزينة بالخط الكوفى وبأقواسه المصنوعة على شكل نعل الفرس بفلق كثيرة والقائم بعضها فوق بعض وبجزئيات زخارفه .

فاذا انتقلنا من المساجد الى القصور وجدنا المتوكل قد أحدث . حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى بناء لم يكن يعرفه الناس له مقدم من ثلاثة أجزاء ، الاوسط به الباب الكبير ، وعلى الجانبين بابان أصغر حجما ، وهذا الطراز يعرف بالطراز الحيرى المشتق من الطرز اليونـانية الشرقيـة المتأثرة بأبواب الشوارع واقـواس النصر(٣) ونقل هذا الطراز الى قصره فى مصر(٤) .

وكان قصر التاج الذى بنى فى بغداد بعد قصر المتوكل باربعين عاما يحمل طرازا حيريا ايضا ، ولكنه فى شكل أكبر ، فكان وجهه مبنيا على خمسة عقود ، كل واحد منها على عشرة أسـاطين ، والأسطوانة على خمسة أذرع(٥) .

وعلى كل حـال فـان الفن الأجنبى أثر تأثيرا ملحوظا فى فن العمـارة الاسـلامى وكان للفن البيزنطى اكبر هذا الأثر . ذلك الفن الذى هو نفسه مزيج موفق من الأساليب الهيلينة التى ورثها عن اليونان والرومان والأساليب الشرقية التى كانت معروفة فى سوريا والأناضول ومصر(٦) .

واكبر الظن اننا مدينون بما بلغه فن الزخرفة من عظمة وفخامة الى تحريم الساميين تمثيل صور الانسان والحيوان فى الفن ، فكان الفنانين المسلمين ارادوا ان يعوضـوا هذا التحريم فاحـترفوا هذا الفيض الغامر من الاشكال غير البشرية أو

(١) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٤٣ .
(٢) لوبون ص ٥٣٢ .
(٣) آدم ميتز ج ٢ ص ٢٠٨ .
(٤) خطط المقريزى ج ١ ص ٣١٥ .
(٥) الاصطخرى ص ٨٣ .
(٦) جورج حداد ج ٢ ص ٢٥٧ .

الحيوانية ، واخذوا ما كان منها موجودا عند غيرهم .. فبحث الفنان فى أول الأمر عن منفذ لمواهبه الفنية فى الاشكال الهندسية ــ الخط والزاوية والمربع والمكعب ومتعدد الاضلاع والمخروط والشكل اللولبى والقطاع الناقص ، والدائرة والكرة ، وكرر هذه الأشكال وركب منها مئات التراكيب(١) .

الفنون الجميلة والرقيق :

يقول ول ديورانت ان الموسيقى الاسلامية بدأت بالألحان والأشكال السامية القديمة ، ثم تطورت على ضوء صلاتها بالتقاسيم اليونانية الأسيوية النشأة ، وتأثرت تأثرا قويا بالموسيقى الفارسية والهندية ، وقد أخذت أحدى العلاقات وكثير من القواعد الموسيقية عن اليونان(٢) .

ولكن كيف حدث هذا التطور فى الموسيقى وغيرها من الفنون الجميلة ؟

الغالب أن حياة الرقيق كانت سببا مباشرا او غير مباشر فى تطوير الذوق العربى .

لقد غصت بغداد فى عهد العباسيين بفيض من الرقيق جمع من شتات الأرض فيذكر المسعودى انه كان ببغداد شارع يسمى « شارع دار الرقيق» وكان على تجار الرقيق عامل للحكومة يشرف على تجارتهم(٣) وكان منهم السود واهم أسواقهم مصر ، وجنوب جزيرة العرب وشمال أفريقيا.. ومنهم البيض ، من الصقلب والأتراك وكانت أسواقه فى سمرقند ، وتجاره فى أنحاء أوربا من اليهود(٤) .

والقى فى مجالس الشرب والغناء والرقص نماذج من الشعر الرقيق فى الغزل وقيل منه فيما كان يبدو من الجوارى ، وصل وقطع ، وميل وصد .

وكان الشعراء يهدون اليهن الشعر ليكتبنه على ثيابهن اغراء وافتنانا(٥) .

والظاهر أن الرقص الشرقى الشهير اتى الى العرب عن هذا الطريق ، فقد ذكر ول ديورانت أن رقص اليونان كان كالرقص الشرقى ، الشرقى ، تستخدم فيه الذراعان واليدان كما تستخدم السيقان والقدمان(٦) .

وأثر الرقيق أيضا فى تطوير الغناء ، فجلبن معهن الغناء الجماعى الذى كان معروفا عن اليونان(٧) ، وقد تطورت فنونه ، وأما الرقيق الهندى فقد كان يجلب من قندهار .

ولقد كان للرقيق ، وخاصة الروميات أثر غير مباشر على الحضارة الاسلامية فقد نشرن الفنون الجميلة وما يتبعها من رقى فى الذوق الفنى والشعور بالجمال وتفنن الشعراء فى أطرائهن بأنواع من الشعر رقيقة راقصة ، فهذا المأمون يرقص جواريه الروميات فى يوم السعانين بشعر الفه :

ظبـــاء كالزنـــانير
مـــلاح فى المقـــاصير

جلاهن الســـعانين
علينـــا فى الزنـــانير

وقـــد زرفن اصـــداغا
كاذنـــاب الزرازيـــر

واقبلن بأوســـاط
كأوســـاط الـــزنابير

حتى صار مدرستين ، مدرسة القديم وعلى راسها ابراهيم بن المهدى ، والمدرسة الحديثة وعلى راسها ابراهيم الموصلى . وقد كان ابراهيم الموصلى أنشط الأدباء فى تثقيف الجوارى حتى انه

(١) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .
(٢) قصة الحضارة مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٥٧ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤١ .
(٤) الاغانى ج ٢٠ ص ٢٧ .
(٥) ضحى الاسلام ج ١ ص ٩٨ ، ٩٩ ، وقد احال الى كتاب الموشى .
(٦) مجلد ٢ ج ١ ص ٤١٨ ، ومن المعروف أن الرومان خضعوا فى ثقافتهم للفنية اليونان .
(٧) نفس المرجع ص ٤١٧ .

الف مع يزد حوراء شركة لشراء الجوارى وتعليمهن الغناء والمشاركة فى ربحهن(١) .

واستتبع الغناء تطورا فى آلات الطرب والموسيقى حتى صار عند العرب من هذه الآلات ما يزيد على مائة(٢) نوع كالعود والقيثارة والبندور والسنطير والناى والبوق والدف والصنج والرق والطبل والأرغن .

وتفنن الشاربون فى اتقان آنية الشراب ارضاء للجوارى الحسان .

وقد نشر هؤلاء الجوارى عادات قومهن فى الزى والمآكل والمشرب وكافة انواع الفنون الجميلة المتعلقة بالنساء .

هذا بالنسبة للنساء من الرقيق ، اما الرجال منهم ، فقد كانوا من كل جنس ولكل جنس علومه وفنونه وحضارته ، فأحدث كل هذا مزيجا من الذوق الفنى فى الصناعة والأدب والزخرفة وغيرها(٣) .

وكما كانت روما فى أيام مجدها الغابر تضم من الأرقاء مصريين وسوريين واناضوليين ويونان ، فلما تحرروا حملوا لواء النهضة فصاروا معلمين وفنانين وأطباء وموسيقيين وممثلين(٤) ، كذلك كانت بغداد فى مجدها الخالد تضم الأرقاء والموالى من هذه الأجناس بعينها ، واضافت اليهم الرومان ، فشاركوا — عبيدا وعتقاء — فى اقامة النهضة العلمية والفنية ، وان ما قيل فى بغداد يقال مثله فى قرطبة واشبيليه وغرناطة وغيرها من بلاد الأندلس الاسلامية . فان العبيد كانوا يجلبون اليها من أوروبا ، وكانت مجالس اللهو تحلو فى هذه الدولة ذات الجمال الخلاب .

التصوير :

شهد عن المسلمين انهم يكرهون التصوير ، وسبب ذلك أنه جاء فى الاسلام ما ينفر منه . ففى الحديث عن عائشة رضى الله عنها ، أنها نصبت سترا وفيه تصاوير فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزعها ، وأنه لم يكن يترك فى بيته شيئا فيه تصاليب الا نقضه .. وروى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لما رأى — الصور التى فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ، وأنه قال — فى رواية عن ابن عمر أن الذين يصنعون الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم احيوا ما خلقتم .

وأنه قال : أتانى جبريل فقال : انى كنت اتيتك الليلة ، فلم يمنعنى ان — ادخل البيت الا أنه كان فيه تمثال رجل .

كان هذا سببا فى امتناع المسلمين عن معالجة فن التصوير وخاصة تصوير الانسان ، وذلك سدا للذريعة الى الوثنية ، والناس قريبو عهد بهذه العبادة(٥) .

ولكن هذا اللون الجميل لم يلبث ان اغرى بتأويل هذه الأحاديث ، فرأى البعض أن التحريم كان لعلة ، هو قرب الناس بعبادة الأوثان ، وخشية ان يرتدوا اليها ، اما وقد استقر الاسلام وثبت فى صدور الناس ، وبعد العهد بالوثنية ، فقد زالت العلة وصار التصوير الى الاباحة .. ولكنه ظل الى اليوم محرما فى المساجد .

أما فى الميادين الأخرى فقد أجاز المسلمون فنون التصوير . وقد وجد فنانون مسلمون متخصصون فى التصوير ، ولما نهب قصر الخليفة المستنصر سنة ٤٦٠ هجرية وجد به الف قطعة من المنسوجات مصورة عليها حاشية خلفاء العرب مع مقاتلين ورجال مشهورين(٦) .

وتوجد كثير من مخطوطات العرب كبعض نسخ مقامات الحريرى زينت بالصور ويوجد فى مكتبة الاسكوريال باسبانيا أكثر من اربعين مخطوطا حافلا بصور ملوك العرب والفرس والملكات والقادة وعظماء الرجال . وهذا سقف قاعة الحكم بقصر الحمراء فى غرناطة يضم مجلس أمراء من العرب ، وفارسا مغربيا يطارد فارسا نصرانيا .

---

(١) الاغانى ج ٣ ص ٧٣ .
(٢) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٥٧ .
(٣) راجع احمد أمين — ضحى الاسلام ج ١ ص ٨١وما بعدها .
(٤) ول ديورانت مجلد ٣ ج ٢ ص ٣٠٥ .
(٥) أحمد أمين فى ظهر الاسلام ج ٢ .
(٦) لوبون ص ٥٠٨ ، نقلا عن المقريزى .

ومهما يكن من شيء فان التصوير عند المسلمين لم يكن فنا أصيلا ، وانما أخذوه عمن قبلهم من الفرس واليونان والرومـــان والمصريين . واذا كانت كراهيته عند المسلمين فى صدر الاســـلام بسبب الـــدين ، فان انتشـــاره عنـــد الوثنيين والمسيحيين كان بسبب الدين أيضا ، وتوجـــد آياته على المعابد والهياكل والكنائس .

ومع ذلك لم يبلغ المسلمون فى هذا الفن مابلغه فن التصوير فى كنائس روما ، التى وجدت من الفنانين من وهب حياته لتصوير المشاهد الدينية قربانا لله .

ولعل الجمال الذى نتبينه فى قصور الأندلس انمـــا كان من بين أســـبابه قرب هذه الدولـــة الاسلاميـــة من ايطاليـــا . واذا كانت حمامات سامرا فى القرن الرابع تزهو بالصور بدلا من البلاط المختلف الألوان ، فان هذه احدى عادات الشام التى ترجع الى العصر الأخير من الحضارة اليونانية فى الشرق(١) . أما الطابع العام للتصوير فى كافة عصور الاسلام فانه يميل الى الزخرف(٢)

ومن أشهر الصور تصاوير وجدت فى مخطوط بستان ســـعدى بدار الكتب المصرية من عمل بهزاد ، هراة سنة ٨٩٣ هـ وصور من كليلة ودمنة بمكتبة قصر جلستان عملت حوالى ١٤١٠ م . وقد قدم الدكتور حسن الباشا فى كتابه «التصوير الاسلامى فى العصور الوسطى » ٩٤ صـــورة وعلق عليهـــا .

وعلى كل حال لم يكن التصوير خادما للدين ، كما هو الحال فى المسيحية ، فقد خلت المســـاجد فى جميع العصور من التصوير الحى .

---

(١) آدم ميتز ج ٢ ص ٢١٨ .
(٢) التصوير الاســـلامى فى العصور الوسطى للدكتور حسن الباشا ص ٢٤٨ .

الباب الثانى

استقلال الفكر الاسلامى وعصر الانتاج

الفصل الأول

تمهيد

بداية الاستقلال ــ اخلاص العلمـــاء

بدأت الحضارة الاسلامية تستقل عن مصادرها الأولى ، دون أن تنقطع الصلة بينها وبين هذه المصادر ، منذ بداية القرن الرابع الهجرى ، وانما كان المفكرون الاســلاميون يرجعون الى المصادر الأجنبية كما يرجع كل عالم الى افكار من سبقوه لا كما يرجع التلميذ الى مصــنفات استاذه ، فقد تمكن المسلمون فى العصر الجديد من التعليق على اقوال من سبقوهم من اليونان والهنود والفرس ، وهدموا ما يستحق الهــدم من آرائهم وبنوا لهم نظريات مستقلة وســلكوا مناهج جديدة لم يعرفها سابقوهم .

لقد بدأ عهد الاستقلال العلمى ببــدء القرن الرابع الهجرى ، حيث انتهى عهد التكوين . ولكن الملاحظ ان أولئك الذين كانوا يحترفون الأدب لم يكونوا فى حاجة الى أن ينتظروا القرن الرابع لكى تتاح لهم فرصة الانتاج ، حتى من كان منهم من أصل اعجمى كعبد الله بن المقفع ، فقد نضــج ابن المقفع وغيره من الأدباء فى عصر مبكر ، أو بمعنى أدق كان نضـــوجهم فى القــرن الثــانى الهجرى . وسببه أن الأدب لم يكن فى حاجة الى مراجع وأصول أجنبية .

أما الأندلسيون فقد كان نضوجهم متأخرا ، لأن عصر التكوين فى الأندلس كان متأخرا ايضا . وسبب ذلك يرجع الى ان الأندلس كانت عالة على حضارة المشرق فى أول أمرها ، فكان لزاما أن يمر بعض الوقت كى تستطيع أن تنتقل علوم المشرق .

وليس أدل على أن الأندلس فى عهدها الأول كانت تابعة للمشرق من أن الحكم (ابن عبدالرحمن الناصر) عندما حاول النهوض بدولة بنى أمية فى قرطبة أمر بترجمة الكتب الاســلامية ، ولم يأمر بترجمة كتب اليونان ، وكان ذلك قبلا . كما ان عهد التكوين العلمى أيام الحكم فى بداية القرن الرابع بينما بدأ العهد فى بغداد فى بداية القرن الثالث .

وليس معنى قولنا أن عهد النضوج العلمى قد بدأ بالقــرن الرابع فى المشرق والخـامس فى المغرب ، اننا نجعل هذا التاريخ حدا فاصــلا فصلا تاما بين عهدين اذ أن هذا القول لا يصلح الا بالقياس الى انقلاب مفاجىء ، أما التطور فلا يمكن أن يكون له من حدود الا على وجه التقريب . فالفارابى قد ظهر فى ميدان الفلسفة فى القرن الثالث لا الرابع ، ومع ذلك فلا يمكن القول بأن نضوجه العلمى قد وصل الى الغاية التى وصل اليها المتأخرون كابن سينا وابن رشد .

ونحن اذا نظرنا الى المراكز التى كانت تشع منها الحضارة الاسلاميــة فى عهد النضـــوج لم نستطع أن نظفر ببلد معين يتميز عن غيره ، فقد أصبحت الدولة الاسلامية وحدة متكاملة بعضها البعض ، ورغم التنافر من الناحية السياسية بين حكام الولايات فان الجهود العلمية كانت متكافلة، تجد فى القاهرة ما تجده فى بغداد ودمشق وقرطبة وكافة المدن المهمة فى الدولة الاسلاميةوقد اخرجت كل من هذه المدن أئمة فى العلم يعد كل واحــد منهم أمة وحده .

ولا يمكن أن ينسب امام من هؤلاء العلماء الى بلد معينة مهما أقام فيه ذلك بانهم كانوا يضربون بطون الابل فى سبيل البحثءن العلم .. ومهما

قيل أن ابن خلدون كان مغربيا والحسن وابن الهيثم كان بصريا والفارابى كان تركيا فان هذا القول لا يمكن أن يؤخذ الا على سبيل التجوز . أما الحقيقة فان أمثال هؤلاء انما انضجتهم حرارة العلم المنبعثة من الدولة اسلامية بجميع ولاياتها ومدنهـــــا .

كما ان هؤلاء العلماء لا يمكن أن ينسبوا لفرع معين من فروع العلم ، فان قلنا أن عمر الخيام كان اديبا لـ مستطع أن ننكر أنه كان أيضا فيلسوفا ممتازا وفلكيا رفيع المكانة ، واذا قلنا عن ابن سينا انه كان فيلسوفا لم نستطع أن نخفى مكانته كطبيب ، وما يقـــال عن هذا وذاك يقـــال عن عبد الله بن المقفع الاديب الحكيم وعن ابن رشد الفيلسوف الطبيب وهكذا .

قد يكون سبب ذلك أن العلوم الطبيعية لم تكن قد تميز بعضها عن بعض كما أن هذه العلوم لم تكن أيضـــا قـــد تميزت عن علوم ما وراء الطبيعة ، وكانت كلها تدرج تحت لفظ الفلسفة .. قد يكون هذا ولكن هنالك سببا آخر كان يدعو هؤلاء العلماء المخلصين الى الاكثار من كافة فروع العلوم ، وهو أنهم كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم بأنهم ملزمون بالاسهام بأكبر قسط فى بناء الحضارة الاسلامية ، وبأن قـــد فرض عليهم أن يســـدوا الثغرات العلمية التى تركتها الحضـــارات السابقة ، وبأن يوفقوا فى بعض نواحى العلم بين الدين والفلسفة حتى لا يكفر العامة بالعلوم الجـــديدة أو يفقـــدوا عقيدتهم الاسلامية .

لقد رأوا من واجبهم أن طلب العلم وأداء أمانته وتعليمه فرض على كل مسلم ، وقـــد وهبهم الله قدرة البحث والدرس ، والله لا يعطى هذه القدرة للهو والمتعة وانما يعطيها للعاملين المجدين .

ولم يكن يلهى هؤلاء المخلصين تجارة ولا بيع ، وكانت ضرورات الحياة عند اكثرهم قلة ، أو لم يكونوا يطلبون منها الا القلة .

وقد ســـاعد الوارقون على نشر الثقـــافة الاسلامية فى جميع الولايات الاسلامية فالورق كان متوفرا ، والنساخون اتخذوا من النسخ مهنة ؛ وقد كانت مهنة تدر على الوراق ربحا كبيرا ، لان المقبلين على الكتب كانوا لا يبخلون بشىء فى سبيل اقتناء كتاب نادر ، حتى غـــير العلماء كانوا يتشبهون بالعلماء فى اقتناء الكتب كى يقال أن فى مكتبة فلان التاجر كتب كذا وكذا ، وان كان لا يقرأ منها شيئا ولا يدرى من العلم قليلا أو كثيرا .

الفصل الثانى

مركز الحضارة الإسلامية من الحضارات القديمة والحديثة

قدمنا أن المسلمين اخذوا من علوم سابقيهم ، وخاصة من علوم اليونان ، والآن نتساءل : ماذا فعل المسلمون بعلم اليونان ؟ هل بقى كما كان عليه من قبل ، أم أنهم أنضجوه وطوروه وجعلوا له كيانا اسلاميا مستقلا ، فلما أسلموه للغرب منجديد كان منسوبا لهم بعد أن صهروه بعقليتهم ومزجوه — بعبقريتهم وعرضوه على أصل دينهم ؟

للاجابة عن هذا السؤال يجب أن نقسم تاريخ الحضارة الاسلامية الى مرحلتين :

اما المرحلة الأولى فقد كان المسلمون مجرد نقلة للفكر اليونانى ، وهذا هو العصر الذى سمساه بعصر التكوين ، وقد استغرق من التاريخ الاسلامى فى المشرق حتى القرن الثالث الهجرى ، وفيه ترجمت كتب الاغريق فى الطب والهندسة والفلسفة ، ثم اخذ المسلمون على اثر ذلك فى دراستها وتفهمها والمقارنة بين ما فيها من مبادىء ومدى تمشيه مع العقيدة الاسلامية التى كان كل باحث حريصا على الا يخرج عن نطاقهـا وتعاليمها مهما تكن نزعته . والى هنا لا يمكن أن يقال أن حـظ المسلمين كان أكثر من حظ المستفيد الذى يأخذ ولا يعطى ، بل كان حظهم حظ التلاميذ من أساتذتهم يتعلمون عن طريق التلقين دون أن يكون لهم رأى مشهود فيمـا ينقلون .

هذه العلوم الاغريقيـة كانت جـديدة على المسلمين ، فلم يكونوا يعرفون من الطب الا أقلة الذى حملتهم اليه الضرورة حملا ، ولم يكونوا يعرفون من الرياضة الا ما يسمح لهم بمزاولة حساباتهم التجـارية وقيـاس الأراضى لغرض الضريبة عليها وخاصة الزكاة ، ولا يعرفون من الفلك الا مواضع بعض النجوم يستدلون بهـا اذا ساروا ليلا ، ومطالع الأهلة ومغاربها ليعلموا عدد السنين ومواقيت الصلوات والصوم وكانت لهم حكمة معروفة ، ولكنهم جهلوا الفلسفة جهلا تاما ، بل عقيدتهم كانت لا تتصـورها وقد نهى عنها الرسول ، أو تصوروا أنه نهى عنها ، وقد ظلت فى نظرهم حراما ، وظل البحث فيها خروجا على قواعد الدين ولكنهم ما لبثوا أن بهرتهم مدنية الاغريق ، وتخرج منهم جيـل ثقف فى مدارس الاغريق التى أشرت اليها ، وكان هؤلاء طلائع تلاميذ المدرسة الحديثة التى أنشأها المأمون ، هذا الامام المتحـرر فى فكره النازع الى معرفة علوم الأجانب لم يكن المأمون عربيا خالصا ، وانما جرت فى عروقه العبقرية الفارسية ، فقد انحدر عن أم فارسية وثقف ثقافة الفرس الى جانب العلوم الاسلامية ، فكانت هذه الظروف بداية الانطلاق الفكرى للمسلمين .

بدأت الثورة الفكرية أول أمرها بما ينبغى أن تبـدأ به حضارة جـديدة اتصلت بحضارة قديمة ، فترجمت الكتب ، ولكن هذه الترجمة لم تكن لتهضمها كل عقول العرب المسلمين لمجرد قراءتهـا ، وهى جـديدة عليهم فى أسلوبهـا ومصطلحاتها فضـلا عن مادتها .. ومن أجل مادتها .. ومن أجل ذلك بدأت مرحلة ثانيـة يمكن أن تكون مرحلة ايجابية فى تحرير الفكر الاسلامى وتطوره .

بـدأ مـفكرو المسـلمين بوضـع الشـروح للمصنفات التى نقلوها عن الاغريق (وغيرهم) فشرحوها شرحا مستفيضا يتفق ومدارك العامة من المثقفين ، وعلى ضوء ما أنزل فى القرآن ،

وما جاءت به السنة . ومع ذلك فان عقلية العرب بعد أن تقدموا فى علوم الشريعة من توحيد وفقه وتغلغلوا فى علوم اللغة كانت قابلة لأن تستوعب كل ما يترجم عن الاغريق ، وفى ذلك يقول بعض الباحثين المعاصرين من المسلمين(١) « من المستحيل أن ينقل علم من أمة الى اخرى الا أن تكون هذه قد بلغت من التقدم الفكرى ما يؤهلها لاستيعاب العلم المنقول ومن الصعب أن يتصور الانسان أن أمة من الامم تعنى بالعلم والفلسفة كما عنى العرب وتشغف بهما كما شغفوا دون أن تصبح هذه العلوم جزءا من حياتها ، انما ساءت سمعة العرب العلمية عند

من يظنون أن الشرح والتعليق اعمال ثانوية لا قيمة لها ، وهو سوء فهم لطبيعة العلوم فى العصور الوسطى ، اذ الواقع أن الشرح والتعليق كانا كل مظاهر العلم فى ذلك العصر ، ولم يكن للعلم أن يتعدى الشرح والتعليق ، وكان الذى يجرؤ على أن يجاهر برأى جديد لا يعد عالما مبتكرا ، وانما يعد غير عالم بما قال الأولون » .

واذا انتهت مرحلة التدوين والشرح والمختصرات كانت العقلية الاسلامية والمختصرات قد استوعبت كل ما كتب الاغريق فى كافة فروع العلوم ، وهنا يتجلى أثر العقلية المتطورة الناقدة الفاحصة التى تميز بها المفكرون من المسلمين ، فالواقع أن المسلمين ، وان لم يلموا بعلوم اليونان من قبل ، الا أنهم كانوا قد نسبوا الى تكوين عقليتهم بالتبحر فى علوم الشريعة وعلوم اللغة ، ذلك بأن عصر التقدم فى علوم الدين واللغة كان سابقا لعهد النقل عن اليونان .. لقد بدأوا به منذ عهد الرسول أو بعد وفاته بقليل ، اذ كان لا بد لهم من تفسير القرآن على ضوء ما يقع لهم من الحادثات ، وقامت المذاهب الفقهية منذ القرن الأول الهجرى .

ففى بغداد قامت مدرسة الراى على يد أبى حنيفة النعمان (٨٠ — ١٥٠ هجرية) وتلاميذه ، وفى المدينة نشأت مدرسة الحديث على يد مالك ابن أنس (٩٢ — ١٧٩ هـ) ، وكان أولهما يمثل الفقه العراقى ، ويمثل الثانى فقه الحجاز واشتد التنافس بين الفريقين فى عهد تلاميذهم ، ثم أتى الشافعى (١٥٠ — ٢٠٢ هجرية) فوضع رسالته فى أصول الفقه ، وهذه المذاهب الثلاثة كلها نشأت واشتد ساعدها قبل عهد الاتصال بين المسلمين واليونان .

هذا عن الفقه ، أما عن علم الكلام وهو الأساس الفلسفى للمسلمين قبل اتصالهم باليونان ، فقد وجد هذا العلم منذ عهد الخلفاء الراشدين . بدا بفرقة الشيعة فى حياة سيدنا على كرم الله وجهه ، وبدأت فرقة الخوارج فى عهده ايضا ، وبدأت المعتزلة على يد واصل ابن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ وعمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٣ أو ١٤٤ هـ .. وكانت هذه الفرق قد ثقفت بعلوم الفرس ومذاهبهم كالمانوية والزرادشتية والمزدكية واوغلوا فى مبدأ التناسخ والقضاء والقدر وصفات الله وعدله .... فكانت البصرة والكوفة والمدينة وبغداد تطن كلها كخلايا النحل بمناظرات الفقهاء وكانت البصرة وبغداد على الأخص موطنا للفرق الكلامية والسياسية ، وكل ذلك كان عاملا فعال الأثر فى تكوين عقلية واعية تستطيع أن تستوعب آراء ارسطو وجالينوس وأقليدس ؟

ونحن اذا تصورنا أن الخطيب البغدادى قد احصى أكثر من ثمانية آلاف فقيه فى بغداد وحدها ، وكتب عن كل واحد منهم موجزا مختصرا فى كتابه « تاريخ بغداد البالغ أربعة عشر مجلدا ، وتصورنا الفهارس التى وضعتها للأطباء والحكماء والفلاسفة أمثال ابن أبى أصيبعة والقفطى وابن النديم وغيرهم ، واذا عرفنا أن الأمة الاسلامية جمعت آلافا مؤلفة من هؤلاء العلماء أدركت أمرين : أولهما أن أمثال هذه الأمة لا بد أن تستوعب عقليتها ما كتب أرسطو وجالينوس واقليدس وفورفوريوس وافلوطين وأمثالهم ، وأن هذه العقلية لا بد أن تذيب بحرارة ايمانها وقوة شغفها بالبحوث العلمية ما كتب هؤلاء .. وثانيهما أن عقلية هذه الأمة لا يمكن أن تقف عند حد النقل والشرح والاختصار ، بل لا بد أن يكون هنالك تجديد وتقدم بعيد المدى واضح الأثر .

واذا كنا نعتبر كل من ثقف بثقافة أجنبية أسيرا لها وعالة على مواردها لوجب علينا أن نجحد العلم ، ومن منا لم يتأثر بثقافة أجنبية ؟ وانما يعاقب على المرء ان هو وقف على حد

---

(١) الدكتور محمد كامل حسين تحت عنوان « العلوم عند العرب » فى كتاب عنوانه « متنوعات » ج ١ ص ١٣٣،١٣٤ .

ما استوعب من هذه الثقافة ، لا يغنى عنــه حــولا .

ولقد ضرب الدكتور محمد كامل حسين مثــلا لتقدم المسلمين فى الطب بعبارة موجزة لكنها تحمل حجــة قوية فى جانبهم فقال(١) : ثم ان العرب لو كان نقلهم للعلم اليونانى نقلا آليا ، لكان علمهم به واحدا على مر القرون . ولكن العلم الذى ينمو ويتقدم لا بد أن يكون علما حيا . والذى يقارن بين الكتب الطبيــة المتقــدمة كالذخيرة والمتأخرة كالقانون يجد فرقا كبيرا بين العهدين . ولو كان عليهم علما ميتا ما تم هذا التقدم ، بل الواقع أن كتاب القانون على ما بينه وبين الطب اليونانى من الشبه الكبير يفوق من حيث تنظيمه ووضــوحه ودقتــه كل ما كتب اليونانيون فى الطب » .

ويقول فى موضع آخر(٢) :

« ولتطــور المدنيات مظاهر اعمق بكثير من شرحنا هذا ، واثر الواحدة فى الأخرى معقــد جدا ، ولكنا أردنا التبسيط . وأبسط النظريات فى شرح التطور الفكرى التام أن تنظر الى الفكر البشرى على أنه كائن حى واحد ، وأن أجزاء معينه منه تقوم بدور معين فى وقت خاص من أوقات النمو ، ويكون لكل جزء نصيب واضح جدا فى هذا التطور . فاذا كان اليونان قد قاموا بالدور الكلاسيكى ، فقد قام العرب بدورهم فى العهد الثانى الذى لم يكن بد من وجوده تهيئة للأذهان للدور الثالث الذى قام به الغربيون . ولم يكن لأحد هؤلاء أن يقوم بدوره قبل أن يمهد السلف طريق التقدم » .

ويقول(٣) « ولو لم يوجد العرب لبدأت النهضة الأوربية فى القرن الرابع عشر من حيث بدأ العرب فى القرن الثامن الميلادى ، ولاضطر جاليليو أن يبدأ حيث بدأ جابر بن حيان ، اذ لا بد لهــذه الفلسفة القديمة أن تبلى أقصى مداها قبل أن يزهد الناس فيها ليبدأوا عصرا جديدا . ومن الخطأ ان نظن أن ـــ جاليليو لو عاش فى القرن الثامن لقام بنفس العمل الذى قام به فى النهضة الأوربية ، بل الذى لا شك فيه أن عمل العلماء يتوقف كله أو أكثره على العصر الذى يعيشون فيــه » .

على أن العلم اليونانى وقد بلغ فى اليونان حد التشبع لم يكن قابلا للتطور بالسرعة التى تطور بها عند المسلمين ، لو ظل الغربيون على حالهم التى كانوا عليها فى عهد ارسطاليس وخلفائه ، وذلك بأن العقلية الجديدة تفعل فى العلم بروح أخرى وهمة أعلى ، فالتلاميذ فى المدرسة الواحدة قلما ينقدون أستاذهم ، بل انهم ليقدسون آراءه تقديسا ويزدردونها ازدرادا ، وانما ينقد هذه الآراء تلاميــذ مدرسة أخرى ، والتاريخ يفيض بالشواهد المؤيدة لذلك ، ففى تاريخ الفلسفة نجد أن تيار الفكر اليونانى فى اليونان لم يتغير تغيرا جوهريا ما ظلت الفلسفة حبيسة فى اليونان ومهما قيل عن التيار بين آراء فلاسفتهم ، فان الفلسفة عندهم كانت تدور فى فلك واحد ، وتندفع فى اتجاه واحد ، وقد يكون جوهرها زائفا فلا بد أن تصطدم لينكسر غلافها وتعرف حقيقة ما فيه ، ولا يمكن أن يصنع ذلك فلاسفة صمموا هذا الجهاز على انه خير ما يمكن اخراجه للوجود . والتــاريخ ملىء بالشــواهد فى حيــاة الفلسفة اليونانية ذاتها ، فاليونانيون فى أرضهم كانوا فى جملتهم عبدة المذهب المشائى ، وهــذا المذهب المشائى لو قدر له أن يبقى بين جبال اليونان لظل فيها مشائيا خالصــا ، ولكن خروجه الى مدرسة الاسكندرية قدر له بعثا جديدا فى صورة أخرى فنشأت عنده مدرسة غنوصية هى الافلاطونية الحــديثة .. كذلك الأمر بالقياس الى الفقــه الاسلامى فان فقه الحجاز ظل أمدا بعيدا يجرى على تفسير المتون والنصوص المقدسة فنشأت فى المدينة مدرسة الحديث على يد مالك بن انس، وما اظن أن هــذه المدرسة الكلاسيكيــة كانت تستطيع تغيير مجرى تفكيرها او بقيت فى المدينة ما شاء الله لها أن تبقى ، ولكنها تغيرت فعــلا عندما قيض لهـــا فقهـــاء عراقيــون كحمــاد ابن أبى سليمان فى الــكوفة وأبى سليمان فى الكوفة وأبى حنيفــة النعمـــان فى الكوفة ثم فى بغداد ، فاذا انتقلنا بالعلوم الاسلامية مرة أخرى الى الأندلس نجد أن هذه العلوم طفرت مرة أخرى على يد ابن رشد وأبى اسحاق الشاطبى ، وأن من يقرأ كتاب الموافقات للامام الشــاطبى ليحكم أن منحى تفكير هذا الرجل جديد فى صورته فذ فى تصويره ، لا تكاد تجــد على شاكلته فى المدينة أو بغداد كتابا آخر .

---

(١) مرجعه السابق ص ١٣٤ .

(٢) ص ١٣٦ .

(٣) ١٣٦ ، ١٣٧ .

ولو سلمنا بأن العلم اليونانى قبل أن يعرفه المسلمون كان صالحا لأن يتطور ، ما كان يتطور بالصورة التى أصبح عليها عند المسلمين ، فاليونان لم تهيىء لهم ظروفهم السياسية مثلما هيىء للدولة الاسلامية ، فقد كان التنظيم السياسى فى اليونان قائما على المدينة ، والمدينة تنوء بأثقال الحضارة العظيمة المنطلقة ، ومن أجل ذلك هاجرت حضارة اليونان الى الاسكندرية وانطاكية والرها وجنديسابور ونالت تقدما ملحوظا فى ظل الدولة الفارسية ثم فى ظل الاسلام .. فالمدينة لابد لها من سلطة سياسية تعيش فى كنفها ، ولا بد لها من موارد تعينها على البقاء ، وقد تحققت هذه الظروف فى الدولة الاسلامية ذات القوة والمنعة والمال الوفير واذا كانت بعض ولاياتها قد استقلت عن المدينة الأم ، بغداد ، كما هى الحال فى دولة بنى أمية فى الاندلس حيث قطعوا علاقتهم بالعباسيين والفاطميين فى القاهرة وغير هؤلاء وهؤلاء ، الا أن الاتصال العلمى كان وثيقا ، فالعلماء لم تمنعهم تلك الحواجز السياسية من أن يجوبوا دول الاسلام ويطلعوا على ما فيها من الكتب قديمها وحديثها ، وكان لا بد أن يجوبوا ولو مرة واحدة فى طريقهم الى الحج ولا بد أن يهبطوا وهم فى طريقهم الى هذه الديار أو تلك ليجادلوا علماءها ويأخذوا منهم أو يعطوهم .

ونحن اذا استعرضنا آثار الفلاسفة المسلمين نجد أنهم لم يقتصروا على النقل عن اليونان ، بل أنهم أصلحوا أخطاءهم اصلاح من استوعب علومهم ولنضرب لك مثلا بالكندى فانه ألف كتبا لا تحصى(١) ، ولكنا نذكر منها رسالته فى اصلاح كتاب اقليدس ورسالته فى اصلاح المقالة الرابعة عشرة والخامسة عشرة من كتاب اقليدس ، ورسالته فى تصحيح قول اسقلاوس فى المطالع ، وهذه الرسائل الثلاث يبدو من عنوانها أنها ليست مجرد نقل وانما هى نقد وكشف من خطأ واصلاح .

واذا تصورنا ابن سينا وهو ينتصر للفلاسفة فى فارس فينقده الغزالى فى كتابه « تهافت الفلاسفة » فلا يلبث ابن رشد أن يرد على صاحب التهافت ، من موطنه فى الأندلس بكتاب سماه « تهافت التهافت » ، لو تصورنا ذلك لعرفت مدى انشغال العالم الاسلامى شرقه وغربه بالبحوث الفلسفية والدينية معا .

ولو تصورنا المكتبات التى كانت تغص بها بغداد والقاهرة وقرطبة ودمشق وغيرها من الحواضر الاسلامية وما حوت من الكتب التى تعد بمئات الألوف لزدنا اطمئنانا على الثروة الاسلامية الخالصة ، لان هذه المؤلفات لا يمكن أن تقف عند ترجمات أرسطو وجالينوس واقليدس وشروحها .

لقد كان علماء الاسلام يضربون بطون الأبل فى الصحراء ويركبون متون الفلك فى البحر فى سبيل الاتصال بغيرهم من العلماء اذا تبين لهم أن لديهم من العلم شيئا لم يصلهم ، فعل ذلك الشافعى بحثا عن أصول الفقه ، والغزالى لاحياء علوم الدين ، وابن خلدون جريا وراء أصول علم الاجتماع .

وليس من المعقول أن تكون هذه الرحلات الشاقة العسيرة فى عهد المهالك قاصرة على تعرف آراء المشائين .

ومهما يكن من أمره ، فان تطور العلوم اليونانية فى العصر الاسلامى أمر بعيد عن الشك حصان من الجدل .

أما فى الطب ، فقد عرفت أن المسلمين نقلوا عن الهند والفرس واليونان وغيرهم كتبا فيه ، وأن بغداد كانت كعبة القصاد من جميع الأمم المتمدينة باعتبارها حاضره أكبر دولة ذات حضارة فى القرون الوسطى ، ومن هؤلاء القاصدين أطباء كثيرون ، هذا غير ما كان عند العرب من تجارب الزمن فى الطب قبل الاسلام .

ومن تفاعل هذه العناصر وتمازجها تألف الطب الاسلامى الذى تمثل بعد نضج العلم فى الكتاب الملكى « أو النلوكى » لأبى بكر الرازى الملقب جالينوس العرب، ألفه للملك عضد الدولة ابن بويه وجمع فيه كل ما وجده متفرقا من ذكر الأمراض ومداواتها فى كتب القدماء الى زمانه فى أواسط القرن الرابع للهجرة(٢) .

وكان فضل المسلمين على الطب من نواح

---

(١) الفهرست لابن النديم ٣٦٠ و ٣٦١ .

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢٠٢ .

كثيرة فقد قاموا أولا بنقد الكتب التى نقلوها وبينوا وجه الخطأ فيها والصواب[1] ثم قاموا بترتيب الكتب التى ترجموها وتبويبها كما فعل ابن الاشعث بكتب جالينوس فانه رتبها وبوبها وفصلها تسهيلا لمطالعتها[2] . وكذلك شرحوها وعلقوا عليها بالزيادات والحواشى ، ففى ذيل ابن جلجل على كتاب ديسقوريدس عقاقير لم يعرفها القدماء ، كما انهم لم يكتفوا بدراسة الطب فى معناه الضيق ، بل كانت بعض الأمراض كالفالج واللقوة والاسترخاء تعالج قبلهم بالأدوية الحارة على حد اصطلاحهم ، فأصبحت تعالج بالأدوية الباردة . وصاحب المذهب الجديد هو أبو منصور صاعد بن بشر الطبيب ببغداد ، فانه اخذ المرضى بالفصد والتبريد — والترطيب فمنعهم من الغذاء فنجح تدبيره ، فعينوه رئيسا للمارستان العضدى فرفع منه المعاجين الحارة والأدوية الحارة ونقل تدبير المرض الى ماء الشعير ومياه البذور ، فأظهر فى المداواة عجائب ، فاقتدى به سائر الأطباء بعده[3] .

لقد راى كثير من العلماء ما بين آثار العرب الفنية الأولى وآثار بعض الأمم ، الشرقية من صلة ، فاستنتجوا من ذلك أن العرب لم يكونوا اصحاب فن مبتكر ، مع أن الواقع أن كل أمة تنتفع بآثار الأمم التى تقدمتها قبل أن تصبح صاحبة آثار فنية ذاتية ، وذلك كما قال بسكال بحق : « انه عد سلسلة الأدميين الذين ظهروا بتعاقب القرون انسانا واحدا حيا فى كل زمان محصلا للمعارف على الدوام » والواقع أن كل جيل يستفيد من البداءة مما ادخرته الأجيال السابقة ، وهو يضيف اليه اذا كان على ذلك من القادرين .

ولم تشذ أمة عن هذه السنة ، وليس من الممكن تفسير أمر أمة برغم عدم اتباعها لها ، ومن ذلك أن عدت الحضارة اليونانية الى وقت قريب جدا ، وذلك حين كانت مصادرها خافية تماما ، أنها غير مدينة بأى شىء للأمم الأخرى فاثبت العلم الرفيع أن أصول الفن اليونانى مقتبسة من الاشوريين والمصريين ولا ريب فى أن قدماء المصريين انفسهم اخذوا على أمم أخرى ظهرت قبلهم ولو لم نفقد أكثر حلقات السلسلة التى تربطنا بشعوب القرون الخالية الأولى ، لاستطعنا ان نعود الى الوراء بالتدريج ، فنتمثل العصر الحجرى الذى كان الانسان يتصل فيه بأنواع الحيوان التى تقدمته .

ولقد استفاد العرب واليونان والرومان والفينيقيون والعبريون وكل أمة أخرى من مجهودات الماضى . ولولا ذلك لكان لزاما أن تبدأ كل أمة بما بدأت به الأمم الأخرى ، ولسد باب التقدم . وكل ما تفعله الأمة فى بدء الأمر هو أنها تقتبس من الأمم التى جاءت قبلها ، ثم تضيف الى ما أخذته أمورا أخرى . وقد اقتبس اليونان فى بدء أمرهم ما عند قدماء المصريين والآشوريين ، ثم حولوا المعارف التى لم يبتدعوها بما اضافوا اليها من الاضافات المتتابعة ، ثم اقتبس الرومان ما عند اليونان ، ولكن الرومان ، اذ كانوا دون اليونان فنا .

---

(1) القانون لابن سينا ج ٣ ص ٢١ .

(2) طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٤٦ .

(3) طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٣٢ .

الفصل الثالث

مظاهر الحضارة الاسلامية

أولا : المكتبات

يعتبر بيت الحكمة ، أو خزانة الحكمة فى بغداد اول مكتبة اسلامية منظمة انشأها خليفة من خلفاء المسلمين(١) .

وقد اختلفت الأقوال فيمن أسسها ، فقيل هارون الرشيد ، استنتج ذلك من نص أورده القفطى فى أخبار الحكماء(٢) ، فقد روى أن الرشيد ولى يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بانقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبيها ، ووضعه أمينا على الترجمة ، ورتب له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه وقد ورد فى الفهرست لابن النديم ما يؤيد ذلك حيث قال ان أبا سهل الفضل بن نوبخت كان فى خزانة الحكمة لهرون الرشيد(٣) ، وكان علان الشعوبى ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة(٤) .

انشأ الرشيد اذن بيت الحكمة ليكون خزانة للكتب تجمع فيها الكتب الاسلامية ، والكتب الأعجمية المترجمة وغير المترجمة ووسع المأمون هذه الدار وأرسل الرسل فى استجلاب الكتب من الأقطار الأجنبية ، فأرسل الى امبراطور الروم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة ، وربما يوحنا بن ماسويه (٥)واحضروا له الشىء الكثير .

كما فعل ذلك حنين بن اسحاق حيث رحل الى بلاد الروم وتعلم اليونانية وعاد الى البصرة ثم رحل الى الشام والاسكندرية لجمع الكتب النادرة(٦) .

والظاهر أن الروم بعد أن دخلت النصرانية بيوتهم أغلقوا على الكتب اليونانية وحرموا تداولها .. يدل لك على ذلك ما رواه محمد بن اسحاق ، قال ، سمعت أبا اسحاق بن شهرام يحدث فى مجلس عام أن ببلد الروم هيكلا قديم البناء ، عليه باب لم ير قط أعظم منه ، بمصراعين حديد ، كان اليونانيون فى القديم وعند عبادتهم الكواكب والأصنام يعظمونه ويدعون ويذبحون فيه قال : — فسألت ملك الروم أن يفتحه لى فامتنع من ذلك . لانه أغلق منذ وقت أن تنصرت الروم ، فلم أزل أرفق به ، وارسله واسأله شفاها عند حضورى مجلسه . قال : — نتقدم بفتحه ، فاذا ذلك البيت من المرمر

---

(١) كانت للمراكز الهيلينية فى الشرق مكتبات ومدارس من انشاء غير المسلمين .
(٢) ص ٢٤١ .
(٣) الفهرست ص ٣٨٢ .
(٤) الفهرست ص ١٥٤ .
(٥) ضحى الاسلام ج ٢ ص ٧١ .
(٦) الفهرست ص ٣٤٠ .
(٧) الفهرست ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

والصخور العظام الوانا، وعليه من الكتابات والنقوش ما لم أر وأسمع بمثله كثرة وحسنا .. وفي هذا الهيكل من الكتب ما يحمل على عدة أحمال ، وكثر ذلك حتى قال : الف جمل ، بعض ذلك قد أخلق ، وبعضه على حاله ، وبعضه قد أكلته الأرضة قال : — ورأيت فيه من آلات القرابين من الذهب وغيره أشياء طريفة . قال : واغلق الباب بعد خروجي ، وأمن على بما فعل معي . قال : — وذلك في أيام سيف الدولة » .

على ان كتب اليونان وصلت الى بيت الحكمة من جميع البلاد التى فتحها المسلمون كأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ، فلقد كان المسلمون في ذلك العصر حريصين كل الحرص على أن يجلبوا مخلفات الروم المطمورة ويبدو أن المأمون لما هادن صاحب جزيرة قبرص طلب اليه أن يرسل اليه خزانة كتب اليونان بالجزيرة ، فأرسلها اليه ، وجعل المأمون على رأسها سهل ابن هارون(1) .

وكانت المكتبة تضم غير الكتب طائفة من النساخين نذكر منهم علان الشعوبي(2) وطائفة اخرى من المترجمين ، كحنين بن اسحاق وحبيش ابن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم .

كما كان يتردد عليها جماعة من المؤلفين كمحمد ابن موسى الخوارزمي ويحيى الموصلي والفضل ابن نوبخت وأولاد موسى بن شاكر .

واكثر من كانوا يترددون على هذه المكتبة كانوا من طائفة الشعوبية(3) الذين يكرهون العرب(4) .

وكان يجرى على النقل ارزاق تبلغ خمسمائة دينار في الشهر(5) وكان يترأس — المترجمين في عهد المأمون حنين بن اسحاق لمعرفته بكثير من اللغات ، كما ترأس الدار ماسويه ويوحنا بن ماسويه وسلم سهل بن هارون الشعبي الفارسي ....

وقد بلغ مجموع الكتب في مكتبة المأمون ٤٠٠٠٠٠ وعلى هذا النسق جرى خلفاء الفاطميين في مصر ، فأنشأ العزيز بالله الفاطمي في حكمه الذى بدأ سنة ٣٦٥ هـ مكتبة سماها خزانة الكتب جمع فيها عدة أو نسخا عدة من الكتاب الواحد . وكان مجموع ما فيها عند استيلاء صلاح الدين عليها ١٫٦٠٠٫٠٠٠ كتاب منها ١٨٠٠٠ في العلوم القديمة(6) وهو وان كان أمرا مبالغا فيه ، الا انه ينبىء بما كان عليه الفاطميين من حب العلم والمعرفة .. وكذلك كان الأمر في قرطبة وسائر المدن الاسلامية(7) .

وكان لوجهاء المسلمين ولع بشراء الكتب وجعلها في خزائنهم الخاصة طلبا للعلم ، لهم ولمن يلوذ بهم . جاء في نفح الطيب(8) .

« قال الحضرمي : أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، الى أن وقع ، وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت ازيد في ثمنه فيرجع الى النادى بالزيادة على ، الى ان بلغ فوق حده . فقلت له : ما هذا ! ارني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه الى ما لا يساوى ، قال : فأراني شخصا عليه لباس رئاسة ، فدنوت منه وقلت له : اعز الله سيدنا الفقيه ، ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فلقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : — لست بفقيه ولا ادرى فيه ، ولكني اقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لاتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقى فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير .. قال الحضرمي : فأحرجني وحملني على أن قلت : نعم ، لا يكون الرزق كثيرا الا عند مثلك .. يعطى الجوز من لا أسنان له .. وأنا الذى اعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به ، يكون الرزق عندى قليلا ، وتحول قلة ما بيدى بيني وبينه !! » .

---

(1) سرح العيون لابن نباتة .
(2) راجع الفهرست ص ١٥٤ .
(3) راجع جورجي زيدان ج ٣ ص ٣٢٩ .
(4) حزب من الموالي قام يناوىء العرب .. رأوا أولا أن الموالي ليسوا أقل من العرب ثم تدرجوا من ذلك الى القول بأفضلية العجم على العرب .
(5) الفهرست ص ٢٤٠ .
(6) المقريزي ص ٤٠٨ و ٤٠٩ .
(7) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .
(8) ج ٢ ص ٢١٨ .

وقد بلغ من حب العلماء المسلمين للكتب والمكتبات مبلغا يضرب به المثل فقد قيل ان الجاحظ كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر(١) . وقد روى أبو الفدا فى تاريخه ان الجاحظ مات بسبب كتبه فقد كان يضعها كالحائط محيطة به فسقطت عليه فقتلته(٢) .

والفتح بن خاقان كان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا أراد القيام لحاجة اخرج كتابا من كمه أو خفه وقرأه على مجلس المتوكل الى عوده اليه حتى فى الخلاء(٣) .

ويقول أبو عفان : ما دخلت على اسماعيل ابن اسحق الا رايته ينظر فى كتاب او يقلب كتبا أو ينفضها(٤) .

وكان لعلى بن يحيى المنجم مكتبة مبذولة للعامة ينسل اليها العلماء من شتات الأرض ، فلما قدم أبو معشر المنجم يريد الحج فرآها أقام بها واضرب عن الحج(٥) .

وفى سنة ٣٨٢ هـ توفى احد علماء اصفهان وترك مكتبة انفق فى شرائها ثلاثمائة الف درهم(٦) . وفى سنة ٣٥٧ هـ صودر حبشى بن معز الدولة، فكان من جملة ما اخذ منه خمسة عشر الف مجلد ، سوى الأجزاء وماليس بمجلد(٧) .

واستدعى السلطان نوح بن منصور السامانى الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ليوليه الوزارة ، فكان مما اعتذر به انه لا يستطيع حمل امواله ، وان عنده من الكتب ما يحمل على أربعمائة جمل أو اكثر . وكان فهرس كتبه يقع فى عشرة مجلدات (٨) . وكان القاضي أبو المطرف المتوفى عام ٤٠٢ هـ قاضى الجماعة بقرطبة ، لا يعير كتابا من اصوله البتة ، واذا الحف عليه احد أعطى الكتاب للناسخ فنسخه وقابله ودفعه الى المستعير .. .. ويحكى ان اهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه عاما كاملا فى مسجده ، واجتمع من ثمنها أربعون الف دينار (٩) .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٦٩ .
(٢) تاريخ أبى الفدا ص ٢٥٥ .
(٣) الفهرست ص ١٦٩ .
(٤) الفهرست ص ١٦٩ .
(٥) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٦٧) .
(٦) تاريخ اصفهان لابى نعيم ــ مخطوط .
(٧) ماسكويه ج ٦ ص ٣١٤ ، وابن الاثير ج ٨ص ٤٢١ .
(٨) الارشاد لياقوت ج ٢ ص ٣١٥ .
(٩) كتاب الصلة فى تاريخ علماء الاندلس لابن بشكوال ج ١ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ ــ طبعة مجريط ١٨٨٢ .

ثانيا : المدارس والجامعات

لم يعرف العهدالاسلامى الاول نظام المدارس وانما بدأت نواة هذه المدارس بانشاء الكتاتيب، انشأها عمر بن الخطاب (١) . ونصب عليها جماعة لتعليم الصبيان .

اما بالنسبة للكبار فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يجتمع فى المسجد بصحابته ، يسألهم ويسألونه(٢) ، فلما جاء عمر رضى الله عنه امر بان يخصص المسجد للصلاة والقضاء ، وأمر ببناء رحبة سماها البطيحاء والحقها بالمسجد لتأوى اليها من كان يريد أن يقول الشعر أو يتدارس فيرتفع صوته (٢) ، ولكن المساجد لم تلبث أن اصبحت دورا للدراسة وصممت لان تلحق بها مدارس أو جامعات يدرس فيها العلم الى جانب الصلاة ، وتعقد فيها المناظرات .

وأول مدرسة منظمة عرفت فى العهد الاسلامى هى مدرسة جند يسابور وقد تكلمنا عنها فيما سبق ، وكانت من انشاءات الطوائف الاجنبية كما أن هذه الجاليات الاجنبية كانت تبنى طائفة اخرى من المدارس الدينية ، فقد سبق أن ذكرنا اسم اسكول مار مارى .

ولا شك أن لهذه المدرسة طابعا دينيا .

والمدارس — على ما جاء الى علمنا — بنيت متاخرة فى العهد الاسلامى اذ كانت الكتاتيب للصغار والمساجد وملحقاتها للكبار ، تنوب عنها فى اداء رسالة العلم والتعليم .

وكانت نيسابور عاصمة خراسان شهيرة بالمدارس ، منها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة ٤٠٦ (٤) ، والمدرسة البيهقية نسبة للبيهقى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، والمدرسة السعيدية بناها نصر ابن سبكتكين، ورابعة بناها اسماعيل الاسترابادى وخامسة بنيت للاستاذ أبى اسحاق (٥) ، ويقال أن المأمون بنى مدرسة فى نيسابور وأن نظام الملك وزير ملك شاه بنى مدرسة فى هذه المدينة لامام الحرمين (٦) ، وعرفت مدارسها كلها بالمدارس النظامية نسبة الى اسمه على أن أشهر مدرسة اسلامية بنيت فى الاسلام هى المدرسة التى امر ببنائها نظام الملك فى بغداد سنة ٤٥٧ ، فبناها سعيد الصوفى على شاطىء دجلة ، وانشأ حولها خانات وحمامات واسواقا وحبس عليها ضياعا ، فبلغت نفقتها ٦٠٠٠٠ دينار (٧) .

ومن اساتذة المدرسة أبو اسحاق الشيرازى وابو نصر الصباغ وابو القاسم الدبوسى وابو حامد الغزالى والهراسى والسهروردى وكمال الدين الانبارى (٨) .

واقدم جامعة اسلامية باقية حتى الان هى الجامع الازهر ، بناه المعز لدين الله الفاطمى عام ٣٦١ هـ

---

(١) الادارة الاسلامية فى عز العرب لمحمد كرد على ص ٤٤ وما بعدها .
(٢) الباخرى كتاب العلم .
(٣) محمد كرد على ص ٤٤ وما بعدها .
(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٢ .
(٥) السيوطى ج ٢ ص ١٨٥ .
(٦) دائرة المعارف البريطانية تحت لفظ Al mamun
(٧) ابن خلكان ج ١ ص ٢٨٧ .
(٨) جورجى زيدان ٢٢٥ .

ثالثا : الجمعيات

جمعية اخوان الصفا

جماعة سرية غامضة نشأت فى البصرة فى منتصف القرن الرابع الهجرى وتآلفت على المحبة، وكان رائدهم التوفيق بين الفلسفة والدين ،وقد أوردوا دستور جماعتهم فى الرسالة الخامسة والاربعين .

والظاهر ان اخوان الصفا كانوا من الشيعة الباطنية ، تدلك على ذلك اقوالهم فى رسائلهم . قالوا : ــ « وهذه الولاية المخصوصة لاهل بيت الرسالة عليهم السلام لا يحتاجون فيها الى مدربين غيرهم ، والى علماء سواهم ، ولا يطلع الناس على اسرارهم ، ولا يعرفون اخبارهم ، ولا يطلعون على مواليدهم ولا يعرفون سنهم فى وتاهم ، ولهم علوم يتميزون بها ، وينفصلون عن العالم بمعرفتها ، وأعمال يعملونها لا يشركون فيها غيرهم (١) ».

والظاهر أيضا انهم تحملوا كثيرا من الاضطهاد السياسى الذى تنم عنه رسائلهم .. أننا لا نكتم اسرارنا عن الناس خوفا من سطوة الملوك ذوى السلطان ولا من شغب جمهور العوام ، ولكن صيانة لمواهب .

اما انهم اضطهدوا لانهم من الشيعة ، فلا يكون ذلك محتملا الا من جمهور الفقهاء والعامة، ذلك بأن سطوة أهل السنة فى ذلك العهد كانت على أشدها أما الحكام أنفسهم فلا ، ذلك بأن معز الدولة بن بويه الذى استولى على بغداد

سنة ٣٣٤ كان مشجعا للشيعة مظهرا لمذهبهم(٢)

الله عز وجل لنا (٣) ..

وهذا قول ينبىء بأن شيئا من هذا كان موجودا على عهدهم .

ولقد كان محتملا أن يجيئهم هذا الاضهاد عن طريق الحكام ، لادخالهم الفلسفة على الدين والربط بينهما ، أو لانهم كانوا جماعة ــ غامضة يخشى خطرها .

ويدلك على قول وزير صمصام الدولة بن بويه لابى حيان التوحيدى فى حديث أورده القفطى(٤)، فقد سأل الوزير أبا حيان قال : « حدثنى عن شىء » هو أهم من هذا الى وأخطر على بالى . انى لا أزال أسمع من زيد بن رفاعة قولا يريبنى ومذهبا لا عهد لى به وكتابة عمالا أحقه وأشارة الى ما لا يتوضح منه ، فما حديثه وما شأنه؟ فقد بلغنى يا أبا حيان أنك تخشاه »

أما اسماؤهم فمجهولة ، غير أنه يفهم من الحديث الذى جرى بين أبى حيان التوحيدى وبين وزير لصمصام الدولة بن بويه وأورده القفطى ، يفهم من هذا الحديث بعض اسمائهم. قال أبو حيان عن زيد بن رفاعة : ــ « وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا ،وصادق بهاجماعة لاصناف

---

(١) ج ٤ ص ٤٠٣ ــ وهم يشبهون فى هذا العصر بجمعية الاخوان الماسون ، ولعل فكرة الماسونية اخذت منهم .
(٢) عمر الدسوقى ص ٤٣ .
(٣) الرسائل ج ٤ ص ٢١٥ .
(٤) تاريخ الحكماء ــ مخطوط بدار الكتب .

العلم وانواع الصناعة ، منهم : — ابو سليمان محمد بن معشر البستي ، وابو الحسن على بن هارون الزنجاني ، وابو احمد المهرجاني ، وابو الحسن العوفي . وكانت هذه الطبقة قد تألفت بالعشرة وتصافت بالمحبة ، واجتمعت على الطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله .

هذا ما ذكره القفطى ، ولا يمكن ان تؤول عبارته الا على هؤلاء الجماعة وقد ذكر من الاخوان اربعة فاذا اضفنا اليهم زيد بن رفاعة، كان لدينا خمسة منهم فى البصرة وتدلنا الطبعة اللاتينية للرسالة الثالثة عشرة انها لمحمد تلميذ الكندى (١) .

والظاهر ان هنالك جماعة ثانية من اخوان الصفا اقامت ببغداد فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه جماعة البصرة ويذكر منهم ابو حيان التوحيدى (٢) فيقول « ومن اعضائها ابو سليمان محمد بن طاهر السجستانى ، وابو زكريا العميرى والعروضى ابو محمد المقدسى ، ويحيى بن عدى، وابو اسحاق الصابى ، ومانى المجوسى » .

والظاهر ايضا ان جماعة بغداد لم تكن على صلة كبيرة بجماعة البصرة وكانت تفوق جماعة البصرة من ناحية فى البحث . فقد ذكر القفطى فى حديثه السابق ان وزير ابن بويه سأل ابا حيان ان كان رأى رسائل جماعة البصرة فأجابه ابو حيان « قد رأيت جماعة منها ،وهى مبثوثة من كل فن ، بلا اشباع وهى خرافات وكتابات وتلفيقات ، وحملت عدة منها الى شيخنا ابى سليمان المنطقى السجستانى (شيخ بغداد) وعرضتها عليه ، فنظر فيها اياما وتبحرها طويلا ، ثم ردها الى وقال : « تعبوا وما اغنوا ، ونصبوا وما اجروا ،وحاموا وما ردوا .. ظنوا انهم يمكنهم ان يدرسوا الفلسفة (والتى هى علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطى وآثار الطبيعة والموسيقى، الذى هو اعتبار الاقوال بالاضافات والكماليات والكيفيات) فى الشريعة ، وان يربطوا الشريعة بالفلسفة ، وهذا مرام دونه جدد ، وقد تورط قبل هذا قبل هؤلاء قوم كانوا احد انيابا واحضر اسبابا واعظم اقدارا وارفع اخطارا واوسع قوى واوثق عرى ، فلم يتم لهم ما ارادوه ، ولا بلغوا ما املوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ولطخات موحشة وعواقب مخزية »

وقد ورد فى كتاب جلاء العينين فى محاكمة الاحمدين لنعمان خير الدين الشهير بأبى الالوسى البغدادى (والمطبوع ببولاق سنة ١٢٩٨) كلاما منقولا عن كشف الظنون ومن شرح عقيدة السفارينى من هذه الرسائل نصه : — وفى فتاوى ابن حجر ما نصه : — نسبها كثير الى جعفر الصادق ، وهو باطل وانما الصواب ان مؤلفها مسلمة بن قاسم الاندلسى ، كان جامعا لعلوم الحكمة من الالهيات والطبيعيات والهندسة والتنجيم وعلوم الكيمياء وغيرها ، واليه انتهى علم الحمة بالاندلس ، وعنه أخذ حكماؤها ، وتوفى سنة ٣٩٥ هـ (٢) » .

ويحاول احمد زكى باشا ، وهو الذى اشار الى هذا النص ، ان ينكر وجود اى نوع من الرسائل من صنع المجريطى . ولكن الشيخ على يوسف يرى فى مقدمة الرسائل لاخوان الصفا المطبوعة بمطبعة الاداب ان المجريطى الف ٥١ رسالة ، ولكنها ليست رسائل اخوان الصفا التى نحن بصددها ، وانما على شاكلتها ، ومنها نسختان بدار الكتب ، ولم تخرج عن كونها « محاضرات ، وتلخيص وشرح وتعليق على رسائل اخوان الصفا المشهورة ، املاها على تلاميذه بالاندلس ، بعد ان درس رسائل اخوان الصفا دراسة جيدة وفهمها فهما تاما (٤) » .

وهنالك رأى لالشيتول بان مؤلف اخوان الصفا هو احمد بن عبد الله هكذا ورد فى دليل طبعة بومباى للرسائل . وقد أيد ذلك اغاخان زعيم الطائفة الاسماعيلية كتابه « نور مبين حبل الله المتين » المؤلف باللغة الاوردية ، وقد جاء فيه ان الذى الف الرسائل هو « وفى احمد » واخفى اسمه تحت اسم مستعار « هايون » وهوبحروف الجمل تساوى « وفى احمد » وان وفى احمد

(١) دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) المقايسات ص ٥٧ .
(٣) الرسائل : مقدمة ص ٣١ .
(٤) عمر الدسوقى فى « اخوان الصفا » ص ٥٥ .

هذا هو أحمد بن عبد الله بن اسماعيل بن جعفر الصادق .

ومهما يكن من اختلاف هذه الاراء التى لا نستطيع ان نرى لاحدها مرجحا فان المتفق عليه ، والذى يبدو من خلال الرسائل نفسها أى مالم توضع من شخص واحد ، وانها شيعية النزعة، وانها تحمل معلومات مفرقة ثم هى وضعت فى ظروف مضطربة . وانها نقلت الى الاندلس عن طريق ما .

يقول احمد زكى باشا ان الذى نقلها الى الاندلس هو أبو الحكم الكرمانى ولم يكن عليها اسماء مؤلفيها .. ولما كان المجريطى قد ذكر فى كتابه « رتبة الحكيم » انه كتب رسائل فىالعلوم الرياضية والاسرار الفلسفية ... فقد ظن الناس أن مؤلفها هو المجريطى نفسه (١) .

واساس مذهبهم أن الشريعة الاسلامية قد شابتها الضلالات فلابد من تخليصها من هذه الضلالات عن طريق الفلسفة ، فهماذن قد وفقوا بين الفلسفة اليونانية والشريعة الاسلامية .

ويتراوح عدد الرسائل بين ٥٠ و٥٢ رسالة(٢)، تمثل الفلسفة الاسلامية على عهدهم ، اذ تكلموا فيها عن اصل الموجودات وما هيةالطبيعة والارض والسماء ، والنبات والحيوان والهندسة والموسيقى والعدد والعشق ..

وتعاليمهم بعيدة عن المذهب الاشائى ، ربما لانهم لم يعرفوه ، وربما لانهم عرفوه ولكنهم لم يريدوا الاخذ به أو لم يتقنوه .

ويظن أن هذه الجماعة كانت فى عهدها الاول على مذهب المعتزله ، أو على الأقل كانت على صلة بالمعتزلة ، فقد تولى هؤلاء نشر هذه الرسائل فانتشرت حتى وصلت الاندلس ، ويقال ان فرعا لاخوان الصفا قد ظهر هناك فضلا عن هذه الرسائل (٣) .

وقد تاثر اخوان الصفا بالكندى فى فلسفته الطبيعية وبآراء المترجمين ، وبالفارابى فى كتاب احصاء العلوم ورسائلهم اشبه بدائرة المعارف.

وربما اتصل اخوان الصفا بأبى العلاء المعرى فى بغداد . وفى ذلك يقول فى شعره : —

كم بلدة فارقتها ومعاشر
يذرون من أسف على دموعها

واذا اضاعتنى الخطوب فلن ارى
لو راد اخوان الصفاء مضيعا

خاللت توديع الاصادق للنوى
فمتى أودع خلى التوديعا

ويقول ماكدونالد ، يظهر أن أبا العلاء قداتصل فى وقت ما بجماعة مثل اخوان الصفاء ان لم يكونوا هم انفسهم (٤) .

ومع ذلك فان الاعتماد على لفظ اخوان الصفا فى شعر أبى العلاء للدلالة على صلة بهم ،لايقطع بهذه الصلة لان لفظ اخوان الصفا ، ليس علما دائما وانما يدل على معنى الاصدقاء الأوفياء (٥)

---

(١) الرسائل ج ١ مقدمة ص ٤١ .
(٢) هى فى طبعة ليبزج ٥٠ رسالة ، وبمباى ٥٢ وفىالمخطوط المنسوب الى المجريطى بدار الكتب المصرية (نسخة تيمور باشا) ٥١ رسالة .
(٣) تاريخ الحكماء .
(٤و٥) أحمد أمين — ظهر الاسلام ج ٢ ، ٣ ص ١٤٦ .

رابعا : المارستانات

كان مارستان جند يسابور اعظم مستشفى ومدرسة للطب فى العالم الاسلامى الى عهد الرشيد ، وقد عرفت ان هذه المدينة قد بناها سابور أو شاهبور للاسرى اليونانيين .

وقد بدأت المارستانات الاسلامية بمارستان بناه الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ بدمشق ، ورصد له الأطباء وحبس فيه المجذوبين (٢) .

كما أنشأ المنصور ملجأ للعميان واليتامى والقواعد من النساء (٣) . وقال أنه هو ومن خلفه أنشأ دارا لمعالجة المجانين (٤) .

على أن أعظم مارستان انشأه المسلمون كان ذلك الذى بناه الرشيد واستقدم له أطباء من مارستان جنديسابور وترأسه ماسويه ثم ابنه يوحنا بن ما سويه .

وفى عهد المقتدر أنشأ الوزير على بن عيسى مارستانا سنة ٣٠٢ أقام عليه طبيبه الخاص أبا عثمان . وانشأت فتحة بنت سنان بن ثابت مارستانا سنة ٣٠٦ ، وكانت تنفق عليه ٦٠٠ دينارا فى الشهر ، ثم انشىء مارسنانا ، باسم الخليفة نفسه « المارستان المقندرى » وآخر بناه الوزير ابن الفرات وعرف باسمه (٥) . ومارستان بناه عضد الدولة البويهى سنة ٣٦٨ ورتب له ٢٤ طبيبا متخصصين فى الجراحة والكحالة (أمراض لعيون) والعظام والفصد والطب الطبيعى ، فصار أعظم مارستان أنشىء فى الاسلام .

ذاعت المارستانات فى البلاد الاسلامية فبنى نور الدين زنكى مارستانا فى دمشق فى أواسط القرن السادس ، وبنى صلاح الدين الايوبى المارستان العتيق فى القاهرة ، كما بنى فيها السلطان قلاوون مارستانا آخر سمى المارستان المنصورى (نسبة الى المنصور قلاوون) وبنى الملك المؤيد مارستانا بها أيضا سنة ٨٢١ هـ(٦)

---

(١) مارستان أوبيمارستان .
(٢) المقريزى ج ٢ ص ٤٠٥ .
(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٤٩٥ .
(٤) الكشكول ٢١٣ .
(٥) جورجى زيدان ج ٣ ص ٢٠٦ .
(٦) طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٢٢ و ٢٢٤ .

خامسا: المراصد

عرفت المراصد من قبل ظهور الاسلام ، فقد كان فى الاسكندرية مرصد من عمل البطالسة . وبلغ غايته من الرقى فى عهد بطليموس القلوذى صاحب المجسطى (١) (وهو غير بطليموس قائد الاسكندر ورأس دولة البطالسة فى مصر) .

وقد رغب المأمون فى أن يحاكى هذا المرصد ، فانشأ مرصدا فى بغداد وفرعا له فى دمشق عام ٢١٤ هـ وكان يرصد به جماعة من المنجمين منهم يحيى بن ابى منصور وخالد المروزى وسند ابن على والعباس بن سعيد الجوهرى . ثم توقف المرصد ودونت ارصاده باسم الزيج المأمونى .

وبنى أولاد موسى بن شاكر (محمد وأحمد وحسن) مرصدا آخر (٢) وثالثا بناه شرف الدولة ابن عضد الدولة فى القرن الرابع الهجرى (٣).

وانشأ الحاكم بأمر الله الفاطمى المتوفى سنة ٤١١ هـ مرصدا فى القاهرة على جبل المقطم ، ودون رصده باسم الزيج الحاكمى (٤) . وقد جرد الأفضل بن أمير الجيوشى هذا المرصد ، وظل الرصد الحاكمى هو المرجع فى الفلك الى ان انشئت مراصد أخرى ، فقد انشأ نصير الدين الطوسى فى عهد هولاكو التترى مرصدا فى مراغه من بلاد التركستان ، جمع له آلات دقيقة ومكتبة فيها ٤٠٠٠٠ كتاب (٥) ، ثم بنى تيمور لنك مرصدا فى سمرقند .

وكانت المراصد تستخدم فى تعيين اماكن النجوم وحركاتها وأبعادها وانحرافها وشروق الشمس وغروبها ، والقمر ، مطلعه ومغيبه وازدياده ونقصانه ، ومواقيت الصلاة والفصول والاجواء.

وكانت فى الارصاد آلات للرصد كثيرة منها اللبنة والحلقة الاعتدالية وذات الاوتار وذات الحلق ، وذات الشعبتين وذات الجيب، والمشتبهة بالمناطق والاسطرلاب ، وذات السمت والارتفاع وهذه الاخيرة من اختراع الرصاد المسلمين (٦).

---

(١) معجم « الف باء » لابى البقاء يوسف بن الشيخ البلوى — مادة الاسكندرية .
(٢) فوات الوفيات ج ١ ص ١٥١ .
(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٥ .
(٤) أبو الفرج ص ٢٠٧ .
(٥) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٤٩ .
(٦) جورجى زيدان : التمدن ج ٣ ص ٢١٣ — والعمل بالاسطرلاب وأجزاؤه لابن الصفار ، نشرته صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمدريد مجلد ٣ ص ٤٦ وما بعدها .

سادسا : دور الصناعة

كانت الصناعة فى اقاليم الدولة الاسلامية متقدمة تقدما ملحوظا ، وكانت تقوم بما تحتاجه الحياة من ضروب المآكل والمسكن والملبس . وكانت المصانع منبثة فى جميع اقاليم الدولة . وان وجد فيها نوع من التخصص الاقليمى .

فاذا استعرضنا صناعة النسيج فى القرن الرابع الهجرى ، وهو القرن الذى بلغ النضوج الفنى فيه غايته ، وجدنا مصر وقد تخصصت فى صنع الكتان والظاهر ان صناعة الكتان قد ورثتها مصر من عهد القدماء المصريين ، حيث كانوا يلفون جثتهم المحنطة فى ثياب من الكتان ، واهم مراكز صناعة الكتان فى مصر هى الفيوم وتنيس ودمياط وشطا ودبيق ، وكان النسيج الدبيقى ذا شهرة واسعة (١) .

وكانت تنيس تقوم بصنع الثياب الفخمة للخليفة، ويوضع فى الثوب مقدار أوقيتين من نسيج الغزل ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة ، لا تحوج الى تفصيل ولا خياطة . وتبلغ قيمته الف دينار (٢) .

وكانت تنيس تصدر من المنسوجات الى العراق ما يبلغ ثمنه من عشرين الف الى ثلاثين الف دينار (٣) .

وكانت الفيوم تصنع الستور الثمينة التى يبلغ طول الستر منها ثلاثين ذراعا او اكثر ، وقيمة الزوج منها ثلاثمائة دينار (٤) .

وكانت اسيوط تصنع اجمل الفرش الصوفية القرمزية التى كانت تنافس الفرش الأرمينية (٥) وهى لا تزال تشتهر بمصنع البسط المتقنة دون سائر بلدان مصر .

وكانت فى مصر مصانع للعسل والسكر (٦) واستخراج الزمرد (٧) .

وتخصصت فارس فى صنع المنسوجات الحريرية . والظاهر ان هذه الصناعة كانت قديمة فيها ، وانها اخذتها عن الروم ، فمنذ ان غزا سابور ملك فارس بلاد الجزيرة وكامد وغيرها من بلاد الروم ونقل من اهلها خلقا كثيرا اسكنهم مدنا من فارس ، صار الديباج يعمل بتستر والخز بالسوس حتى عصر المسعودى(٨)

وتخصصت فارس ايضا فى صناعة القطن ، واهم مراكزها مرو نيسابور ، من بلاد كرمان . واشتهرت هذه المدينة بصناعة الطيلسانات الفاخرة من القطن ، وكانت تحمل منها الى خراسان والعراق ومصر(٩) واشتهرت توز وكازرون بصناعة الكتان(١٠) التى اخذت عن مصر .

وفى فارس ازدهرت صناعة البسط الصوفية، وكان احسن نوع منها ما هو اشبه بالارمينى فى

---

(١) ميتز ج ٢ ص ٣٤٥ .
(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ١٧٧ .
(٣) الخطط ج ١ ص ١٣٧ .
(٤) ابن حوقل ص ١٠٥ .
(٥) اليعقوبى ص ٣٣١ .
(٦) رحلة ناصر خسرو ٧٤ (النسخة الفارسية) .
(٧) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٣ .
(٨) المسعودى ج ٢ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .
(٩) ابن حوقل ص ٢٢٣ .
(١٠) المقدسى ص ٣٤٥ .

صناعته (١) ، اذ ان أرمينية كانت تفوقها فى اتقان هذه الصناعة (٢) التى ورثتها عنها أزمير الى يومنا هذا .

وتخصص اقليم سابور من اعمال فارس فى صناعة الروائح العطرية من البنفسج والنيلوفر والنرجس والكارده والسوسن والزنبق والروسين والمورزنجوش والبيادرنك والنارنج (٣) .

وفى مدينة جور جنوب فارس كان يحضر ماء الورد من الورد والطلع والقيسوم والزعفران والخلاف ، فيحمل الى المغرب والاندلس ومصر واليمن وبلاد الهند والصين .

وتخصصت سمرقند فى صناعة الكاغد (الورق) . وظلت تنفرد به حتى القرن الثالث الهجرى حيث انتشر فى دمشق وطبرية وطرابلس الشام ، وان ظلت سمرقند صاحبة السبق فى اتقانه (٤) . وهذه الصناعة قد أخذتها سمرقند عن الصين .

وتخصصت مدينة حران بحكم انها كانت اخر ماوى لعبادة الكواكب ، فى صناعة الاسطرلاب والآلات الرياضية الدقيقة وكذلك تخصصت فى صنع الموازين (٥) .

وتخصصت مدينة جند يسابور فى اقليم خوزستان فى صناعة السكر (٦) وشهرت مدينة نيسابور باستخراج الفيروزج (٧) .

واستخرج ملح النشادر من بلاد ما وراء النهر (٨) .

وتخصصت العراق فى صنع الطنافس الجيرية وكانت تصور عليها زخارف وفيلة وخيل وجمال وسباع وطيور (٩) .

ويقول بعض المحققين ان هذه الصناعة اخذتها الحيرة عن الفن الرومى أن كلمة طنافس تقابل كلمة Tapetes الرومية ، والجيرة مدينة نصرانية قريبة من حدود الروم (١٠) .

والكوفة فى بعض انواع العطور كالدهان الحيرى والبنفسج الذى كان يفوق عطور سابور (١١) .

وفى صقلية استخرج ملح النشادر (١٢) واقيمت مصانع للقاشاني ، دلت عليها قطع منها اكتشفت هناك (١٣) .

وفى الاندلس ازدهرت اعظم الصناعات ، فاشتهرت قرطبة باستخراج الزئبق (١٤) .

واذا كانت صناعة الزجاج قد عرفت عند الفرس والمصريين والفينيقيين فان العرب قد تقدموا بهذه الصناعة تقدما عظيما ، كما يشهد بذلك ما انتهى الينا من اوانيهم المذهبة والمطلية بالميناء (١٥) ، وكانت أعظم مراكز هذه الصناعة

---

(١) الاصطخرى ص ١٥٣ .
(٢) لطائف المعارف للثعالبى ص ١١١ و ٢٣٢ .
(٣) المقدسى ص ٤٤٣ .
(٤) رحلة ناصر خسرو ص ١٢ .
(٥) المقدسى ص ١٤١ .
(٦) المقدسى ص ٤٠٨ .
(٧) لطائف المعارف ص ١١٥ .
(٨) ابن حوقل ص ٣٣٧ .
(٩) المقريزى ج ١ ص ٤١٧ .
(١٠) ميتزج ٢ ص ٣٥٥ .
(١١) الاصطخرى ص ١٥٣ وابن حوقل ص ٢١٣ .
(١٢) ابن حوقل ص ٣٣٧ .
(١٣) لوبون ص ٥١٨ .
(١٤) الادريسى ص ٢١٢ و ٢١٣ .
(١٥) لوبون ص ٥١٦ .

فى الاندلس،وقد اشتهرت مالقه بصناعةالخزف. وترجع صناعة المسلمين للخزف المطلى بالمينـــاء فى بلاد الاندلس الى القرن العاشر من الميلاد .

وقد كان لهم فيها مصـــــانع شـــهيرة تبيع مصنوعاتها فى جميع انحاء العالم (١) .

واشتهرت بلنسية بصناعة الخزف . كمـــا اشتهرت ايضا بصناعة الورق فى القرن الثانى عشر وشاركتها فى هذه الشهرة كل من شاطبة وطليطلة (٢) .

وفى نهاية الحكم العربى فى الاندلس كان فى طليطلة خمسون مصنعا للصوف . وفى أشبيلية الف وستمائة حرفة صناعية .

---

(١) لوبون ص ٥١٦ و ٥١٧ .
(٢) الموسوعة (المعلمة) البريطانية .

الفصل الرابع

أسباب عظمة العرب

اذا كانت مقاييس المواطن الصالح متغيرة بتغير الزمن ، فمقاييس الدولة الصالحة هي كذلك في تطور مستمر . فالمواطن الصالح في دولة اليونان كان يجعل كل همه في الفوز في الالعاب الأولمبية كالمصارعة والعدو والملاكمة ، وهكذا كانت القوة الجسمية أكبر همه في الفوز وربما كان الجدل والفصاحة في أحد أدوار التاريخ مقياسا للمواطن الصالح في هذه الامة .

وربما كانت الشجاعة والتفوق الحربي في أمة اخرى ، وفي دور آخر من التاريخ مقياسا ثالثا، وهذا ما كان عند الرومان ، ومع أن الرومان كانوا سادة العالم ، فأنهم لم يبدوا تفوقا ذهنيا ظاهرا في الفنون والعلوم ، وكل اليونانيين اساتذة لهم في كل ما يمت الى الفكر بصلة ، ولكن ذلك لم يحل دون استعبادهم وهم لهؤلاء اليونانيين . والامر كذلك في أمة الترك .

كذلك كانت الصفات الخلقية كقوة الارادة والعناد ، والتسامح والمروءة ، مقاييس الأمة الصالحة يوما ما .

واذا كانت بعض الامم قد وضعت نصب عينيها احد هذه المثل ، فان أمة المسلمين قد وضعت نصب عينيها هذه المثل جميعا ، فالذكاء الموروث عند العرب والفرس والصفات الخلقية عند قبائل العرب من شجاعة وعناد وصبر ، والمبادىء الخلقية القديمة التى جاء بها الاسلام والتى ضربت للصليبيين احسن الأمثال ، والذوق القومى الذى تجلى عند الفرس ومسلمي الاندلس، كل أولئك شهود على عظمة المسلمين .

ترجع عظمة المسلمين الى أسباب لا يمكن أن نخصها عدا ، ولكننا نستطيع أن نلخص بعض الاسباب الجوهرية التى ادت الى هذه العظمة.

وأول هذه الاسباب واهمها هو وجود الدين الاسلامى وتقبل المسلمين له باعتباره مثلا أعلى . قال لوبون (١) وقد اتيح لى أن أذكر غير مرة أن عبادة أى مثل عال هى من أقوى العوامل فى تطور المجتمعات البشرية . ويكفى أن يكون المثل الأعلى قويا ليمنح الأمة مشاعر مشتركة وآمالا مشتركة وايمانا متينا يندفع به كل واحد من ابنائها فى التضحية بنفسه فى سبيل نصره ، وكانت عظمة روما مثل الرومان الأعلى ، وكان نيل لحياة أخرى تجتنى منها اطايب النعم مثل النصارى الاعلى ، وتخيل الرجل العصرى الهة جددا يقيم لهم تماثيل مع انهم وهميون كقدماء الالهة لاريب ، وذلك مع كفاية تأثيرهم الطيب لوقاية مجتمعاتنا القديمة من الزوال حينا من الزمن . وليس التاريخ سوى رواية للحوادث التى قام بها الناس انتصارا لمثل عال . ولولا تأثير المثل العليا ما تمدن الانسان ولظل فى دور الهمجية . ويبدأ دور انحاط الامة حينما تعود عاطلة من مثل عال محترم يستعد كل واحد من ابنائها لوقف نفسه عليه .

« والمثل الاعلى الذى ابدعه محمد دينى محض، والدولة التى أسسها العرب هى الدولة العظمى الوحيدة التى قامت باسم دين اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية » .

فالدين الاسلامى القائم على الاسس القويمة للقرآن والسنة وسيرة الرسول صلى الله عليه

(١) ص ٦٠٤ .

وسلم ، واعمال الخلفاء الراشدين التى ينطوى العالم فيها ولاتطوى والمبادىء المعليا التى يفيض بها الاسلام فىحرية الراى واقرار الحقوق والاخذ بيد الضعفاء ، والاستبحار فى العلم ، وذم الجهل والجهلاء .

والاخذ بالمثل الاعلى الذى جاء به الاسلام هو الذى ادى الى سياسة التسامح الدينى مع سكان البلاد التى فتحت على ايدى المسلمين . وان التاريخ الاسلامى ليفيض بالوقائع التىتدل على تسامح المسلمين مع اخوانهم فى البلاد المفتوحة . وقد ضرب عمر بن الخطاب المثل الأعلى للتسامح الدينى بالنسبة للشعوب التى فتحت اراضها فلميسمحلاحد من قواده بأنيحيد عن قواعد الاسلام . فعل ذلك مع خالد بن الوليد، ومع عمرو بن العاص ومع سعد بن ابى وقاص. لقد كان شديدا على عماله الى درجة القسوة رغبة منه فى ان يكونوا ائمة مثاليين فى البلاد التى فتحوها . وان المثل الذى ضربه صلاح الدين الايوبى مع ريتشارد قلب الاسد لكفيل وحده بان يعلم الصليبيين عظمة المسلمين . وان العهود التى كتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين ، والعهود التى كتبها عمر ابن الخطاب مع القبط (١) والفرس وغيرهم واحترام هذه العهود .

ان التاريخالاسلامى يفيض بمثل هذهالشواهد، ولكنى احب أن اقدمها لك على السنة رجال من مفكرى العرب انفسهم ، فهى اوقع فى الدلالة وابلغ فى البيان .

قال لوبون : —

« وكان يمكن أن تعمى فتوح العرب الاولى ابصارهم وأن يفترقوا من المظالم ما يقترفه الفاتحون عادة ويسيئوا معاملة المغلوبين ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذى كانوا يرغبون فى نشره فى العالم ، ولو فعلوا هذا لتألبت عليهم جميع الأمم التى كانت غير خاضعة لهم بعد ، ولأصابهم مثل ما أصاب الصليبيين عندما دخلوا بلاد سورية مؤخرا ، ولكن العرب اجتنبوا ذلك ، فقد ادرك الخلفاء السابقون ، الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة ، ان النظم والأديان ليست مما يفرض قسرا ، فعاملوا ، كما رأينا ، اهل سورية ومصر واسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى الغالب اذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقا فى مقابل حفظ الأمن من بينهم ، فهى والحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم .

وما جهله المؤرخون من حلم العرب الفاتحين وتسامحهم كان من الأسباب السريعة فى اتساع فتوحهم وفى سهولة اعتناق كثير من الأمم لدينهم ولغتهم التى رسخت وقاومت جميع الغارات وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم ، ونعد من الواضح خاصة أمر مصر التى لم يوفق فاتحوها من الفرس والاغارقة والرومان أن يقبلوا الحضارة الفرعونية القديمة فيها وان يقيموا حضارتهم مقامها .

وقال ول ديورانت(٢) وهو يصف قدوم عمر ابن الخطاب ليتسلم المقدس من البطريق سفرونيوس :

« وجاء (عمر) من المدينة فى بساطة افخم من الفخامة ، ومعه عدل من الحب وكيس من التمر ووعاء ماء وصحفة من الخشب ، وخرج خالد وأبو عبيدة وغيرهما من قواد الجيش لاستقباله ، فغضب حين أبصر ثيابهم المفهفة وعدد من خيولهم المزركشة ، والقى بحفنة من الحصباء فى وجوههم ، ولامهم على أنهم جاءوا يستقبلونه فى ذلك الزى ، وقابل سفرونيوس مقابلة ملؤها اللطف والمجاملة ولم يفرض على المغلوبين الا جزية قليلة ، وأمن المسيحيين على كنائسهم . ويقول المؤرخون المسيحيون انهطاف مع البطريق ببت المقدس ، وأختار فى العشرة أيام التى اقامها فيها موضع المسجد الذى سمى فيما بعد باسمه . ولما سمع أهل المدينة يخشون أن يتخذ بيت المقدس عاصمة للدولة الاسلامية ، عاد الى عاصمته الصغيرة »

---

(١) كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى عمرو بنالعاص عقب فتح مصر « من كان فى يدك من اليهود او النصارى فخيره بين الاسلام ودينه ، فان اسلم فهو منجملة المسلمين ، له مالهم وعليه ما عليهم ، وان لم يسلم فعليه الجزية عن كل راس ديناران » المختار من بدائع الزهور ج ١ ص ١٢ .

(٢) مجلد ٤ ج ٢ ص ٧٦ .

ولم يبد عدم التسامح بين المسلمين الا بعد ان اضمحل سلطان العرب فى القرن الثالث عشر من الميلاد وصارت سلطتهم قبضة «شعوب شرسة غير مهذبة » من ترك وبربر وغيرهم كما اشار الى ذلك بحق مسيو رينان .. وانما نشير الى ما ترجمه مسيو دوزى من قصة احد علماء الكلام العرب الذى كان يحضر ببغداد دروسا كثيرة فى الفلسفة يشترك فيها اناس من اليهود والزنادقة والمجوس والمسلمين والنصارى الخ، فيستمع الى كل واحد منهم باحترام عظيم ، ولا يطلب منه الا أن يستند الى الادلة الصادرة عن العقل ، لا الى الادلة المأخوذة من اى كتاب دينى كان . فتسامح مثل هذا هو مما لم تصل اليه أوروبا بعد ما قامت به فى اكثر من الف سنة من الحروب الطاحنة . وما عانته من الاحقاد المتأصلة وما منيت به من المذابح الدامية (١) .

وبلغ حلم عرب اسبانيا نحو الاهلين المغلوبين مبلغا كريما كانوا يسمحون به لاساقفتهم ان يعقدوا مؤتمراتهم الدينية كمؤتمر أشبيلية النصرانى الذى عقد فى سنة ٧٨٢ ، ومؤتمر قرطبة النصرانى الذى عقد سنة ٨٥٢ م ،وتعد كنائس النصارى الكثيرة التى بنوها أيام الحكم العربى من الادلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التى خضعت لهم .. وكانت اسبانيا العربية بلد أوروبا الوحيد الذى تمتع اليهود فيه بحماية الدولة ورعايتها فصار عددهم فيه كبيرا جدا (٢) .

وفى فلسطين على عهد الصليبيين فوجىء الفرنجة باخلاق من العرب لم يكونوا يتوقعونها، فقد غرر بهم اولئك الذين دفعوهم الى الحرب زاعمين لهم أن العرب أنظاظا سفاكون ، فاذا بهم يجدون أمامهم شجعانا يفيض قلبهم بالرحمة والعدل ، وعندما أوشك ان يقضى على ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا اثناء مرضه بالحمى أرسل اليه خصيمه صلاح الدين جمالا محملة بالجليد ليخفف عنه وطأة المرض .

لقد اعترف فى مقال تحت عنوان « ارتداد العرب فى الاندلس وخيانتهم للدولة » بأن هؤلاء العرب » لم يذكروا بالجميل والحمد فى شىء اكثر من حرية الضمير فى كافة المسائل الدينية ، تلك الحرية التى سمح الاتراك العثمانيون وغيرهم من المسلمين لرعاياهم أن ينعموا بها » يعترف لهم بهذا الفضل فى مقاله ، وفى نفس المقال يشير على فيليب الثانى بطردهم ، وقد اصبحوا مجرد رعايا ، من الاندلس التى كانوا سادتها .

ولقد اثبت مورجان فى كثير من الاعجاب والتأثر نص احتجاج تقدمه أحد المسلمين الذين طردوا من أسبانيا حين اقصى العرب لآخر مرة سنة ١٦١٠ ، هل حاول اسلافنا المنتصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من اسبانيا حين كان فى مقدورهم أن يفعلوا ذلك ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتعوا بحرية استعمال رسومهم الدينيه فى نفس الوقت الذى لبسوا فيه طيالسهم؟ ألم يوحى نبينا بأن تترك الحرية الدينية لأهالى البلاد التى يفتحها العرب بحد السيف مهما بلغت آراءهم الدينية من حمق وخرق ؟ بل الم يسمح لهم بالتدين بأى دين آخر يؤثرونه على دينهم اذا دفعوا مقدارا معتدلا من الجزية فى كل سنة ؟ واذا كانت ثمة أمثلة يأتى بها بعضهم للدلالة على ارغام الاهلين على اعتناق الاسلام فان هذه الامثلة قد بلغت من الندرة بحيث لا تستحق أن تذكر هنا ، وانما حاولها اناس لا يخشون الله ونبيه ، بل قاموا بهذا العمل من تلقاء انفسهم مع مخالفته لتعاليم الدين الاسلامى وسنة نبيه ، تلك التعاليم التى لا يمكن أن يدنسها أو ينتهك حرمتها الا كل شخص لا يتحلى بصفات المسلم الحقيقى .. وانتم لا تستطيعون أن تظهروا لنا شيئا ما عن اية حادثة خاصة بسفك الدماء أو تقديم للمحاكمة ، بسبب الطرق المختلفة التى اتبعت فى اقتناع الناس وتلقينهم تعاليم تشبه على نحو ما،محاكم التفتيش المقوتة ، وان يدنا مبسوطة دائما لتلقى كل من وهبه الله نعمة التدين بديننا ولكن كتابنا المقدس ، وهو القرآن الكريم ، لا يجيز لنا أن نتحكم فى ضمائر الناس، وان الذين استجابوا الى ديننا قد نعموا بكل ما يمكن ان يتصوره العقل من تشجيع ومعاضدة ، حتى اذا اعترفوا بوحدانية الله ورسالته نبيه ، صاروا كواحد منا

(١) لوبون ص ٥٦٩ و ٥٧٠ .
(٢) لوبون ص ١٧٦ و ٢٧٧ .

غير تمييز أو استثناء ، فتزوجوا بناتنا وشغلوا المناصب التى يكون اصحابها محلا للثقة ، واحيطوا بمظاهر الشرف ونعموا بالثراء . وكان اقصى ما رضيناه لانفسنا من هؤلاء أن طلبنااليهم فى رقة ولطف ان يلبسوا لباسنا ، وان يظهروا بمظهر المخلصين الحقيقيين للدين فى كل مايظهرون به أمام الناس ، دون أن يعرضوا ضمائرهم للامتحان بشرط ان لا يغضبوا من شأن ديننا أو يحنسوه فاذا فعلوا ذلك انزلنا بهم ما يستحقونه من العقاب بلا مراء ، اذ كان تحولهم الى هذا الدين عن طواعية واختيار لا عن ارغام واكراه.

أما السبب الثانى لعظمة المسلمين فهوالخلق الموروث الذى كان عليه العرب حتى قبل الاسلام، فالعربى كان يتمتع بصفات عالية ورثها عن آبائه الاقدمين كالذكاء والشجاعة وايثار الغير ،وحبه للحكمة واحترامه لكلمة الشرف ، كل اولئك قد قواه الدين الاسلامى وهذب منه ما كان جامحا . ولكن هذه الصفات بذاتها كانت قابلة وحدها لان تتمثل المدنيات القديمة التى بهرت الفاتحين العرب فى أول أمرهم بالفتوح كمدينة الهند والفرس والاغريق ، وان هنالك شعوبا لم تستطع كما قلت فى مقدمة هذا الكتاب لم تضف الى كتاب الحضارة سطرا واحدا ، فضلا عن انها كانت عبئا على الحضارة الاسلامية ولا بأس بأن اشير الى ما قلته عن الترك ، قال لوبون(١)

فاذا كانت الامة مبدعة امكن أن تتجلى قوتها الابداعية فى كل شىء ، حتى فى بناء اسطبل أو صنع حذاء .

واذا كانت الامة عاطلة من هذه القوة لم تفعل سوى تنفيذ عناصر الفن ، كما هو شأن الترك الذين استطاعوا أن يقلدوا كنيسة أيا صوفيا فى القسطنطينية عشر مرات وان ينضدوا فيما تقلدوه بعض الزخارف العربية أو الفارسية،ولكن من غير أن تكون لهم فيه أية مسحة ابداع فنى خاصة .

ويقول المسيو سيديو اننا اذا اردنا أن نبحث فى الاسباب التى ايقظت العرب على التقدم العجيب بعد فتحهم لسوريا وفلسطين فيجب أن نضع فى الحسبان استعداد العرب الفطرى لاستعمال ملكاتهم العقلية .

وسبب آخر ادى الى عظمة المسلمين ، يرجع الى طبيعة الشعوب التى غزوا بلادها ، فقد كانت بعض هذه الشعوب ذات مدنية قديمة ، واظهر هؤلاء الشعوب هم الفرس والمصريون . لقد كان الفرس ذوى حضارة شامخة ومدنية باسقة الظلال ، فقد ظهرت فيها ديانات متعددة كالمانوية والزرادشتية والمزدكية، وقد ظهرت فيها فلسفة دينية ، وقد تكون هذه الفلسفة ذات صبغة شيوعية كالمزدكية ، أو صبغة رهبانية كالمانوية ، أو صبغة اجتماعية كالزرادشتية، وقد تكون هذه الفلسفة قائمة على غير اساس من الواقع ، ولكن الامر الذى ينبغى أن يسجل للفرس هو استعداد عقولهم ومرونتها لتقبل تعاليم الدين الجديد والسير فى ركاب الاسلام ، كما كانت فنونهم رائدا للعرب الفاتحين فى كثير من تصوراتهم ، فضلا عن أن الفرس كانوا يحتضنون كثيرين من ذوى الفكر اليونانى أما المصريون ، فقد كانت لهم حضارة لا داعى للتنويه بها فهى لا تزال تشهد لهم بعلو الكعب وطول الباع وعرض الشهرة ، وقد اختلطت الافكار المصرية القديمة وفنون الهندسة والرياضة والطب والسحر بالفلسفة اليونانية فى مدرسة الاسكندرية ونتج من هذا الامتزاج فكر جديد يبدو واضحا فى فلسفة الافلاطونية الحديثة فاصبح المصريون فى عهد الاسلام فى درجة عقلية تمكنهم من هضم الحضارة الاسلامية .

وقد قدر تمكن الحضارات من هذه الشعوب ونمو تفكيرها وصقل عقليتها كانت تنعم بقدر غير يسير من الشقاوة الاجتماعية والسياسية ، فقد كانوا فى نظر حكامهم عبيدا اذلاء ، لا يقدرون على الجهد بمظالمهم والشكوى من الجور عليهم، وما كادوا يبصرون هذا الدين الجديد الذى يأمر بالعدل والاحسان والاخوة حتى دخلوا فى هذا الدين افواجا .

ولما كان الاسلام فى عهده الاول لا يعترف لأحد من غير قريش بالامانة فقد شعرت الشعوب الجديدة ، وهم من غير العرب ، الا سبيل لهم

---

(١) ص ٥٠٣ .

الى الجاه والسلطان من هذا الطريق ، فحاولوا أن يصلوا الى الجاة عن طريق العلم والمعرفة، فاخلصوا لهما حتى زادوا علوا ومكانة على العرب انفسهم ، حتى يعرضوا ما ظنوا انهم فقدوه من هذه الناحية فظهرت طائفة من الشعوبية تطالب بمساواة الموالى بالعرب ثم تذهب بعد هذا الى افضلية العجم على العرب.

ومن اجل هذا وذاك جرد الموالى عقولهم التى صقلتها مدنياتهم القديمة ورغبوها للاسلام، وفتحوا صدورهم فى سهولة ويسر للمبادىء الاسلامية الجديدة ، واخلصوا لها اخلاصا كان من المستحيل أن يصدر عن شعوب يكتنفها الجهل والغباء ، ولم يلبث هؤلاء الموالى أن ولوا اكبر المناصب فى الدولة ، وحسبك بآل برمك وسلطانهم فى عصر الدولة العباسية (١) .

وفى الحق أن العرب ورثوا مدنيات قديمة وعقليات مهذبة عند فتحهم الكثير من البلاد التى كانت تدين للوثنية وللنصرانية بمبادئها .

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٠٦ .

الفصل الخامس

قادة الفكر في العصور الوسطى

أولا : في الأدب

عبد الله بن المقفع

هو عبد الله بن المقفع ، واسمه بالفارسية روزبة ، ويكنى قبل اسلامه أبا عمرو . فلما اسلم اكتنى بابى محمد والمقفع ابن المبارك . وانما تقفع لان الحجاج بن يوسف ضربه بالبصرة في مال احتجنه من مال السلطان — ضربا مبرحا فتقفعت يده (١) وكان ابوه من قرية اسمها جور (٢) ، ويسمى داذويه ، ونشأ بالبصرة في ولاء آل الاهم ، وهم قوم معروفون بالفصاحة . وقد نشأ الابن مجوسيا كأبيه . وكتب ليزيد بن هبيرة ثم لأخيه داود بن هبيرة ثم كتب لعيسى بن على عبد الله بن عباس (عم السفاح والمنصور) فاسلم على يديه (٣) .

كتبه

ذكر ابن النديم أن ابن المقفع نقل من اللسان الفارسى الى العربى الكتب الاتية : كتاب خداينامه في السير ، كتاب ايين نامه في الاصر ، كتاب كليلة ودمنة ، كتاب مزون ، كتاب التاج في سيرة أنو شروان ، كتاب الأدب الكبير ، كتاب الأدب الصغير كتاب اليتيمة في الرسائل .

والقارىء لنص ابن النديم يرى أن كتاب الادب الكبير والادب الصغير غير كتاب اليتيمة . ويرجع الاستاذ احمد أمين أن هذا هو الحق ، بخلاف الفقهاء (٤) الذين أطلقوا على الادب الكبير اسم اليتيمة (٥) . والدرة اليتيمة هذه كتابان، ورد ذلك في كتاب اعجاز القرآن لابى بكر الباقلانى البصرى المتوفى في سنة ٤٠٣ . ويرجح الاستاذ كرد على انه قد وقع لبس في تسمية احداهما لانه يبعد أن يسمى ابن المقفع رسالتين في موضوعين مختلفين باسم واحد(٦) . ومن رأيه أن اليتيمة الاولى هى كتاب الادب الكبير(٧)

---

(١) أحمد أمين في ضحى الاسلام ج ١ ص ١٧٢ .
(٢) الفهرست ص ١٧٢ .
(٣) وردت خطأ في الفهرست ، ولعله خطأ في النسخ ،وجور في فارس .
(٤) رسائل البلغاء لمحمد كرد على ص ٣٩ .
(٥) أحمد أمين في ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٠٨ ، وفيه تفنيد لهذه الاراء وترجيح لما ذهب اليه .
(٦) رسائل البلغاء ص ١٠٧ .
(٧) هكذا سميت في العنوان التى نشرها بــه وهو « الدرة اليتيمة » أو الادب الكبير لابن المقفع ص ٣٩ .

وأما اليتيمة الثانية فهى المنقولة عنكتاب المنثور والمنظوم لابى الفضل احمد بن ابى طاهر طيفور من ابناء خراسان .

ويرجح الاستاذ احمد امين ان الكتب الثلاثة الفها ابن المقفع ولم يترجمها (١) .

ولابن المقفع رسالة « الصحابة » أوردها ابن طيفور فى كتاب المنثور والمنظوم ، المخطوط بدار الكتب المصرية ونشرها محمد كرد على فى « رسائل البلغاء » وقد كتبت لأحد الخلفاء العباسيين . ويرجح انها كتبت للمنصور(٢) لان ابن المقفع مات فى خلافة المنصور .

بيد أن اشهر كتاب عرف لابن المقفع هو كتاب كليلة ودمنة ، وقد تكلمنا عنه فى القسم الاول من هذا الكتاب .

ابو العلاء المعرى

هو احمد بن عبد الله بن سليمان المعرى . نسبة الى معرة النعمان التى ولد بها عام ٣٦٣/ ٩٧٩ ، وهى قرية بالشام بين حلب وحمص . وينحدر من اسرة عربية من قبيلة تنوخ (٣) . وقد ولى جده القضاء ويظهر ان اباه كان على شىء من العلم .

وقد أصيب ابو العلاء وهو فى الرابعة من عمره بالجدرى ففقد بصره .

عاش أبو العلاء أول شبابه فى عصر مضطرب فى الشام حيث كان يحكمها بنو حمدان ، وكان هؤلاء مهددين بغزوات الروم من الشمال والفاطميين من الجنوب ، ومع ذلك فان ابا العلاء قد أصاب شهرته منذ صدر شبابه (٤) .

تلقى دراساته فى حلب ، وطرابلس ، وانطاكية ، على تلاميذ ابن خالويه النحوى ، ثم عاد الى المعرة وظل فيها حتى سنة ٤٠١ هـ ، ثم ذهب الى بغداد ورجع بعد عام وسبعةاشهر الى المعرة مرة أخرى ، وذلك لمرض أمه وحاجته الى المال ، وللجفوة التى كانت بينه وبين الشريف المرتضى نقيب الاشراف . ومن امثلة هذا الاضطهاد أن أبا العلاء دخل مرة على المرتضى ، وكان هذا يطعن على المتنبى ، فلم يعجب ذلك ابا العلاء وكان يتعصب للمتنبى . وقال للمرتضى لو لم يكن للمتنبى الا قوله :

لك يا منازل فى القلوب منازل .... لكفاه

فقال المرتضى أخرجوا هذا الاعمى ، فسحب برجله حتى أخرج ، ثم قال المرتضى لمن حضره : أتدرون لم اختار الاعمى هذه القصيدة دون غيرها من غرر المتنبى ؟ قالوا : لا . قال : انما عرض بقوله :

واذا أتتك مذمتى من ناقص
فهى الشهادة لى بأنى كامل (٥)

وما كاد يصل المعره حتى بلغه نعى أمه فحزن عليها حزنا شديدا وندم على عودته من بغداد حيث قال فى اللزوميات :

يا لهف نفسى على أنى رجعت الى
هذى البلاد ولم أهلك ببغداد
اذا رأيت أمورا لا توافقنى
قلت الاياب الى الأوطان أدى ذا

وعاش بعد ذلك فى كهف لا يقابل احدا ولا يأكل الحيوان وسمى رهين المحبسين أى محبس الدار ومحبس الظلمة . أما هو فقد سمى نفسه رهين سجون ثلاثة حيث قال :

أرانى فى الثلاثة من سجونى
فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقد ناظرى ولزوم بيتى
وكون النفس فى الجسم الخبيث

---

(١) أحمد امين فى المرجع السابق ص ٢٠٨ .
(٢) أحمد امين ج ٢ ص ٢١٤ .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية ، ويقول طه حسين انه من قضاعة : تجديد ذكرى ابى العلاء
(٤) مقدمة مرجليوث على رسائل أبى العلاء ص ١٦ .
(٥) تجديد ذكرى أبى العلاء لطه حسين ط ٣ ص ١٥٣ وانظر ايضا مرجليوث ص ٢٧ .

ويذكر ناصر خسرو الذى زار بغداد سنة ٤٣٩ هـ. ١٠٤٧ ميلادية اى قبل وفاة ابى العلاء بأحد عشر عاما انه كان لابى العلاء فى المعرة نفوذ واسع جدا وتوفى سنة ٤٤٩ هـ. ١٠٥٧ م.

مؤلفـاته :

لم يصل الينا من مؤلفات ابى العلاء البالغة ستين مؤلفا الا القليل ونذكر منه : —

سقط الزند : وتوجد منه مخطوطات كثيرة فى المكتبات الأوربية .

واتخذها ريو C. Rieu سقط الزند موضوع رسالة له تحت عنوان :
De Abul-Alae Vita et Carminibus
(بون ١٨٤٣) وهو ديوان من الشعر .

وكتب على نسقه ديوانا صغيرا سماه الدرعيات ، اخذ يصف فيه الدروع ويقارنها بالسيوف ..

وديوان شعرى سماه اللزوميات لأنه التزم فى نظمه مالا يلزم .

وقد توفر على بحثها فون كريمر Von-Cremer وترجم بعضا من مقطوعاته ونشرها فى فينا سنة ١٨٨٩ وعلق عليها مثبتا أن أبا العلاء كان مفكرا جريئا مبتكرا وأنه رجل الاخلاق السامية الذى اظهر النقائص الاجتماعية والاخلاقية فى شجاعة كبيرة وجعل الحياة الانسانية كلهـا موضوعا لبحثه .

ورسالة الغفران ، وهى رسالة ذات اسلوب منمق يجمع بين الجد والهزل ، اهداها الى على ابن منصور القارح . صور فيها الشعراء الزنادقة فى العالم الآخر وهاجم كثيرا من مشهوريهم فيما يمكن أن نسميه نوعا من الكوميديا الالهية Divina Commedia (١) وانتهى بغفران الله لهم ، وبذلك سميت رسالة الغفران ، وقد هاجم فيها كثيرا من العقائد الاسلامية فيما يختص بالحياة الاخرى .

وقد توفر فون كريمر على دراسة هذه الرسالة وترجم بعض نصوصها فى المجلة الاسيوية سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠٢ .

وقام الاستاذ مرجليوت بترجمة رسائل (مكاتبات) ابى العلاء وعلق عليها وكتب سيرة مفصلة له ، ونشر كل ذلك فى (اكسفورد ١٨٩٨)

آراؤه :

حدث جدل كبير حول عقيدة أبى العلاء فذكر البعض بأنه زنديق معتمدا على ما ورد فى بعض اشعاره كقوله .

ولا تحسب مقال الرسل حقا
ولكن قول زور سطروه
وكان الناس فى عيش رغيد
فجاءوا بالمحال فكدروه

وقوله :

ان الشرائع ألقت بيننا احنا
وأورثتنا افانين العداوات
وهل أبيحت نساء الروم عن عرض
للعرب الا بأحكام النبوات

وقوله فى بيتين أوردهما ياقوت فى معجم الأدباء عند كلامه عن اللاذقية .

فى اللاذقية فتنة
ما بين أحمد والمسيح
قس يعالج دلبه
والشيخ من حنق يصيح

ويتبعها بيت ثالث لم يذكره ياقوت

كل يعزز دينه
ياليت شعرى ما الصحيح ؟

وقوله ايضا :

حياة ثم موت ثم بعث
حديث خرافة يا أم عمرو

ويقال أيضا انه الف كتابا عارض به

(١) مقال نيكلسون فى دائرة المعارف الاسلامية .

القرآن(١) . وقد هاجم فى رسالة الغفران ابن الراوندى لأنه قام بنفس العمل(٢) .

ولكن اشعار الرجل فى مواضع أخرى تنم عن توحيد ويقين ، قال :

والعقل زين ولـكن فوقه قـــدر
فمـا له فى ابتغـاء الـرزق تأثير

اذا كنت بالله المهيمن واثقـا
فسلم اليه الأمر فى اللفظ واللحظ

يدبرك خـلاق يدبـر مقـادرا
تخطيك احسان العمائم او تخطى

خالق لا يشـك فيـه قـديم
وزمـان على الانـام تقـادم

اثبـت لى خالقـا حكيمـا
ولست من معشــر نفـاة

بوحـدانية العـــلام دنـا
فذرنى أقطع الأيام وحـدى

انفـــرد اللـه بسـلطانه
فما لـه فى كل حـال كفـاء

مـا خفيت قــدرته عنــكم
وهل لها عن ذى رشـاد خفـاء

توحـد فان اللـه ربك واحـد
ولا ترغبن فى عشـرة الرؤسـاء

للمليـك المذكـرات عبيـد
وكـذاك المؤنثـات امـاء

فالهلال المنيف والبـدر والعـز
قد والصـبح والثرى والمسـاء

والثريا والشمس والنـار والنثر
والأرض والضحى والسـماء

هـذه كلهـا لربك ماعـا
بك فى قـول ذلـك الحكمـاء

وكان المعرى شديد الايمان بالعقل قال :

يرتجى النـاس أن يقوم امـام
ناطق فى الكتيبـة الخرسـاء

كذب الظن لا امام سـوى العقـ
ـل مشيرا فى صبحه والمسـاء

فاذا مـا اطعته جلب الرحمــ
ــة عنـد المسـير والارسـاء

وقد أجمـل الأستاذ نيكلسون(٣) Nichslson آراء أبى العلاء بقوله انه كان متشككا وكان يؤمن بالتوحيد ، وإلهه قـدر غير مشخص ، وانكر الوحى الالهى ، فالدين عنـده من صنع العقل الانسانى . وهاجم الذين يستغلون العامه بقصد اكتساب السلطة والجاه . ورأى فى الموت نهاية سـعيدة والاثم فى انجـاب الأطفال ، وفى ذبح الحيوان الذى حرمه على نفسه فى سن الثلاثين . وربما استقى ذلك كمـا يقـول نيكلسون من الفلسفـة الهنـدية ، وربمـا كان ذلك بدافع الاقتصاد(٤) . وكان يفضل الورع والتقوى على الصوم والصلاة .

---

(١) أنظر جولدتسيهر فى Mohamm Studien ج ٢ ص ٤٠٣.
(٢) انظر أيضا مقال نيكلسون فى دائرة المعارف الاسلامية
(٣) دائرة المعارف الاسلامية .
(٤) مجلة الجمعيـة الاسيوية الملكية سـنة ١٩٠٢ ص٣١٩ و ٣٢٠ .

ثانيا : فى الفلسفة

نظـرة عامـة :

ربما وجدت فى هذا الباب أسماء لفلاسـفة معينين ، فاذا انتقلت الى باب الأطباء وجـدت نفس هذه الأسماء ، فما هو تفسير ذلك ؟

ليس سبب ذلك هو أن هؤلاء الفلاسفة جمعوا بين الفلسفة والطب أو أن هؤلاء الأطباء جمعوا بين الطـب والفلسفة ، بل سـببه أن معنى الفلسفة كان فى أول أمره عاما يشمل المـادة (أو المحسوس أو الهيولى) كالطبيعيات ، وما ليس بالمـادة (ميتافيزيك) كالالهيات ، ومـا يتصـل بالمـادة ولـكن لـه كيـانا مستقلا كالرياضيات(١) .

قال أحمد أمين يصف حال الفلسفة فى عهدها الأول :

« وقد كان موضوع الفلسفة اذ ذاك أوسع من موضوع الفلسفة اليوم ، فقد كانت تشمل المنطق ، والطبيعيات ، والكيميائيات ، والالهيات والرياضيات ، والنفس والاجتماع الخ ، ولكن على توالى العصور ، بدأت علوم كثيرة تنفصل عن الفلسفة ، وتستقل عنها ، كالمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع ، وربما انفصلت علوم أخرى عنها واستقلت » .

« وأول ما بدأت الفلسفة فى الاسلام ، بدأت بالنواحى العملية منها ، كالطب والتنجيم لحاجة الملوك والشعوب اليها ، كذلك قال الغزالى ث « أردنا العلم لغير الله ، فابى الا أن يكون لله » .

وهكذا بدأت الفلسفة لسـد الحاجة من طب وتنجيم ، وانتهت بحب لبحث المجرد » .

« لقد بدأت الفلسفة شبه خرافية ، وبدأ علم الفلك بالتنجيم ، وبـدأ الطب بالوصـفات الشائعة ، ثم تحول كل ذلك الى بحث منظم ، لا يراد به الا الحق . فعلم التنجيم صار فيمـا بعد علم النجوم ، وتحويل المعادن الى ذهب ، أدى عندهم الى علم الكيمياء ، وهكذا . وكلما تقـدم الزمان ، تتبلور الفلسفة . وصـاروا يقصدون من علم الطبيعة معرفة العناصر التى تتألف منها المـادة ، والكيمياء تدرس القوانين التى تتركب بموجبها عناصر المـادة ، وتبين لنا مقدار العنـاصر الموجودة فى الكون ، وعلاقة بعضها ببعض ونحو ذلك » .

ولمـا كنا نؤرخ اليـوم فى عصر تميزت فيه فروع كثيرة عن الفلسفة التى ضاق نطـاقها وانحسر ، فانا نجد أنفسنا مضطرين الى وضع كل مفكرى الاسلام تحت الفرع الذى غلب عليه مع التعرض فى نفس الوقت للفروع الأخرى التى برز فيها .

---

(١) نقله عن الكندى ابن نباتة المصرى فى « سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون ص ١٢٥ ط ١٢٧٨ .

(٢) أحمد أمين — ظهر الاسلام ج ٢ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ط ٢ .

(١)

فيلســوف العــرب

الكنـــــدى

هو أبو ســيف يعقــوب بن اســحاق بن اسماعيل بن محمد بن الاشعث بن قيس الكندى ....فاضل دهره وواحد عصره فى معرفة العلوم القديمة بأسرها ، ويسمى فيلسوف العرب »(١) وينتمى الى ملوك كنده .

ولـد الكنـدى فى الكوفه حـوالى عـام ١٨٥/٨٠١م(٢) ، وكان والده من ولاة الأعمال بالمدينة ، وتلقى العلم فى الكوفة ثم فى بغـداد على عادة الناس فى عصره . واصاب الكنـدى شهرة كبيرة فى الترجمة والانتاج العلمى والفلسفى فى بلاط المأمون ، وخاصة فى بيت الحكمة ، وكان يترجم به ولكنه لا يكسب من الترجمة كغيره من المترجمين ، ولذلك لم يذكر بينهم .

عاصر الكندى المأمون والمعتصـم والواثق ، واعتنق فى عصرهم مذهب المعتزلة ، فلما تغلب عليهم أهل السنة فى خلافة المتوكل صودرت كتبه وكاد يقضى على حياته ، ولكنه نجا بها واسترد كتبـه ، ويرجح أنه توفى فى أواخـر سـنة ٢٥٢ هـ(٣) .

مؤلفــاته :

الف الكندى فى الفلسفة والمنطق والحساب والـكريات والموسـيقى والنجـوم والبصريـات والهندسة والفلك والطب وعلل الكون ، والجدل وعلم النفس والسياســة ، وقياس الأبعاد ، والمعرفة ، والمعادن ، والطيور ، والنحل ...

وجملة مؤلفاته ٢٦٥ بين كتاب ورسالة ،ورد معظمها فى الفهريست لابن النديم (٤) ولا يسـع هذا البحث ذكرها تفصيلا .

وحاول الكندى أن يبنى علم الصحة والطب والموسيقى على أسس رياضية . ودرس فيما درس ظاهرة المد والجزر والقوانين التى تحـدد سرعة الأجسام الساقطة فى الهواء ، ودرس ظاهرة الضوء فى كتابه عن البصريات ، وكان لها أكبر الأثر على روجر بيكون كما يقول ول ديورانت(٥) .

آراؤه فى الفلسفة :

كان الكندى يرى مايراه افلاطون فى أنه ليس فى وسع انسان يكون فيلسوفا من غير أن يكون قبل ذلك عالمـا فى الرياضة . ومن أجل ذلك حاول أن يؤسس علم الصحة والطب والموسيقى على نسب رياضية .

وفلسفة الكندى مزيج من الارسطو طاليسيه والأفلاطونية الحديثة والشريعة الاسـلامية . أخذ عن ارسطو التفرقة بين العقل الفعال أى العقل الالهى والعقل المنفعل الذى هو عقـل الانسان ، والذى لا يعدو أن يكون القدرة على التفكير .

أما النفس فهى عنـده على ثلاث مراتب : الله ، ونفس العالم الخلاقة ، والنفس البشرية التى هى فيض من النفس الثانية . وهذا الفيض هو من مبتكرات الافلاطونية .

واذا استطاع أن يدرب نفسه على العلم الحق استطاع أن ينال الحرية والخلود ، وهو فى هذا يقترب من مذهب أهل السنة ، مع انه كان من معتنقى مذهب المعتزلة .

ونظرا لأن الكندى بدأ الفلسفة فى عهـدها الأول ، فان أفكاره نضجت فيما بعد على يد من اتوا بعـده ، ولذلك فهـو لا يمثـل الفلسفة الاسلامية وخاصة فى العالم العربى .

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٥٧ .
(٢) هذا ما رجحه دى بوير فى دائرة المعارف الاسلامية.
(٣) أنظر ترجمة الكندى فى كتاب فيلسوف العرب والمعلم الثانى للشيخ مصطفى عبد الرازق .
(٤) وردت كتبه فى الفروع المختلفة للعلوم من ص ٣٥٨ـــ٣٦٥ .
(٥) مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

٢

الفـــــارابى

هو ابو نصر محمد بن محمد بن محمد(١) بن طرخان . ولد ٢٥٩ هـ ، ٨٧٢ ميـلادية بمدينة « فاراب » أو « باراب » (هى ناحية بالقرب من نهر سيحون ونهـر جيحون فى بلاد تركستان ، هكذا ذكر القفطى وابن أبى أصيبعة وابن خلكان، أما ابن حوقل وجمهور المستشرقين ، فيذكرون انه ولد بمدينة وسيج فى اقليم فاراب وسمى الفارابى نسبة الى الاقليم لا الى المدينة التابعة له . والرجل من أصل تركى ، سوى أن صاحب طبقات الأطباء يذهب الى أن أباه كان فارسيا وانه كان قائد جيش تعـلم فى فاراب ، مدينـة او اقليما ، العلوم والأدب والفلسفة واللغات ، واجاد على اليقين التركية والفارسية والعربية واليونانيـة ، ولكن بعض المؤرخين بالغوا فى اللغات التى يعرفهـا حتى وصلوا بهـا الى سبعين .

واذ خرج من بلده أخذ يتنقل فى الآفاق فدرس الفلسفة والمنطق فى حران على يوحنا بن جيلان ، ثم استقر به المقام ببغداد ، فأتم دراسة الفلسفة والمنطق على أبى بشر متى بن يونس ، وهـو الذى كان قد شهد بالترجمة ، والمنطق . ودرس العلوم العربية على ابن السراج حتى اتقن هذه اللغة الى درجة انه كان ينظم بها الأشعار .

والفـارابى ، شـأنه شـأن معظم فلاسفة المسلمين ، وكان مولعا بالأسفار ، فسافر من العراق الى الشام ، ثم رحل منها الى مصر ، ثم عاد الى الشام واتصل بسيف الدولة الحمدانى فأكرمه وعاش الفارابى فى كنفه الى أن توفى فى دمشق سنة ٣٣٥ هـ .

وكان الفارابى رجلا ورعا زاهدا فى الحيـاة الدنيا ، فلم يتزوج ، ورفض أن يقبل من سيف الدولة اكثر من اربعة دراهم فى اليـوم ينفقهـا على نفسه ، وعاش أعزب لم يتزوج ، وكان محبا للعزلة لا يرى مدة مقامه فى دمشق الا عند مجتمع مـساء أو مشـتبى رياض حيث يؤلف كتبـه ويستقبل تلاميذه .

مؤلفـــاته :

الف الفارابى كتبا كثيرة وصل الينا منها : كتاب الجمـع بين رأى الحـكمين أفلاطون الالهى وارسطوطاليس ، كتاب احصاء العلـوم ، كتاب التنبيه على سبيل السـعادة ، كتاب تحصـيل السعادة، كتاب عيون المسائل ، كتاب الفصوص أو فصوص الحكمة ، مقالة فى معانى الفعل ، ورسالة فيما ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة، كتاب فى اغراض الحكيم فى كل مقالة من الكتاب الموسوم بالحروف (يقصد الميتافيزيكا لأرسطو) كتاب « رسالة فى مسائل متفرقة » أو « جواب مسائل سئل عنها » (يقصد نفسه) وكل هذه الكتب تدور حول الفلسفة . أما كتبه فى السياسة والاجتماع فهى « السياسات المدنية » ، « آراء أهل المدينة الفاضلة » هذا فضـلا عن شروحه على ارسطو (٢) .

بيـد أن « آراء أهل المدينـة الفاضلة » هو أشهر كتاب له يمكن أن يعبر عن حقيقة فلسفته وآرائه فى علم الاجتماع . وقد قصد به معارضة من كتب قبله فى بناء المجتمع، كجمهورية أفلاطون، وبنشاى أفهمير La Ranchaie D'Evhemere ومدينة الشمس لجامبول La Cité du Soleil de Zambule. وقد قسم كتابه هذا قسمين ، لخص فى الأول آراءه فى الموجود الأول ، وهو الله تعالى وصفاته وكيفية صدور الموجودات عنه ومراتب الموجودات الروحية والمـادية وحالات كل طائفة منها واجزاء النفس الانسانية وقواهـا وعلاقة هذه القوى بعضها ببعض والارادة والاختيـار والسعادة والمنامات والوحى .. « وآراؤه(٣) فى هذا القسم تمثل مزيجا غريبا من آراء أفلاطون

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٣٦٨ .

(٢) انظر هذه الشروح فى ابن النديم ص ٣٦٨ .

(٣) انظر فصول من آراء المدينة الفاضلة للفـارابى ،نشرها الدكتور على عبد الواحد فى ص ١٤ وما بعدها . طبعة لجنة البيان العربى ١٩٦١ .

وارسطو ومن الافلاطونية الحديثة ومبادىء الدين الاسلامى واتجاهاته ، مع محاولة لا تخلو من تعسف أحيانا للتوفيق بين هذه العناصر وابرازها فى صورة نسيج واحد ملتئم الأجزاء .

أما القسم الثانى فقد وضع انموذجا من تصميم مدينته ، متأثرا بجمهورية افلاطون ، وببعض مبادىء الدين الاسلامى .

تكلم الفارابى فى مدينته عن نوع المجتمعات ، فذكر اجتماع العالم واجتماع الأمة ، وهى أمور لم ترد فى جمهورية افلاطون التى كانت تصف صورة للمجتمعات القائمة فى عصره ، وهى مجتمع المدينة .

ذكر الفارابى مجتمع المدينة كأحد مجتمعاته الثلاثة ، بل وعنى به من دون غيره . وقد اشترط فى رئيس المدينة وجوب توفر صفات فطرية ومكتسبة ليصل الرئس الى الكمال فى الجسم والعقل والعلم والخلق والدين . وقد تأثر فى شروط الرئيس « ببعض اتجاهات الافلاطونية الحديثة وببعض نزعات صوفية اسلامية ، وبما يقرره الدين الاسلامى من صفات الرسول وصلته بالله عن طريق الوحى ، وهذه الصفة هى الاتحاد الرئيسى لعقل الفعال وهو العقل المشرف على الانسانية ، الذى ينبعث عن الله تعالى مباشرة كما ينبعث الضوء عن الشمس ، فيستحيل الرئيس بذلك الى كائن روحى يمتزج بالعقول ، ويتصل الملأ بطريق كمباشر تفحصات الوحى والاشراق »(١) .

وفى كتابه « مبادىء الموجودات » الذى لم يبق لنا منه الا ترجمته العبرية ، يذكر سلسلة المبادىء على وجه يجعلها أشبه بالفيض ، اذ يفيض عن الله تعالى العقل الأول أو العلة الأولى ،وعنها تفيض عقول الأفلاك ، وعن هذه تفيض النفس الكلية ، فالصورة فالمادة . فالمادة أو العالم لا يفيض مباشرة عن الله . وبذلك يكون دى بوير قد اخطأ فى اتهامه بأنه خالف ابن سيناء حين ظن أن الفارابى قال أن المادة أو العالم يفيض عن الله مباشرة (وبالتالى يكون العالم قديما قدم الله) .

بهذا التوسط بين مبادىء الموجودات حاول الفارابى التوفيق بين آراء أرسطو وأفلاطون فى مسألة قدم العالم .

والفارابى مضطرب فى كتاباته عن خلود النفس ، فبينما يصرح فى مواضع بأن النفس الناطقة (العقل) تتحد بعد الموت بالعقل الفعال، نراه فى مدينته الفاضلة يرى أن النفوس الخيرة تصل الى المدينة السماوية وتذوق كل منها لذة تعادل عدد النفوس كلها(٢) . وهذا هو الذى جعل ابن طفيل يزعم أن الفارابى (وكان بغيضا اليه) كان متشككا فى خلود كل نفس على انفرادها (٣) .

وعلى كل حال فلسفة الفارابى تمثل الغموض الذى يعترى أول بحث فى عالم جديد . ومع ذلك فهو أول فيلسوف نظر الى الفلسفة نظرة شاملة (٤) . ولو اتيح لنا ترتيب فلسفته لبدت أكثر تفهما (٥) .

*

وللفارابى نظرية جديدة فى النبوة أراد أن يوفق فيها بين الدين والعقل ، فهو يربط بين الأحلام والنبوة . وربما تأثر بالحديث « أول ما بدأ من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان النبى اذا رأى الرؤيا جاءت مثل فلق الصبح واضحة صحيحة »

قال (٦) « فاذا ارتقى الانسان واحساساته وتخيلاته ، استطاعت مخيلته أن تشكل أحلامه بشكل العالم الروحانى ، فيرى النائم السموات وما فيها ، ويشعر بما فيها من لذة وبهجة ، وقد تصعد المخيلة الى هذا — العالم وتتصل بالعقل الفعال ، وتتقبل منه الأحكام المتعلقة بالأعمال الجزئية والحوادث الفردية .... فيكون له بما قبله من المعقولات نبوءة بالأشياء الالهية ، وهذا

---

(١) على عبد الواحد و أ فى ص ١٨ .
(٢) كارادى فو فى مقاله السابق .
(٣) كارادى فو فى مقاله الذى كتبه فى دائرة المعارف الاسلامية .
S. Munk : Dictionnaire des Sciences Philosophiques
(٤) ظهر الاسلام ج ٢ ص ١٣١ .
(٥) المرجع السابق ص ١٣٧ .
(٦) المرجع السابق ص ١٣٤ .

هو اكمل المراتب التى تنتهى اليها القوة المتخيلة والتى يبلغها الانسان بهذه القوة » .

ومع أن النظرية تربط ما بين النبوة والخيال ، الا أنها تقبلت قبولا حسنا من ابن سينا وابن رشد وبعض الشيعة فى رسائلهم واخوان الصفا ، والمتصوفة التى رأوا فيها أعلاء لشأن الأولياء ، رغم أن الغزالى أنكرها فى « تهافت الفلاسفة » قائلا أن النبى يستطيع الاتصال بالله مباشرة دون حاجة الى قوة متخيلة خاصة ، أو أى فرض آخر من الفروض التى يفترضها الفلاسفة(١) .

وللفارابى كتاب مشهور فى الموسيقى ، وقد برع فيها براعة بالغة الحد ويرى ابن خلكان أن الآلة المسماة بالقانون من وضعه وأنه أول من ركبها هذا التركيب . ومن طريف ما يرويه عنه أنه حضر فى مجلس لسيف الدولة متنكرا فركب الالة ثمضرب عليها ، فضحك الناس جميعا ، ثم فكها وركبها وضرب ، فبكى الناس جميعا ، ثم فكها وركبها وضرب عليها فنـــام كل من كان فى المجلس حتى البواب ، فتركهم نياما وانصرف(٢).

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٥ .
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٧٧ .

الرئيس ابن سـينا

هو ابو على الحسين بن عبد الله بن الحسن ابن على بن سينا . وباللاتينية افيسنا . وهى مأخوذة من اللفظ العبرى أفن سينا .

وقد ولد بمدينة افشنه سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠م(١) وقيل ولد ببخارى ودرس علوم الدين والأدب وحساب الهند والجبر والمقابلة وحفظ القرآن ولما يبلغ عشر سنين(٢) .

تتلمذ فى الفلسفة على أبى عبد الله الناتلى ، وقرأ عليه ايساغوجى(٣) لفور فوريوس الصورى، وكتاب اقليدس فى الهندسة والحساب، وكتاب المجسطى فى الفلك لبطليموس الحكيم . وتتلمذ فى الفقه على — اسماعيل الزاهد . وقد هوى الطب وقرأ كتبه وبرع فيه وعمره لم يزل ستة عشر عاما ، ثم مسافر الى خراسان عند الأمير نوح ابن نصر السامانى ليعالجه فاطلع على خزانة كتبه ولما يبلغ ثمانية عشر عاما . ثم انتقل الى خوارزم ثم الى نسا وابيورد وطوس وردهستان ثم عاد الى جرجان واتصل به الفقيه أبو عبيد الجرجانى ، ثم انتقل الى الرى ثم الى قزوين ثم الى همذان ، وتقلد الوزارة لشمس الدولة ، وقد ثار عليه العسكر وقبضوا عليه فتوارى ، فلما مرض سيف الدولة بالقولنج (انسداد فى الجهاز الهضمى) احضر ابن سينا لمداواته فداواه فأعاده الى الوزارة ثم سافر الى اصبهان بعد وفاة شمس الدولة ثم الى همذان حيث مرض وتوفى ٤٢٨ فى هذا المكان على الراجح .

ويقال انه مات فى السجن مغضوبا عليه .

وعاش ابن سينا يبغض أمراء غزنة ، واشترك فى مؤامرات سياسية ضدهم(٤) ، وربما كان سبب بغضه لهم اضطهادهم للفلاسفة والشعراء والمعتزلة (٥) .

ويذهب بعض المستشرقين الى انه توفى فى الأندلس بدسيسة من ابن رشد (٦) .

وهذه رواية ضعيفة ، ولا يزال قبره يزار الى اليوم فى همذان .

كتبـــه :

الف فى الفلسفة كتاب الشفاء ، واختصره فى كتاب النجاة ، والاشارات والتنبيهات ، وله رسائل بديعة منها حى بن يقظان ورسالة سلامان وابسال (هى غير رسالة حى بن يقظان لابن طفيل والسهروردى) .

وأهم كتبه اثنان : كتاب الشفاء (شفاء النفس) وهو موسوعة فى ثمانية عشر مجلدا فى العلوم الرياضية والطبيعية وما وراء الطبيعة وعلوم الدين والاقتصاد والسياسة والموسيقى .

كتب ابن سينا فى الموسيقى ، ووضعها كقسم أصلى من أقسام الرياضة الأربعة التى تكلم عنها فى الشفاء . ثم لخص هذا القسم فى كتاب النجاة .

له كتاب يسمى دانس نامه كتبه مستقلا باللغة الفارسية .

---

(١) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٢ طبعة مولر .
(٢) ابن خلكان ج ٥ ص ٧ طبعة الحلبى .
(٣) يشمل الكليات الخمس : الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام وهى من المنطق — ابن خلكان ج ٥ ص ٧ ط الحلبى .
(٤) البيهقى ص ٣٧ السهروردى ص ٢٢٩ .
(٥) ابن الاثير ج ٦ (أخبار سنة ٤٢٧) . Vossins : Die Philos. Sectis ف ١٤ ص ١١٣ وانظر مقال محمد ثابت الفندى فى دائرة المعارف .
(٦) ابن خلكان ج ٥ ص ١٧ .

وهذه البحوث وصلت الينا فعلا ، غير أن ابن أصيبعة يذكر له كتابا آخر فى الموسيقى اسمه « المدخل الى صناعة الموسيقى » وابن سينا نفسه يذكر فى الشفاء أن له كتابا موسيقيا اسمه البرهان ، وآخر اسمه اللواحق ، غير أن هذه الكتب الثلاثة لم تصل الينا(١) .

وكتب ابن سينا فى الطب ، واهم كتبه « القانون »(٢) .

آراؤه :

يعتبر ابن سينا فى آرائه تلميذا للفارابى ، فهو يتبعه فى المنطق وفى نظرية المعرفة . وكذلك فى الكليات ، وهى خليط من الالهيات والمنطق . فالكلى فى نظره(٣) يوجد مستقلا ، وقبل وجود الأشياء المتكثرة ، كصورة معقولة بالذات فى عقل الله وعقول الملائكة (الأفلاك) وتفيض هذه الكليات عقل الله وتتصل بتوسط العقول المفارقة بالأشياء فى الصورة التى تتمثل فيها ، وبالعقل البشرى كمعان مجردة .

وبذلك يكون ابن سينا قد جعل هذا التصور صادرا عن العقل الفعال اكثر منه نتيجة لقوة التجريد الخاصة بالعقل الانسانى ، وهو فى هذا الموضع أميل الى مذهب الافلاطونية الحديثة منه الى المذهب المشائى .

ولكنا نراه يبسط نظرية التجريد عند كلامه عن النفس ، فالنفس عنده(٤) جوهر فرد ، والقوة العاملة فى النفس هى مبدأ محرك لبدن الانسان وتتفرع منه قوتان : الأولى تتجه نحو الجسم وتدبره ، وهى العقل العملى ، وعلى هذا العقل تبنى الأخلاق . أما القوة الثانية فهى تتخطى الجسم وتتجه عن المبادىء العالية ، نحو المعرفة النظرية البحتة . ومن شأن هذه القوة أن تنطبع بالصور المجردة عن المادة ، فان لم تكن مجردة جردتها حتى لا يبقى لها من علائق المادة شيء (٥) .

والنفس عند ابن سينا فوق أنها جوهر لا عرض ، هى خالدة وروحية ، وقد رمز لها فى كتابه الشفا والاشارات « بالرجل المعلق » الذى لا صلة له بالعالم الخارجى ولكن فكره يكشف له أنه موجود وأنه يفكر (٦) .

ووجود النفس يدل عليه التأمل الداخلى المباشر ، فنحن لا ندرك أكثر من أنها كذلك . وهى مبدأ الحركة الذاتية والنماء فى الجسم وبهذا المعنى تكون للكواكب نفوس ، ولكل نفس ولكل عقل قدرمن الحرية والقدرةعلى الخلق والابداع شبيهة بقدرة السبب الأول لأنها فيض منه . وتعود النفس الخالصة بعد الموت الى العقل الكلى ، وبهذا الاتصال تكون سعادة السعداء الصالحين(٧)

أما فى الطبيعيات فنراه كذلك ينحرف عن المذهب المشائى الى الافلاطونية الحديثة فهو يقول معهم أن الأحداث الأرضية تتأثر بالاجرام السماوية لا عن طريق الحرارة المنبعثة منها بل عن طريق ما تشعه من الضوء (٨) .

ويميل فى شرحه لالهيات أرسطو الى محاولة التوفيق بين الشريعة الاسلامية وارسطو وافلاطون ، الى جانب آراء من الافلاطونية الحديثة (٩) .

فالله عنده هو واجب الوجود ، ويقابل العلة الأولى عند أرسطو وماهيته هى عين وجوده ، أما ماهية المخلوقات فهى ممكنة وليست واجبة . وهو يتضمن وحدة الذات وكل ما عداه راجع اليه ، فهو أقل كمالا منه .

---

(١) نظر آراءه* فى الموسيقى فى مقال زكريا يوسف فى الكتاب الذهبى للمهرجان الالفى لذكر ابن سينا — بغداد ١٩٥٢ .
(٢) انظر ابن سينا الطبيب
(٣) دائرة المعارف الاسلامية وول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ص ٢٠٨ .
(٤) النجاة ص ١٦٣ .
(٥) انظر مقال النفس والانسان ، عند ابن سينا ، للدكتور البير نصرى نادر — الكتاب الذهبى ص ٢٣٢ .
(٦) محاولات فلسفية للدكتور عثمان أمين ص ١٧٠ .
(٧) انظر ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٢١٠ .
(٨) أحمد أمين ظهر الاسلام ج ٢ ص ١٤٢ .
(٩) مقال الدكتور محمد البهى فى مشكلة الالوهية بين ابن سينا والمتكلمين — الكتاب الذهبى للعيد الالفى لابن سينا ص ٣١٨ .

والله خير مطلق ، وهو يقابل فى ذلك الوصف المثل الأعلى لأفلاطون والخير يفيض على العالم من المبدع الأول ، وكيف يفيض عنه الشر وهو خير مطلق ، وهل تتولد الظلمة من النور ؟ الم يكن فى وسع المبدع الأول انه يوجد خيرا مطلقا مبرأ من الشر ؟(١) لقد ذهب ابن‌سينا الى أن الشر هو الثمن الذى نؤديه نظير ما لنا من حرية الارادة ، وقد يكون الشر للجزء هو الخير للكل (٢) .

والله ، واجب الوجود ، فـاض عنـه غيره ويقابل فى ذلك وصف الطبيعة العليـا فى رأى الافلاطونية الحديثة .

وهو فوق ذلك خالق قادر عالم مريد ، ويقابل فى هذا تعاليم الدين الاسلامى (٣) .

ولكن كيف يوفق بين الفيض وبين وصف الله بأنه خالق ؟ هذه هى الثغرة التى آخذه بها دارسو فلسفته ، حتى قيل عنه انه يبدأ بالمنطق وعندما يفشل ينتهى بالتصوف (٤) .

وكيف يوفق بين صفة عدم التغير الملازمة لله وبين الانتقال من عدم الخلق الى الخلق ؟

لقد نزع كأرسطو الى القول بقدم العـالم ، ولكنه يدرك خطورة ذلك على نفسه من المتكلمين فيعد حلا وسطا وهو أن وجود الله سابق على وجود العالم سبقا ذاتيا لا زمانيا ، أى فى المرتبة والجوهر والعلة ، فوجود العالم يعتمد فى كل لحظة من اللحظات على وجود القوة الحافظة له، وهى الله والله كالعقل واحد لا تركيب فيه ولما كان فى المخلوقات عقل ، فلابد أن لله عقل ايضا ، وهو اسعقل الأول يرى كل شىء،الماضى والحاضر والمستقبل ، لا فى وقت ، ولا بالتتابع ، بل يراه كله مرة واحدة وحدوث هذه الأشياء هو النتيجة الزمنية لفكرة اللازمنى (٥) .

وحاول أن يوفق بين وحدة واجب الوجود ، وبين اضافة الصفات اليه، فرأى أن اضـافة صفات أخرى لا تخرج واجب الوجود الى التعدد، وفى نفس الوقت يضيف الفيض الى أوصاف العلة الأولى وهو مناقض لقوله .

وفى النهاية يختلف اله أرسطو عن اله ابن‌سينا فاله أرسطو لايعقل الا ذاته (٦) ، أما اله ابن‌سينا فيعقل ذاته ويعقل المـاهيات الكلية ، كما يدرك الجزئيات ولكن من حيث هى كلية (٧) وهذا هو الذى أوجد الشك عن حقيقة علم الله بالأشياء عند ابن سينا .

وينهج ابن سينا فى نظرية النبوة نهج الفارابى، فهو يفسرها على ضـوء القوانين الطبيعيـة ، فالأنبياء تتكشف لهم المعقولات الكلية ، ولديهم الاستعداد لقبول الالهام الربانى لاعتدال مزاج البدن فيهم ، وهم يقبلون هذا الالهام من الفيض الالهى عن الواحد الأول بسبب مالهم من الاشراق الكلى . وكلما كان الوحى أكمل كان الملك الذى يجىء بالوحى أعلى درجة (٨) .

---

(١) أحمد أمين فى المرجع السابق ص ١٣٩ .
(٢) Dozy p. 455.
(٣) البهى فى المرجع السابق الاشارة اليه .
(٤) البهى فى المقال السابق .
(٥) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٠٩ و ٢١٠ .
(٦) مقال محمد ثابت الفندى فى دائرة المعارف الاسلامية.
(٧) أحمد أمين فى المرجع السابق ص ١٤٢ .
(٨) نظرية النبوة والحقائق الدينية عند ابن سينا للويس‌جارديه ــ الكتاب الذهبى ص ٣٥٢ .

ابن رشد

هو أبو الوليد محمد بن رشد الملقب بالحفيد تمييزا له عن جده الفقيه وكان يسمى أبا الوليد محمد بن رشد أيضا .

ولد ابن رشد سنة ٥٢٦/١١٢٦ فى قرطبة من اسرة عرفت بالعلم والفضل ، ولا ادل على ذلك من ان جده كان فقيها مشهورا وقاضيا لقرطبة كما كان أبوه كذلك قاضيا . ولابد أن يكون قد درس العلوم الشرعية لأنه صار يوما ما قاضيا لاشبيلية ثم لقرطبة ، وهو منصب لابد لصاحبه ان يكون ملما تمام الالمام بعلوم الشرع ، كما يدل عليه ايضا كتابه فى الفقه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ولا بد أن يكون قد درس الطب ايضا اذ ان له كتابا سماه « الكليات » وعرف فى أوروبا باسم Colliget وهو اسم محرف عن « الكليات »

ولقد قدمه أبو بكر بن طفيل ، وكان صديقا له الى أبى يعقوب يوسف الموحدى بمراكش وهو فى عهد شبابه الاول فعرف علمه ثم عهد اليه بعد ذلك فى شرح مؤلفات ارسطو لغموض ترجمتها ، فعكف على دراستها أثناء توليه قضاء أشبيلية وقد تولاه عام ٥٦٥ هـ . وأثناء توليه قضاء قرطبة أيضا .

رحل الى مراكش ومكث بها نحوا من سنتين ، وقد علت مكانته فى عهد الخليفة الموحدى أبى يوسف يعقوب المنصور ، ثم وقعت الفرقة بين الخليفة والفيلسوف . ولا يعرف لذلك سبب معقول . والظاهر أن الخليفة بعد أن انتصر فى موقعة الارك على النصارى أصابته نكسة أحدثت عنده كراهية للعلوم الاجنبية فأصدر امرا بتحريم الفلسفة وعلومها واضطهد الفلاسفة ومنهم ابن رشد ، أو لعل ابن رشدا كان يعتد بنفسه اعتدادا ربما تضاءلت الى جانبه شخصية الخليفة الموحدى ، فلما استظهر الخليفة على النصارى جاشت فى نفسه رغبة الحط من قدر هذا الفيلسوف فنقم على جميع الفلاسفة ، أو لعلها وشاية اتخذت من مذهب ابن رشد فى تأويل القرآن وتفسيره تفسيرا لا يتفق وحرفية النصوص، فقدم هذا المذهب فى التفسير لخصوم ابن رشد مادة يعتمدون عليها للكيد لمن علا قدره عند الخليفة دونهم .

وعند ما شك المنصور فى مؤلفات الفليسوف دعا جماعة من العلماء لفحص آرائه التى ضمنها كتبه من الناحية الشرعية فانتهوا الى اتهامه بالمروق عن الدين ، والزندقة فجرده من منصب القضاء القرطبى ، ونفى فى اليسانه قريبا من قرطبة بعد ان احرقت كتبه عدا كتب الحساب والطب والمواقيت . وقد سعى جماعة من سروات اشبيلية ، عند المنصور حتى رضى عنه واستقدمه الى مراكش حيث توفى سنة ٥٩٥/١١٩٨ ودفن فى مقبرة باب تاغزوت حيث نقل الى مقابر اهله فى قرطبة .

مؤلفات ابن رشد :

لابن رشد مؤلفات كثيرة نذكر منها : —

فى الطب : « الكليات » وعرف فى أوروبا فى العصور الوسطى ، وهو كتاب عام فى الطب من سبعة مجلدات .. وقد نشر مصورا فى تطوان سنة ١٩٣٨ والف مقالات فى الترياق ، وفى الاسهال ، وفى المزاج ، وجملة من الادوية المفردة وغيرها . كما شرح ارجوزة ابن سينا فى الطب ومؤلفات جالينوس فى الحميات ، والقوى الطبيعية ، والعلل والامراض .

فى الفقه : « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » وهو منشور فى القاهرة .

فى الفلك : مختصر كتاب المجسطى لبطليموس القلوذى . وينسب له كتاب « رسالة عن حركة الفلك » و « استدارة فلك السماء والنجوم الثابتة » .

فى العقائد : كتب ابن رشد ما يلى : —

« فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » و « الكشف عن مناهج الادلة فى عقائد الله وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والبدع المضلة » وقد نشر ماركوس يوسف مولر هذين الكتابين فى ميونخ

سنة ١٨٥٩ وترجمها الى الالمانية ١٨٧٥ وترجم جوتييه الثاني الى الفرنسية ١٩٠٥ . ونشر الاول بالعربية فى الجزائر سنة ١٩٤٢ ، ولخص آسين بلاثيوس الكتابين فى مؤلف عنوانه « التنوير بفضل كوديرا » سنة ١٩٠٤ .

الفلسفة : كتاب تهافت التهافت

ردا على كتاب الغزالى « تهافت الفلاسفة » الذى الفه الغزالى طعنا فى فلسفة ابن سينا . وله كتاب المقدمات فى الفلسفة من اثنتى عشرة مقالة،واتصال العقل الفعال بالانسان وترجم الى الاسبانية سنة ١٩٢٣ ، ومقالتان اخريان فى اتصال العقل الفعال ، ورسالة فى المنطق

أما فى الشروح الفلسفية فله :ـ

شروح مؤلفات ارسطو

وهى تشمل :ـ

التحليلات الثانية (البرهان)

السماع الطبيعى

السماء والعالم

النفس

ما وراء الطبيعة

الاورغانون (ومعه ايساغوجى لفورفويوس الصورى)

الكون والفساد

الاثار العلوية

الاخلاق الى نيقوماخوس

الطبيعيات الصغرى (عن الحس والمحسوس)

الحيوان (الكتب التسعة الاخيرة منه)

وقد وضعت هذه الشروح على درجات ثلاث : شروح مختصرة وضعها لتكون فى يد طلاب العلم فى السنة الاولى . وشروح متوسطة لطلاب السنة الثانية وشروح مطولة وضعت لطلاب السنة الثالثة .

ويقال أن له كتبا وشروحا أخرى هى شرح جمهورية أفلاطون ونقد منطق الفارابى وطريقته فى فهم ارسطو .

ولم يبق من مؤلفات ابن رشد باللغة العربية سوى كتاب تهافت التهافت ، وشروحه الوسطى على كتابى الشعر والخطابه لارسطو ، ومعهما رسالة فى المنطق وتعليق على بعض قطع من شرح الاسكندر الافروديسى على كتاب ما بعد الطبيعة لارسطو ، والشرح الاكبر على ما بعد الطبيعة ، وكتاب جوا مع كتب ارسطاليس (وهو مجموعة شروحه الصغرى على كتب أرسطو : الطبيعيات، السماء والعالم ، والكون والفساد ، الاثار العلوية ، والنفس) وكذلك كتاباه فى العقائد : فصل المقال : ومناهج الادلة فى علم الاصول . وكتبه الطبى « الكليات » .

وما بقى من شروحه باللاتينية باللغة العبرية شروحه الثلاثة (الطويل والمتوسط والمختصر) على الانالوطيقا والطبيعيات والسماء والعالم والنفس وما بعد الطبيعة . أما شروحه الكبرى على كتب أرسطو الاخرى وكل شروحه على الحيوان قد فقدت .

ماهية الفلسفة الرشدية :

حاول هذا الفيلسوف أن يوفق بين الحكمة والشرع . لقد اعتمد حقا على النصوص ولكنه حاول أن يؤول بعض ما جاء بها تأويلا رمزيا فأدخل مذهب التأويل الرمزى Le Symbolisme فى القرآن رغبة منه فى تقييد المذهب العقلى المطلق بأحكام الشريعة النقلية . قال : ان الشريعة قسمان ، ظاهر ومؤول وان الظاهر منها فرض الجمهور ؛ وان المؤول فرض العلماء « .... » ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران ، وان أخطأ فله اجر.

ويقول ايضا ، ولذلك نرى أن من كان من الناس فى حقه الايمان بالظاهر ، فالتأويل فى حقه كفر ، لانه يؤدى الى الكفر ، فمن انشأه له من أهل التأويل فقد دعاه الى الكفر ، والداعى الى الكفر كافر ، ولهذا يجب الا تثبت التأويلات الا فى كتب البراهين ، لانها اذا كانت فى كتب البراهين لم يصل اليها الا من هو من أهل البرهان ولهذا فهو يعيب على الغزالى تصريحه ببعض التأويلات فى كتب العامة .

يقول الاستاذ أرنست رينان فى كتابه
Averraes et Averroisme

ان فلسفة ابن رشد فلسفة غير مبتكرة . فهى عين المدرسة اليونانية التى انتهجها الفلاسفة المشرقيون كالكندى والفارابى وابن سينا والفيلسوف الأندلسى ابن باجة وان خالفهم الى حد ما ، وانما ترجع شهرته الى التحليل العميق والشرح .

تقوم فلسفة ابن رشد على التوفيق بين الحكمة والدين ، وقد ابدع فى بيان هذا المذهب فى « فصل المقال » ومناهج الادلة « فالعامة لا يلائمهم الا المعنى الحرفى للنصوص » واما الخاصة فمن حقهم ان يتأولوا النصوص ، وهنا يأتى دور الفلاسفة الذين يقع عليهم واجب الغوص الى المعانى العميقة المجردة التى تنطوى عليها تلك النصوص . فالفلاسفة يجب عليهم اذن أن يؤكدوا معانى الشريعة ولكن فى ثوب اكمل واقل مادية . والناس فى ذلك على مراتب ثلاث من حيث المواهب ، وطبقة العامة وهى أوسع الطبقات ، هم هذه الطائفة من الناس الذين يوعظون بكلام الله فيتعظون ، وبرهانهم فى ذلك برهان خطابى بحت (١) . أما المرتبة الثانية وهى الطبقة المتوسطة فيقوم اقناعهم على البرهان المبنى على مقدمات سبق ان اعتقدوا فيها فهى ليست موضع نقد عندهم ، أما الطبقة الثالثة ، وهى اقلهم عددا فانهم لا يعتقدون الا بالبراهين المستندة على مقدمات يقينية وثيقة .

أما آراؤه الموضوعية التى جهر بها وبسببها اتهم بالزندقة ، فاننا اذا تعمقناها لا نجد فيها مروقا ولا زندقة . وأهم ما اتهم به القول بقدم العالم وعلم الله وعنايته وكلية النفس والعقل والبعث .

أما عن قدم العالم فان حقيقة آراء ابن رشد لم تذهب الى انكار أن العالم مخلوق ولكن للخلق معنى آخر عند ابن رشد ، فخلق العالم لم يكن دفعة واحدة أى انه جاء من العدم ، بل هو فى حقيقة نوع من التجديد، اذ يتجدد العالم آنا فآنا، فهناك قوة متجددة تعمل باستمرار فى هذا العالم وتحفظ عليه بقاءه وحركته ، والاجرام السماوية خاصة لا توجد الا بالحركة التى تأتيها من القوة المحركة ، فالعالم قديم ولكنه معلول لعلة خالقة ومحركة ، والله وحده قديم لا علة له .

واما عن علم الله ، فالفلاسفة يقولون ان الله لا يعقل الا ذاته والا كان متعددا ، ومن اجل ذلك تصبح العناية الالهية أمرا مستحيلا ، وكيف تكون العناية بالغير وهو لا يعلم عنه شيئا ؟

أما ابن رشد فيرى أن الله يعلم ، ولكن علمه ليس كعلم الانسان والا كان لله شركاء فى أرضه ، ولله علم خاص لا ندركه ولا يستمد علمه من الموجودات كالانسان ، واذن فآراء ابن رشد لا تنتهى الى انكار العناية الالهية لانه لم ينكر علم الله على صورة ما .

واتهم ابن رشد كذلك بأنه يذهب الى أن النفوس الفردية تندمج فى النفس الكلية بعد الموت ، واذن فهو ينكر خلود كل نفس انسانية على انفرادها .

والواقع أن ابن رشد لم يذهب هذا المذهب بالنسبة للنفس وانما ذهب اليه بالنسبة للعقل(٢) . فالعقل مجرد غاية التجريد مخلص من المادة ، هو بالقوة وليس بالفعل ، ولا يكون بالفعل الا اذا اتصل بالعقل الكلى أو العقل الفعال ، فعقل الانسان قوة تسمى العقل المنفعل أو العقل المستفاد ولأجل أن تنقلب من قوة الى فعل لابد أن تتصل بالعقل الفعال الذى هو محل المعقولات الأزلية الأبدية ، وباتصالها بالعقل الفعال تصير بدورها أبدية .

وليس الامر كذلك بالنسبة للنفس ، فابن رشد يرى كالفلاسفة انها القوة المحركة التى تحيى الاجسام الطبيعية الالية (العضوية) فهو نوع من القوة يحيى المادة وليس مخلصا من غواشيها، بل هو شديد الاختلاط بها . فالنفس قد تكون مكونة مما يشبه المادة أو مادة لطيفة بالغة اللطف، والنفوس الانسانية صور للاجسام وهى بذلك لا تتقوم بها ، بل تبقى بعدها وتستطيع أن تحيا منفردة بعد فناء الاجسام ، وهذا البقاء مجرد امكان والفلسفة لا تدلى بدليل قاطع يدلنا عليه ، وانما يدلى به الوحى (٣) .

---

(١) هو البرهان الذى يعتمد على التأثير فى المشاعر عن طريق الخطابة والبلاغة .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية (العربية) مادة «ابن رشد — وقد سبق أن أشرنا اليها .
(٣) تهافت التهافت ص ٣٧ .

اما بالنسبة للبعث فلم ينكره ابن رشد بل قال ان الأجسام عينها لا تبعث كما هى بل تبعثشىء يشبهها ، والحياة الاخرى تكون أكثر كمالا ولكنه لا يقر الاساطير والتصــورات التى تصاغ عن الحياة الأخرى .

وفى الحق ، ان مذهب ابن رشد فى بعث الاجسام لا يخرج عن المعقول بل عن المنقول فقد روى أن عجوزا سألت النبى صلى الله عليه وسلم هل يدخل الجنة عجوز ؟ فقال لها لا يدخل الجنة عجوز ، فبكت لانها لن تدخل الجنة ، فأفهمها النبى عليه الصلاة والسلام أنها تدخل الجنة ولكن فى صورة الشباب ، واذن فالاجسام لا يمكن ان تبعث كما هى والا كان نصف سكان الآخرة مرضى والنصف الآخر مشوهين .

ومع ذلك فقد اتهم ابن رشد بالزندقة وحرم أساقفة باريس واكسفورد وكانتربرى فى القرن الثالث عشرتداول مؤلفات ابن رشد لنفس الأسباب التى هوجم بها من الفقهاء المسلمين . وكان من أشد خصومه القديس توما الاكوينى ، فهو بينما يعتبره المعلم الاول فى المنطق كان يتهمه بالهرطقة فى آرائه فيما بعد الطبيعة والنفس (١) .

---

(١) De Lacy O'leary : Arabic thought and its place in History, p. 287.

عدو الفلسفة

ابو حامد الغزالى

ترددنا ونحن نترجم للغزالى بين أى صنف من العلماء نضعه ، ذلك بأن الرجل قد جمع من المعارف مالا يستطيع انسان أن يميزه بنوع منها فقد تشعبت نواحى ثقافتة وانتاجه العلمى ، حتى انه اذا خطر بالبال لم يخطر رجل واحد ، بل رجال متعددون ، لكل واحد قدرته وقيمته . فهو أصولى حاذق ماهر ، وفقيه حر ، وهو بين المتكلمين أمام أهل السنة وحامى حماها ، واجتماعى خبير باحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب ، وفوق ذلك فيلسوف عرف كيف يناهض الفلاسفة ، ومربى وصوفى زاهد ، قل هو دائرة معارف عصره ، متعطش الى كل شىء (١) .

ولكن نظرا لان الاوروبيين عرفوه فيلسوفا أو بمعنى ادق محاربا للفلسفة فقد آثرنا ان نضعه فى قسم الفلسفة تحت العنوان الذى اخترناه .

ولد أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالى سنة ١٠٥٩/٤٥٠ فى مدينة طوس بخراسان ، وهو من أصل فارسى ، وكان أبوه رجلا صالحا يبيع الصوف فى دكان له بسوق الصوافين بطوس ومن ثم لقب بالغزالى (بتشديد الزاى) لانه كان يغزل الصوف الذى يبيعه ثم خففت فصارت الغزالى بدون تشديد . وربما سمى بالغزالى (بدون تشديد) نسبة الى غزالة ، وربما كانت غزالة قرية من قرى طوس (٢) .

قرأ الفقه فى طوس على الامام أحمد بن محمد الراذكانى ثم نزح الى جورجان ليسمع عن الامام أبى ناصر الاسماعيلى ، وكان يدون ما يتلقاه من الامام فى مذكراته وكتبه ، وكانت تسمى التعليقة . ثم رجع الى طوس وبقى فيها ثلاث سنين يعاود قراءة مذكراته . ثم خرج من طوس الى نيسابور وهو فى سن الثامنة والعشرين ، فاتصل بامام الحرمين أبى المعالى الجوينى المشرف على المدرسة النظامية « التى أنشأها نظام الملك » . ويلوح انه كان مساعدا فى المدرسة للامام . ولبث فى نيسابور حتى مات امام الحرمين ، فولاه نظام الملك التدريس بمدرسته ببغداد سنة ٤٨٤ هـ . ثم مرض مرضا شديدا وهو فى بغداد فاعتقل منطقه وجافى الطعام ، فغادر بغداد فجأة قاصدا الحج ثم اعتزل الناس وكانت شهرته قد بلغت أوجها . وعندما غادر البيت الحرام دخل دمشق سنة ٤٨٩ وهو لا يزال يعيش عيش التقشف والزهد ويعتكف فى زاوية فى منارة الجامع الأموى حيث أخذ فى تصنيف كتابه « أحياء علوم الدين » فى الوقت الذى كان فيه يطوف المشاهد ويزور الترب والمساجد ويروض نفسه على المجاهدات ويكلفها مشاق العبادات ، ثم عاد الى وطنه خراسان وعاش هنالك فى عزلة تامة الى أن عهد اليه فخر الملك بمعاودة التدريس فى المدرسة النظامية فى نيسابور سنة ٤٩٩ هـ على الراجح .

وقيل انه سافر الى الاسكندرية فى أيام عزلته وقيل انه عاد ايضا الى بغداد .

ومن نيسابور عاد الى طوس بلده ، واتخذ له مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفة (ملجأ أوتكية) .

وتوفى أبو حامد بطوس سنة ١١١١/٥٠٥ .

كتبه :

لا نستطيع حصر هذه الكتب ، ولكنا نقدم لك بعضا من مشهورها وهى :

أحياء علوم الدين — المنقذ من الضلال والمصلح من الاحوال ، فى ترويض النفس — مقاصد الفلاسفة وفيه عرض آراء الفلاسفة — تهافت الفلاسفة ، وفيه رد على آراء الفلاسفة — المستصفى ، وضعه فى أصول الفقه — المنخول ، فى أصول الفقه — كيمياء السعادة ، كتبه بالفارسية وقيل انه ترجم فيه « الاحياء » ايها

---

(١) من مقدمة الامام محمد مصطفى المراغى على كتاب الغزالى للدكتور احمد فريد رفاعى ج ١ ص ٩ و ١٠ .
(٢) انظر مقال مكدونالد فى دائرة المعارف الاسلامية .

الولد ، رسالة فى الزهد كتبهالأحد تلاميذه ـ شفاء الغليل فى بيان مسألة التعليل ، وهو فى المنطق ـ القسطاس المستقيم ، وجعله لادراك حقيقة المعرفة ـ المكنون ، وهو فى أصول الفقه ـ مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب ـ الجام العوام عن علم الكلام ـ اسرار الانوار الالهية فى الايات المتلوة القرآنية .

هـذه بعض كتبه وهى اكثر من ذلك بكثير جدا (١)

آراؤه :

ليس يعنينا من آراء الغزالى سوى آرائه فى الفلسفة ، ذلك أن أثره فى أوروبا جاء من ناحية طعنه على الفلسفة ، وقد اتخذ الاوروبيون وخاصة القديس توما الاكوينى آراءه التى نشرها فى كتابه تهافت الفلاسفة لمحاربة الفلسفة الاسلامية فى أوروبا ، ولهذا السبب ترجمتآراءهالى اللاتينية .

كتب الغزالى أعظم كتبه « تهافت الفلاسفة » لمحاربة الفلاسفة ، واستعان فيه على العقل بجميع فنون العقل واستخدام الصوفى المسلم الجدل الفلسفى الذى لايقل دقة عن جدل ـ كانت ـ ليثبت أن العقل يؤدى بالانسان الى التشكك فى كل شيء ، والى الافلاس الذهنى ، والانحطاط الخلقى ، والتدهور الاجتماعى ، وانزل الغزالى العقل قبل أن ينزله هيوم Hume بسبعة قرون الى مبدأ العلية ، وانزل مبدأ العلية نفسه الى مبدأ التتابع ، اذ قال فى (التهافت) ان كل ما ندركه هو أن ب تتبع أ على الدوام ولا ندرك أن أ هى علة ب . ومن اقواله أن الفلسفة والمنطق والعلوم لا تستطيع قط ان تثبت وجود الله او خلود الروح ، بل أن الالهام المباشر هو وحده الذى يؤكد لنا هاتين العقيدتين اللتين لا قيام بغيرهما لأى نظام اخلاقى ، وهو النظام الذى لا قيام لأية حضارة الا به(٢) .

---

(١) ذكر طائفة كبيرة منها احمد فريد رفاعى فى كتبه« الغزالى » ج ٢ ص ٢٢ .
(٢) انظر ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٣٦٤

ثالثا : أهل الحقيقة الصوفية

قد يصل الانســـان الى الحقيقة عن احدى ثلاث طرق : الاولى طريق الاعتماد على العقل ، وهذه طريقة الفلاسفة . والثانية عن طريق النقل، أو الوحى ، وهذه طريقة رجال الدين الذين يعتقدون فيما انزله الوحى على الرسل . والثالثة عن طـــريق الكشف الروحى والمجاهدات وهى طريقة الصوفيين ، ويسمون انفسهم فى التاريخ الاسلامى « أهل الحقيقة » .

والصوفيون ينقسمون فريقين : فريق روض نفسه على الكشف بطريقة عملية ، أى بطريقة الرياضة ، وهؤلاء فى الغالب لم ينالوا قســطا وافرا من العلم وانقطعوا انقطاعا يكاد يكون تاما عن أمور الدنيا .

ربما اندس بين هؤلاء جماعة من الدجالين باسم الصوفية فلوثوها أو جماعة من المعتوهين سموا انفسهم (البهاليل) ، وهذا هو الذى جعل رجال الدين ينظرون الى المتصوفة نظرة الشك احيانا ، ويحكمون عليهم بالزندقة احيانا أخرى .

وفريق آخر من المتصوفين أوتوا كثيرا من العلم والنظر ، وهم فوق رياضاتهم الروحية لم ينقطعوا عن الدنيا ، بل أنهم رسموا طريق التصوف فى مؤلفاتهم على منهاج علمى ودافعوا عن الطـــريقة ، ومن هـــؤلاء الغـــزالى والامام أبو اسحاق الشاطبى .

ويعمل الصوفيون على المجاهدات وأخذ النفس بالشدة وبالمحاسبة الشاقة ويدعون الكشف عن عوالم الغيب والتصرفات فى العوالم والاكوان وممارسة أنواع الكرامات (١)

والصوفية يقولون بوحدة الوجود والحلول فى الله والفناء فيه ، وبالقطب ، ولهم مصطلحات خاصة بهم كالشطح والبرزخ والجذب والعشق ، ويسمون انفسهم الواصلين والسالكين والعاشقين

وقد عرفت الصـــوفية فى المذهب الهندوسى والبـــوذى ، وفى اليـــونان فى آراء افـــلاطون والفيثاغوريين وفى اليهودية عند فيلمون . وعرفت فى الرهبنة النصرانية ، وفى الكهـــانة المصرية القديمة ثم فى الافلاطونية الحديثة ، كما انه يمكن رد أصولها فى الاسلام الى آيات من القرآن والسنة والى مظاهر التقشف والزهد والعبادة الزائدة والانقطاع عن الدنيا مما كان يمارســـه بعض المسلمين منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الامر الذى يجعل نشأتهـــا عند المسلمين موضع جدل كبير ، فمن قائل أنها نشأت أصلية وآخر يرى انها أخذت عن أوساط أجنبية عن الاسلام ، ويتساءل الاستاذ احمد أمين عما اذا كان وجود فكرة فى احدى الامم ثم وجودها بعد ذلك فى المتصـــوفة ، يعد دليلا على أخذ الاخرين من الاولين ؟ ويرد على ذلك بأن اتخاذ الافكار فى بعض الشعوب لا يعنى أنها قطعا أخذ بعضها عن بعض ، ويستشهد برابعة العدوية الصوفية وهى فتاة عربية من البصرة كانت تتكلم فى الحب الالهى ولم يثبت لنا أنها ثقفت ثقافة أجنبية (٢) .

وقد دأب المســـتشرقون على رد كل فكـــرة صـــوفية عند المسلمين الى افلاطون أو الى الافلاطونية الحديثة ، ونحن ان كنا نقلنا أقوالهم فى هذا كما أوردوها فى مراجعـــهم ، الا أنه يجب أن يكـــون مفهوما أن رأينا فى أقوال هـــؤلاء المستشرقين محل نظر من الان ، وان لم تكن لنا حيلة فى اثباتها أو ردها .

والصـــوفيون لا يحيـــط بهم الحصر ، ومن مشهوريهم الحسن بن منصور الحلاج من واسط ، وقد قتل سنة ٩٢١/٣٥٩وابن سبعين من الأندلس ٦٦٩/٦١٤ ـــ ١٢٧٠/١٢١٨ وكان يـــراســـله فردريك الثانى ملك صقلية فى بعض مسائل تقدم العالم وطبيعة النفس .

ورابعة العدوية من البصرة (٧١٧ ـــ ٨٠١ م)

وذو النون المصرى (من أخميم) المتوفى سنة ٨٥٩/٢٤٥

وابو يزيد البسطامى الفارسى المتوفى ســـنة ٨٧٤/٢٦١

وعمر بن الفارض المصرى ٥٧٦ ـــ ٦٣٢ هـ

وآخرون كثيرون .

---

(١) أنظر مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٧٥ و ٣٧٦ و ج ٢ص ٧٤٨ و ٧٤٩ طبعة لجنة البيان العربى .

(٢) ظهر الاسلام ج ٤ ص ١٥٧

(١)

ابن طفيل

هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسى . ولد قبل سنة ٥٠٦ هـ/١١١٠ م وتوفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م . وهو من وادى آش على ستين كيلو مترا من غرناطة .

كان طبيبا فى غرناطة ، ثم صار طبيبا لابى يعقوب يوسف المنصور خليفة الموحدين وكانت له عنده حظوة ، فكلاهما من قبيلة قيس ، وهو الذى قدم ابن رشد للمنصور .

مؤلفاته :

لم يبق من مؤلفات ابن طفيل الا رسالة حى ابن يقظان، او أسرار الحكمة المشرقية (الاشراقية) ومؤدى هذه القصة ، انه فى جزيرة مهجورة من جزر الهند ، وجد طفل مجهول ، قيل انه لولد من بطن أرض الجزيرة ، لأن الناس يولدون فيها من غير أب ولا أم ، وكانت طينته قد تخمرت على مر السنين ، أو قيل انه حمله تيار البحر الى هذه الجزيرة فى تابوت وضعته فيه أمه ، وكانت أميرة عضلها اخوها الملك ، فتزوجت سرا من يقظان ثم انجبت حيا ، فخافت عليه وعلى نفسها من اخيها الملك الطاغية . أرضعت الطفل ووضعته فى تابوت أو احكمت زمه ، ثم القته فى اليم بعد أن دعت ربها ان يحفظه ، فرمى مد البحر الصندوق على شاطىء جزيرة ، فلم يلبث أن سمعت صوت الطفل غزالة كانت قد فقدت ولدها ، فأرضعته وصارت أمه ثم شب حى ، وكان الله قد وهبه ذكاء مفرطا ، فأخذ فى التأمل عن طريق الاشراق الفلسفى ، ثم رغب ان يتحد بالله ، لان الاتحاد يجاب له العلم الغزير والسعادة الابدية . من أجل ذلك دخل حى مغارة وصام اربعين يوما سويا لكى يفصل عقله عن العالم الخارجى وعن جسده بواسطة التأمل المطلق فى الله ، ولكى يصل الى الاتصال به وقد كان . ثم أقبل رجل تقى ورع من جزيرة مجاورة اسمه — اسال — فلقى حيا وعلمه الكوم ، وعندما ناجاه عرف اسال فى المنهج الذى انتهجه ابتكره حى تعليلا للدين الذىيعتقده اسال،بل ولكافة الأديان المنزلة .ثم صحب اسال حيا الى الجزيرة المجاورة ، وكان يحكمها ملك بالغ الورع وا تقى ، اسمه سلامان ، هو فى الواقع صديق لاسال ، طلب اليه ان يكشف لاهل الجزيرة عن الحقائق العليا التى وصل اليها فلم يوفق ، وأخيرا عرف حى وصاحبه اسال أن الحقيقة الخالصة لم توضع للعوام غلاظ الفهم ، لانهم مكبلون باغلال الحواس ، ومن أجل ذلك لابد لايصال الحقيقة اليهم عن طريق صوغها فى قالب الاديان المنزلة ، ومن أجل ذلك ايضا قرر حى أن يعتزل هؤلاء الناس المساكين وان ينصحهم بالتمسك بأديان آبائهم ، ثم عاد مع صاحبه اسال الى الجزيرة المهجورة لينعما بالحياة الالهية الرفيعة الخاصة التى لا يدركها الا القليل من الناس .

ويقول الاستاذ آنجيل جيثالث (١) تعليقا على هذه القصة والاساس الفلسفى لهذه القصة هو الطريق الذى كان عليه فلاسفة المسلمين الذين نهجوا على مذهب الافلاطونية الحديثة ، وقد صور ابن طفيل الانسان الذى هو رمز العقل فى صورة حى بن يقظان (واليقظان هو الله) ورمى ابن طفيل من ورائها الى بيان الاتفاق بين الدين والفلسفة ، وهو موضوع شغل أذهان مفكرى المسلمين طويلا » .

« أما القالب القصصى الذى اتخذه ابن طفيل سبيلا لعرض آرائه الفلسفية فقد درسه الأستاذ غرسيه غومس دراسة علمية بالغة العمق ، ذهب فيها الى أن هذا الهيكل العام للقصة مأخوذ من « قصة الصنم » والملك وابنته » وهى احدى الأساطير التى نسجت حول شخصية الأسكندر الأكبر ، ولابد أنها كانت معروفة عند اهل الأندلس ، فتناولهما ابن طفيل وصاغها فى قالب رمزى ، وفى هذا يقول غرسيه غومس : وقد

---

(١) أنظر تعليق احمد أمين على رسالة حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى طبعة دار المعارف ص ٩ ومقدمة « فلسفة ابن طفيل ورسالة — لحى بن يقظان » للدكتور عبد الحليم محمود — طبعة مخيمر .

وجد ابن طفيل فى هذه الفكرة الأدبية ــ ذات الحيوية المتصلة والتى تبدو حقيقية وان كانت من نسج الخيال السبيل الى عرض نظرية المفكر المتوحد ونظريات فلسفية اخرى . وقد وردت فكرة الفيلسوف المتوحد فى كتابات ابن سينا وابن باجه . وقد وجد ابن طفيل فيها كذلك وسيلة تتفق مع تفكيره اتفاقا بديعا . بل ضمت هذه الحكاية موضعا مناسبا استطاع ابن طفيل أن يفرغ فيه افكاره . ومن هنا نتج هذا التأليف الجميل بين قصة شائعة وبين الأفكار الفلسفية . واستطاع ابن طفيل بأسلوبه العذب الذى يفيض ابتكارا ومنطقا وقوة شاعرية ، ان يخلق منها أثرا من أعظم ما أطلعته العصور الوسطى » .

ويقول آنجيل أيضا (١) « واطرف من هذا ان حكاية الصنم نفسها هى التى أوحت الى جراسيان Gracian فكرة كتابه المسمى كريتيكون Critican . وقد استطاع كل من الأب بو Pou ومننذ نيلايو من بعده أن يظهرا العلاقة الواضحة بين شخصية اتدرنيو التى ترد فى قصة ذلك اليسوعى الأرغونى (أى جراسيان) وبين شخصية حى بن يقظان التى ابتكرها الفيلسوف المسلم . ولا نعرف كيف أطلع جراسيان على رسالة ابن طفيل التى لم تنشر فى لغة أوروبية الا سنة ١٦٧١ . وقد أثبت غرسيه غومس ان كتاب الكريتيكون أقرب الى « قصة الصنم » منه الى « رسالة حى بن يقظان » ، وأدت به المقارنة بين الكتابين الى القول بأن علة هذا التشابه هى أن جراسيان قلد هذه الأسطورة التى كانت متواترة بين المورسكيين الأرغونيين من غير شك، ومن أدلة ذلك أن مخطوط الاسكوريال الذى يضم هذه القصة مكتوب بحروف لاتينية أرغونية ترجع الى القرن السادس عشر » .

وقصة الصنم والملك وابنته هذه قصة عربية وجدت فى مخطوط موسكى بمكتبة الاسكوريال . وتتلخص فى ان احدى الأميرات ، وهى أخت الملك قد حجزت عن الناس لتنجو بنفسها من طالع سوء تنبأ لها به العرافون ، فاستسلمت فى مجلسها لابن الوزير ثم أنجبت ثمرة ذلك طفلا وضعته فى صندوق من الخشب وألقت به فى اليم ، فحملته الأمواج الى شاطىء جزيرة . وقد تصدعت جوانب الصندوق فتحرك الطفل وعطفت عليه غزالة وتبنته . ثم ينمو الصبى ويهتدى ببصيرته الى بدائع خلق الله . . وهى تشبه قصة سيدنا موسى حين ألقت به أمه فى اليم ، ثم رد الى أمه . . كما تشبه الخرافة التى شاعت عن بناء روما وتبنى الذائبة لروميس . .

ومع ذلك ، فان قصة ابن طفيل قد حملت ما لا يمكن حمله وخرجت تخريجا مرهقا . أما انها رمت الى التوفيق بين الفلسفة والدين فنعم، واما ان ابن طفيل قد صور الانسان الذى هو رمز العقل فى صورة حى بن يقظان فنعم أيضا ، وأما القول بأن يقظان هو الله ، فلا ، وقد يكون هذا الفرض محتملا فى الصورة الأولى التى تقول ان حى بن يقظان خلق من طين . أما الروا ية الثانية التى تنسب حيا الى اب من البشر هو يقظان الذى تزوج الأميرة سرا ، فانها لا تتفق بتاتا مع هذا التخريج .

والظاهر ان ابن طفيل وهو يضع عنوان القصة لم يجهد نفسه طويلا كما اجهد نفوسهم مترجموه ، اذ انه اخذ العنوان من رسالة حى ابن يقظان لابن سينا . وهو يشير فى بداية القصة الى ابن سينا .

وفى رايى أن ابن طفيل تأثر فى وضع قصته بأسلوب كليلة ودمنه ، الذى أراد واضعه أن يعرض حقيقة الطبيعة البشرية وأن يؤدب الناس فى قالب قصصى ، وهى احدى وسائل التربية ، وكذلك ابن طفيل ، أراد أن يبث نظرياته الفلسفية فى قالب قصصى أيضا ، وهو يعترف بذلك فى صدر رسالته « سألت أيها الأخ الكريم الصفى الحميم منحك الله البقاء الأبدى وأسعدك السعد السرمدى أن أبث اليك ما امكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية التى ذكرها الشيخ الرئيس أبو على بن سيناء فأعلم ، ان من أراد الحق الذى لا جعجعة فيه فعليه بطلبها والجد فى اقتنائها » .

بل ان ابن طفيل لم يودع فى رسالته مذهبه الفلسفى فحسب وانما أودع علوما أخرى فتكلم عن الضوء ونفاذه فى الأجسام ووصل الى أحدث نظرية عن أشعة الشمس فاشعتها وفقا للعلم الحديث تبدأ فى صورة أشعه ضوئية ، وتستمر كذلك الى أن تقع على جسم مادى فتنبثق من هذه الأشعة الضوئية الحرارة الكامنة فيها .

وقد شرح ابن طفيل هذه النظرية شرحا جميلا ، وبذلك تراه يخرج من موضوع الى آخر كما فعل صاحب كليلة ودمنه .

---

(١) الفكر الاندلسى ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

محيي الدين بن عربي

هو أبو بكر محمد بن علي بن عربي الملقب بمحيي الدين . ويعرف في الغرب باسم (ابن العربي) ولد في مرسيه سنة ٥٦٠ / ١١٦٤ في بيت من بيوت التقى والورع ، ثم انتقل مع اهله طفلا الى اشبيلية ، فقضى هناك طفولته وصباه ، ولم يكن ميالا في ذلك الوقت الى التصوف ، بل كان همه الاشتغال بالادب وبالصيد ، ومع ذلك فقد درس في اشبيليه القرآن والحديث والفقه على يد احد تلاميذ ابن حزم ، ثم تزوج بمريم بنت محمد بن هبدون بن عبد الرحمن الباجي فتغير على اثر ذلك مجرى حياته حيث كانت هذه الزوجة الصالحة الورعة مثلا صالحا له ونصحته بأن يقلع عما فيه وكذلك فعلت أمه ، ثم أصابه مرض ألزمه الفراش فتراءت له في مرضه منامات مفزعة عن عذاب الجحيم ، ثم كان أن توفى أبوه ، وكان هذا الأب قد أخبر زوجته بانه سيموت بعد خمسة عشر يرما فصدقت نبوءته ، فكانت هذه العوامل كلها سببا في تخويف ابن عربي ورده عن حياة اللهو الى حياة التصوف .

تتلمذ ابن عربي في اشبيليه على أئمة الصوفيين منهم موسى بن عمران الميرتلي فعلمه كيف يتلقى الالهام الالهى وأبو الحجاج يوسف الشبره بلى ، وكان ممن يمشي على الماء ، وأبو عبد الله ابن المجاهد وأبو عبد الله قسوم ، وقد تعلم منهما محاسبة النفس ، وعجوز تسمى نونه فاطمة بنت المثنى القرطبية لزمها سنتين خادما ومريدا وشاهد بنفسه ما كان يجرى على يدها من ظواهر التنبؤ الغريبة ، بيد أن استاذه الحقيقى الاعتكاف .

وعندما استكمل حاجته من العلم أخذ يطوف بمدن أسبانيا ثم المغرب حيث لقى الصوفى الكبير الحسن الأشبيلي المعروف بابن مدين ، ثم رحل الى تونس حيث قرأ كتب أبى القاسم قسى من كبار الزاهدين ، ثم استقر بفاس وانتبه للدرس والرياضة والصوفية . ثم سار الى مراكش ، ثم الى مكة فالموصل فالقاهرة حيث قال بوحدة الوجود ثم سافر الى بلاد الروم ونزل بقونية ، ثم الى آسيا الصغرى وأقاصي أرمينية ثم الى بغداد لقى شهاب الدين السهروردي قطب الصوفية ، ثم قصد مكة مرة أخرى ، ثم رجع الى قونية ، ثم الى حلب حيث لقيه السلطان الظاهر غازى ، ثم رحل الى دمشق بعد اعتلال صحته وزادت عليه حالة الجذب ومات بها سنة ٦٣٨ / ١٢٤٠ بعد أن قضى فيها ثمانى عشرة سنة .

كتبه :

ألف محيي الدين بن عربي طائفة من الكتب نذكر منها مواقع النجوم ، انشاء الدوائر الاحاطية على مضاهاة الانسان للخالق وللخلايق ، وترجمان الأشواق ، والدرة الفاخرة ، مشاهد الأسرار ، رسالة الأنوار ، وفصوص الحكم ، والديوان ، والفتوحات المكية في معرفة الأسرار الملكية والملكية ، وهو أعظم أثر له جمع كل ما ذكره في مؤلفاته الأخرى .

فلسفة ابن عربي :

نشأ ابن عربي في عصر كان قد تمثل علوم اليونان ، وذلك بفضل الدراسات الفلسفية اللاهوتية التى قام بها ابن سينا والغزالى وابن حزم وابن رشد وأعقبت مذاهب الصوفية البسيطة الأولى مذاهب ذات طابع نظرى غالب وهى فى أساسها تتجه نحو القول بوحدة الوجود وتقوم كلها علىمحاولة التوفيق بين شتىالمذاهب والآراء (١) .

ومع ذلك فان الأفكار التى اختمرت فى ذهن ابن عربي اختمارا صاخبا مع اضطراب ذهنه بسبب ما ركب فى طبيعته من مزاج صوفى بالغ

---

(١) نقله عن آسين ، صاحب تاريخ الفكر الاندلسى ص٣٨٠

القوة وبسبب ما كان يعانيه من جذب غير عادى، ذلك كله يجعل عرض مذهبه عرضا علميا أمرا عسيرا جدا كما يقول آسين .

ولقد لخص الأستاذ انجيل جيثالث مذهب ابن عربى فى أصول ستة هى كما أوردها :

١ — زهد أهل النظر من الصوفية ومذاهبهم فى العلوم الباطنة ، وهو يقبل عقيدتهم الصوفية ، وهذه العقيدة فى ظاهرها تطابق مذهب أهل السنة والجماعة .

٢ — والقول بوحدة الوجود .

٣ — والشك الصوفى .

٤ — والمذهب الميتافيزيكى للاسكندرانيين .

٥ — ومذهب أفلاطون فى الصدور .

٦ — ومذهب الصوفية فى النفس .

بيد أن ما يمتاز به ابن عربى هو الجمع بين هذه الآراء المتباينة بل المتضاربة وتنسيقها . وقد وفق الى ذلك عن طريق تأويل النصوص المنزلة والتماس معان صوفية لها تتفق مع آراء الأفلاطونية الحديثة (١) .

ولكى يصل ابن عربى الى ذلك نراه بطبيعة الحال يستعمل مصطلحا خاصا به يختلف عن الجارى المألوف ويختلف عن مصطلح المتكلمين ، بل هو يختلف عن المصطلح المعروف للصوفيين، ولهذا نراه من حين لحين يعمد الى شرح كلامه بنفسه ، وهو يسرف فى استعمال المجاز والاستعارة والرموز والتوجيهات الصوفية ، وهو يلجأ الى ذلك لكى تحجب مذاهب الاسكندرانيين فى وحدة الوجود وراء أستار هذه الرموز . واكثر المجازات التى يستعملها تستند الى النسبة الى « النور » على طريقة الاشراقيين ، وهم من جانبهم يترسمون آثار الغنوصيين والمانويين والزرادشتيين . وهو يجعل للحروف العربية قيما خاصة يعتسفها من عنده وذلك نتيجة لمزاوجته بين التنجيم وعلوم الصوفية عند اليهود وآراء الفيثاغوريين المجوثيين فى الاسكندرية .وعن هذا السبيل حصل ابن عربى على ثروة كبيرة من المعانى الباطنة والفضائل الصوفية . وهو يلجأ الى الرسوم والتخطيطات والأشكال الهندسية لكى يشرح المعقد من الآراء الميتافيزيكية التى يتضمنها مذهبه كما فعل اخوان الصفا والدروز وهو لا يتحرج من الاستعانة بخرافات العلوم الخفية الشرقية والغربية كحساب النجوم واستخراج الأحكام منها والتنبوء على أساس الفأل وتفسير الأحلام وما الى ذلك » (٢) .

(١) آنجل ثيثالث ص ٣٨١ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٨١ و ٣٨٢

رابعا : أصحاب التعاليم الرياضيون

(١)

محمد بن موسى الخوارزمى

جاء فى الفهرست لابن النديم ما يلى :

« الخوارزمى واسمه محمد بن موسى ، وأصله من خوارزم ، وكان منقطعا الى خزانة الحكمة للمأمون ، وهو من أصحاب علوم الهيئة ، وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الأول والثانى ويعرفان بالسند هند » (١) .

وقد جرى الطبرى (٢) على تلقيبه بالمجوسى والقطربلى نسبة الى قطربل غربى دجلة بالقرب من بغداد — ويقول عنه ايضا أنه كان من بين المنجمين الذين استدعاهم الواثق فى مرضه ليبينوا له متى يحين أجله ، فأجابوا بطول العمر ، ولم يلبث الواثق ان مات . ويقول سوتر انه توفى ما بين سنتى ٢٢٠ هـ ، و ٢٣٠ هـ أما نللينو فيجعل وفاته بعد سنة ٢٣٢ هـ (٣) .

انقطع الخوارزمى الى خزانة الحكمة أيام المأمون ، وهو ما يذكره ابن النديم فى الفهرست (٤) .

يؤيد ذلك ما ورد فى كتابه الجبر والمقابلة (٥) قال : « وقد شجعنى ما فضل الله به الامام المأمون من الخلافة التى حاز له ارثها واكرمه بلباسها وحلاه بزينتها من الرغبة فى الأدب وتقريب أهله وادنائهم وبسط كنفه لهم ومعونته اياهم على ايضاح ما كان مستبهما ، وتسهيل ما كان مستوعرا ، على أن ألفت من حساب الجبر والمقابلة كتابا مختصرا حاصرا لطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة اليه » .

ويعتقد سوتر (٦) ان المأمون كلف محمد ابن موسى الخوارزمى بين من كلفهم بقياس درجة من درجات الكرة الأرضية ، واعتمد سوتر على ما ورد فى بعض كتب العرب من أن بنى موسى قد اشتركوا فى هذه المهمة ، ولما كان محمد هو أكبرهم فهو يرجح أنه لابد أن يكون من بينهم .

ومع ذلك فسوتر مخطىء فى هذا الرأى واضح الخطأ فهو يخلط بين محمد بن موسى الخوارزمى ومحمد بن موسى بن شاكر ، فالذين كلفهم المأمون بقياس درجة من درجات الكرة الأرضية هم ابناء موسى بن شاكر ، محمد وأحمد وحسن (٧) ، والذى أدخل اللبس هو أن محمد بن موسى بن شاكر كان فعلا قد شهر بالهندسة الى جانب

---

(١) ص ٣٨٣
(٢) طبعة ده غوى ج ٣ ص ١٣٦٣
(٣) محل هذين الرأيين فى المراجع المبينة فى صفحات لاحقة .
(٤) ص ٣٨٣
(٥) ص ١٥ من النسخة التى نشرتها كلية العلوم بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٩ — بتحقيق على مصطفى مشرفة ومحمد مرسى أحمد .
(٦) Suter, Die Mathemateker und Aslronomen der Araber und ihre Werke in Abhandl. Z. Gesck.d.Math Wissenschaften.
مجلد ١٠ ليبزج ١٩١٠ ص ٢٠
(٧) أنظر ترجمة أولاد موسى بن شاكر فى الفهرست لابن النديم صفحة ٣٧٨ و ٣٧٩

علمه بالفلك . ويذكر الأستاذ جورجي زيدان فى التمدن الاسلامى الرواية على صحتها دون أن يشير الى رأى سوتر (١) .

كتبـــــه :

جاء فى الفهرست لابن النديم (٢) تحت اســم الخوارزمى ما يلى :

« واسمه محمد بن موسى ، واصـــله من خوارزم ، وكان منقطعا الى خـــزانة الحــكمة للمأمون ، وهو من أصحاب علوم الهيئــة (٣) ، وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجية الأول والثانى ، ويعرفان بالسند هند ، وله من الكتب : كتاب الزيج نسختين : أولى وثانية ، كتاب الرخامة ، كتاب العمل بالاسطرلابات كتاب عمل الاسطرلاب ، كتاب التاريخ » .

ولم يذكر ابن النديم كتاب الخوارزمى فى علم الجبر وان كان قد ذكره فى مواضع متعـــددة من كتابه ، فقد ذكر الكتاب منسوبا الى الخوارزمى وهو يتحدث عن كتب أبى الوفا البوزجانى ، قال: كتـــاب تفســـير كتاب الخـــوارزمى فى الجبـــر والمقابلة(٤) . وتحت كتب سنان بن الفتح قال : كتاب شرح الجبر والمقابلة للخوارزمى (٥) . كما ذكره وهو يتحدث عن كتب الصيدنانى (عبد الله ابن الحسن) قال : كتاب شرح كتاب محمـــد ابن موسى الخوارزمى فى الجبر (٦) .

والظـــاهر أن هـــذا الكتاب وغيره من كتب الخوارزمى سقطت من الناسخ والحقت خطأ بالاسم الذى يلى اسم الخوارزمى فى الفهرست وهو سند بن على اليهـــودى على ما رجح سوتر (٧) . وتكرر الخطأ فى كتاب القفطى المتوفى عام ١٢٤٨ م

والمعروف أن الكتب التى سقطت من صاحب الفهرست هى كتاب الحساب ، وكتاب الجبر والمقابلة ، وكتاب تقويم البلدان شرح فيه آراء بطليموس ، وكتاب جمع بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . وهذه الكتب موجـــودة الى اليـــوم .

ومهما يكن فالمتداول المعـــروف بين جميـــع المؤرخين ان أول من كتب فى الجبر هو محمـــد ابن موسى الخـــوارزمى ، وفى ذلك يقـــول ابن خلدون « وأول من كتب فى هذا الفن (الجبر) أبو عبد الله الخوارزمى وبعده أبو كامل شجاع ابن أســـلم » (٨) .

أما كتاب الجبر والمقابلة فهو أشبه بعمليات التفاضـــل والتكامل ، وهو يشـــمل موضوعات مختلفة فى المساحة والأخطاء فيها وقواعد تقسيم المواريث والوصية .

وقد نشرت نسخته العربية لأول مرة ســـنة ١٨٣١ على يد فردريك بروزن وطبعت بلنـــدن ونشر معها ترجمة وتعليق باللغة الانجليزية .

أما النسختان اللتان أعدهما الخوارزمى عن السند والهند ، فقد سمى الجداول المتحصـــلة منهما كما جاء فى رواية ابن يونس « فى زيج »(٩) وهذا الكتاب يحوى مقدمة فلكية .

ثم قام المجريطى بتنقيح هذه الجداول(١٠) ولعل هذه النسخة هى التى نقلت الى اللاتينيـــة . وتعتمد هذه الجداول على حســـاب المثلثات ، وترد فيها كثيرا كلمة « جيب » فى حين ان ثابت ابن قرة وهو متأخر عن الخوارزمى لا يذكر لفظ الجيب الا لـــماما ، وهذا ما يرجح ان لفظ الجيب من عمل المجريطى نفسه (١١) .

---

(١) ج ٣ ص ٢١١
(٢) ص ٣٨٣
(٣) المقصود بالهيئة الفلك .
(٤) ص ٣٩٤
(٥) ص ٣٩٢
(٦) ص ٣٩٠
(٧) Suter, H., Mathematiker im Fihrist, Abhandlunger Qur Geschichte der Mathematik.
ص ٦٢ و ٦٣ مجلد ٦ ليبزج ١٨٩٢ .
(٨) المقدمة ص ٤٥٨
(٩) كارلو نللينو Al Battani Opus ج ١ ص ١٥٧
(١٠) ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٣٩
(١١) كارلو نللينو Al Battani Tome I, p. 154.

ويذكر صاحب طبقات الأمم (١) عن مسلمة المجريطى الملقب باقليدس الأندلسى انه « عن بزيج محمد بن موسى الخوارزمى وصرف تاريخه الفارسى الى التاريخ العربى ووضع أوساط الكواكب فيه لاول تاريخ الهجرة وزاد فيه جداول حسنة على انه اتبعه الى خطته فيه » .

ولا يعرف شىء عن كتاب الرخامة .

واعد الخوارزمى مجموعة من صور السماوات نزولا على اشارة المأمون ، ويظهر ان اعداد هذه المجموعة كان بمساعدة آخرين استعانوا بجغرافية بطليموس ومن هذه الصور كتاب « صورة الأرض » المحفوظ فى استرسبورج . وقد ترجم الى اللاتينية وعنى ببحثه كل من كارلو نللينو وفون مزيك .

وقد اخذ كثيرون عن الخوارزمى من علماء العرب ، سواء فى الحساب أو الجبر أو الفلك ، ومن هؤلاء ابو كامل شجاع لابن أسلم الذى ألف كتابا فى الجبر والمقابلة واعترف فيه بفضل الخوارزمى .

الجبر قبل الخوارزمى :

لم يكن علم الجبر مجهولا قبل الخوارزمى ، ولعل الهند كانت تعرفه ، فقد ورد فى طبقات الأمم أن الهند كانت تعرف حساب الغبار ، الذى بسطه محمد بن موسى الخوارزمى ، وهو أوجز حساب وأخصره واقربه تناولا وابدعه تركيبا ، يشهد للسند بذكاء الخواطر وحسن التوليد وبراعة الاختراع (٢) .

وهذه الاشارة ربما دلت على شكل الاعداد ، وربما دلت على رموز الجبر .

ومع ذلك فان اثنين من اليونانيين قيل انهما الفا فى الجبر ، احدهما ابرخس ذكر عنه ابن النديم ان له كتابا فى صناعة الجبر يعرف بالحدود ، وانه نقل هذا الكتاب وان ابا الوفا المعروف بالبوزجانى أصلح الكتاب وشرحه وعلله بالبراهين الهندسية (٣) .

وأما الثانى فهو ديوفانطس اليونانى الاسكندرى فقد ذكر ابن النديم أيضا أن له كتابا فى صناعة الجبر (٤) .

أما ما عدا ذلك ممن ذكرهم ابن النديم وغيره باعتبارهم مؤلفين فى علم الجبر فهم لاحقون على محمد بن موسى الخوارزمى .

ومهما يكن من شى فان ما عرف قبل الخوارزمى من الجبر لم يكن شيئا مذكورا ، أو لعله لم يكن الا قليلا من المصطلحات التى لا ينبغى أن تسمى علما ، والعصر الحديث لا يعرف للجبر اماما الا الخوارزمى .

---

(١) ص ١٠٧

(٢) ص ٢١ .

(٣) الفهرست ص ٣٧٦

(٤) نفس المرجع فى نفس الموضع

٢

أبو الوفا البوزجانى

هو محمد بن محمد بن يحيى بن اسماعيل ، كان مولده ببوزجان من بلاد نيسابور سنة ٣٢٨ هـ ، وقرأ على عمه أبى عمرو المغازلى ، وخاله أبى عبد الله محمد بن عنبسة فى الحساب ، وعلى أبى يحيى الماوردى وأبى العلاء ابن كرنيب فى الهندسة . ثم انتقل الى العراق سنة ثلاثمائة ثمان وأربعين (١) . وأقام بها الى أن توفى سنة ٣٨٨ / ٩٩٨ (٢) .

كتبـــه :

ذكر ابن النديم جملة من كتبه هى :

كتاب ما يحتاج اليه العمال ، فى الحساب ، كتاب تفسير كتاب الخوارزمى فى الجبر والمقابلة ، كتاب تفسير كتاب ديوفنطس فى الجبر ، كتاب تفسير كتاب أبرخس فى الجبر ، كتاب المدخل الى الارثماطيقى ، كتاب فيما ينبغى أن يحفظ قبل كتاب الارثماطيقى ، كتاب البراهين على القضايا التى استعمل ديوفنطس فى كتابه وعلى ما استعمله هو فى التفسير ، كتاب استخراج ضلع المكعب كتاب معرفة الدائرة من الفلك ، كتاب الكامل ، وكتاب زيج الواضح فى الفلك .

ولم يبق من كتبه سوى كتاب ما يحتاج اليه الكتاب والعمال من علم الحساب ، وهو عين كتاب المنازل فى الحساب الذى ذكره ابن القفطى ، وكتاب الكامل ، وقد يكون عن كتاب المجسطى الذى ذكره ابن القفطى والذى ترجم كارادى فو بعض فصوله فى المجلة الاسيوية (٣) ، وكتاب الهندسة ويوجد بالقسطنطينية (فى أيا صوفيا . ويحتمل أن يكون عين كتاب الهندسة الموجود بالفارسية فى باريس . ويعتقد Waepke ان الكتاب لم يؤلفه ، وانما جمعه عنه أحد تلاميذه(٤) .

ولم تصل الينا شروحه على اقليدس وديوفانطس والخوارزمى ولا كتابه « الواضح » عن الزيجات الفلكية . ومن المحتمل أن يكون كتاب الزيج الشامل الموجود بفلورنسه وباريس والمتحف البريطانى ، والذى يجهل مؤلفه ، يحتمل أن يكون قد أخذ من زيج أبى الوفاء (٥) .

---

(١) الفهرست ص ٣٩٤
(٢) الكامل لابن الاثير ج ٩ ص ٩٧ طبعة تورنبرج وابنخلكان ج ٢ ص ٨١ القاهرة ١٣١٠ .
(٣) المجموعة الثانية ج ١٩ من ص ٤٠٨ — ٤٧١
(٤) المجلة الاسيوية المجموعة ٥ ج ٥ ص ٣٠٩ — ٣٥٩
(٥) راجع مقال H. Suter عن أبى الوفا فى دائرةالمعارف الاسلامية

— ٣ —

عمـر الخيـــام

هو غياث الدين عمر ابو الفتح بن ابراهيم الخيام . ولد فى نيسابور عاصمة خراسان سنة ٤٣٣ — ١٠٤٠ م أو قبل ذلك بعامين فى عهد السلطان أرطغرول أول ملوك السلاجقة . وتوفى سنة ٥١٧ هـ — ١١٢٢ م فى عهد السلطان سنجر ، وقيل أنه ولد فى قرية شمشار من أعمال بلخ . وقيل فى قرية بسنك من أعمال استراباد.

تلقى دراسته فى نيسابور وكان زميلا لنظام الملك الطوسى ، واشتهر بالفلك وذكر عنه ان السلطان ملك شاه اخبره بانه يريد الخروج للصيد ، وطلب اليه أن يختار له خمسة أيام لا ينزل فيها مطر ولا ثلج فاختار أياما خمسة واخبر بها السلطان فلما أعد عدته للرحيل هطل المطر وهبت رياح عاصفة ونزل الثلج والبرد واراد السلطان أن يعود ، ولكن الخيام قال له لا تشغل بالك فان المطر سينقطع فى هذه الساعة ثم لا يهطل مدة الخمسة الأيام اللاحقة ، وسار السلطان وانقطع المطر طوال الأيام الخمسة (١) .

نبغ فى العلوم الالهية والفلسفة والمنطق والطبيعية والطب وتوفر على دراسة الرياضيات واخصها الجبر ، وطبق علوم الرياضة على الفلك، ندعاه ملك شاه مع جمع من العلماء الى اصلاح التقويم فاخرجوا التقويم الجلالى الذى تبدأ من يوم النيروز (١٠ رمضان سنة ٤٧١ هـ — ١٦ مارس سنة ١٠٧٩ م ولا يزال مبدأ هذا التقويم عيدا من أعياد الفرس الى اليوم . وهذا التقويم لا يخطىء الا فى يوم واحد كل ٣٧٧٠ عاما ، أى أنه أدق من التقويم الافرنجى الذى يخطىء يوما كل ٣٣٣٠ عاما .

وله كتاب فى الجبر ترجم الى الفرنسية سنة ١٨٥٧ وهو يدل على تقدم كبير عما كان عليه العلم بعد الخوارزمى فقد وصل فيه الى حل جزئى لمعادلات الدرجة الثالثة قيل أنه أعظم ما وصلت اليه العلوم الرياضية فى العصور الوسطى وكتاب آخر فى الجبر مخطوط فى مكتبة ليدن ، وبعد دراسة نقدية لنظريات اقليدس(٢) .

ورغم كل ذلك فالخيام لايعيش الا فى رباعياته.

رباعيات الخيـــام :

ظلت رباعيات الخيام فى بطون المكتبات حتى وفق الأستاذ كويل الى العثور الى أقدم نسخة خطية لها فى مكتبة بودليان باكسفورد فوجه النظر اليها والى الخيام فى مجلة كلكتا سنة ١٨٥٨ وفى سنة ١٨٥٩ ترجمها الشاعر فتزجرالد فترجمها شعرا الى الانجليزية وكانت تحوى ٧٥ رباعية وفى سنة ١٨٦٢ ترجمها نثرا الى الفرنسية نيكولا ترجمان السفارة الفرنسية فى فارس ، وهى من ٤٦٤ رباعية . وفى سنة ١٩٣٠ اكتشف أول مخطوط مصور لرباعيات الخيام بخط أحد سكان مدينة مشهد سنة ٩١١ هـ .

آراء الخيـــام :

لم يحر الناس فى معرفة آراء حكيم من الحكماء مثلما حاروا فى اثنين أولهما أبو العلاء المعرى وثانيهما عمر الخيام وسبب حيرتهم فى هذا الأخير هى أن رباعياته ليست مؤلفة ككتاب منسق يستطيع المرء من بين ثناياه التعرف على تطورات حياته وتسلسل عقيدته وانما هى مجموعة من مقاطع الشعر لا يستطيع الانسان أن يعرف تاريخ نظم كل منها ، وقد جمعت فى طائفة من المخطوطات ، ويختلف عددها باختلاف هذه المخطوطات ، وليس هنالك من شك فى أن كثيرا

(١) أحمد رامى نقلا عن كتاب جهار مقالة للنظامى السمرقندى .

من الرباعيات قد دست عليه ، الأمر الذى يجعل الحكم عليه من خلال رباعياته أمرا عسيرا « فمنهم من عده مستهترا يهزأ من الأديان ولا يعتقد بالبعث ، ومنهم من انزله منزلة الصالحين وعده طاهر الذيل راسخ اليقين . على ان الخيام كان جبريا يعتقد ان الانسان تسيره قوة خفية لا يملك دفعها ولا تدع له فرصة الاختيار بين النافع والضار . وهو بالرغم مما يظهر فى رباعياته من الشك فى أمر الحياة والموت موحد يؤمن بوجود اله خلق الكون وهيمن عليه ، مؤد فريضة الحج ، مواظب على الصلاة . ولذلك ادخل المتصوفة — وهم الد اعدائه — بعض اشعاره فى أورادهم واهتموا بدرسها . غير أن الكثيرين من بينهم لم ترقهم طائفة كبيرة من رباعياته فناصبوه العداء وهددوه بالقتل فهرب من وجوههم ولزم الصمت عهدا طويلا واقفل بابه فى وجوه زواره واضمر سره لا يظهر الناس عليه » (١) .

(١) احمد رامى ص ٣١

خامسا : فى الطبيعة

الحسن بن الهيثم

مولده ونشأته :

هو الحسن ابو على بن الحسن (١) بن الهيثم ولد حوالى سنة ٣٥٤ هـ — ٩٦٥ م ونشأ بالبصرة ثم نزح الى مصر فى كهولته (٢) .

ويروى ابن القفطى (٣) ان الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى استقدمه الى مصر عندما سمع قول ابن الهيثم « لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الاقليم المصرى » .

ويتابع ابن القفطى روايته فيقول ان ابن الهيثم سار ومعه جماعة من الصناع المتولين للعمارة بأيديهم حتى بلغ مكانا يسمى الجنادل (ولعله الشلال) فلم يجد ابن الهيثم كما بلغه من قبل موضعا عاليا ينحدر منه النيل فعاد الى القاهرة وأعتذر للحاكم . ومع ذلك فان الحاكم ولاه منصبا من مناصب الدولة ، ولكنه لم يكن ممن يستسيغ أعمال الدواوين لأنها تعطل حريته فى البحث العلمى والنظر ، ففكر فى حيلة يتخلص بها من الحاكم وهى أن يدعى الجنون والخبال ، فلما سمع الحاكم بجنونه عزله من منصبه وعين عليه من يقوم بخدمته . وترك فى موضع من منزله حتى توفى الحاكم سنة ٤١١ — ١٠٢٠ فخرج ابن الهيثم من بيته الأول واستوطن غرفة بالقرب من الأزهر وعاد الى حياة البحث والعلم . وكان يتعيش من نسخ الكتب فيروى ابن القفطى عن يوسف الفاسى الاسرائيلى ان ابن الهيثم كان ينسخ فى مدة سنة ثلاثة كتب فى ضمن أشغاله وهى أوقليدس والمتوسطات والمجسطى ويستكملها فى مدة السنة ، فاذا شرع فى نسخها جاءه من يعطيه فيها خمسين ومائة دينار مصرى وصار ذلك كالرسم الذى لا يحتاج فيه الى مواكسة ولا معاودة قول ، فجعلها مؤونة لسنته (٤) .

وعاش الرجل على هذه الصفة بقية حياته الى أن توفى فى آخر سنة ٤٣٠ أو أول سنة ٤٣١ هـ .

مؤلفاته :

بلغت مؤلفات ابن الهيثم عشرات الكتب (٥) منها ٤٣ كتابا فى الفلسفة والعلم الطبيعى و ٢٥ فى الرياضة والعلم التعليمى ، وكتاب فى الطب اعتمد فى تصنيفه على كتب جالينوس لخص فيه ثلاثين كتابا من كتبه (٦) .

واشهر مصنفاته فى الفلسفة والعلم الطبيعى كتابه « الرد على يحيى النحوى ما نقضه على أرسطوطاليس وغيره من أقوالهم فى السماء والعالم » ورسالته « الى بعض من نظر فى هذا النقد فشك فى معان فيه » وكتابه « فى الرد على أبى الحسن على بن العباس بن فسانجس نقضه

---

(١) يذكر أحيانا باسم الحسب أبو على بن الحسين بن الهيثم (مصطفى نظيف هامش ص ١٠) .
(٢) دائرة المعارف الاسلامية (العربية) .
(٣) أخبار العلماء بأخبار الحكماء .
(٤) أخبار العلماء بأخبار الحكماء .
(٥) مقال الدكتور محمد على حجاب « الثروة العلمية لابن الهيثم » نشرت فى « مجموعة أبحاث الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية ، ج ١ عدد ٣ — ١٩٣٩ .
(٦) طبقات الاطباء .

آراء المنجمين » ثم جوابه « على رد ابى الحسن على معارضيه » ومقالته « فى الرد على ابى هاشم رئيس المعتزله ما تكلم به على جوامع كتاب السماء والعالم لارسطوطاليس » ومقالته فى « تباين مذهب الجبريين والمنجمين » ومقالته فى « أن البرهان واحد » (١) .

اما فى الهندسة والرياضة فاهم تآليفه . « الجامع فى اصول الحساب » و « فى الأصول الهندسية والعددية » و « فى حل شك على اوقليدس فى المقالة الخامسة من كتابه » « ورسالته » فى برهان الشكل الذى قدمه ارشميدس فى قسمة الزاوية ثلاثة أقسام » ومقالته « فى استخراج سمت القبلة » ومقالته « فى استخراج مابين بلدين فى البعد بجهة الامور الهندسية » ومقالته « فى اجراءات الحفور والابنية بجميع الاشكال الهندسية » أما كتبه التى الفها فى البصريات فهى كتاب المناظر ، مقالة ابن الهيثم فى الضوء ، مقالة فى الاثرين ، مقالته فى الاظلال ، مقالة فى صورة الكسوف ، وهذه المقالات حررها الفارسى وأوردها فى ذيل كتابه تنقيح المناظر ذوى الأبصار والبصائر . مقالة فى ماهية الاثر الذى على وجه القمر .

علم الابصريات قبل ابن الهيثم :

بيد أن تقدير مجهود العالم الفذ التى أسفرت عن كشوف جديرة بالنظر لا يمكن أن يكون دقيقا الا اذا عرفنا النظريات الضوئية التى كانت سائدة حتى عصر ابن الهيثم .

وأول هذه النظريات التى يجب أن نعطيها عناية خاصة هى نظرية الابصار فى ذاته ، أو بمعنى آخر : كيف تبصر العين المرئيات ؟

لقد كانت نظريات الابصار قبل ابن الهيثم كلها نظريات خاطئة ، بل ربما اغرقت فى الخطأ الى حد يسمح باعتبارها فى الوقت الحاضر نظريات مضحكة أن سميت نظريات تجوزا .

هنالك نظرية قال بها فيثاغورس المتوفى حوالى سنة ٤٣٥ ميلادية يعلل بها الابصار ، ومؤداها أن الجسم المبصر تخرج منه ذرات او دقائق فتقع على البصر فيحصل الابصار وهى تذكرنا بنظرية نيوتن فى طبيعة الضوء ، والتى يعتبر الضوء وفقا لها دقائق تنبعث من نفس الحجم المضىء(٢) ومع ذلك فالنظرية خاطئة ، ولو صحت لامكن ابصار الجسم المعتم فى الظلام .

أما نظرية أفلاطون فترى ان الابصار يحدث من التقاء نورين : الاول يسمى النار الالهية أو القوة النورية(٣) ، وهذا النور يخرج من البصر فيلتقى بالنور الثانى وهو الضوء فيحصل الابصار . أما فى الظلام فلا يحصل الأبصار لان النار الالهية اذا خرجت من البصر لا تلتقى بالنور الخارجى فلا يحدث ابصار ، وهذه النظرية تذكرنا بنظرية السيال الكهربائى فى العصر الحديث والتقاء السالب بالموجب .

فاذا جاء أرسطو كانت نظريته اكثر اغراقا فى العجب ، اذ أنكر ان للضوء كيانا ذاتيا يقبل الحركة ويخرج من العين ، انما هو صفة عارضة تعرض على الوسط المشف الذى يفصل بين البصر والمرئيات . وانما يحدث الأبصار بفصل الوسط المشف عند تبوله تلك الصفة العارضة التى هى الضوء ، وهذه النظرية تقرب من الحقيقة حين تجعل الوسط المشف طريق الابصار ، ولكنها تجانب الحقيقة تماما عندما تتعرض لطبيعة الضوء فتجرده من الذاتية .

أما النظرية التى قال بها ابيقور (٣٤١ — ٢٧٠ ق. م) فهى تدعو الى الضحك اذ رأى أن المرئيات تنبعث منها أشباح أو صور شبيهة بها وتنخلع عنها باستمرار ، فاذا وقعت على العين حدث الابصار . أما الرواقيون أصحاب زينون السينيومى (٣٣٦ — ٢٦٤ ق. م.) فقد رأوا أن الابصار يكون بالاتصال بين العين والجسم المرئى عن طريق شعاع يخرج من العين فى شكل مخروطى رأسه عند العين وقاعدته تصل ما بين طرفى الشىء المنظور .

وقد عرفت هذه النظرية عند علماء التعاليم (الرياضة فى اصطلاح العرب) بنظرية الشعاع

---

(١) ابن ابى اصيبعة .
(٢) مصطفى نظيف ص ٥١ .
(٣) يسمى الروح الباصر عند المسلمين .

وكذلك شاعت هذه النظرية فى العصر الاسكندرى وظلت الى عصر ابن الهيثم .

كما شاعت فى الفلسفة الهندية(١) .

وجدير بالنظر أن نعرض لكتابين الفا فى « المناظر »(٢) اولهما كتاب المناظر لاوقليدس الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد . وقد اخذ اوقليدس بنظرية الشعاع . ولكنه مع ذلك اتى بنظريات فى نواح اخرى من المناظر أصابها التوفيق ، وبنظريات آخرى لم يكن البرهان عليها مقبولا فأصلحه الاسلاميون كالحسن بن شاكر ونصير الدين الطوسى ويعقوب بن اسحاق الكندى .

أما الكتاب الثانى فى المناظر فهو كتاب بطليموس القلوذى صاحب كتاب المجسطى فى ا فلك (عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد) . والكتاب يدور فى كل ما عالج على نظرية الشعاع ، وقد عالج بعد المرئى من العين وكيفية ادراك المرئى واحدا مع النظر اليه بالعينين . وهذه الامور تعرض لها ابن الهيثم وبين ما فيهـا من اوجه الخطأ فأصلحه ومن أوجه النقص فاتمه . ولكننا يجب أن نعترف ببطليموس بالفضل فى بحث موضوع الانعطاف (الانعكاس) والمرايا المحرقة بحثا جديا .

كشوف ابن الهيثم فى الضوء :

اهتدى ابن الهيثم الى حقيقة نظرية الابصار وهى تقوم على سقوط ضوء على الجسم المرئى وانعاكسه على شبكية العين . فاذا كان الجسم المرئى مضيئا بذاته سقط مباشرة على العين .

ولقد اغرى هـذا الكشف الحسن بن الهيثم بالبحث فى الاسباب التى يرى الناظر الشىء الواحد صورة واحدة مع انه ينظر اليها بعينين ، وهذه المسألة تعرض لها قبله بطليموس ولكنه لم يعللها التعليل الصحيح بسبب أن نظريته فى الابصار كانت خاطئة من الاصل ، وهى كما بينا نظرية « الشعاع » .

وقد علل ابن الهيثم عدم ازدواج الصورة اذا نظر الى الشىء بعينين بأن صورة الشىء تتادى فى كل عين ، حتى اذا وصلت الى ملتقى بصر العينين انطبقت الصورتان اذا كانتا متماثلتين مع انهما صورتان لا صوره واحدة ، ثم دلل على صدق نظريته بأنه غمزت احدى العينين بالاصبع غمزا لطيفا عند التحديث الى مبصر من المبصرات رؤى المبصر اثنين لا واحدا حيث لا تكون صورته الحاصلة فى كل من العينين فى وضع شبيه بوضعها فى العين الاخرى .

ويقول الاستاذ مصطفى نظيف عن نظرية ابن الهيثم « والفكرة الاساسية التى بنى ابن الهيثم عليها شرحه كيفية ادراك المبصر واحدا بالنظر اليه بالبصرين معا صحيحة ، وهى الفكرة المعتمدة فى وقتنا الحاضر ، بل لانغالى اذا قلنا أن تصوير ابن الهيثم للامر بتفصيلاته التى ذكرها صحيح الى أبعد مما نظن أول وهلة » (٣) .

وابن الهيثم أول من أقام التجارب على « البيوت المظلمة » ودخول الضوء اليها من الثقوب . ويقول الاستاذ مصطفى نظيف أن الاصطلاح الافرنجى Camera obscura لابد أنه ترجمة مباشرة لكلمة « البيوت المظلمة » التى وردت كثيرا فى أقوال ابن الهيثم (٤) .

والمناسبة التى أجرى ابن الهيثم تجاربه على البيوت المظلمة كانت بصدد اثبات أن ضوء الشمس يشرق من جميع أجزاء سطحها ، فأجرى التجارب على ضوء الشمس مدخلا اياه من ثقب يوصل الى غرفة مظلمة فتبين له انه ينتشر داخل الغرفة انتشارا واسعا مما يدل على انه يصدر من أجزاء مختلفة من الشمس . ويقول الاستاذ مصطفى نظيف « فمن المرجح انه وهو يمعن النظر فى مواقع الاضواء النافذة من الثقوب قد عرض أمام بصره فى بعض تلك التجارب صورة منكوسة لجسم موجود فى الخارج ، وأن كنا حقا لا نجد لهذه الظاهرة ذكرا صريحا فى أقواله

---

(١) Mallik فى Optical theories

(٢) كان العلماء فى القديم يعنون من علم الضوء بثلاثة امور — الامر الاول نظرية الابصار — الثانى تغير حجم المرئيات بالقرب والبعد ، والثالث انعكاس الضوء ، ويسمى العلم الذى يبحث فى هذه الامور الثلاثة بالمناظر .

(٣) ص ٣٠٢

(٤) هامش رقم ٤ ص ١٨١ من المرجع السابق وانظر أيضا نفس المتن .

فى « صورة الكسوف » (١) تدل على انه كان يعلم على التحقيق بتكون الصور بواسطة الثقوب الضيقة فحسب ، بل انه عالج ايضا ناحية تبينت له من هذه الظاهرة، وهذه الظاهرة هى الشروط اللازمة لوضوح الصورة الحاصلة بواسطة الثقب ، اذ يرى ابن الهيثم أن الثقب يجب أن يكون ضيقا للحصول على صورة واضحة ، ولكن لا ينبغى أن يكون الضيق شديدا حتى لا يقل الضوء فتكون الصورة أدنى الى الى الخفاء عن البصر .

وليست هذه كشوف ابن الهيثم البصرية وحدها ، بل أن له نظريات صائبة فى انتشار الضوء والالوان والابعاد والمرايا المحرقة وخداع البصر ..

(١) حررها كمال الدين أبو الحسن الفارسى ووردت فى ذيل كتابه تنقيح المناظر لذوى الابصار والبصائر .

سادساً : علم الفلك

كان للعرب قبل الاســلام معرفة بدائية بعلم النجوم ، وقــد تقدم هــذا العلم أيام الخلفاء العباسيين ، وخاصة فى عصر المأمون ، وقد اشتهر فى علم النجوم بنو شاكر ، وهم محمد واحمد وحسن ، وقد قاسوا للمأمون درجة خط نصف النهــار مستعملين فيهــا محيط الأرض ، والفوا كتبا فى الهندسة والفلك ، ومنهم أبومعشر البلخى المتوفى سنة ٢٧٢ هـ وثابت بن قرة الحرانى المتوفى سنة ٢٨٨ هـ ، وابو الوفا البوزجانى والبيرونى وعمــر بن ابراهيم الخيــام صاحب الرباعيات (١٠٣٨ — ١١٢٢ م) .

— ١ —

البتــانى

أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحرانى الصائبى المعــروف بابتانى ولد قبــل عــام ٨٥٨/٢٤٤ وتــوفى على مقــربة من ســامــرا ٩٢٩/٣١٧ م. ويرجح أن مولده كان فى حران أو ما يجاورها وكانت أسرته من الصائبة ، واقام معظم حياته فى الرقة ثم ذهب الى بغداد فى عمل له ، وتوفى عند عودته منها بالقرب من سامرا سنة ٩٢٩/٣١٧ م .

كتبــــــــه :

كتاب معــرفة مطالع الروح فيما بين أرباع الفلك . رسالة فى تحقيق أقدار الاتصالات . شرح المقالات الاربــع لبطليموس . واهم تصــانيفه « الزيج » ولم يصل الينا غيره .

جهوده فى الفلك :

حدد بكثير من الدقة ميل الدائرة الكسوفية وطول السنة المدارية والفصول والمدار الحقيقى والمتوسط للشمس ، واثبت خطأ بطليموس الذى قال بثبات الاوج فبرهن على أن هذا الأوج تابع لحركة المبادرة الاعتدالية وبالتالى تغير معادلة الزمن تغيرا بطيئا على مر الاجيال . واثبت على عكس ما ذهب اليه بطليموس ، تغير القطــر الزاوى الظــاهرى للشمس واحتمــال حدوث الكسوف الحلقى . واستنبط نظرية جديدة فى غاية الدقة لمعرفة مولد الفكر وصحح جملة من حركات القمر والكواكب السيارة وضبط تقدير بطليموس لحركة المبادرة الاعتدالية . وله رصود جليــلة للكسوف والخســوف ، وابتكر حلولا بواسطة المسقط التقريبى لمســائل فى حســاب المثلثات الكبرى(١) ، وقــاس انحراف سمت الشمس وزيوج الاعتدالين ، بما يقرب من قياسهما فى العصر الحاضر .

---

(١) انظر مقال كارلو نللينو عن البتانى دائرة المعــارف الاسلامية .

— ٢ —

مسلمة المجريطى

هو ابو القاسم مسـلمة بن احمد المعروف باقليدس الاندلس عاش فى ايام الحكم المستنصر وتوفى فى ١٠٠٤/٣٩٤ وله رسالة الاسطرلاب وثمار علم العـدد وملخص لزيج البتانى سماه تعديل الكواكب ، وعنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى(١) ، وصرف تاريخـه الفارسى الى التاريخ العربى ، وترجم كتاب بطليموس المعروف بقبة الفلك .

— ٣ —

الزرقـــالى

هو ابراهيم بن يحيى النقاش الزرقالى القرطبى — ظهر فى طليطلـة بين سـنتى ١٠٦١/٤٥٢ و ١٠٨٠/٤٧٢ ويعـرف فى الاسبانى بازراقيل وضع جداول فلكية وركب اسـطرلابا واخترع اجهزة دقيقة كالزرقالية ، والصفيحة (Asafea) وابتكر نظريـات هامـة عن الكواكب السيارة والحركات الدائرية للنجوم، وعنه اخذ الفونسو العاشر وعلماؤه ومن امثلة ذلك كتاب « الأفق » او كتاب افق الدنيا ، و «رسالة العمل بالصفيحة» وطريقة عمل اسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وافلاكها .

---

(١) طبقات الامم ص ١٠٧

سابعا : في الطب

عرفت مما سبق ان ذكرناه كيف استقدم خلفاء بني العباس أطباءهم في أول الامر من مدينة جند يسابور ، وكيف رعوهم في بلاط بغداد ، وربما كان الطب هو بداية الاتصال بين المسلمين والثقافات الاجنبية وربما هو الذى حببهم فيها .

لقد عنى المسلمون عناية خاصة بالطب حتى نبغ فيه الكثيرون ، ويحكى ابن أبى أصيبعة أنه كان فى بغداد سنة ١٩٣١ / ٨٦٠ طبيبا(١) ، وأن جبريل بن بختيشوع جمع من وراء هارون الرشيد والمأمون والبرامكة ثروة قدروها ــ ٨٨٫٨٠٠٫٠٠٠ درهم وهى تساوى ٧٫١٠٤٫٠٠٠ دولار كما قدرها الأمريكى ول ديورانت ، وبلغ عدد أطباء النصارى الذين كانوا فى خدمة المتوكل ٥٦ طبيبا(٢) . وكان الاطبــاء يخضعون لنظام الامتحان والرخص ، وكان من المشرفين على امتحان الاطباء زكريا بن الطيفورى الذى عهد اليه الافشين بهذه المهمة (٣) .

وقد شهرت أسرة بختيشوع بالطب فى جنديسابور وبغداد ، كما شهرت فى الاندلس أسرة بنى زهر ، انجبت من الاطباء أبا مروان عبدالملك محمد بن زهر صاحب كتاب التيسير وابنه أبا العلاء ، ثم مروان بن أبى العلاء الذى الف كتابا اسمه « الاقتصاد فى اصلاح الانفس والاجساد. ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الملك ، خلف رسالة فى طب العيون ، وابنه أبو محمد عبد الله .وقد عاش هــؤلاء بين القــرن الخامس والسادس الهجرى .

---

(١) طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٢٢
(٢) طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٤٠
(٣) أبو الفرج ص ٢٤٤

ابو بكر الرازى

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى ، احد مشاهير الطب والكيميـاء والفلسفة ولـد عام ٨٦٤/٢٥٠ فى الرى وتوفى بها عام ٩٢٥/٣١٣ (أو ٣٢٣ كما يقول البيرونى) .

درس فى شبابه الرياضيات والفسلفة والفلك والادب ، ولعله درس الكيمياء فى شبابه أيضا ، أما الطب فقد درسه على كبر .

خدم صاحب الرى ودير مارستانها الجديـد ودير مارستان بغـداد ، وكان اشهر طبيب فى زمانه . ولذلك كان ينتقل من بلاط الى بلاط . ولم ينعم بالاستقرار فى حياتـه لتقلب الاحوال السياسية ، وعاد اكثر من مرة الى مسقط رأسه — الرى — حيث توفى هناك .

وكان رجلا كريما متفضلا بارا بالناس حسن الرأفة بالفقـراء والاعـلاء فكان يجـرى عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم ، وكان لا يفارق النسخ مسودا أو مبيضا ، وعمى آخر عمره ، وكان يقول أنه قرأ الفلسفة على البلخى (هو غير أبى زيد البلخى المعروف)(١) .

أما كتبه فهى تزيد على المائة والثلاثين(٢) .

واشهر كتبه المطولة فى الطب كتابه المنصورى الذى أهداه الى منصور بن اسماعيل(٣) والى الرى ويعرف فى أوروبا باسم Liber Almansoris وهو فى عشرة أجزاء .

وكتاب الحاوى ، وهو من عشرين جزءا لم يبق منها الآن الا عشرة أجزاء موزعة فى مكاتب العالم .

وكتابه الملوكى أو الملكى وهو المعروف فى العالم الأوربى باسم Regius كتبه الى على بن ويهذان صاحب طبرسـتان(٤) أو الى عضد الدولة ابن بويـه(٥) .

واشهر رسالة لـه هى رسالة فى الجدرى والحصبة وفيها تكلم عن الامراض المعدية وفرق بين المرضين ، وشرح أعراض المرض فى كافة مراحله وعلاجه .

والرازى فوق علمه بالطب كيمائى مشهور ، درس الكيمياء القديمة (الخيمياء) والحديثة ، وقـد اطرح كل التفسـيرات الخفية والرمزية للظواهر الطبيعية والى الرازى يرجع الفضـل فى تركيب حامض الكبريتيك حيث حصـل عليه بطريقة تقطير الزاج الجاف الاخضر وهى نفس طريقة نورد هاوزن فى العصر الحاضر(٦) .

واشتملت كتب جابـر على بيـان كثير من المركبات الكيماوية التى كانت مجهولة قبله كماء الفضـة (حامض النتـريك) ومـاء الـذهب (النتروهيدروكلـوريك) والبوتـاس وملـح النوشـادر ، وحجـر جهنم (نترات الفضة) والسليمانى (كلوريد الزئبق) والراسب الاحمر (اكسيد الزئبق) .

وفى كتبه أعمالا أسـاسية كالتقطير والتصعيد والتبلور والتذويب والتحويل(٧) .

والرازى فوق علمه بالطب والكيمياء فيلسوف له آراء جريئة ، فهو يرى استحالة التوفيق بين الفلسفة والدين . ومن أجل ذلك نرى له بعض الرسائل تحوى مروقا عن الدين كرسالة مخاريق الانبياء ، ورسـالة حيل المتنبين ، وهذه الرسالة كانت تقـرأ فى حلقات الزنادقة وخاصـة بين القرامطة .

---

(١) مقال P. Graus, و Pines فى دائرة المعارف الاسلامية ، وانظر ايضا كتاب الهند ص ٤ ، ٢٣٦ والآثار الباقية للبيرونى ص ٢٢٢ ، ٥٢٢ .
(٢) الفهرست ص ٤١٦ .
(٣) الفهرست ص ٤١٦ ، ٥٠٤ .
(٤) الفهرست ص ٤١٥ .
(٥) مقال P. Graus, S. Pines فى دائرة المعارف الاسلامية .
(٦) التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢٠٢
(٧) حضارة العرب لجوستاف لوبون ص ٤٧٦

الزهـــــراوى

هو ابو القاسم خلف الزهراوى ، نسبة الى مدينه الزهراء ، وهو معروف فى العالم اللاتينى باسم ابو لكاسيس . ولد سنة ٩٣٦/٣٢٤ وتوفى سنة ١٠١٣/٤٠٣ وكان طبيب البلاط الملكى فى قرطبـــة .

واشـــهر مؤلفاته « التصريف لمن عجز عن التأليف ، وهو ينقسم الى ثلاثة أبواب : الباب الاول فى مسائل الكى ، والباب الثانى فى العمليات التى تحتاج الى المبضـــع وفى جراحة الاسنان والعيون والفتق والولادة وسحق الحصـــاة فى المثانة ، والباب الثالث فى الكسر والانخلاع ، وعلى ما فى هذا الكتاب من ضـــعف فى التقسيم نرى مافيه من المصارف العملية دقيقا جدا .

واهم مافى الكتاب قسمه الجراحى ، فقد تخيل ابو القاسم كثيرا من آلات الجراحـــة علما ـــ ورسمها فى كتابه ، وقد جعل الجراحة علما قائما بذاته مستقلا عن فروعه الاخرى ، واقامها على أساس تشريحى ، وبذلك يكون قد وضع أساس الجراحة الحديثة .

٣

ابن سـينا

سبق أن ذكرنا ابن سينا بين الفلاسفة ، والآن نذكره بين الاطباء(١) .

كتب ابن سينا كتاب القانون فى الطب ، وهو فى عدة كتب يبحث أولها فى الأمراض الخطيرة فيصف اعراضها وتشخيصها وطرق علاجها وفيه فصول عن طرق الوقاية ؛ والوسائل الصحية العامة والخاصة ، والعلاج بالحقن الشرجية ، وبالحجامة والكى والاستحمام والتدليك ، وبالتنفس العميق والصياح من حين الى حين لتقوية الرئتين والصدر واللهاة . وفى الكتاب الثانى ملخص لما عرفه اليونان والعرب من النباتات الطبية . ويبحث الكتاب الثالث فى بعض الامراض وطبائعها كالتهاب البلورة ، والدبيلة (اى الاميبا وهو تجمع الصديد فى جوف البلورة) والنزلات المعوية والامراض التناسلية وفساد الشهوة والامراض العصبية بما فيها الحب . ويبحث الكتاب الرابع فى الحميات والجراحة وأدهان التجميل والعناية بالشعر والجلد . وقد تكلم الكتاب الخامس عن العقاقير الطبية مفصلا طريقة طبخ سبعمائة وستين نوعا من العقاقير .

وعلى الجملة فالكتاب قاموس فى الطب ، جمع فيه صاحبه خلاصة ما وصل اليه اليونان والكلدان والهنود والفرس والعرب ، ونقد طرق الطب والعلاج عند هؤلاء واضاف اليها من تجاربه الكثير .

---

(١) أنظر سيرته بين الفلاسفة .

ثامنا : علم الصنعة (الكيمياء)

١

جابر بن حيان

جاء فى الفهرست لابن النديم(١) ما يلى : —

« هو أبو عبد الله(٢) جابر بن عبد الله الكوفى المعروف بالصوفى(٣) . واختلف الناس فى أمره ، فقالت الشيعة أنه من كبارهم واحد الابواب ، وحدثنى بعض الثقات ممن تعاطى الصنعة انه كان ينزل فى شارع باب الشام فى درب يعرف بدرب الذهب ، وقال لى هذا الرجل أن جابر كان أكثر مقامه فى الكوفة ، وبها كان يدبر الاكسير لصحة هوائها .... وقال جماعة من أهل العلم واكابر النواقين . أن هذا الرجل ، يعنى جابر ، لا اصل له ولا حقيقة ، وبعضهم قال أنه ماصنف ، ان كان له حقيقة الا كتاب الرحمة ، وأن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه اياها ، وانا اقول أن رجلا فاضلا يجلس ويتعب ويصنف كتابا يحتوى على الفى ورقة ، يتعب قريحته وفكره باخراجه ، ويتعب يده وجسمه بنسخه ، ثم ينحله لغيره ، اما موجودا أو معدوما ، ضرب من الجهل ، وأن ذلك لا يستمر على أحد ، ولا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم ، وأى فائدة فى هذا ، وأى عائدة ؟ والرجل له حقيقة وأمره اظهر واشهر ، وتصنيفاته أعظم واكثر » .

كتبــــــه :

كتب جابر فى شتى الفنون : كتب فى مذاهب الشيعة ، وفى الصيدلة والطب والنبات والفلسفة ، واورد ابن النديم ما يقرب من مائتى كتاب له . أما ما حكاه هو عن نفسه فانه يرفع من هذه الكتب الى ما يزيد عن الألفين ويوجد من كتبه فى المكتبات الاوربيــــة اثنان وعشرون كتابا ، طبعت منها خمسة (الملك — الموازين الصغير — الرحمة — التجميع — الزيبق الشرقى) .

آراؤه :

هو تشبيهى مسرف ، أو روحانى مسرف يعد المعدن كائنا حيا ينمو فى بطن الارض أمرا طويلا ، آلاف السنين ، وينقلب من معــدن خسيس ، كالرصاص الى معدن نفيس كالذهب ، وغاية علم الكيمياء الاسراع بهذا التحويل . وهو يطبق مذاهب الزواج والحمل والتعليم والحياة والموت على المعادن ، فالمــواد الغليظة الارضية ميتة والمنيرة اللطيفة حية ، ولكل جسم كيميائى نفس وجسم ، جــزء روحى وجــزء مادى ، وعمل الكيميائى أن ينصل هذا من ذاك ويلطفه ثم يعطى لكل جسم الطبع الذى يناسبه .

وقد نسبت بعض الروايات عن الفرس لجابر مكتشفات كيميائية كماء الذهب وحامض الكبريت وحامض الازوتيك ونترات الفضة ، ولكن واحدا من هذه الاكتشافات لم يظهر فى المؤلفات العربية ، ولكنها ظهرت بعد ذلك فى المؤلفات اللاتينية التى ترجع الى القرن الثالث عشر . وعلى ذلك فان تقدير نصارى القرون الوسطى لكيمياء المشرق لا يستند الى وقائع مقررة يمكن تمحيصها(٤) .

وكيمياء جابر تقوم على الطريقة التجريبية ، فقد استغنى عن الرموز والتشبيهات الهرمسية التى ترجع فى آخر أمرها الى قدماء المصريين (٥) .

---

(١) ص ٤٩٨ و ٤٩٩

(٢) فى مقال كارادى فو فى دائرة المعارف الاسلامية ان كنيته « أبو موسى » (وقد اورد هذه الكنية ابن النديم فى بعض كلامه) بالطوبى أو الطرطوسى . واحيانا يلقب بالحرانى لانه كان اول أمره من صائبة حران ثم أسلم ، وأن البعض يقولون أن من شيوخه خالد بن يزيد .

(٤) كارادى فو فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٥) P. Graus فى دائرة المعارف الاسلامية

٢

ابن البيـــطار

هو ضياء الدين ابو محمد عبد الله بن احمد ، ولد سنة ١١٩٧/٥٩٣ — واصله من مالقة وسكن اشبيلية وتجــول فى المغرب وآسيا الصغرى والشام ، ومصر فى ايام الملك الكامل وتوفى فى دمشق سنة ١٢٤٨/٦٤٥ . واهم كتاب له «كتاب الجامع لمفردات الأغذية والادوية » نشر فى بولاق فى اربعة مجلدات سنة ١٨٧٤/١٢٩١ .

والكتاب معجم ابجدى للاغذية والادوية ويضم اكثر من ٢٣٣٠ مادة جمعها من كافة ما كتب فى كتب سابقة من اليونـان والعـرب كابن جلجل والغافقى ، وزاد عليهم ثلاثمائة دواء من كشفه هو . وله كتاب آخر اسمه « المغنى » فى الادوية المفردة ، وهو مؤلف فى الاعشاب الطبية .

ومن تلاميذه ، ابن ابى أصيبعة صاحب معجم عيون الانباء فى طبقات الاطباء .

تاسعا : العلوم الاجتماعية

التـــــاريخ

يعتبر المسلمون أغنى الامم بالمؤرخين وقد عد حاجى خليفة فى كشف الظنون ١٢٠٠ مؤرخا . ونذكر منهم الطبرى وقد تقصى تاريخ العالم منذ بدء الخليقة الى سنة ٩١٤ م والمسعودى وقد عاش فى القرن العاشر الميلادى والف مروج الذهب ، وهو خليط من الجغرافيا والتاريخ ، وأبو الفرج المتوفى سنة ١٢٨٦ م.

وينقص المؤرخين المسلمين روح النقد كما هى الحال فى معظم مؤرخى العصور الوسطى . ومع ذلك فان ابن خلدون لم يجر فى بحوثه التاريخية على الطريقة التقليدية وانما نهج نهجا علميا فادخل باب النقد فى علم التاريخ .

ابن خـــــلدون

نشــــــاته :

هو أبو زيد ولى الدين عبد الرحمن المشهور بابن خلدون نسبة الى جده التاسع .

وهو ينحدر من أصل يمانى حضرمى ، واشتهر من قومه وائل بن حجر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد هاجر جده التاسع خالد بن عثمان الشهير بخلدون الى الاندلس ، واستقر قومه بمدينة قرمونة ، ثم هاجروا الى اشبيلية . وقد بدأ مهدهم يسطع فى القرن الثالث فى عهد الامير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الاموى (٢٧٤ — ٣٠٠ هـ) .

وقد اشترك كريب وخالد من آل خلدون فى ثورة ضد الامير عبد الله انتهت بأن استبد كريب بأمر اشبيلية وصار[1] اميرا عليها حتى قتل .. واشترك بعض منهم فى محاربة الفونسو السادس ملك قشتاله الى جانب ابن عباد فارتفع شأنهم وولى الوزارة بعضهم فى عهده ثم هاجروا الى تونس فى أواخر عهد الموحدين .

وقد ولد عبد الرحمن بن خلدون فى تونس سنة ٧٢٢هـ / ١٣٣٢ م وتلقى العلم صبيا على أبيه ثم على غيره . درس القرآن وأجاد قراءته ، ودرس العلوم الشرعية والعلوم اللسانية واجاد الشعر ، وكان أستاذه فيها محمد بن عبد المهيمن الحضرمى ودرس العلوم العقلية على ابى عبد الله محمد ابن ابراهيم الآبلى .

توفى أبواه سنة ٧٤٩ وهو فى الثامنة عشرة من عمره على أثر وباء الطاعون الذى انتشر فى الشرق من سمرقند الى المغرب ، كما انتشر فى أوروبا وكان خطرا على ابن خلدون ، اذ قضى على حياة أساتذته فانصرف عن الدرس ووجه رغبته الى تولى الوظائف العامة . فتولى للسلطان أبى اسحق بن أبى يحيى سنة ٧٥١/١٣٥٠ م وظيفة « كتابة العلامة » اى ديباجة المخاطبات والمراسيم باسم السلطان المحجور عليه ، ثم فر الى بسكرة بالجزائر بعد هزيمة وقعت لجيش الوزير ابن تافراكين ، وكان ابن خلدون يحارب معه ، ثم قدم الى فاس حيث عين عضوا فى المجلس العلمى للسلطان ابى عنان الذى اتخذه فيما بعد بين كتابه ، واستأنف فى ذلك العهد حياته العلمية ، غير

---

(١) التعريف لابن خلدون ص ٣٩

ان ذلك لم يدم اكثر من عامين ، انتهيا بحبسه فى مؤامرة ضد العرش سنة ٧٥٨ هـ ، ثم أطلق سراحه ثم عـذر ثانية فى عهد غيره طمعا فى وظائف الرياسة ، ولما لم يلق بغيته مع السلاطين والوزراء هاجر الى غرناطة سنة ٧٦٤ ومكث فيها سنتين حيث حدثت الفرقة بينه وبين لسان الدين بن الخطيب وزير ابن الاحمر الاصرى ، فعاد الى بجاية بالمغرب حيث تولى الحجابة لاميرها ، ولكن القطيعة دبت بينهما ففر الى بسكره ، ثم أخذ ينتقل فى غمار الحياة السياسية من بلد الى بلد حتى رجع الى غرناطة بالاندلس مرة ثانية سنة ٧٧٦ ولم يلبث أن فارقها فى العام نفسه الى المغرب حيث استقر فى قلعة ابن سلامه من بلاد بنى توجين وعمره يومئذ خمسة وأربعون سنة .

ويبدو ان ابن خلدون كان ذا نفس تواقة الى المراكز العليا فى الدولة ، ويظهر ايضا أنه كان ذا شخصية فذة أدبت بالسلاطين والوزراء فى الاندلس والمغرب أن يهابوه ، فهم يرغبونه بما دون الوزراء ، ويخشون عليها منه ، فلا تدوم صلات الود بينه وبينهم الا قليلا .

قضى ابن خلدون فى معزله هذا اربع سنوات الف خلالها مقدمة كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » وهى المعروفة بمقدمة ابن خلدون. وكان ابن خلدون فى معظم ما يكتبه يعتمد على ذاكرته وبعض المراجع القليلة ، فرأى العودة الى تونس للتزود من مكتباتها ، ولما عاد اليها قام بالتدريس أربع سنوات ، الف خلالها بقية الكتاب ورفع نسخته الى السلطان ابى العباس سنة ٧٨٤ هـ ، ثم هاجر الى مصر وقام بالتدريس فى الجامع الازهر فى عهد السلطان برقوق ، وكان يقوم بتدريس المذهب المالكى . وفى سنة ٧٨٦ عين قاضيا لقضاة المالكية ، وفى سنة ٧٨٧ أعفاه السلطان من منصبه لسبب غير واضح ، واقتصر على منصب التدريس بمدرسة القمحية والمدرسة الظاهرية البرقوقية فى حى بين القصرين . وفى سنة ٨٠١ عين مرة ثانية قاضيا لقضاة المالكية ثم سافر الى دمشق واتصل بالغازى تيمور لنك رغبة فى مركز سياسى فلم يوفق ، فعاد الى مصر مرة أخرى وتولى منصب قاضى القضاة للمرة الثالثة ثم عزل منه سنة ٨٠٣ ، ثم عين فى هذا المركز ثلاث مرات أخرى الى أن توفى فى ٢٦ رمضان سنة ٨٠٨ هـ ١٦ مارس ١٤٠٦ م .

وفى أثناء مقامه بمصر اضاف الى كتابه فصولا عدة .

مؤلفاتــــه :

كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » :

لم يصلنا من الكتب التى الفها عبد الرحمن بن خلدون الا كتابا واحدا ، وهـذا الكتاب يشمل ما يلى : —

(أ) خطبة الكتاب ومقدمته والكتاب الأول منه . وقد جمعها كلها فى مجلد واحد يطلق عليه الآن « مقدمة ابن خلدون » وهذه المقدمة هى التى خلدت ذكر الكاتب ، فقد كانت بحق أساسا بنى عليه علم الاجتماع الحديث .

(ب) الكتاب الثانى ويشمل المجلد من ٢ـ٥ ، وقد خصص جزءا يسيرا منه (لا يعدو ربع المجلد الأول) للكلام عن أخبار العرب واجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة وبعض من عاصرهم من الامم ، وخصص الجزء الباقى (ويشمل الجزء الاكبر من المجلد الثانى وجميع المجلدات الثالث والرابع) . لدراسة الدول الاسلامية منذ بدء الخليقة والدول التى اتصلت بها بعد الاسلام .

(ج) الكتاب الثالث ، ويقع فى المجلدين السادس والسابع ، وقد وقفه ابن خلدون على تاريخ البربر أو ما يسمى الآن بشمال أفريقيا .

(د) ملحق للكتاب جاء فى آخر المجلد السابع سماه « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب» وفى بعض النسخ الاخرى « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » وتشمل ترجمة مستفيضة لنفسه وما حدث له ومغامراته ومراسلاته وما جرى له من محادثات مع الملوك والسلاطين والوزراء وتعد هذه القطعة من الكتاب مثلا أعلى فى منهاج تاريخ المؤلفين لأنفسهم .

وقد أدخل ابن خلدون على كتابه تعديلات أثناء اقامته بمصر وزاد عليه فصولا ، دفعه الى ذلك المامه بمراجع كثيرة بمصر ومشاهدته لبعض الشواهد التاريخية بنفسه .

ويظهر من كتابه ابن خلدون هذا أنه أحاط بكافة العلوم المعروفة فى عصره أحاطة تامة ، تشهد بذلك مقدمته التى جمعت الى علم الاجتماع معلومات فى الدين والادب والحساب والجبر والمقابلة والطبيعة والكيمياء والهندسة والفلك .

مؤلفاته الاخــرى :

يذكر لسان الدين بن الخطيب فى كتاب الاحاطة فى أخبار غرناطة ان ابن خــلدون شرح البردة ولخص كثيرا من ابن رشـــد وكتب تعليقـــا فى المنطق ولخص مختصر الامام فخر الدين الرازى وشرع فى شرح الرجز الذى الفه لسان الدين نفسه فى أصول الفقه (ولم يذكر كتاب العبر لأن لسان الدين توفى قبـــل تأليف ابن خلـــدون لهذا الكتاب) .

ومهما يكن من شىء فأن هذه المؤلفات التى أشار اليها لســـان الدين بن الخطيب لم تصل الينا ، ولعلها فقدت فى احدى رحلاته أو مغامراته، لأن حياته الأولى كانت قلقة الى حد ما ، وهى تلك الفترة من عمره التى تكلم عنها لسان الدين ابن الخطيب ، اما مؤلفه الباقى « العبر » فقد الفه بعد ان استقر الى حد ما .

بيد ان هنـــاك اهم كتب ابن خلـــدون كتابه « العبر » واهم ما فى هـــذا الكتاب مقدمته التى أراد بها تخليص المعلومات والبحوث التاريخية من الأخبار الكاذبة ، فهو يقصد اذن أن يضع ميزانا اجتماعيا توزن فيـــه الوقائع والروايات حتى يتبين منها المحتمل والبعيد الاحتمال ولايقتصر هذا الميزان على الوقائع التاريخية أو الماضية فحسب ، بل أنه ينير الطريق لمؤرخى المستقبل حتى يتمكنوا من غربلة الوقائع التى يؤرخها كما انه ينير الطريق لقادة الفكر وسادة الدول بأن يعتبروا فيتخذوا من القواعد التى وضعها نبراسا يهتدون بنوره لا تزل أقدامهم وتكون أحـــداث الماضى عبرة لتفادى مثيلاتها فى المستقبل .

شجعت الرحلات التجارية المسلمين على دراسة جغرافية الأرض التى كانوا يسعون للرزق فيها ، فكان كثير ممن كتبوا فى جغرافية البلاد من التجار وفى ذلك يقول جوستاف لوبون(١) « كانت طليعة رواد العرب مؤلفة من تجار يسيحون للتجارة ، وعلى ما كان يعوز هؤلاء من الاستعداد الضرورى للتأمل العلمى لم تخل رحلاتهم التجارية من طرائف فى بعض الاحيان » .

« حقا لم يخرج امر سياحات العرب القديمة التى انتهى الينا خبرها عن ذلك المعنى ، ومنها سياحة التاجر سليمان لبلاد الصين فى القرن التاسع من الميلاد ، فقد أبحر سليمان من مرفأ سيراف الواقع على الخليج الفارسى حيث كانت المراكب الصينية كثيرة ، وجاوز المحيط الهندى ، وبلغ شواطىء بلاد الصين وكتب رحلته فى سنة ٨٥١ م ، ثم اكمل احد ابناء وطنه ، ابو زيد ، كتاب هذه الرحلة سنة ٨٨١ م ، واضاف اليها معارف أخذها عن عرب زاروا بلاد الصين»

ظهرت طلائع الجغرافيين فى الاسلام فى النصف الأول من القرن الثالث ، فكتب ابن خرداذبة كتابه المعروف « المسالك والممالك » حوالى سنة ٢٣٢ هـ . ويعترف فيه بأنه اعتمد فى بيان حدود الأرض على ما كتبه بطليموس (٢) وهو كتاب مختصر جدا .

وكتب قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠ هـ كتاب « الخراج وصنعة الكتاب » وصف فيه الدولة الاسلامية وما جاورها من الدول . وهو مختصر أيضا .

وكان اليعقوبى (٣) أول جغرافى كتب فى تقويم البلدان معتمدا علىملاحظاته وأخرج كتاب البلدان بعد أن طوف بأرمينية وخراسان ومصر والمغرب والهند .

والف المسعودى مروج الذهب حوالى سنة ٣٣٢ . وهو خليط من الجغرافيا والتاريخ دونها فى رحلة الى أفريقيا والصين .

فى القرن الرابع أيضا ظهر المقدسى فألف كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، وصف فيه بلاد الاسلام بعد التطواف . بها بلدا بلدا .

وقد كتب كل ما كتب معتمدا على المشاهدة والتجربة . يدلك على ذلك قوله انه لم يتكلف وصف بعض الدول لانه لم يدخلها (٤) ويذكر المقدسى أنه رسم خريطة مثل فيها الاقاليم وحدودها وخططها وبين فيها الطرق المعروفة بالحمرة والرمال الذهبية بالصفرة والبحار بالخضرة والانهار بالزرقة والجبال بالغبرة ولكن هذه الخريطة لم تصل الينا .

أما ابن حوقل وكان معاصرا للمقدسى فانه كتب « المسالك والممالك » ويقول انه شاهد كل ما كتبه عن مملكة الاسلام الا الصحراء الكبرى فيعترف بأنه لم يشاهد جميعها (٥) .

وابن بطوطة الذى بدأ سياحاته سنة ١٣٢٥ من مدينة طنجة متجولا فى افريقيا الشمالية ومصر الجنوبية والقسطنطينية وبلاد الهند ، وبكين فى الصين وسيلان وسومطرة وجاوة ، وانتهى من هذه الرحلة فى ٢٤ عاما ثم استأنف رحلاته الى الاندلس وأوغل فى قلب أفريقيا حتى انتهى الى مدينة تمبكتو على نهر النيجر .

ونذكر من الجغرافيين أيضا الاصطخرى والمقدسى والقزوينى ولكن مع ذلك فلم تكن معلوماتهم سوى كشف بعض البقاع من الأرض وتدوين مشاهداتهم عنها دون أن تكون خالصة لعلم الجغرافيا بمعناه الدقيق .

أما ياقوت الحموى صاحب معجم البلدان الذى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى فان كتابه حافل بالوثائق عن جميع البلدان التى تتألف منها دولة الخلافة . وقد كتب فى الجغرافية أيضا أبو الفداء (١٢٧١ — ١٣٣١ م) ولكنه كان ناقلا عن غيره أكثر منه راحلا .

اما الجغرافى الذى قام بعمل ايجابى فذ ، فانه الادريسى الاندلسى .

---

(١) حضارة العرب ص ٤٦٥ و ٤٦٦
(٢) المسالك والممالك ص ٣
(٣) أحمد بن أبى يعقوب من واضح الكاتب المعروف باليعقوبى .
(٤) أحسن التقاسيم ص ٩ وما بعدها .
(٥) المسالك والممالك ص ١١١

— ١ —

البـــيرونى

هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى ولد سنة ٩٧٣/٣٦٢ بضاحية من ضواحى خوارزم ، فهو من أصل فارسى . درس الرياضيات والفلك والطب والتقاويم والتاريخ ، وكان لـــه اتصال بابن سينا .

وذهب البيرونى فى حداثة سنه الى الهند مرافقا للسـلطان محمـود الغزنوى ، وتعلم اللغـة السنسكريتية التى اعانته على دراسة العـلوم الهندية واليونانية . ولما عاد من الهند استقر فى البلاط الغزنوى .

وكان البيرونى شـديد الصـبر على القراءة والبحث ، يحدثنا عنه ياقوت قال(١) : « ولايكاد يفارق يده القلم ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر ، الا فى يومى النيروز والمهرجان من السنة لاعداد ما تمس اليه الحاجة فى المعاش من بلغة الطعام وعلقة الرياش ، ثم هجيراه فى سائر الايام من السنة علم يسفر عن وجهـه قناع الاشكال ، ويحسر عن ذراعيه كمام الاغلال .

ويقول الفقيه أبو الحسن(٢) : على بن عيسى الولوالجى : دخلت على أبى الريحـان ، وهو يجود بنفسـه ، قد حشرج نفسـه وضاق به صدره ، فقال له تلك الحال : كيف قلن لى يوما حساب الجدات الفاسـدة ؟ فقلت له اشفاقا عليه : أفى هذه الحالة ؟ ! قال لى : يا هذا ، أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، الا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها ؟ فاعدت ذلك عليه وحفظ ، وعلمنى ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا فى الطريق فسمعت الصراخ .

فاذا أضفت الى ذلك أنه لمـا كتب « القانون المسعودى » لمسعود بن محمود غزنوى أجازه بحمل فيل من الفضة رفضه بعذر الاستغناء عنه ورفض العادة فى الاستغناء به ، اذا عرفت ذلك أمكنك أن تقدر مدى اخلاص الرجل لعلمه .

وقد توفى رحمه الله فى غـزنة عام ٤٤٠ — ١٠٤٨ .

كتبـــه :

كتب « الآثار الباقية عن العصور الخالية » وهو دائرة معارف فى الرياضيات والفلك والطب والتقاويم (الجغرافيا) والتاريخ . وقد كتبه وهو فى سن الثلاثين بين سنتى ٣٩٠ و ٣٩١ هـ .

و « فى تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرذولة » وهو كتاب وضـعه عن أحوال الهند فى الفلك والرياضة والفلسفة وتكلم عن الهند فى ٤٢ فصـلا من الكتاب وفرق بين الصوفية الهندية واليونانية وقارن بين فلسـفة الهند وفلسفة اليونان .

وعندما رجع البيرونى من الهند واستقر فى البلاط الغزنوى ألف كتابا للسلطان مسـعود ابن محمود عام ٤٢١ سماه القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم ورسالة قصيرة فى الهندسـة والحسـاب والتنجيم « التفهم لأوائل صـناعة التنجيم » وكتاب « الجماهر فى معرفة الجواهر » أهداه الى الملك المعظم أبى الفتح مودود . وله مخطوط بمكتبة الاقمار الثلاثة للروم الأرثوذكس ببيروت عن الصـلة بين أحجام المعـادن والجواهر (٣) .

وله كتاب الصيدلية فى الطب — ذكره صاحب عيون الأنباء — استقصى فيه ماهيات الأدوية

(١) ص ١٨١
(٢) ياقوت ص ١٨٢
(٣) مقال بروكلمان فى دائرة المعارف الاسلامية .

وأسمائها واختلاف آراء المتقدمين وما تكلم كل واحد من الأطباء وغيرهم فيه (١) .

وذكر الأستاذ ول ديورانت جملة كشوفه وبحوثه فقال :

وكتب ابو الريحان فى الادب فشرح شعر أبى تمام وان لم يتمه ، وله كتاب « التعلل باحالة الوهم فى معانى نظم أولى الفضل (٢) وكتاب « مخدار الأشعار والآثار » .

بحوثه الجغرافية والفلكية :

كتب عن الأرقام الهندية أو فى بحث فى العصور الوسطى ، وكتب رسالة عن الاسطرلاب ودائرة فلك البروج وذات الحلق ووضع أزياجا فلكية للسلطان محمود ، ولم يكن يخالجه اى شك فى كروية الارض ، ولاحظ ان كل الأشياء تنجذب نحو مركزها ، وقال ان الحقائق الفلكية يمكن تفسيرها اذا افترضنا ان الأرض تدور حول محورها مرة فى كل يوم ، وحول الشمس مرة فى كل عام . وقال ان وادى نهر السند ربما كان فى وقت من الأوقات قاع بحر . وعين الكثافة النوعية لثمانية عشر نوعا من الأحجار الكريمة ، ووضع القاعدة التى تنص على أن الكثافة النوعية للجسم تتناسب مع حجم الماء الذى تزيفه . ونوصل الى طريقة لحساب تكرار تضعيف العدد دون حاجة الى عمليات الضرب والجمع الشاقة ، وتحدث عن مربعات لوحة الشطرنج وحبات الرمل ووضع نظريات هندسية سميت فيما بعد باسمه وفسر أسباب خروج الماء من العيون الطبيعية والابار الارتوازية بنظرية الأوانى المستطرقة .

---

(١) طبقات الاطباء فى الموضع السابق .
(٢) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ١٨٦

الادريسى

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله ابن ادريس المعروف بالشريف الادريسى .. عاش بين سنة ٤٩٣ — ٥٦٤ وسنة ١٠٩٩ — ١١٦٩ .

كان حفيدا لادريس الثانى الحمودى أمير مالقة. ويبدو أنه درس فى قرطبة ثم رحل كعادة علماء المسلمين الى المغرب ومصر وآسيا الصغرى وصقلية . وفى صقلية اتصل بالملك روجر الثانى النورماندى ، وقد رغب هذا الادريسى فى أن يصنع له كتابا فى صنعة الأرض يؤلف من المشاهدات الواقعية لا من كتب السابقين ، فانتخب الادريسى طائفة من أذكياء الرجال ومن الرسامين وبعثهم يطوفون فى البلاد ، وكانوا يرسلون اليه المعلومات فى صقلية فيدونها ، ثم انتهى من كتابه سنة ٥٤٨ — ١١٥٤ ، وقد أضاف اليه أجزاء أخرى وسماه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » .

وقام دوزى ودى خويه بنشر الجزء الخاص بافريقية والأندلس من الكتاب الأصلى اعتمادا على مخطوط وجد بالمكتبة الأهلية بباريس تحت عنوان « المغرب والسودان ومصر والأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق . وذلك فى ليدن سنة ١٨٦٦ وأرفقا مع الأصل العربى ترجمة فرنسية له .

وقد صحح هذا الجزء وعدله فى مدريد ، شافادرا سنة ١٨٨١ .

وقد رفع الكتاب من قدر الأندلس فصار اكبر جغرافى فى العصور الوسطى ولقب باسطرابون العرب . والمعلومات التى يحتويها الكتاب فى جملتها صحيحة الا ما يعذر فيه وهو قليل ، لضعف الوسائل فى العصور الوسطى ولاضطراب الأحوال فى صقلية بعد موت روجار .

وله كتاب آخر اسمه كتاب الممالك أشار اليه أبو الفدا . وثالث اسمه « الأدوية المفردة » اتخذه ابن البيطار من مراجعه . وقد ضاع الكتابان .

وخريطة الادريسى التى نشرت صورتها ، والتى اشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية الكبيرة . أى على هذه الاماكن التى لم يكتشفها الأوربيون الا فى العصر الحاضر ، اكثر خرائطه طرافة ، فهى تثبت أن معارف العرب فى جغرافية افريقية أعظم مما ظن زمنا طويلا .

. . . . .

الباب الثالث

التراث الإسلامى فى الحضارة الغربية

الفصل الأول

حال أوروبا في العصور الوسطى

لا يمكن تصور تأثير المسلمين على أوربا على حقيقة الا بتصور حالها قبل أن تتصل بحضارة المسلمين . فقد كانت اوربا قارة مظلمة الجوانب يكتنفهـا الجهل والغرور ، ولم يـكن المسلمين يحيطون بكثير من هذا الجهل حتى شهدوه بأعينهم فى حملات الصليبيين التى دامت قرنين من الزمان اظهروا فيها من سذاجة العقل والتعقيد والانحطاط الخلقى المروع .

كان الغربيون يرسفون فى اغلال من الجهل ويعيشون فى ظلمات من فوقها ظلمات ، عندما فكروا فى غزو البلاد الاسلامية كانوا جماعة من البربر قذفت بهم المقادير الى الشرق ، فأتوا الشرق كالحمر المستنفرة ، لاعلم ولا دين ولا خلق .

أما من الناحية العلمية فنحن نقص عليك هذه القصة لتعرف مدى ما اصابوا من العلم : —

ذكر أسامة بن منقذ ، وهو أمير من دمشق — عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ذكر فى كتابه « الاعتبار » قصة تدل على ما كان عليـه الصليبيون من الجهل بالطب فقال : « ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطره كتب الى عمى يطلب منه انفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسـل اليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنـا له : مـا أسرع ما داويت المرضى ، قال : احضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دملة ، وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبيخة ، الدملة وصلحت ، وحميت المراة ورطبت مزاجها ، فجاءهم طبيب افرنجى ، فقال لهم : هذا ما يعرف شىء يداويهم . وقال للفارس : أيهما احب اليك ، تعيش برجل واحدة او تموت برجلين ؟ قال أعيش برجل واحدة . قال : احضروا الى فارسا قويا وفأسا قاطعا ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط سـاقه على قدمة خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعهـا ، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت فضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ومات من ساعته . وابصر المرأة فقـال هذه امرأة رأسها شيطان قد عشـقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل فى رأسها فأخذ الموسى وشق رأسها نصفين وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت فى وقتها فقلت لهم بقى لكم الى حاجة ؟ قالوا لا : فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم اكن أعرفه»!

ولا اعتبر أن أسامة بن منقذ كان مبالغـا فى التشهير بالصليبيين ، فقد ذكر هو نفسه أنه لمـا زار بيت المقدس فى فترة الهدنة أكرموه ، وخصص له فرسان المعبد الذين كانوا قد احتلوا المسجد الأقصى زاوية صغيرة ملحقة به ليقيم بها الصلاة(١)

يؤيد ذلك أحد كتـاب الغرب المنصفين . قال جوستاف لوبون الفرنسى(٢) :

« ولا يمكن ادراك أهمية شأن العرب فى الغرب الا بتصور حال أوروبا حين ادخلوا الحضارة اليها» اذا رجعنا الى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد ، حين كانت الحضارة الاسلامية ساطعة رأينا أن مراكز الثقافة فى الغرب كانت أبراجا يسكنها سـنيورات متوحشـون يفخرون بأنهم لا يقراون ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا

---

(١) الاعتبار ص ٩٩

(٢) حضارة العرب ص ٥٦٦ و ٥٦٧

من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضــون أوقاتهم فى اديارهم ليكشــطوا كتب الاقــدمين النفسية بخشوع ، وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ما هو ضرورى لنسخ كتب العبادة .

« ودامت همجية أوروبا البالغة زمنا طويلا من غير أن تشعر بها ، ولم يبــد فى أوروبا بعض الميل الى العلم الا فى القرن الحادى عشر وفى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وذلك حين ظهر فيهــا اناث رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمــة وحدهم » .

وأما من الناحية الاجتماعية فيحدثنا لاكروا مؤرخ الحروب الصليبية عن حال الصليبيين وهم يتجهمون فى أوروبا لغزو البلاد الاسلامية . فيذكر أن هذه الجموع غير النظامية التى قامت بأكثر الاعتداءات على يهود المــانيا وبوهيميا ، وأبت أن تطيع نداء رجال الدين والمواطنين من أهل تلك البلاد ، وانحطت حتى استحالت الى وقت ما وحوشا كاسرة تستر تعطشها للدماء بستار من عبارات التقى والصلاح . وكان المجندون قــد جاءوا معهم ببعض المــال ، ولكنهم لم يجيئوا الا بالقليل الــذى لا يغنى من الطعــام ، وكان قادتهم تعوزهم التجــارب فلم يعــدوا العــدة لاطعامهم ، وقدر كثيرون من الزاحفين المســافة بأقل من قدرها الصحيح ، وكانوا وهم يسيرون على ضفاف الرين والدانوب ، كلما عرجوا على بلدة من البلدان يسألهم أبناؤهم فى لهفة — أليست هذه أورشليم ؟ ولمــا فرغت أموالهم ، وعضهم الجوع ، اضــطروا الى نهب ما فى طريقهم من الحقول والبيوت وسرعان ما أضافوا الفسق الى السلب والنهب(١) .

ويقول ول ديوارنت ان أهل البلاد قاوموهم مقاومة عنيفة ، وأغلقت بعض المدن أبوابها فى وجوههم ، وأمرهم بعضها أن يرحلوا عنها بلامهل، ولمــا بلغوا آخر الأمر مدينة القسطنطينية ، بعد أن نفذت أموالهم ، وهلك منهم بفعل الجــوع والطاعون ، والجذام ، والحمى ، والمعارك التى خاضوا غمارها فى الطريق ، رحب بهم الكسيوس، ولكنه لم يقدم لهم كفايتهم من الطعام ، فانطلقوا فى أرباض المدينة ، ونهبوا الكنائس ، والمنازل، والقصــور (٢) .

يؤيد هذا قول جوستاف لوبون : « واذا أراد المرء تصور تأثير الشرق فى الغرب ، وجب عليــه أن يتمثل حال الحضارة التى كانت عليها شعوبها المتقابلة ، فأما الشرق فكان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقا فى بحر من الهمجية ، وقد ظهر من بياننا الوجيز عن الحروب الصليبية أن الصليبيين كانوا وحوشا ضارية ، وأنهم كانوا ينهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحــونهم على الســواء ، وأنهم خــربوا فى القسطنطينية ما لا يقدر بثمن من الكنوز القديمة الموروثة عن اليونان والرومان » .

يؤيد هذا النظر أيضا ريتشارد كوك فيقول :

« أن الفكر المبدع الذى تمكن من تشييد مثل قصر الحمراء ومسجد قرطبة يصور لنا الفارق العظيم بين أولئك العرب ، والهمجية المطبقــة التى كانت تتفشى فى هؤلاء الفرنجة والنورماند بما فيهم منفظاظة الخلق وسقم المزاج والميل الفطرى نحو القذارة وشظف العيش(٣) .

وأما من النــاحية الســياسية فيقص عليك ول ديورانت أيضا قصــة فرسان المعبد(٤) مع فيليب الرابع الجميل ملك فرنســا لتتبين مدى فظاظة هذا الملك الجميل ، وقصتهم مع ادوارد الثانى ملك انجلترا العظيم .

قال : وأثارت أموالهم الطــائلة المــكنوزة ودولتهم المسلحة فى داخل الدولة وعدم خضوعهم لسلطان الملوك ، أثارت هذه كلها حسد فيليب الرابع الجميل منهم ، وخوفه منهم وغضبه عليهم، فقبض فى الثانى عشر من شهر أكتوبر سنة ١٣١٠ على جميع من كان فى فرنسا من فرسان المعبد

---

(١) Lacroix ; History of Prostitution, p. 904.

(٢) ول ديورانت مجلد ٤ ص ٢٠

(٣) تاريخ العرب ترجمة عادل زعيتر

(٤) منظمة عسكرية تطوعت فى الحروب الصليبية ثم نجوا من مذبحة عكا وفروا الى قبرص ثم رودس سنة ١٣١٠ الى أن طردهم الاتراك منها سنة ١٥٢٢ . وكانت لهم أملاك واسعة فى جميع انحاء أوروبا ومنها فرنسا .

دون سابق انذار لهم ووضع الخاتم الملكى على جميع ممتلكاتهم . واتهمهم فليب باللواط ، وبأنهم فقدوا ايمانهم بالدين المسيحى لطول اختلاطهم بالمسلمين ، وبأنهم ينكرون المسيح ويبصقون على الصليب ، ويعبدون الأوثان ، ويحالفون المسلمين سرا ، وانهم طالمـا خانوا القضية المسيحية . وحوكم السجناء أمام محكمة من المطارنة والرهبان الموالين للملك ، فانكروا التهم الموجهـة اليهم ، وعـذبوا لكى يعترفوا ، فمنهم من علقـوا من معاصمهم ، وكانوا يرفعون وينزلون فجاة ، ومنهم من وضعت اقدامهم عارية أمام النيران ومنهم من دقت شظايا حادة بين أظافر أيديهم ، ومنهم من كانت تقتلع لهم سن كل يوم ، ومنهم من علقت اوزان ثقيلة فى أعضائهم التناسلية ، ومنهم من ماتوا موتا بطيئا من الجوع . وكانت جميع وسائل التعذيب السـالفة الذكر تستخدم مع أولئـك الفرسان فى كثير من الحالات ، فكانت النتيجة أن الكثيرين منهم حين جىء بهم ليعـاد استجوابهم كانوا ضعافا موشكين على الموت . واظهر واحد منهم العظام التى سقطت من قدميه المحترقتين . واعترف الكثيرون منهم بجميع التهم التى وجهها لهم الملك ، وقال بعضهم أنهم قد تلقوا وعـدا مختوما بخاتم الملك ان يؤمنوا على حياتهم وترد لهم املاكهم اذا اقروا بالتهم التى توجههـا لهم الحكومة ، ومات بعضهم فى السجون ، وانتحر البعض الآخر ، وشد تسعة وخمسـون على قوائم خشبية واحرقوا بالنيران (١٣١٠) ، وظلوا يجهـرون بأنهم بريئون . واعترف دوه مولاى رئيس الطائفة اكبر على نفسه نتيجة لهذا التعذيب فسيق الى قائمة الاحراق ، فعاد الى الانكار ، واقترح محاكموه أن تعاد محاكمته ، ولكن فيليب لم يرضه هذا التأخير ، وشرف الملك بحضوره تنفيذ الحكم . وصادرت الدولة جميع ما كان لفرسان المعبد من أملاك فى فرنسا . واحتج البابا كلمنت الخامس على هذه الاعمال ، ولكن رجال الدين الفرنسيين أيدوا الفرنسيين ثم أيدوا الملك فى اعماله وامتنع البابا عن المقاومة ، وكان فى واقع الأمر سجينا فى أفنيون . وأعلن بايعاز فيليب الغاء نظام فرسان المعبد سنة ١٣١٢ .

وصادر ادوار الثانى هو الآخر أملاك فرسان المعبد فى انجلترا ليسد بها حاجته الى المـال . واعطى فيليب وادوار الكنيسة بعض هذه الأموال المصـادرة ، ووهبا بعضهـا الآخر لانصـارهم وأحبائهم ، فأنشأوا بها ضياعا واسعة ، واعانوا بها الملوك على الاشراف الاقطاعيين القدامى » .

وهذا شاهد آخر يصف فظاعة النورمان عندما اغتصبوا صقلية من العرب وساموا النصـارى فيها سوء العذاب . قال لوبون « ولم ينشأ عن اعماله حماة الدين من النورمان سوى تخريب تلك البلاد بسرعة ، ولم يلبث أهلوها أن اعترفوا بأن صداقة فرسان النورمان أشد وقرا من عـداوة العرب ، فاستغاثوا بالبابا لينقذهم من النورمان ، ولم يجد انذار البابا للنورمان نفعا ، فأرسل الى قيصر القسطنطينية كتابا يدلنا على سوء معاملة جيش نصرانى فى ذلك الوقت لبلاد صديقة استولى عليها . قال : واليك كتاب البابا ليون التاسع الذى بعث به الى قيصر القسطنطينية « يكاد قلبى يتفطر من الانباء المحزنة التى انبانى بها رسل ابنى أرجيروس ، فعزمت على تطهير ايطاليا من ظلم هؤلاء الأجـانب النورمـان المردة الأشرار الزنادقة الذين لا يحترمون شيئا عند اندفاعهم ، والذين يذبحون النصـارى ويسـومونهم أشـد العذاب ، غير راحمين ولا مفرقين بين الجنسين والأعمار ، والذين ينهبون الكنائس ويحرقونهـا ويهدمونها ، والذين يعدون كل شىء فريسة يباح سلبها ، والذين اكثرت من لومهم على فسادهم ، ومن انذارهم بسوء أحكامهم وخوفتهم من سخط الرب ، فلم يزدهم ذلك الا عتوا ، فكان أمرهم كقول الحكيم أن من يتركه الرب يظل خبيثا على الدوام ، وان من يكون مجنونا لا يصلحه الكلام ، ولهذا فقـد عزمت على شـهر الحرب الدينية المشروعة على هؤلاء الغرباء الثقلاء الذين امعنوا فى الظلم ، وصار أمرهم لا يطاق ، وهذا دفاعا عن الشعوب والكنائس » .

ثم مقال : ومن ذلك أن فرسان النورمان كانوا يفاجئون الأديار السيئة التحصين ويسـلبون كل ما فيها ويبتقرون بطون رهبانها على بكرة أبيهم خشية الفضيحة ، وأن الرهبان من ناحيتهم كانوا يتغفلون بعض أولئك الفرسان بين حين وآخـر فينتقمون . وتاريخ اللاتين حافل بوصف أنبـاء تلك (المجاملات) المتقابلة ، ومن بين الف حادثة منهـا اختـار الخبر الآتى الذى اطلع عليـه دولابريموديرى فى وثائق رهبـان جبل كاسـينو للدلالة على طبائع أهل ذلك الزمن : صعد الكونت رادولف فى جبل كاسينو ذات يوم ، وكان معه خمسة عشر نورمانيا ، فترك هؤلاء النورمان ، على حسب العادة أسلحتهم وخيولهم عند باب الدير الذى دخلوه للصلاة . وبينما كان هؤلاء النورمان جثيا أمام القديس بنوا ، اغلق الرهبان أبواب الدير من فورهم وقبضوا على تلك الأسلحة والخيول ودقوا النواقيس ايذانا بالخطر ، فتدفق

انصـــار الدير كالســيل ، وهجموا على هؤلاء النورمان الذين لم يبق لهم مـــا يدفعون به عن انفسهم ســوى الســبحات التى كانت بأيديهم ، وذهب عبثا ما تضرعوا به لاحترام ذلك المكان المقدس — الذى لم يحدث ان احترموا أمثاله — وذهب ، عبثا قسمهم انهم لم يدخلوا الدير الا للعبادة والاتفاق مع رئيسه ، فقد جعل الرهبان اصابعهم فى آذانهم ، ولم يرضوا أن يضيعوا ما سنح لهم من فرصة الانتقام ، وقد قتل أصحاب الكونت الخمسة عشرا ! »(١) .

ولم يكن هؤلاء الأحبارَ من الناحية الجنســية على مستوى خلقى مهذب ، فعندما هبطوا بيت المقدس انغمسـوا فى الشهوات ، وقد قتل الأتراك فى ذلك الوقت رئيسا للشمامسة وهو مضطجع مع احدى العاهرات(٢) .

(١) لوبون ص ٣٠٤ — ٣٠٦

(٢) ول ديورانت مج ، ج ٤ ص ٢٣ ويضيف أن المحاربين المسيحيين أحيوا عادة اللواط التى كانت من قبل منتشرة عند الرومان واليونان — ص ٦٤

الفصل الثانى
خلاصة الفكر البشرى
على أبواب الغرب

تلقى المسلمون الحضارة البشرية عن اليونان والهند والفرس ، وليدا يحبو ، فأخذوا بيدها وتعهدوها حتى صارت يافعة قوية يرجى نفعها ، نشيطة وثابتة ضاقت بالشوق فأرادت أن ترحل الى أوروبا لتعرض على هؤلاء الذين يعيشون فى غفلة من الزمن بهاء العلم ووراءه ومفاتن الأبهة التى أحاطها بها المسلمون .

وقف على أبواب أوربا بفضل المسلمين نوعان من الحضارة ، أما الأول فهو الحضارة القديمةفى ثوبها الاسلامى القشيب الذى أسهم فى صنعه الهنود والفرس واليونان والرومان،ودبجه العرب بقرائحهم وذوقهم وصاغوه فىقالبهم وعوذوه بايات من القرآن الكريم ، فأتى الثوب رائعا خلابا جميلا جذابا ، ثم حفظوه من الفناء وأبقوا على روائه وبهائه .

وفى هذا المعنى يقول سيديو : وهنالك أمر آخر يستحق الاعجاب ، وهو أن دور المسلمين لم يقف عند حد ترقية العلوم التى أخذوها عن اليونان فحسب ، بل أنهم قاموا بالنسبة للمدنية بدور اشد خطرا وأتم نفعا ، وهذا الدور هو حفظ هذه الآثار

نعم حفظ المسلمون هذه الآثار فى عهود أوروبا المظلمة ، وفى العهود المظلمة التى مر بها المسلمون أنفسهم . فمراكز الثقافة الأغريقية فى فارس لم تلبث أن اندمجت فى الحياة الاسلامية الجديدة وفقدت شخصيتها المميزة لها حيث انتقلتمخلفاتها الى بغداد فى عصر النهضة الفكرية ، وانزوت مدرسة الاسكندرية ذات الروحالهلينية الغنوصية، وخاصة بعد أن احترقت مكتبتها الشهيرة . أما المراكز الأغريقية فى بلاد اليونان ذاتها فقد نقل بعضها الى روما والبعض الآخر الى القسطنطينية وقد ضاع معظم تراثها أثناء غزوات البربر للامبراطورية الرومانية أبان العصور الوسطى .

ولقد ساعد على حفظ التراث اليونانى فى صورته العربية أن الدولة الاسلامية كانت فسيحة الجنبات متعددة المكتبات ، سواء منها العامة أو الخاصة ، فاذا ما تعرضت مدينة لخطر غزو كما حدث ذلك عندما خرب المغول بغداد كان فيها ٣٦ مكتبة خاصة وعندما احرقت مخطوطات العرب فى أسبانيا على يد الأسقف شمينيس وتقدر بثمانين ألف كتاب(١) ، اذا تعرضت المكتبات فىبلد اسلامى هرع الوراقون والعلماء الى استنساخ صور أخرى للكتب المفقودة من مكتبة اسلامية أخرى فى بلد آخر ، فالعواصم العلمية كانت على اتصال دائم ، والمنافسة على نشرها بين الناس كل ذلك أدى الى الاحتفاظ بكتب الأولين .

ولكن هذه الظروف التى تهيأت لدولة اسلامية ابان العصور الوسطى ، لم يكن من المستطاع أن يهيأ لأوروبا ، فلقد أحرقت كتب كثيرة أثناء الهزات التترية وضاعت أصول أغريقية ضياعا أبديا . وفى ذلك يقول لوبون(٢) : « والحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليونانى القديم الا من ترجمتها الى لغة اتباع محمد ، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها ككتاب يالونيوس فى المخروطات وشروح جالينوس فى الأمراض السارية ورسالة أرسطو فى الحجارة ، الخ ، وأنه اذا كانت هناك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم ، فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى ، الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان،

(١) Sédillot : Histoire Générale des Arabes V. 2, p. 2.
(٢) Gustave Le Bon : La Civilisation des Arabes, p. 282.

فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم فى انقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافا أبديا ، قال مسيو ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا فى الآداب عـدة قرون(١) ما بقى ، وقليلا ما هو ، فانه ظل دون أن يتقدم تقدما ملحوظا وذلك بسبب عدم اهتمام الرومان بمقومات الحضارة بل جعلوا كل همهم فى تقوية الفن الذى ازدهر فى روما وخاصة فى كنائسها ، وفى بسط نفوذ القانون الرومانى على الامبراطورية الرومانية ، وان كان هذا القانون ظل جـامدا معقدا شكليا لم تتهذب أصوله الا عندما بدأ يقترب من مبادىء العدالة والقانون الطبيعى ، وهما من مخلفات الاغريق . كمـا أن المسيحية نفسـها احجمت عن المبادىء التى قال بهـا فلاسـفة الاغريق .

واما النوع الثانى من الحضارة فهو الحضارة اليونانية القديمة كما وضعها فلاسـفة اليونان أنفسهم ، فقد سـاعد المسـلمون على اطلاق المؤلفـات اليونانية الأصلية التى كان الرومان المسيحيون قد احتبسوها فى القسطنطينية ارضاء لرجال الكنيسة الذين رأوا فى هذه المؤلفات كفرا لا يستقيم ومبـادىء المسيحية ، وفى ذلك يقول ول ديورانت(٢) « كذلك تأثر الغـرب بالثقـافة اليونانية بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية ، ومن دلائل هذا التأثر أن موربيك كبير اسـاقفة كرنثة الفمنكى أمد توماس أكويناس بتراجم لكتب ارسطو عن اصولها اليونانية مباشرة » .

ويقول بلاكسلاند ستبس ايضا : « فعنـدما سقطت القسطنطينية عام ١٤٥٣ م فى يد الاتراك اخرجت مخلفات الأغريق الباقية من مكتباتها »(٣)

فارتأى بعض العلماء أن يبدءوا بدرسـها من جديد ، وهى تحمل عيبين كبيرين اولهمـا النقص وثانيهما القدم وعدم التطور . وفى نفس الوقت كانت الثقافة الأغريقية فى ثوبها الاسلامى الجديد تغزو ميادين العلم الأوروبى عن طريق الأندلس أو عن طريق صقلية ، فأصبح فى أوروبا تياران علميان أحدهما عتيق يهـدف الى دراسـة كتب الاغريق الأولى والثانى حديث محكم يهدف الى دراسة المؤلفات اليونانية مختلفة تماما عن الفلسفة المشائية الأولى ، بفضـل ما أحدثه المسلمون فيها من تطورات . ومن هنا قام نفر من علمـاء أوروبا بترجمة مؤلفات المسلمين الى اللاتينية فظهرت كفايتها بالقياس الى المؤلفات الأولى ، وانتهى التيار الأول لعدم صلاحيته ، وأصبحت الحضارة الاسلامية رائدا لعلمـاء الغـرب ، ونشطت حركة الترجمة لمؤلفات المسلمين الى اللاتينية ثم الى غيرها من اللغات المستحدثة فى أوروبا ، فكانت هذه المؤلفات أسـاطين العلم الحاضر ودعائمه والضوء الذى أنار الطريق أمام علماء الغرب ، فى الفلك والرياضة والجغرافيا والتاريخ والفلسفة والطبيعة والكيمياء والفنون .

(١) لوبون ص ٥٧٦
(٢) قصة الحضارة مجلد ٤ جزء ٤ ص ٦٥
(٣) بلاكسلاند ستبز ص ٢٩

الفصل الثالث

مسالك الحضارة الإسلامية الى الغرب

أولا : الحروب الصليبية

١٠٩٥ ــ ١٢٩١

كانت الحروب الصليبية هى الفصل الأخير من مسرحية العصور الوسطى ، ففيها احتكم الدينان العظيمان ، المسيحية والاسلام الى السيف ، وقد بلغ فيها كل شىء غايته . التحمس للعقيدة وفتوة الاقطاع وجمال الفروسية وبهجتها ، وانتشار التجارة واتساعها فى حرب دامت مائتى عام فى سبيل روح البشرية والأرباح التجارية .

واول سبب مباشر للحروب الصليبية كان دينيا ، فقد زحف الأتراك السلاجقة وكان العالم الشرقى قد هيأ نفسه لقبول حكم المسلمين ، حيث كانوا يعاملون طوائف الأقليات معاملة حسنة ويتركون لهم حريتهم فى ممارسة شعائر دينهم ، وييسرون لهم سبيل الحج الى بيت المقدس . ولكن الأتراك انتزعوا بيت المقدس من الفاطميين عام ١٠٧٠ م ، ولقى المسيحيون على أيديهم كل ظلم وتحقير ، الأمر الذى دعا سمعان بطريق أورشليم أن يحمل أحد الحجاج ــ بطرس الناسك ــ الى البابا أربان الثانى رسالة احتجاج على الاضطهاد الذى يلقاه المسيحيون هنالك .

وقد تبلور ذلك فى قول البابا « ان تعريض حياتى للخطر فى سبيل تخليص الأماكن المقدسة أحب الى من حكم العالم كله (١) .

اما السبب الثانى فكان سياسيا يتلخص فى ضعف الامبراطورية البيزنطية ، وما أصابها من وهن ، وخاصة بعد الانشقاقات الدينية ، فبينما كانت قبائل البلغار والبشناق والكومان يدقون ابوابها فى أوروبا ، كان الأتراك يقطعون أوصالها فى آسيا ، فاستغاث الامبراطور الكسيوس الأول بالبابا أربان الثانى أن يستحث أوروبا اللاتينية لتساعده على صد هجمات الأتراك قائلا : « ان من الحكمة أن يحارب الأتراك فى أرض آسيا بدل أن ننتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان الى عواصم أوروبا الغربية » (٢) .

والسبب الثالث تجارى يعود الى أن البحر المتوسط بدأ يصطبغ ماؤه الغربى بالصبغة المسيحية ، فبينما كانت صقلية تحت حكم العرب استولى عليها النورمان بين سنة ١٠٦٠ ، ١٠٩١ ، وانتزعت جيوش المسيحيين جزءا كبيرا من المدن الأسبانية منذ سنة ١٠٨٥ ، وكان لابد للموانئ المسيحية كبيزا وجنوه والبندقية وملغى ، بعد أن تنفست الصعداء من أن تجرى وراء أسواق الشرق التى يسيطر عليها المسلمون .

---

(١) Lacroix : Military and Religious Life p. 108.

(٢) المرجع السابق ص ١٣

هذه هى الأسباب المباشرة ، ولكن هنالك أسبابا أخرى تكمن فى نفوس البابوات والملوك والنبلاء ، وكانت كل جماعة تريد أن تتخلص من منافسيها وذلك بالتحريض على امتشاق الحسام لنصرة الصليب والاستشهاد فى سبيل الله . والدعاية لنفسها باسم الله ثم السلب والنهب .

بدأ التمهيد للحروب الصليبية بدعوة من جربرت (البابا سلفستر الثانى فيما بعد الى انقاذ بيت المقدس فقامت حملة صغيرة نزلت بالشام سنة ١٠٠١ م ولم تلبث ان أخفقت .

ولكن الحرب الصليبية العامة المنظمة لم تبدأ الا فى سنة ١٩٠٥ وجمع لها من الفرنسيين ومن الألمان ومن منطقة الرين ، ثم توالت الحروب حتى بلغت ستا ، وكانت سجالا بين المسلمين والنصارى ، ولكنها انتهت بانسحاب المسيحيين واخفاقهم . ومن الأسماء الأفرنجية التى خاضت هذه المعارك ريتشارد الأول ملك قلب الأسد ملك انجلترا ولويس التاسع ملك فرنسا وفردريك الثانى امبراطور المانيا وايطاليا وصقلية واندرو ملك المجر .

ومع ذلك فان الحروب الصليبية كانت سببا فى أن يعرف الأوروبيون حضارة العرب على حقيقتها ، فقد بهرتهم فنون العرب العسكرية وفروسيتهم ومارستاناتهم ، والدليل على ذلك أن فردريك الثانى — وكان ممن اشتركوا فى الحرب الصليبية انشأ على أثر عودته جامعة فى نابولى ، كما ان لويس التاسع الذى أسر فى بيت لقمان بالمنصورة ، أنشأ مستشفى وملجأ « لى كانزا فان » بباريس ، على أثر عودته من حملته الصليبية (١) .

وشاهد ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا بنفسه مقدار تقدم العلوم فى الشرق وعلو أخلاق المسلمين ، فقد كادت الحمى تقضى على هذا الملك الصليبى ، فأرسل اليه صلاح الدين ، عدوه فى الحرب ، جمالا محملة بالجليد ليخفف عنه وطأة الحمى ، فلم يغفل أمثال هؤلاء أن ينقلوا الى شعوبهم ما انطبع فى نفوسهم من اثر عميق (٢) .

وفى الحق لم يكن الصليبيون فى حالة تجعلهم قادرين على هضم العلوم البحتة التى كانت لدى المسلمين ، وانما انطبعت فى احساسهم صور من الفنون بهرتهم دون أن يستفيدوا من علوم العرب الخالصة ، فالجيوش الصليبية ، اذ كانت جاهلة للعلماء ، لم تكن تتبالى بالمعارف والأصول مبالاتها بشكل البناء أو الأسلوب الصناعى . واذ كنت لم اقل أن تأثير الصليبيين فى تقويم أوربة العلمى صفرا ، فلما بين العلوم والصناعات من الصلة ، ولما تجر اليه احداهما الى بحث قليل فى الأخرى غالبا . ولا يحتج علينا بأن القرون الوسطى استنبطت معارفها العلمية والأدبية من مؤلفات الشرقيين ، فالواقع أن تلك المعارف لم تدخل أوربة بفضل الحروب الصليبية قط . ولم يكن تأثر آداب العرب فى الصليبين صفرا ، بل كان كذلك ، ضعيفا جدا ، اذ استوحاها كثير من شعراء الغرب وكتابهم ، فكان سحرة مصر وعجائب الشرق وغود وفرا وتانكريد وغيرهما موضوع قصص مهم للشعراء المجولين الذين كانوا ينشدونه بين قصر وقصر »(٣) .

يؤكد ذلك قول ول ديورانت (٤) :

« ويلوح أن الأوروبيين كانوا أشد جهلا من أن يعنوا بالشعر والعلوم والفلسفة العربية . ولهذا فان تأثر الغرب بهذه المؤثرات الاسلامية جاء عن طريق أسبانيا وصقلية لا عن طريق اتصالهم بالمسلمين أثناء هذه الحروب » .

بيد أن الحروب الصليبية وان أخفقت فى مهمتها الأصلية الا أن آثارها الأخرى فى الغرب كانت عديدة ، نذكر منها :

١ — فى التجارة :

ازدهرت التجارة فى عهد الصليبين بسبب تجهيز الجيوش الكبيرة التى القت بها اوروبا فى الشرق مدى قرنين ، ولما يجر ذلك من أمور التموين والنقل . حتى لقد بلغت مرسيلية درجة عظيمة من النمو ، استطاعت معها فى سنة ١١٩٠ الميلادية أن تنقل الى الأرض المقدسة جيش

---

(١) Meyerhaf : The Legacy of Islam, p. 350.

(٢) John Drapper : The Intel. (Develop of Europe V. 2, p. 136.

(٣) لوبون ص ٣٣٨

(٤) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٤ ص ٦٥ ، وهذا رأى Hans Prutz فى كتابه — تاريخ الحروب الصليبية ويعارضهما باركر بقوله ان الغرب لم يكن بالجهالة التىيصوره بها بروتز « تراث الاسلام » ج ١ ص ١٠٠

ريكاردوس قلب الأسد وكانت كذلك بيزة وجنوه والبندقية . نعم لقد كان بين الشرق والغرب روابط اقتصادية سالفة ، لكن الحروب الصليبية قوتها ابان هذه الحروب وبعدها ، فلم يقف نمو التجارة بعد طرد الصليبيين من الشرق ، حيث عقدت معاهدات تجارية بين أكثر جمهوريات ايطالية وامراء المسلمين . وكانت صلات البندقية للتجارة الوثيقة بالمشرق سبب عظمتها ، واطرد تقدم هذه التجارة مع الزمن الى ان اكتشفت طرق تجربة جديدة ، فانتقل زمامها الى يد أخرى (١) .

وبفضل التجارة بين الشرق والغرب عرف الغرب الدمقس والساتان والمخمل والاقمشة المزركشة والطنافس والأصباغ والمساحيق والعطور والجواهر . وحلت المرايا الزجاجية المطلية بغشاء معدنى محل المرايا المصنوعة من البرنز أو الصلب المصقول والزجاج (٢) . وأخذوا عنهم أيضا عادة الحمامات العامة والمراحيض الخاصة فى الغرب (٣) واخذ الغربيون ايضا عادة الرومان القدامى فى حلق اللحى وذلك بفضل اتصالهم بالمسلمين .

ودخلت أوروبا محاصيل وزراعات بكميات وافرة ، بعد أن كان بعضها من مواد الترف كالسكر والفلفل والنرجيل والقرنفل والقرفة وكذلك الأمر بالنسبة للذرة والأرز والسمسم والخروب والليمون والبطيخ والخوخ والمشمش والكريز والبلح والبصل(٤) وأخذت أوروبا عن الشرق صناعة تكرير السكر(٥) .

٢ ــ فى الصناعة :

أثرت الحروب الصليبية أيضا فى ترقية الصناعات فى أوروبا واستحداث مبتكرات جديدة فيها ، ونشطت حركة التعدين ، فحذا فردريك الثانى حذو المسلمين فأمر باصلاح طرق صقلية وانشأ أولى « الطرق الكبرى الملكية » بتثبيت مكعبات حجرية فى الزى المفكك أو الرمال (يعنى الرصف) واستخدمت فى انجلترا سنة ١٠٨٦ أولى الطواحين المائية عن الشرق الاسلامى .

وانتقلت البوصلة والطباعة والبارود من الشرق الى الغرب عقب هذه الحروب(١) .

لقد استوقفت نفائس الشرق الباهرة أنظار الأمراء الصليبيين مع جلفهم ، فوجدوا فى التجارة وسيلة تقليدها ، فنرى اقتباس نفائس الشرق فى أسلحة الغرب وثيابه ومساكنه فى القرن الثانى عشر ، والقرن الثالث عشر على الخصوص . « وكلما نمت النفائس أدت الى تقدم الصناعة بحكم الضرورة ، وتبحث الصناعة عن المنتجات التى تطلبها التجارة منها بطبيعة الحال، فتحفزها الضرورة الى القيام بذلك من فورها . واذا كانت صناعة الخشب والمعادن والميناء والزجاج تتطلب معارف كثيرة ، فقد اقتبسها الأوربيون من آسيا مع جهلهم لها قبل دور الحروب الصليبية ، وعم أمرها بذلك فى أوروبا ، فعن صور اخذت البندقية نماذج صناعة الزجاج ، وعن المسلمين اخذت أوروبا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة ، وعن سوريا أخذ عمال الحملات الصليبية التى دام أمرها قرنين ، وصانعو أسلحتها ومهندسوها وتجارها ومن اليهم ما كانوا يجهلون من المعارف الصناعية ، وذلك فى اثناء اقامتهم الطويلة بها . وكان تأثير الفنون بالشرق فى الغرب عظيما ايضا ، فقد نشأ عن أيلاف الصليبيين ضروب منتجات الشرق الممتد من القسطنطينية الى مصر ، تهذيب أذواقهم الغليظة ، ولم يلبث فن العمارة أن تحول فى أوروبا تحولا تاما »(٧) .

٣ ــ القانون الدولى :

أن الحروب الصليبية ، ولو انها فشلت فى غرضها الآلى ، الا أنها خدمت أوروبا ، فبسببها نشطت التجارة ، وبسببها توطدت روابط الاخاء الدينى بين الدول الأوروبية بوضع المسيحيين تحت سلطة دينية عليا واحدة(٨) .

(١) لوبون ص ٣٣٦
(٢) قصة الحضارة مجلد ٤ ج ٤ ص ٦٨
(٣) المرجع السابق ص ٦٤
(٤) مجلد ٤ ج ٤ ص ٦٧ .
(٥) مجلد ٤ ج ٤ ص ٦٨ .
(٦) ول ديورانت ص ٨٥ و ٨٧ .
(٧) المرجع السابق ص ٦٥ .
(٨) لوبون ص ٣٣٧ .

لقد تقدمت بسبب الحروب الصليبية مبادىء القانون الدولى ، وذلك بسبب نشاط التجـارة بين الدول المسيحية ، فوجد بين امم سـواحل بحر الشمال وبحر البلطيق وبين المدن الايطالية فى البحر الابيض ، فنشأ الاتحاد المعروف بالهانس La Hanse وتقررت عادات ثابتة دونت فى محررات شـهيرة ، فظهـرت قوانين اولرون Law of Oleron, Le Role de Oléron لتنظيم التجارة البحرية على شواطىء الاطلانطى فى غرب اوروبا ، وقواعد وزبونسر Leges فى بحر الشمال وبحر البلطيق ، وقنصليات البحر المتوسط Wesbuesnses وكانت هذه القـواعد اكثر اهمية ، فهى وحدها التى بحثت فى الغنائم البحرية أثناء الحرب . ولئن كانت اصولها الأولى نشأت فى رودس من عادات يونانية قديمة الا انها طبعت لأول مرة فى برشلونة سنة ١٤٩٤ .

كانت الحروب الصليبية سببا فى تقدم التجارة، وبسببها ايضا تقدمت قواعد القانون الدولى ، ولم تكن الفكرة السائدة عند الأغريق ولا عند الرومان لتساعد على ما أحرزه القـانون الدولى من تقـدم .

أما عن اليونان فقد كانوا يعدون انفسهم أرقى الشعوب ويعدون من عداهم برابرة ، لا حرمة لهم ولا عهدا حتى أن حويروس فى شعرب كان يحل لصوصية البحـر واسـلاب البر ، وكان ارسططاليس يرى ان الخالق اوجـد البرابرة ليكونوا ارقاء ، ويعد من الأعمـال الشريفة محاربتهم لسلب ثروتهم واسترقاقها .

اما روما فقد ضنت على شعوب امبراطوريتها العظمى باحكام القانون المدنى الرومانى ، اعتقادا منها بان الرومان (اهل مدينة روما) هم ايضا ارقى الاجنـاس ، واخـذت تعامـل سكان الامبراطورية بقانون الشعوب
وهو ان كان يصلح اساسا للقانون الدولى لانه مستمد من القواعد المشتركة بين الشعوب ، الا ان روما ذاتهـا مـا كانت تعترف لغير سكان الامبراطورية ، ومن لم يمت منهم بالسيف وقع فى الرق .

ويقول البارون(١) « ان فضل العالم الاسلامى فى تنمية او تقدم القانون الدولى كان عظيما فى ناحيتين :ناحية الحرب وناحية التجارة الدولية » .

وانت لا شك قرات فيما مضى من تعـاون المسلمين مع الصليبيين اثناء الهدنة وارسالهم الأطباء لهم كالذى حكاه صاحب كتاب الاعتبار وكالذى فعله صلاح الدين الايوبى مع ريتشارد قلب الاسد ومعاهدات الهدنة ومعاهدات الصلح والمعاهدات التجارية ، كل اولئك يؤيد بحرارة ما قاله البارون تويه .

(١) محاضرات البارون تويه فى المعهد الدولى بلاهاى سنة١٩٢٦ (مجموعة المعهد ج ١ ص ٣٩١) .

ثانيا، التجارة

كان للعرب صلات تجارية مع الصين والهند وافريقيا واوربا ، ومع ذلك فلا يهمنا فى هذا الصدد الا العلاقات التجارية بين المسلمين وأوربا(١) .

كانت الطرق التجارية بين العرب وأوربا هى طريق جبال البرانس وطريق البحر المتوسط ، وهذان الطريقان كان يسلكهما عرب الاندلس . وطريق الفلجا المؤدية الى شمال اوربا والتى تجتاز روسيا ، وهى طريق غرب المشرق .

وقد فتح هذا الطريق الاخير فى القرن الرابع الهجرى . ومع ذلك فقد كانت هناك صلات تجارية سابقة بين الروس والعرب . وقد وصف ابن خرداذبة التجارة الروسية مع العرب فقال(٢): « فاما مسلك تجار الروس ، وهم جنس من الصقالبة فانهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من اقصى صقلية الى البحر الرومى ، فيعشرهم صاحب الروم ، وان ساروا فى تنيس ، نهر الصقالبة ، مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ، ثم يصيرون الى بحر جرجان ، فيخرجون فى اى سواحله احبوا وربما حطوا تجارتهم من جرجان على الابل الى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ، ويدعون انهم نصارى ، فيؤدون الجزية » .

وفى سنة ٣٠٩ هـ حدث اتصال بين الخليفة وبين ملك الفلجا ، وفى العام التالى اسلم هذا الملك واسلم اهل بلاده(٣) .وقد ضمن السامانيون للتجار الأجانب ربحا هادئا . ومعظم النقود العربية التى اكتشفت فى شمال أوروبا ترجع الى القرن الرابع الهجرى ، واكثر من ثلثها من نقود السامانيين . وكانت بلاد الروس منذ ذلك العصر الى ما بعد الحروب الصليبية هى الطريق بين شمال أوربا وبين الشرق (٤) .

وقد نشأ من ازدهار الجاليات الاسلامية فى كثير من البلاد التى تغلب عليها غير المسلمين شأن جعل لهم استقلالا ملحوظا فى شئونهم ، فكان يرأسهم مسلم ، ولا يقبلون حكم غير المسلمين فيهم ، ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة الا المسلمون ، وان قلوا ، وذلك مثل بلاد الخزر والسرير واللامه وغانة وكوغة وصيمور (الهند) (٥) .

وكان العرب يرسلون الى جميع الموانى ، الأوربية المحيطة بهم منتجاتهم الصناعية والزراعية كالقطن والزعفران والورق والحرير الغرناطى والجلد القرطبى والنصال الطليطلية ، والعنبر والفراء والقصدير . وكانت الموانى الاسبانية ، قادس ومالقة وقرطاجنة وغيرها مراكز لنشاط تجارى عظيم على عكس ما هى عليه الان .

وتدل النقود العربية التى كشف عنها اعمال الحفر الحديثة على أن العرب وصلوا الى أقصى الشمال من اوربا ، فوصلوا الى بحر البلطيق وشواطىء اسوجوفنلاندا والدانيمارك وبروسيا.

ويرى الأستاذ لوبون أن بعض الحلى الموجودة فى متحف استكهولم على أنهـا من مصنوعات

---

(١) نتعرض هنا للتجارة بصرف النظر عن صلتها بالحروب الصليبية ، اذ أن التجارة بين الشرق والغرب كانت أسبق من الحروب الصليبية .

(٢) ص ١٥٤

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥ .

(٤) الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتزترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ج ٢ ص ٣٦٧ الطبعة الثالثة .

(٥) ابن حوقل ص ٢٢٥ وما بعدها .

اسكندينافية انمـــا هى قد جلبت من الشرق ، اذ ان كثيرا من هذه الحلى ذات طابع شرقى(١) .

اما الطريق الشرقى البرى فالراجح انهاضمحل فى القرنالحادى عشر ، فاحدثنقودا وجدتكانت مضروبة سنة ١٠٤٠م ، وبنو العباس هم اكثر من ذكر فيها . وسبب اضمحلال هذا الطريق كان كثرة الفتن الداخلية فى آســيا والاضــطرابات السياسية فى روسيا (٢) . ولكن أهم سبب يرجع اليه التقليل من أهمية هذا الطريق هو أنه بسبب وجود الحروب الصليبية والمعاهدات التى عقدت بين المسلمين والصليبيين وتحولت تجارة المسلمين البرية عن الطريق السابق الى تجارة بحرية عن طريق البحر المتوسط . وهذه البحرية اضمحلت بدورها بعد أن اكتشف راس الرجاء الصالح .

وكانت البندقية فى القرن الرابع الهجرى تمــد العرب بخشب الســفن ، الأمر الذى جعــل الامبراطور البيزنطى يحتج لدى الدوق بوقف بيع الخشب للعرب (٣) .

« ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر الأبيض — خلال القرن العاشر الميــلادى بل كان بحرا عربيا ، وكان لابد لمن يريد أن يقضى لنفسه فيه أمرا من أن يخطب ود العرب كمــا فعلت نابلى وغيته وامالفى . ويظهر أن الملاحة الاوروبية نفسها كانت فى ذلك العصر على حال يرثى لها من الضعف ، ففى سنة ٩٣٥م — استطاعت مراكب عبيد الله المهدى الفاطمى أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوه وأن تفعل مثل هذا بمدينة بيزا فى عامى ١٠١١ — ١٠١٤ م (٤) .

ولمــا استرد الصليبيون سردينية سنة ١٠٢٢م وكرسكه سنة ١٠٩١م من المسلمين فتح مضيق مسينا والبحر المتوسط للملاحة الأوروبية ، كما أستردت الحرب الصليبية الأولى معظم الثغور الجنوبية فى البحر المتوسط وربطت أوروبا بشبكة من الطرق التجارية بينها وبين الشرق .

وسمح مركز ايطاليا المتوســط بين الشرق الشرق والغرب بأن يكون لثغورها كالبندقة ورافنا وريميين وانكونا وبــارى وبرنديزى وتارنيــو وكروتون ورجيو وسالرنو واملفى نابلى واســتبا وبيزا ولوكا . . . سح لهذه الثغور بأن يكون لهــا تجارة مع فلسطين وبلاد المسلمين (٥) .

وقد أثرت الشريعة الاســلامية فى القوانين التجارية فى أوروبا تأثيرا ملحوظا ، ذلك بأن نظرية العقد فى الشريعة الاسلامية تقوم على الرضائية ، بينما كان القانون الرومانى شديد التعقيد ، لأنه قانون يقوم على الشكلية ، ويقول الاســتاذ دوسانتيلانا أن أوروبا اقتبست بالتــأكيد بعض نظمها القانونيــة من قوانين العرب كالشركات وغيرها من مسائل القــانون التجارى . وأن المستوى الراقى الذى بلغته تلك القوانين فىبعض نواحيها اثر تأثيرا حسنا فى تقدم الفكر الأوروبى حتى فى غير ما ذكر (أى المســائل التجارية) ، وبذلك سجلت تلك القوانين فضلها الخالد » .

ويقول الأستاذ ليريبور بيجونيير فى مقدمتــه على شرح القانون الانجليزى « أن العادات التى ادخلهــا التجــار الايطاليون فى كل مكان يتكون معظمها من عناصر مستمدة من القانون الرومانى، ولو أن منها عناصر مأخوذة من عادات العرب أو الأتراك »(٦) .

وفى بحث صغير أجراه العالم جرسهوف سنة ١٨٩٩ عن الحوالات المــالية انتهى فيه الى أن هذه الحوالات لم يعرفها العالم القديم ، وأن اول من عرفها العرب ، وعنهم أخذتها أوروبا فى القرن العاشر الميلادى عن طريق اسبانيا وايطاليا . وانتقلت معهذا النظام الجديد المصطلحاتاللازمة له وهى أما فارسية وأما عربية وما زالت متداولة الى اليوم ، فكلمة أفال Aval مأخوذة من اللفظ العربى حوالة ، ولفظ شيك فارسى كثيرا ما ذكره الفردوسى(٧) .

---

(١) حضارة العرب ص ٥٦١
(٢) ابن حوقل ص ٢٨١
(٣) آدم ميتز ص ٤٢٣ .
(٤) نفس المصدر ص ٤٢٥ — ٤٢٦
(٥) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٤ ص ٧٤ و ٥٤ — The Legacy of Islam p. 310.
(٦) الواقع أن معظم هذه العادات مأخوذة من العرب ،والقليل منها مأخوذ من القانون الرومانى .
(٧) Grasshaff : Das Wechzelrecht der Arabe, 1899.
وانظر أيضا ول ديورانت مجلد ٤ ج ٤ ص ٦١

ولقد دخل على اللغات الأوروبيــة كثير من المصطلحات التجارية العربية مثل كلمة Fonds اى فندق فيقال Fonds de commerce اى محل تجارى و Magazin اى مخزن وهو دكان .

ويعد الأستاذ سيديو كثيرا من الألفاظ الجارية الأوروبية أخذها الأوروبيون من العرب الذين كانوا سادة البحر المتوسط منـــذ القرن الثامن الميلادى (١) ، ومن هذه الألفاظ
Escadre, Amiral, Sloop, Chaloupe, Felouqure, Caravelle, Flotte, Frégate, Corvette, Estacade, Caffat, Darse, Ehiourme, Barque.

ولا سيما البوصلة Boussole التى عزى أمرها الى اهل الصين على غير حق

ويضيف ارنست باركر Barker (٢) أن الغرب لا يزال يستعمل اصطلاحات عربية فى التجارة Bazar, dinar tarif zechine وفى الشئون البحرية مثل Admiral, arsenal وفى الشئون المنزلية مثل
Alcove, carafe, matresse, sofa, amulette, elixir julep, talisman.

(١) لوبون نقلا عن سيديو ، ص ٤٤١
(٢) مقالة فى تراث الاسلام ج ١ ص ١١٢

ثالثا : الترجمة

مر عهد الترجمة عن علوم المسلمين بمرحلتين، بدات الأولى منذ القرن العاشر الميلادى(١) وفيها ترجمت علوم المسلمين الى اللاتينية والعبرية غالبا .

وكانت مراكز الترجمة فى تلك المرحلة متعددة ، نذكر منها : المركز الأول وكان فى اسبانيا وبالأخص طليطلة ، تنتقل فيها الكتب العربية الى الاسبانية واللاتينية . والمركز الثانى ايطاليا فى بلاط ملكى نابولى وصقلية ، الامبراطور فردريك الثانى « ١١٩٧ — ١٢٥٠ » وابنه منفريد ، حيث كانت تنتقل الكتب العربية واليونانية .

كما كانت هنالك مراكز أخرى فى قطلونية وبروفانس ، وذلك للترجمة الى العبرية . ونذكر من مترجمى اليهود لونيموس بن ماير وكالونيموس ابن تدرس ، وليفى بن جوسون ، ويعقوب بن أبا مارى (صهر صمويل بن طيبون) ، وهو أول من ترجم ابن رشد الى العبرية . وقد ترجم هؤلاء مؤلفات العرب عن العربية أو عن ترجماتها اللاتينية(٢) .

وكان هنالك تيار مضاد يرى ترجمة كتب الأغريق القديمة عن اليونانية ، ونذكر من مراكزه جامعة اكسفورد حيث نبغ روبرت جروستيت فى الترجمة عن اليونانية ، والبلاط ابابوى ، وبخاصة بين سنتى ١٢٦١ — ١٢٦٤ ، ثم القسطنطينية ، وكان الصليبيون قد فتحوها سنة ١٢٠٤ وأسسوا فيها الامبراطورية اللاتينية حتى سنة ١٩٦١ ، فقصد إليها مرسلون فرنسيون واساتذة من جامعة باريس (فرنسيسكان ودومينيكان ، أشتغلوا بالنقل عن اليونانية ، أو ارسلوا المخطوطات الى باريس فنقلت فيها (٣) .

واما المرحلة الثانية لترجمة علوم المسلمين فقد بدأت فى النصف الثانى من القرن التاسع ، وكانت كتب المسلمين تنتقل الى جميع اللغات الأوربية الحديثة .

---

(١) ترجم رهبان مونت كاسينو فى هذا القرن بعض الكتب الطبية والفلكية عن العربية (يوسف كرم ص ٧٣) .
(٢) الفكر الاندلسى ص ٥٠٣
(٣) تاريخ الفلسفة الاوروبية فى العصر الوسيط ليوسف كرم ص ١١٠ و ١١١

المبحث الأول
المرحلة الأولى للترجمة

فى الأنـــــدلس

كانت العـــراق مركز الترجمـــة من اللغات الأجنبية الى اللغـــة العربية فى القـــرن الثالث الهجرى ، وقد حلت محلها الأندلس بعـــد أربعة قرون ، ولـــكن النقل كان من اللغـــة العربية اللاتينية أو غيرها . فلقد تمثلت العلوم الاجنبية فى الفكر الاسلامى ، ثم استقلت عن مصادرها واصبحت علوما اسلامية ناضجة فعالة ، تتمشى مع الحياة العامة الاسلامية والمسيحية معا ، فالعلوم الطبيعية والكيمياء والرياضيات هى فى كل حين قواعد لرفاهة الانسان وخدمة البشرية، وهى الان بعد نضوجها وأحكامها أقدر على تحقيق هذا الغرض حتى العلوم الفلســـفية وخاصة المذهب المشائى ، التى كانت تتجنبها المسيحية لخروجها على مبـــادىء الدين المســـيحى ، قد أصبحت الآن ســـائغة لرهبان أوروبا بعد أن وقفت جهـــود المسلمين بين الفلســـفة والدين الاسلامى ، ولاشك أن الدين الاسلامى والمسيحية يشتركان فى كثير من المبادىء .

كانت الأندلس مركز الاتصال بين المســـلمين والعالم الغربى . وفى هذه الفترة ترجم ماوجد من علوم المسلمين بالاندلس ، سواء أكان من عمل الاندلسيين انفسهم أم من عمل مســـلمى المشرق .

ولقد ساعد على الترجمة أن الاندلس كانت تشيع فيه لغتـــان على الاقل ، اللغة العربية واللغة الاسبانية ، وكان من السهل أن تترجم العلوم من اللغة العربية الى الاسبانية ، ولو شفاها ، ثم تنقل الى اللغة اللاتينية . وقد قامت اللغة الاســـبانية فى ذلك العهـــد مقام اللغة السريانية فى مدرسة بغـــداد فى عهـــد التكوين الفكرى فى الشرق ، كما أن الاندلس لم تحرم من مثقفين يعرفون اللغة العربية واللاتينية معا .

ولقد كان الدافع الى الترجمة لعلوم الاندلس فى هذه الفترة ــ فى بعض صوره ــ هو الافادة من علوم المسلمين ، وتظهر هذه الروح البريئة فى نزعة الفونسو العالم الى الافادة حقا من هذه العلوم . ولكن هذه النزعة لم تكن هى الوحيدة بين عوامل الدفع لترجمة كتب المسلمـــين الى اللاتينية وغيرها ، بل كان من دافع الترجمة التمهيد لمهاجمة المسلمين ، فكما درس المعتزلة بالامس فى بغـــداد أو البصرة آراء المانويـــة والمزدكية والزرادشتية لـــيردوا عليهم ، فعل النصارى مثل ذلك فى الاندلس ، ولم يكن سبيل لهم الا ترجمة كتب المسلمين التى وجـــدوها فى الاندلس . وفى ذلك يقول المستشرق الاسبانى جينثالث(١) :

ولم يكن مجرد الاعجاب بالثقافة العربية دافع الناس الى دراسة كتب المسلمين فى كل الحالات بل اقبل بعضهم على دراستهـــا التماسا لحجج يقارع بها الاسلام واهـــله . ومن البديهى أن خصوم الاسلام لم يكن لهمّ غنى عن تحصيل قدر كاف من العلم به حتى تتسنى لهم منازلته ، وأنه لابد لتحصيل هذا العلم من معرفة اللغة التى تحمل كتبـــه . ومن أولئك الذين حركهم ذلك الدافع الجدلى الى دراســـة العربية رايموندو مارتين .Raimundo Martin (١٢٣٠ــ١٢٨٦)

---

(١) الفكر الاندلسى ص ٥٣٩

وكان قســا دومينيكيا قطلونيا ، فقد اجتهد فى تعلم لغة العرب حتى اتقنها كما يدل ذلك القاموس اللاتينى العربى الطريف الذى ينسب اليه عادة (نشره سكياباريلى Schiaparelli سنة ١٨٧٢). وضع هذا القس القطلونى كتابه المسمى «خنجر الايمان ضد المسلمين واليهود «Pugio fidel adversus Naurus et Judacos. وهو مديح للنصرانية يمتاز فى مادته ومنهجه عن كل ماسبقه اذا استثنينا كتــاب « جامع الحجج فى جدال الكافرين » Summa contra gentes للقديس توما الاكوينى . ويرى مننذذ أى بلايو أنه خير ما الف الاسبان فى العلم الالهى فى القرن الثالث عشر ، ويقول : « ولا ينبغى أن نقف فى تقديره عندما نجده فيه من عرض كامل للحقيقة الكاثوليكية والانتصاف لها من اليهودية والاسلام، بل لابد أن نقدره ككتاب فى اللاهوت نقض مؤلفه فيه بمهارة ظاهرة الاراء الفلسفية المتولدة عن دراسة الفلسفة الشرقية معتمدا فى كثير من الاحيان على حجج الغزالى وغيره ممن قصدوا المجادلة آراء المشائين من فلاسفة الاسلام » . **Menéndez Pelayo p. 319.**

وقد اشاد الاستاذ آسين بما تجلى من علم راموندو مارتين بالعربية والعبريــة والاســلام واليهودية فى كتابيه خنجر الاسلام ، وشرح الرمز Explanatio Simboli فهو يورد نصوصا من الغزالى (انتخبها من « التهافت » و «المقاصد» و « المنقذ » و « الاحياء » وغيرها) ومن كتابات الفارابى وابن سينا وابن رشد خاصة (اقتبسها من شروح ابن رشد على فلسفة أرسطو ، ومن شرح «أرجوزة ابن سينا» ومن كتب «الفلسفة»(١) و « تهافت التهــافت » و « ماوراء الطبيعة » و « رسالة صديق »(٢) Epistalo amicum وكلها لابن رشد) بل أخذ آراء من كتاب للفيلسوف الفارسى فخر الدين الرازى (١١٤٨/٥٤٣ — ١٢٠٩/٦٠٦) المسمى « الرد على جالينوس»(٣) Contra Galenum ومن كتــاب آخر لــه يسمى « المباحث المشرقية » (أو الشرقية) وهو مجموع فلسفى لاهوتى كتب قبل أن ينتفع به رايموند ومارتين بثلاثين ســنة ، هذا الى جانب ما يبدو من علمه الواسع بالقرآن وصحيحى مسلم والبخارى »(٤) .

هذه هى الروح التى أملت لبعض الباحثين فى علوم المسلمين ، وهى روح التعصب ضد الاسلام ، فالذين تعلموا اللغة العربية منهم ، والذين درسوا القرآن والحديث وكتب الفقهاء والفلاسفة المسلمين كانوا يقصدون الى الحط من قدر المســلمين وطعنهم ، فى الوقت الذى كانوا يستفيدون من علومهم .

مدينة طليطلــة :

هى مدينة قديمة اتخذها القوط الذين خلفوا الرومان على شبه جزيرة ايبريا ، عاصمة لملــكهم فى أسبانيا ، ومنها استولوا على شبه الجزيرة كلها . وكان ملوك طليطله من الآريين ، وكان آخر ملك آرى فيها هو Liuvigild (٥٦٨ — ٥٨٦) وقد حارب الكاثوليكية طول حياته ، ثم خلفه ابنه Recaredo فاستبان له أنه لاصلاح لدولة القوط فى البــلاد الا اذا تنازل ملوكهـــا عن الارية ، فأعلن ذلك فى مجمع طليطلة الدينى سنة ٥٨٧ م واعتنق الكاثوليكية ، وبذلك تأصلت الكاثوليكية فى الميلاد ، واعتبرت اللغة اللاتينية لغة رسمية لها (٥) .

ثم فتحها العرب على يد طارق بن زياد ، ولم تنعم المدينة فى ظل الحكم الاسلامى باعتبارها عاصمة الاندلس ، لأن المسلمين اتخذوا عاصمتهم فى عهد الخلافة الاموية مدينة قرطبة ، ولكنها نعمت باعتبارها مدينة كبرى من مدن الاسلام .

وقد ظلت المدينة فى عهــد الخلافة الاموية بالاندلس خاملة الذكر ، وانما ازدهرت المدينة بعد ذلك ، فنشطت فيها الحركة العلمية فى عهد ملوك الطوائف ، والمرابطين والموحــدين الى آخر عهد الاندلس بالاسلام .

فى سنة ١٠٨٥ م استولى الفونسو السادس على هذه المدينة من العرب ، فلم تلبث المدينة أن عاد اليها نشاطها العلمى ولكن بشكل آخر ،

(١) يقصد فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال (تعليق حسين مؤنس) .

(٢) يقصد الى ضميمة ملحقة بفصل المقال عنوانها ضميمة لمسألة العلم القديم التى ذكرها ابو الوليد فى فصل المقال (حسين مؤنس) .

(٣) لم يجد أثر لهذا الكتاب ويظن أنه قصد به « الروض العريض فى علاج المريض » (حسين مؤنس) .

(٤) جنثالث ص ٥٤٠ — ٥٤٢

(٥) فجر الاندلس للدكتور حسين مؤنس ص ٩

فقد أصبحت مدرسة للترجمة(١) كما كانت الحال فى بغداد على عهد المأمون مع فارق هو أن بغداد كانت تنقل علوم الغرب من الاغريقية واللاتينية والسريانية والسنسكريتية الى العربية ، وكانت هذه العلوم بدائية النشأة . أما طليطلة فقد أصبحت تنقل العلوم الاسلامية من العربية الى اللاتينية والاسبانية ثم الى اللغات الاخرى فيما بعد . وقد تم هذا النقل بعد اكتمال العلوم ونضوجها على يد المسلمين .

وكان الفونسو السادس وخلفاؤه يرغبون حقا فى الافادة من علوم المسلمين فى الأندلس ، وقد ساعدهم على ذلك التجاء طائفة من اليهود الأندلسيين الذين اضطهدهم خليفة الموجود بن عبد المؤمن بن على فى حكم الفونسو السابع (١١٢٦ — ١١٥٧) .

ومن المسلمين واليهود تكونت هيئة للترجمة عرفت فى التاريخ الأسبانى باسم كلية أو هيئة أو مدرسة المترجمين الطليطليين Collegio de Praductore Poledanos وهذه الهيئة هى التى كان يقابلها فى بغداد بيت الحكمة أو خزانة الحكمة .

وكما تراس هيئة المترجمين فى بغداد مترجم مسيحى هو حنين بن اسحاق وترأس الهيئة فى طليطلة رجل مسيحى أيضا هو الأب رايموندو اسقف طليطلة وكبير مستشارى طوك تشتالة . وكان فعله هذا حدثا حاسما كان له أبعد الأثر فى مصير أوروبا(٢) .

ومن المترجمين الأسبانيين فى طليطلة اسقف شقوبية دومينيكوس جند يسالفى (بالأسبانية Domingo Conzàlez أو Gundisalinis

وترجم جند يسلانوس(٣) هذا الى اللاتينية أجزاء من كتاب « الشفاء » — لابن سينا ، هى المنطق والنفس وما بعد الطبيعة ، ومقتبسات من الطبيعيات وكتاب « احياء العلوم » للفارابى و « ينبوع الحياة » لابن جرول (وهو فيلسوف يهودى ، كان بعض المدرسين يظنونه مسلما والبعض يحسبه مسيحيا) ورسالة العقل والمعقول للكندى ، ورسالة قسطا بن لوقا فى الفرق بين النفس والروح ، ومقاصد الفلاسفة للغزالى (٤) ، وكتبا فلكيه لمحمد بن جابر الحرانى المعروف بالبتانى ، وأحمد بن كثير الفرغانى وأبى معشر ، وغيرهم .

وقد عمل جند يسالفى بمعاونة بعض اليهود ، وخاصة ابن داوود الذى تنصر فسمى يوحنا ، وعرفبيوحنا بن داود ، ويوحنا الأسبانى ، ويوحنا الأشبيلى . وكان يوحنا ينقل من العربية الى الأسبانية ، فينقل جند يسالفى منها الى اللاتينية . وقد تمت الترجمات السابقة بين سنة ١١٣٠ وسنة ١١٥٠(٥) .

وقد ترجم جرار دى كريمونا الايطالى Gerardo du Cremona شرح الفارابى على السماع الطبيعى لارسطو الى اللاتينية ، كما ترجم له « احصاء العلوم » الى اللاتينية أيضا . وهذه الترجمة محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٩٣٣٥ (ونشرها المستشرق الأسبانى Palenuia « بالنثيساء ملحقة بطبعة للنص العربى الموجود بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا) .

كما قام بترجمة كتب فى الطب والفلك لأبى القاسم الزهراوى ، وخاصة كتاب التعريف لمن عجز عن التاليف ، ونقل رسالة الشفق لابن الهيثم الى اللاتينية أما كتاب ابن الهيثم فى المناظر وهو المنقول الى اللاتينية فانه ليس من المؤكد أن جيرار هو الذى نقله .

وترجم كتاب الجبر والمقابلة الى اللاتينية ، بالاشتراك مع R. of Chester. (٦) .

وترجم كتاب « القانون » فى الطب لابن سينا الى اللاتينية ، فأصبح كتابا يعول عليه فى مختلف الكليات الأوروبية من القرن الثالث عشر حتى القرن السابع عشر حتى أن الشاعر دانتى جعله فى منزلة بين ابقراط وجالينوس ، وذهب سكالنجر الى أنه قرين جالينوس فى الطب ولكنه أسمى منه مرتبة فى الفلسفة (٧) .

---

(١) De lacy O'leary : Arabic Thought and its Place in History p. 276, 277.

(٢) Renan (Ernest) : Averroes Averroisme.

(٣) هو جونديسالفى السابق ذكره كان مشرفا على ديوان الترجمة الذى انشاه ريمون بطليطله ، وخلفه على الديوان جيرار دى كريمونا .

(٤) ترجم تحت عنوان الفلسفة .

(٥) تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط ليوسف كرم ص ٨٤ و ٨٥ .

(٦) ويوجد للخوارزمى نقل لاتينى آخر عنوانه Algorethmi de Numero Bald. Indorium Boncompagni نشرة سنة ١٩٥٧

(٧) الدكتور عثمان أمين فى « محاولات فلسفية » ص ١٦٠

وترجم ميخائيل سكوت Michael Scot في اوائل القرن الثالث عشر الى اللاتينية كتاب علم الهيئة للبطروجي وكتاب الحيوان لارسطو ، وهو يتكون من تعريف الحيوان في عشر مقالات ، واجزاء الحيوان في أربع مقالات ، وكون الحيوان في خمس مقالات . وكتاب « السماء والعالم » ، « رسالة النفس » لابن رشد . وكتاب الحيوان لابن سينا ، وكتاب في التنجيم .

وهو أول من ترجم شروح ابن رشد على ارسطو . ويقول البعض انه قام بهذه الترجمة او ببعضها وهو بطليطلة بمعاونة يهودى اسمه ادراوس أو أندريا . ويرجع البعض انه انما قام بها في بلاط فريدريك بمعاونة نفر من المترجمين ، فقد سافر سنة ١٢٢٠ الى ايطاليا وعرف فيها بمزاولة السحر ، ولكنه كان موضع خطوة في البلاط البابورى ، ثم التحق بخدمة فردريك الثانى فكان منجمه (١) .

وقام هرمان الدلماشي Herman di Dalmatia بالاشتراك مع روبرت دى ريتنس Robert de Retines بترجمة القرآن الى اللاتينية بناء على طلب بطرس الجليل Petro venerable وترجم هرمان الألماني Hermanus Alemannus سنة ١٢٤٠ الشرح الأوسط لابن رشد على الأخلاق النيقوماخية ، وترجم حوالى سنة ١٢٥٠ كتاب الخطابة لارسطو عن العربية مع جلاء النص العربى أو تكميله بالرجوع الى الفارابى وابن سينا وابن رشد ، وكان قد نقل شرح الفارابى على هذا الكتاب . وفى سنة ١٣٥٦ نقل الشرح الأوسط لابن رشد على كتاب ارسطو في الشعر . كما الف كتاب البلاغة والشعر لارسطو مستيقنا في تأليفه بشرح الفارابى « للبلاغة والتلخيص الذى عمله ابن رشد للشعر » .

مدرسة اشبيلية :

هى مدينة أندلسية قديمة ، فتحها موسى ابن نصير بعد بضعة أشهر من الحصار ، حيث ساعده على فتحها البربر واليهود . وظلت المدينة جزءا تابعا للخلافة الأموية في الأندلس ، الى ان استولى عليها قبيل زوال هذه الخلافة القاضى أبو القاسم محمد بن عباد المتوفى ١٠٤٢/٤٣٤ فدخلت في عهد ملوك الطوائف ، وقد خلفه عليها ابنه عباد الملقب بالمعتضد توفى ٤٣٤/ ١٠٤٢) الذى تنازل عن ملكه عليها لابنه عباد الملقب بالمعتضد ، ثم المعتمد الى أن استولى عليها المرابطون ١٠٩١/٤٨٤ .

وقد انتهز الفونسو العالم التفاف جماعة من علماء المسلمين والنصارى واليهود فانشأ في مرسية معهدا للدراسات أشرف عليه الرقوطى الفيلسوف ، ثم نقله الى أشبيلية فصار بمثابة مجلسا للبحوث العلمية ، والحق به مدرسة لاتينية وعربية يقوم بتدريس الطب أساتذة من المسلمين .

وكان هم الفونسو العالم أن ينقل العلوم العربية الى الأسبانية لا الى اللاتينية فترجم الى الأسبانية في عهده القرآن والتلمود و « التبالة » وكليلة ودمنة ، وكتاب بالشطرنج ، وباشراف اخيه الدوق فردريك ترجمة السندباد .

هذا عن الترجمة أما عن التصنيف فقد أمر بتصنيف كتب في الفلك هى : الكتب الأربعة في نجوم الفلك الثامن ، اقتبسها أو ترجمها بتصرف عن كتاب « الصوفى » Jehuda el ... Gwllen Arremon de Aspa. والكتب الالفونسية في أجهزة علم الفلك وادارته وكتبه ، وقد تضمنت قبة السماء وافلاك الكواكب والاسطرلاب ووصفا للصحيفة التى وضعها الزرقانى وكتاب الزيج الألفونسي وهو دراسة للتقاويم ، وكل هذه الكتب عبارة عن نقولات عن الزرقانى ومسلمة المجريطى وقسطا بن لوقا وعلى بن خلف فلكى المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة .

وكذلك صنف كتاب الأحجار الكريمة نقلا عن كتاب لأبى العيش ، وكتاب Libro de las ويظن انه ترجمة لكتاب لعبيد الله محمد الاستجى(٢) .

وقد أسهم في الترجمة والتصنيف في البلاد الأندلسيه غير من ذكرنا في طليطلة واشبيلية كثيرون ، نذكر منهم السريان يهوذا بن موسكا ، والربان زاج الطليطلى وخوان دى آسيا ، وفرناندو والطليطلى ، وخيل دى تبلادوس ، وبدرودى ريال والربان دون ابراهام بن ليفى ، والمعلم برنالدو العربى وجرثى بيرند ا وكانوا ينقلون من العربية الى اللاتينية أو الأسبانية ، كما كانوا ينقلون الكتب الاسلامية المترجمة الى اللغة التى يريدونها .

كما وجد مترجمون لاندرى على التحقيق أين ترجموا ، ومنهم الانجليزى اديلارد أوف بث نقل عن العربية مبادىء اقليدس حول ١١١٦ وزيجات الخوارزمى ورسائل فلكية . وقد طوف في أسبانيا وصقلية ومصر وبلاد العرب(٣) .

---

(١) تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ليوسف كرم ص ١١ ،

(٢) الفكر الاندلسى نقلا عن مصادر أخرى ص ٥٧٦

(٣) يوسف كرم ص ٨٢

٢

فى صقليـــة

اغار العرب على صقلية وجزر البحر المتوسط بضع مرات منذ القرن الأول للهجرة ولم يحـــاول العرب الاستيلاء على صقلية جديا الا فى أوائل القرن الثالث من الهجرة حين استقل شـــمال افريقية عن خلافة المشرق ، وحين حـــدث ما شجعهم على ذلك . وكانت جزيرة صقلية من أعمـــال حكومة بيزنطة ، وكانت حكومة بيزنطة ترسل اليها حكما ليمارسوا السلطة فيها . ومما حدث أن عهد الى أمير البحر أوفيميوس (فيمى) فى الدفاع عنها . وقد علم أوفيميوس أن قيصر بيزنطة أمر بقتله ، فبادر أوفيميوس بقتل حاكم صقلية ، ونصب نفسه أميرا عليها ، ولكن أهلها ثاروا عليـــه ، ففر الى أفريقية طالبا حمـــاية المســـلمين ، ثم عـــاد الى صقلية مع جيش من المسلمين ، ولكن جيش المسلمين عمل لحساب نفسه ، فأتم فتح صقلية بدخوله بلرم ، بعـــد وقائع ذات بضع سنين ــ ٢١٢ هـ ــ ٢١٧ هـ .

وقد فعـــل العرب فى صقلية مثلما فعلوه فى اسبانيا بعد فتحها ، فكان القساوسة أحـــرارا فى تنقلاتهم واداء مشاعر دينهم فتركو الكنائس التى وجدوها فى صقلية على ما كانت عليه . وقد روى الدومينـــيكى كوردين ، وكان رئيســـا لدير القديسة كاترين فى بلرم أن القساوسة كانوا أحرارا فى الخروج لابسين حللهم الدينية ليتناولوا البرضى الرقبان الأقدس وقد روى الأب موروكولى انه كان ينصب فى الحفـــلات العـــامة بمسينة راتيان : احداهما اسلامية وعليها صورة برج اسود فى حقل أخضر ، والأخرى نصرانية ، وعليها صورة صليب مذهب فى حقل أحمر ، ولم يمس العرب الكنائس القـــائمة فى صقلية حين فتحهم لهـــا » .

وجعـــل العرب كل ماله علاقة بالحقوق المدنية ، كالتمسك والارث وما اليهـــا ملائما لعادات صقلية ، ولم يرغب النورمان عنه حين استولوا عليها(١) .

والنورمان هم الذين قضوا على سلطان العرب السياسى فى صقلية ، فى القرن الحادى عشر من الميلاد ، وداوم العرب بعد زوال سيادتهم على القيام برسالتهم الثقافية فيها كبير وقت ، وذلك أن ملوك النورمان ، اذ كانوا من الذكـــاء مـــا يستطيعون به أن يدركوا تفوق العرب العظيم ، واستندوا الى العرب ، فظل نفوذ أتباع الرسول فى ايامهم بالغا .

ظل تأثير العرب فى صقلية حتى بعـــد الفتح النورمانى ، حين ادرك روجير وخلفاؤه أفضلية اتباع النبى فانتحلوا نظمهم وشملوها برعايتهم ، وتمتعت صقلية برخاء دام الى ان قبض ملوك السوآب على زمامها سنة ١١٩٤ فأجلوا العرب عنهـــا(٢) .

وقد بلغ اتصال صقلية بالحضارة الاسلامية غايته فى عهد ملوكها النورمان ، مثـــل روجار الثانى وغليوم الطيب (غليوم الثانى) وملوك دولة الهوهنشتاوفن ــ فـــريدريك الثـــانى ملك صقلية وامبراطور المـــانيا وابنه منفرد ، فلقد سار خلفاء روجير على سنته وتعلم غليوم الثانى لغة العرب ، « وكان يرجع اليهم فى أهم شئونه ، وكانوا يقابلون عطفه باخلاصهم له ، فينضوون اليـــه ويساعدونه على اطفـــاء مـــا يقـــع من الفتن »(٣) .

وتفصيل ذلك أنه لمـــا غزا روجير جيسكار النورماندى جزيرة صقلية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، صحب معه قسطنطين الاغريقى ، فقـــام هذا بترجمة النسخ العربية لبعض كتب الاغريق الى اللغة اللاتينية ، وكان بينهما ثلاثة

---

(١) لوبون ص ٣٠٩ ، ٣١٠
(٢) لوبون ص ٣٠٢ ــ ٣١٠
(٣) لوبون ص ٣٠٨

كتب لابقراط وغـيرها لجالينوس ، وكان ذلك من الوسائل التى أحيت الطب الاغريقى فيما بعـد (١) .

وكان روجير هذا محبا للعلم والمعرفة وقـد عاش فى بلاطه الادريسى الجغرافى العربى وضع له كرة نقش عليها أسماء البلاد المعروفة وقتئذ بالحروف العربية .

وفى سنة ١٢١٥(٢) اصبح فردريك الثانى ملك صقليـة امبراطورا على ألمانيا وكان معجبـا بالحضارة الاسلامية ، فقد اشترك فى الحرب الصليبية ، ضد المسلمين ، واتصل بثقافة العرب فى صقلية واعجب بهم ايما اعجاب ، وقد تعلم العربية واجادها فأسس سنة ١٢٢٤ جامعـة فى نابلى وجعلها مركزا لنقل العلوم العربية الى العالم الغربى(٣) .

وارسل ميشيل سـكوت الى طليطلة حوالى سـنة ١٢١٧ فترجم كثيرا من مؤلفـات ابن رشـد . وان كانت الترجمات التى قام بهـا مترجمون من غير الأندلس غير دقيقة وفى ذلك يقول مؤرخ اندلسى معاصر :

« وتكاد تكون تأليف المترجمين الأجانب عن المدينة الى اللاتينية غاية فى الركاكة(٤) » .

وعن طريق صقلية انتقلت العلوم الاسلامية الى ايطاليا ، فشهرت مدرسة لرنو بالطب وظلت تؤدى رسالتها الى القرن التاسع عشر(٥) وهذه المدرسة كان العرب قد أنشأوها فخصها الذين استولوا على صقلية وجنوب ايطاليا بعنايتهم ، وعينوا على رأسها العـالم الشهير قسطنطين الأفريقى وهو من عرب قرطاجة ، فأنشا حركة واسـعة النطاق لترجمة الكتب العربيـة الى اللاتينية ، وقد اقتبست من هذه الكتب وصايا مدرسة سالين التى ظلت سبب شهرتها الفائقة زمنا غير قصير(٦) .

---

(١) لمحة من تاريخ الطب ص ٢٨
(٢) Lecky, History of Rationalism جزء من قسم ٢ ص ٦١٩ ، ٦٢٠
(٣) تذكر موسوعة لاروس أنها سنة ١٢٢٠
(٤) حنثالث ص ٥٣٩
(٥) لمحة عن تاريخ الطب ص ٢٨
(٦) لوبون ص ٤٩٣

المبحث الثانى

المرحلة الثانية للترجمة

الترجمـــة فى أوروبا

يبدأ عهد الترجمة لكتب المسلمين فى أوروبا حوالى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث بدأ الاستعمار الغربى للدول العربيـــة والشرق وافريقيا ، حيث كان المستعمرون يرغبون فى معرفة أحوال البلاد التى افتتحوها ، فنشأت طائفة المستشرقين ، وهم جماعة من الأجانب بدأوا يتعلمون اللغة العربية وآدابها وذلك لكى يتمكنوا من دراسة أحوال المسلمين فى البـــلاد التى استعمروها . ثم بدأوا ينشرون طائفة من الكتب العربية التى لم تنشر من قبـــل ليعلقوا عليها ، كل فى الفن الذى تخصص فيه ، ثم قاموا بترجمة بعض الكتب الى اللغات الأوربية لكى توضع تحت أنظار العلمـــاء الغربيين الذين لم يواتيهم الحظ ليتعلموا اللغة العربية .. وقـــد اثبت كثير من هؤلاء المستشرقين فى الجامعات الشرقية ليدرسوا فيها فاضطروا الى الترجمة بحكم قيامهم بالتدريس فى هذه الجامعات .

ولم يسلم هؤلاء المستشرقون من الغرض ، فقد كانوا يريدون خـــدمة الاستعمار لا خدمة تلاميذهم الشرقيين وفى ذلك يقول الأستاذ محمد فؤاد كورالى فى مقـــدمته على كتـــاب بارتولد « تاريخ الحضـــارة الاسلامية »(١) ، قال : « من التقاليد المعروفة لدى مستشرقى أوروبا منذ النصف الثـــانى من القرن التاسع عشر ، جمع نتـــائج الأبحاث التى وقعت وتلخيصهـــا فى كتـــاب تركيبى عن دين الاســـلام والعـــالم الاسلامى ، فالاشتغال بفقه اللغـــات السامية وتاريخ الاسلام الناشىء عن أبحـــاث التبشير ونشـــاط المبشرين من جهـــة ، ومن الحاجات السياسية والادارية للدوَل الكبرى والصـــغرى التى لها مستعمرات ، والضرورة الملحة الى أن تعرف الدول ذوات المصالح الكبرى الشعوب التى تستعمرها ، والممالك الاسلامية التى لها صلات بها ، كل هذا كان منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر الى ســـنة ١٩١٤ ، سببا لنهضة الدراسات الاسلامية فى أوروبا . وقد زاد فى خطورة هذه الأبحاث وتعلق الطبقة المثقفة بهـــا فى كل البـــلاد ، رقى العلوم الاجتماعيـــة وفهم التاريخ العام . واجتماع الضرورات العمليـــة لمعرفة المراحل العظيمة التى تربط التاريخ القديم بتاريخ القرون الوسطى بهذه الضرورات العملية. فالكتب المرتبة ، والتركيبية التى يشعر العلماء المتخصصون فى الأبحاث الاسلامية بالحاجة الى كتابتها حينا بعد حين ، ناتجة عما سبق . وأما الحركات السياسية والفكرية ، وتيارات الحركات القومية والتجديد ، التى ظهرت بعد انتهاء الحرب العالمية ، فقد جعلت شعور العـــالم الغربى ، لغايات سياسية وعملية ، أكثر علاقة بالعـــالم الاسلامى. وكانت الضروراتالعملية تزيد الحاجة الى دراسة تاريخ الشريعةالاسلامية وحضارتها والتعميق فى فهمها يوما بعد يوم ، فقد أريد الا تقصر التاريخ العام على الغرب المسيحى كمـــا كان من قبل ، بل يجعل تاريخا بشريا تركيبيا محتويا على الشرق الاسلامى والشرق ، الأقصى الخارج من حدود الأديان السامية .. ونشاهد هذا الميل قليلا أو ــ كثيرا فى سلسلة كتب التاريخ العام التى نشرت فى أوروبا . ومع أن هذا الميل لا يزال فى المقدمة ولا يفترق عن « الروتين » وأنه يبشر بانتصار فهم التاريخ العام بمعناه الحقيقى فى المستقبل »

واذن فأغراض الترجمة فى القرن التاسع عشر (النصف الثانى) لم تكن الا لخدمة الاستعمار والتبشير والتاريخ العام ، فضلا عن الطعن على المسلمين على الروتين القديم ، ولكنها لم تكن

---

(١) الترجمة العربية للاستاذ حمزة طاهر ص ٢٣

بحال لخدمة قضية العلوم الطبيعية والفلسفية لان هذه الكتب كانت قد استنفذت أغراضهـا من قبـل .

كان هذا هو الدافع الى الترجمة ، ولم تكن الترجمات اللاتينية لتسعف الباحثين لأن اللغـة اللاتينية التى كانت لغة العلم فى العصور الوسطى قد فقدت مكانتها وحلت محلها اللغات الأخرى كالفرنسية والايطالية وهكذا صارت لكل دولة لغة قومية للتأليف خاصة بها من دون اللغـة اللاتينية التى أصبحت لغة ميتة .

يتميز هذا العهد عن سابقه بمميزات أهمها :

أولا : أنه لم ينقل من اللغة العربية مباشرة فى كل الأحوال وانمـا كان النقل ايضـا عن الترجمات العربية واللاتينية التى سبق أن أجريت، فى طليطلة وغيرها ، وقد لجأ الأوروبيون الى ذلك خاصة بالنسبة للترجمات اللاتينية التى ضاعت أصولها العربية .. كما أن كثيرين من الناقلين كانوا أكثر اجادة للغة اللاتينية من العربية .

ثانيا : ان النقل كان الى أكثر من لغة ، فبعد أن فقدت اللغة اللاتينية مكانتها كان لزاما على كل عالم أن يترجم بلغة قومه فتعددت الترجمات للكتاب الواحد الأمر الذى كان يندر أن تراه فى عهد الترجمة الأولى .

ثالثا : ان الترجمات الحديثة كانت أكثر دقة من ذى قبـل وذلك لأن الاتصال بين العالمين الشرقى والغربى بدأ يشتد بسبب ابتكار وسائل للمواصـلات أسرع وأيسر ، وبسبب البحوث العلميـة التى كان يرسلها الشرق الى أوروبا والأساتذة الغربيين الذين كانوا يزورون الشرق ويعلمون فيه ، حبا للعلم أو خدمة للاستعمار كما أن تحسن وسائل الطباعة قلل من أخطاء النقل وساعد على ذيوع التراجم .

أما الترجمات القديمة فقـد كانت أغلاطها فاحشة ونضرب مثلا لذلك أن مترجما ترجم فصلا من كتاب « القانون » جعل عنوانه « فصـل فى السوداء » ولم يكن الا فصـلا فى الصداع ، وترجموا ايضا من كتاب القانون فصلا فى الاعتناق وهو فصل فى العشق(١) وقد سبق بياننا لهذا الأمر .

وليس معنى وجود مرحلتين للترجمة لكتب المسلمين الى اللغات الأوربية أن احداهما كانت مقطـوعة الصلة بالأخـرى ، فالحق هو أن المرحلتين كانتا متصلتين ، والنقل ظل مستمرا ، وهو مستمر الى اليـوم ، ولا تزال الأندلس ومكتبتها الشـهيرة الاسكوريال معينا لا ينضب لنشر الذخائر الاسلامية . ولكن الذى جد فى الأمر أن الدول الأوربية الحديثة وما أنشأت من جامعات ومكتبـات فاقت الأندلس الحديثة ، بل فاقتهـا فى ترجمة الكتب الاسـلامية ونشرها وخاصة بعـد انتشار الطباعة وتفوق انجلترا وفرنسـا والمانيا وايطاليا فى المكانة السياسية والعلمية على الأندلس .

ومهما يكن من شىء فان التراجم الأوربيـة لمؤلفات المسلمين ، مهما يكن الغرض منهـا ، علميا كان أم تبشيريا استعماريا على الوجـه الآتى :

أولا : كانت الطباعة ساعدا قويا على نشر الكتب الاسلامية التى عنى بها الأوربيون وكان فن الطباعة قد سبق الى أوروبا قبل أن يستقر فى البلاد الاسلامية بزمن طويل ، فبكر هذا بمعرفة المسلمين أنفسهم بذخائر أسلافهم .

ثانيا — عندما اخذ الغرب يأخذ عدته للنهضة كانت دعاماته العلوم الاسلامية . وقد أدى هذا الى تحليل العلوم الاسلامية ونشرها والتعليق عليها ، الأمر الذى مكن لهذه العلوم من الشهرة وبعد الصيت ، وأن تأخذ مكانتها اللائقة بها فى العالم الغربى ، ولم يكن ذلك متيسرا بالنسبة للمسلمين أنفسهم ، فقد كانوا فى حالة لا يحسدون عليها . ولو تصورنا المسلمين فى عصر النهضة الأوربية الحديثة ، وما كانوا عليـه من التفكك السياسى خلال الخمسة القرون الماضية لأمكننا أن نتصور أمر استيقاظهم مستحيلا ، وأمر تراثهم هملا الى اليوم ، وهى نفس الحالة التى وصل اليها اليـونان هم وتراثهم الدفين حين أيقظهم المسلمون فى القرن التاسع الهجرى .

---

(١) الدكتور محمد كامل حسـين (طبيب) فى كتـابه« متنوعات » ج ١ ص ١٧٢ الطبعة الثانية تحت عنوان « تاريخ الطب عند العرب » .

الفصل الرابع

الأدب الإسلامى فى أوروبا

الزجل العربى :

سواء كان الزجل العربى اسبانيا محليا ، كما يذهب خليان ربييرا أو عربيا أصليا ، كما يذهب ابن خلدون ، فان هذا الزجل العربى قد أثـر فى الأدب الأندلسى اللاحق عليه ، وقد سبق أن بينا كيف نشأ الزجل الأندلسى وقدمنا نماذج منه ، ونضيف الآن أن هذا الفن من الشعر العربى ظل فى اسبانيا حيا على مر العصور ، فله نظائره فيما نقله الفونسو الحكيم وفى ديوانه المعروف فى القرن الرابع عشر ، وقد ذكر فى ديوانه أنه كان ينظم شـعرا تغنيـه مغنيات مسلمات مع الموسيقى ، وكذلك نجده عند فليا سنديتو وخوان دلنيثما فى القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر(١) .

وليس عجيبا أن تكون الأغانى الدينية كأناشيد الفونسو الحـكيم مشتقة من الغنـاء العربى الأندلسى ، فمن بين الصـور التفسـيرية التى تفسر العارفين على مختلف الآلات الموسيقية ، صورة فى مخطوط تمثل شاعرا نصرانيا وآخر مسلما يعزفان على العود سويا ويغنيان معا . وقد بلغ من تغلغل الغناء العربى فى البيئـات المسيحية ان مجتمع القساوسة الذى انعقد فى بلد الوليد سنة ١٣٢٢ م شكا من أن المسيحيين يدخلون معهم فى الكنائس المسـلمين واليهود ، يغنون ويعزفون فى المحـافل الدينية وأنذر من يفعلون ذلك بالعقـاب الشـديد واخراجهم من حظيرة الكنيسة وحرمانهم من الدفن الكنسى .

أما فى خارج الكنيسة فلم يكن للتأثير العربى حدود ، بل كان شائعا عاما فى كل مكان ، ومنذ القرن العاشر والصحبة بين المغنيين من المسلمين ورفاقهم من المغنيين المسيحيين مضرب الأمثال ، وفى سنة ١٢٩٣ بلغ عدد الشعراء الذين كانت تجرى عليهم الأرزاق فى بلاط سانشو الرابع ملك قشتالة الذى يعرف بين المؤرخين العرب بشانجة ثلاثة عشر شاعرا من المسلمين واثنى عشر من المسيحيين ، وكان بدرو الرابع ملك ارغـون ويسميه العرب بطره يتخـذ من قصره شعراء مسلمين من شاطبة ، وكانت بها مدرسة ذائعـة الصيت(٢) .

هذا فى اسبانيا وحدها ، أما فى بقية ممالك أوروبا ، فان الأستاذ جورج يعقوب يبين لنـا بعد المامه بتاريخ ظهور الزجل ، كيف كان لهذا الفن الأدبى فعل السحر فى أوروبا ، وخاصة فيما تغنى به جماعة التروبادور . قال الكاتب ان أثرا أدبيا آخر يغـزو الأدب الأوروبى « وهو هذا الضرب من فنون الشعر الذى انتشر بين طبقات الشعب المختلفة وشغل من أدبها المكان الأول ، أعنى الزجل ، فهذا الفن من فنون الشعر السبعة التى نشأت فيما بعد فى الأدب العربى مختلف فى وطنه كما اختلفوا فى الوطن الأصلى للمواليا . فهناك رواية تذكر بغـداد ، واخترعته جارية عاشت أيام هارون الرشيد ، ورواية أخرى يفهم منها ضمنا أن وطنه بلاد العرب ، واخترعه رجل يقال له راشد . وقيل أبو بكر قزمان . ويذكر ابن خلدون أن هذا الفن ظهر فى الأندلس وأنه من مستحدثات أهلها ، وان أول من أبدع فيه أبو بكر قزمان وان كانت الأزجال قد قيلت قبله . وعلى كل حال فهذا الفن من الشعر باجمـاع جميع الروايات اينع وكثر فى الأندلس دون سائر الأقطار الاسلامية . وهذا الضرب من فنـون

---

(١) لطفى عبد البديع ص ١١٨

(٢) لطفى عبد البديع ص ١٢٠ و ١٢١

الشـــعر العربى يمتاز بصـــدق تمثيله لنفسية الانسـان وخواطره ، وقد ظهر بعد ان مهد له شعراء العرب من جاهليين واسلاميين بشعرهم الغزلى الذى شادوا فيه بالمرأة وجمالها ، هذه المرأة التى احتلت من شعرها المكان الأول ، حتى أن الشاعر العربى ليستهل قصيدته أو حوليته بالغزل . هذه النفسية العربية بعينها التى جعلت العربى قبل غيره يعترف بأثر المرأة ومكانتها فى حيــاته الأدبية أو الاجتماعية اضطرت الشعر العربى الى الافصاح والتعبير عما يجول بخاطر الشـــاعر ، وهذه الظاهرة لم تظهر فى أوروبا الا بعد أن احتكت بالعرب فى الأندلس وصقلية والحروب الصليبية . وقد انتشر هذا الفن فى جنوب فرنسا حيث نجد جماعة الزويادور ، ومن ثم يشق هذا الفن طريقه الى مختلف هذا الفن طريقه الى مختلف الممالك الأوروبية ، وخاصة ايطاليا ، كما أشار الى ذلك العلامة الألمـــانى جراف شك واثبته »(١) .

وفى نفس المعنى يقول الأســـتاذ جنثالث فى تاريخ الفكر الأندلسى(٢) « يعتبر الفن الشعرى الذى ابتكره مقدم بن معافى القبرى والذى نجـــد أظهر نماذجه عند ابن قزمان ، المفتاح العجيب الذى يكشف لنا عن سر تكوين القوالب التى صبت فيها الطرز الشـــعرى التى ظهرت فى العـــالم المتحضر اثناء العصر الوسيط ، كما قال خليان ريبيرا وأيده بالبراهين . وقد تجلت الدراسات التى قام بها الأستاذ حول موسيقى الكنتيجات(٣) . ودواوين التروبادور Troubadores والتروفير Troveros والمينيزنجر(٤) Minmisaenger (٥) عن اثبات انتقال محور الشعر الأندلسى الى جانب الموسيقى العربية الى أوروبا ، عن نفس الطريق الذى انتقـــل به الـــكثير من عـــلوم القـــدماء وفنونهم ، لا ندرى كيف هذا ولم تنتقل الى أوروبا أنغام الموسيقى وحـــدها بل صاحبتها الأغنيات التى تغنى لها ، وكان من الطبيعى أن يكون لها آثار فى الطرز الشعرية التىوجدت هناك » .

ثم يتعرض المؤلف الى طرز الشعر الغنائى وموسيقاها عند طائفة من الدول وهو يحيل الى بحوث ريبيرا فى تأثر الشعر الأوروبى بالطراز الأسبانى(٦) فى هذا الموضـوع . الى أن يقول : والواقـــع أن أوائل التروبادور البروفنســـيين استخدموا أقدم القوالب الزجلية الأندلسية وتغنوا بغرامياتهم الجارحة للحشمة بنفس الحرية وعدم التحرج اللذين تراها عند ابن قزمان . وفى العصر الذى عاش فيه الشاعر Cercamon أى قبـــل عصر الكونت ديبواتييه Le Conte de Poitiers جد على الشعر البروفنسى تقليد جديد لم تبق لنا منه نماذج ، ولكن الأغلب أنه هو نفســه الذى سار عليه من أتوا بعده مباشرة » .

ثم يستعرض المؤلف أنموذجـــا من شـــــعر الكونت بواتييه قريبا جدا من أشعار ابن قزمان الأندلسى مع بيان التغيير فى موضع الخرجة من الاغصان وهو تغيير طفيف لا يمس الجوهر ، ويستشهد ايضا بأشعار :
G. Mogret, G. Raynald, Maine de Montaudon
وسداسيات Marcalirn الى أن يقول :

« وقد ظل نظام هذا الطراز الشعبى الأندلسى ذى الأغصان (أى الزجـــل) باقيـــا فى صناعه الألحان الموسيقية خـــلال العصور الوسطى ولا سيما فى هذا النوع من الألحان المعروف بالروندو Rondo وهى ترجمة للفظ العربى « نوبة » أى نظام تعاقب فريق من العازفين على عزف قطعة موسيقية »(٧) .

ثم يضرب الأمثال باغنيتى « الشقية فى زواجها La Mau Mariée ووردة دنكرك **La rose de** Dunkerk المصـــوغة فى قالب الزجل منتهيا الى أن مقطعـــات فرنســـية قصـــيرة شاعت بين الناس فى القرن السابع عشر سارت كلها على طريقة عرفت بالروندية Le rondet أى النوبة .

ثم يبين المؤلف أثر الأزجـــال الأندلســـية فى الأغانى الشعبية الانجليزية مستشهدا بأزجـــال

---

(١) أخذ صاحب هذا القول رأيه عن : Graf Schack : Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien Minne

(٢) ص ٦١٣ وما بعدها .
(٣) الاغنيات .
(٤) طوائف من المغنيين المتجولين .
(٥) منشدو اليمن mime وهى الاغانى القصيرة .
(٦) الفكر الاندلسى ص ٦١٤ وما بعدها .
(٧) أى أن البعض يعزف لحن الخرجة والبعض الاخر يعزف لحن الاغصان ، ثم يعود الاولون الى عزف الخرجة عند تكرارها وهكذا .

Du Meril التى تتكون كل مجموعة منها من رباعية ، ثلاثة منها باللغة الانجليزية الدارجة والرابع باللغة اللاتينية(١) الى ان يقول :

« بل لا تزال قوالب الأزجال باقية الى الآن فى الأغانى الشعبية الايرلندية والاسكتلندية (وخاصة هذه الأخير) حيث نجد رباعيات من الطراز الذى كان يصوغه مسلمو الأندس ونظامها» (أى ٣ أغصان وخرجة) .

ويستشهد فى ألمانيا بأغانى من المينيزنجر فيذكر قطعة للمنشد هرمان دردا مكونة من ثلاثة أغصان وخرجة .

أما بالنسبة لأثر الزجل الأندلسى فى ايطاليا فيميل الى ابحاث ملياس فاليكروسا ، وبيزى ، وتنتهى الى أن قالب الزجل الأندلسى وجد فى نوع الشعر المسمى Contrasto من أمثال منظومة Ciulla dal Camo وفى المدائح ، وأحسن انموذج له شعر Zacapone di Todi وفى نوع المرقصات La Balata ، وانموذجه شعر Larenso di Medicis والبوليزيانو El Poliziano ، كما يظهر هذا القالب فى المدائح المقدسة Laudes Sacras التى تشبه منظومات المديح الالهى A lo divino الاندلسية ، وهذه المدائح المقدسة الايطالية كان يستعمل فى تلحينها الحان غير كنائسية .

ثم ينتهى مطاف المؤلف الى البرتغال ، فيلاحظ ان فى الأغانى الجليقية منظومات من طراز الزجل كأغنية La cantiga d'amigo من شعر ديونس ، والاغنية المرقصة Juan Zorro للشاعر Las avelaneiras

ويتصدى العلامة الأسبانى منندز بيدال ، وهو من أشد الباحثين تحمسا لنظرية التأثر العربى للدفاع عنها ونقض حجج خصومها وتفنيد دعاواهم ، فيذهب الى أن أول شاعر شعبى بروفنسى نعلمه هو جيلرمو التاسع دوق اكتانيا ويعد فى الوقت ذاته أول شاعر نعرفه فى لغات الغرب جميعا ، له خمس قطع دونت على ما يعتقد بعد عام ١١٠٢ من بين قطعه الشعرية التى حفظت عنه ، وتبلغ احدى عشرة ، وهى تتألف من أدوار على نحو ما فى الزجل بأجزائه الثلاثة المتفقة القوافى تتلوها سمط أو اسماط متفقة القوافى فى جميع الأدوار ، ومثل هذه تجده عند شعراء آخرين أقدم منه عهدا مثل سركمون ومركبرو فى النصف الاول من القرن الثانى عشر ، غير أن هذا التركيب لا يلبث أن يختفى عند المتأخرين من الشعراء ولا يبقى حيا الا فى الغناء الشعبى حيث يستعمل بكثرة ، سواء فى فرنسا أم فى ايطاليا فى الرقص الشعبى والاغانى الدينية للرهبان الفرنسيسكان فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر فى اغانى الكرنفالات بفلورنسة فى القرن الخامس عشر(٢) .

ويقول السير جيب فى هذا المعنى(٣) :

« ان أولى المشكلات فى تحديد العلاقة بين الشعر العربى وشعر التروبادور ربما تكون اصعبها جميعا ، ذلك بانه فى نهاية القرن الحادى عشر نشأ فجأة فى جنوب فرنسا نوع جديد من الشعر نهج منهجا جديدا ، تميزه صفات نفسية اجتماعية جديدة ، وتصوير خيالى فنى جديد ، وأنه ليس فى الادب الفرنسى السابق الا دلائل قليلة تشير الى اتجاه هذ التطور ، ومن ناحية أخرى فان الشعر الجديد كان كثير الشبه بنوع من الشعر المعاصر فى اسبانيا العربية ، فأى شىء ادعى من الناحية الطبيعية لان نفترض أن الشعر ـــ البروفنسى قد تأثر بالنماذج العربية ؟»

ويضيف الكاتب الى أن وجهة النظر القائلة

---

(١) وهذا يشبه رباعيات المدحة النبوية المسماة
Almadha de Alabandca al annave Mohammed
وهى مكونة من أربعة اغصان باللغة الاسبانية وخرجة باللغة العربية وهاك رباعية منها :

Senor, fes tu accala aobre el
Y fesnos amar con el
Sacanosc en su tropel,
Jus la sena de Mohammad

يا حبيبى يا محمد والصلاة على محمد .

(٢) عبد البديع ص ١١٨ ، ١١٩

(٣) مقال للسير جيب H.A.R. Gibb فى كتاب « تراث الاسلام » لارنولد وجيوم ـــ مترجم ـــ من ص ١٤٩ ـــ ٢٢٠ « الادب » .

بأن شعر التروبادور مستمد مباشرة من النماذج العربية كانت مقبولة بما لا يدع مجالا للشك خلال قرون عدة وأكدها بكل ثقة جياميرا باريسيرا ، وعند احياء دراسات القرون الوسطى فى نهاية القرن الثامن عشر ، عندما كان خيال الجماهير مشبعا بالاغانى العاطفية الشرقية ، كانت الفكرة السائدة التى دعا اليها سموندى وفوربيل تؤيد الصلة الوثيقة بين الشعر البروفانسى والشعر العربى . ولم يحدث انتكاس عن هذه الفكرة الا فى منتصف القرن التاسع عشر بين المستشرقين والباحثين فى فقه اللغات (١) .

ويذكر الاستاذ دريبر ان النساء العربيات وكن يتذوقن الشعر والادب الرفيع من امثال فريدة وعائشة ولبنى والغسانية كان لهن أثر فى الادب البروفانسى اذ انتقلت حياة المسرح التى كان يمارسها نساء العرب الاندلسيات الى اخواتهن وراء جبال البرانس ، وكان جنوب فرنسا موطن السحر والفتنة النسائية والرقص على انغام العود والقيثارة . وفى ايطاليا وصقلية كانت اناشيد الحب هى النوع المفضل فى التأليف ومن هذه المقدمات الفنية البعيدة عن روح التعصب نشأ الادب الرفيع فى أوروبا الحديثة وانعكست روح المرح الاسبانية العربية الخفيفة على العادات الغليظة فى بلاد أوروبا الشمالية حتى انك لتلمس هذه الروح فى احدى الاغنيات اللاتينية التى كان ينشدها احد شمامسة اكسفورد بعد ذلك بزمن قصير (٢) .

كما يذكر الاستاذ غارسيا غومس وهو فى صدد كلامه عن الحب العذرى الرقيق « أن شعراء الاسلام من بغداد الى مرسية اقاموا قرونا ثلاثة يتغنون بالحب العذرى ويحللونه ويرسمون له المناهج ، وتلك هى الحركة التى انتقلت من قرطبة الى بروفانس جنوب فرنسا لتلهم البروفانسيين ما سموه (العلم البهيج (Gaya Ciensia) والتى أوحت الى جويدو جينزلى استاذ دانتى اسلوبه العذب الجميل ، ومع هذا فعندما اخرجت مطابع فلورنسه النص الاغريقى لكلام افلاطون رمى الناس العرب بالحسية الجافية ، ومضوا من ذلك الحين يصفونهم بذلك .

وعندى انه من الظلم البين أن نضيق على منافس الاداب الاسلامية ونقصر وصولها الى الأوروبيين على طريق الاقتباس من الآندلس ، فهنالك طرق أخرى لانتشار الاداب الاسلامية فى أوربا ، منها احتلال المسلمين لجنوب فرنسا نعم لقد احتل المسلمون جنوب فرنسا ووقعت بين عبد الرحمن الغافقى وشارل مارتل موقعة تور أو بواتييه التى تقهقر فيها المسلمون مرتدين، ولم يلبث المسلمون بعد أن افاقوا من الضربة التى أصابهم بها شارل مارتل أن اخذوا يستردون مراكزهم السابقة ، وقد اقاموا بفرنسا بعدذلك، وسلم حاكم مارسيلية مقاطعة البروفانس اليهم فى سنة ٧٣٧ م ، واستولوا على الارل ودخلوا مقاطعة سان ترويز فى سنة ٨٨٩ ، ودامت اقامتهم بمقاطعة البروفانس الى نهاية القرن العاشر الميلادى وأوغلوا فى مقاطعة الغال وسويسرا سنة ٩٣٥ ، وروى بعض المؤرخين أنهم بلغوا مدينة ميتز (٣) .

« ومع أن اقامة العرب بفرنسا نشأت عن بعض السرايا نراهم قد تركوا أثرا عميقا فى اللغة وفى الدم .... وذلك انه استقر اناس كثيرون منهم بالاراضى القريبة من المدن التى استولوا عليها وتعاطوا فيها أمور الزراعة والصناعة ، وأنهم ادخلوا صناعة البسط الى أوبيسون وأنهم ادخلوا كثيرا من اساليب الفلاحة كما عزى اليهم ، وانهم امتزجوا بسكان البلاد بسبب مخالفاتهم الكثيرة لامراء النصارى الاقطاعيين المتقاتلين على الدوام » (٤) .

كما أن صقلية لابد أن تكون قد اسهمت فى نقل فنون الشعر العربى وخاصة الازجال الى ايطاليا على الاقل ، وقد سبق أن بينت ان الزجل كان منتشرا فعلا فى صقلية ، وان النورمان عندما اغتصبوها من المسلمين لم يقطعوا صلتهم بها ، وان هؤلاء المغتصبين على جلفهم كانوا يعتبرون المسلمين اساتذتهم فى كل فن .

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٣
(٢) جون دريبر — تطور أوروبا الفكرى ج ٢ ص ٣٥
(٣) الشعر الاندلسى ترجمة حسين مؤنس ٨٢
(٤) لوبون ص ٣١٥ و ٣١٦
و ٣١٧ و ٣١٨ . ويثبت لوبون عقب هذا النص أن حفدة العرب لايزال يوجد منهم الكثير فى أماكن كثيرة من فرنسا .

واستعانوا بهم فى جميع شئونهم ، وأن قوما هذا شأنهم لابد أن يكونوا قد استعاروا من أساتذتهم فنونهم الادبية . وقد كان يسكن صقلية عندما نظم أمورها روجر ، خمسة شعوب ، وهم النورمان والاغريق واللومبارد واليهود والعرب وكانت امامة الثقافة والصناعة للمسلمين « فأخذ روجر يحافظ عليهم احسن المحافظة ، وكانت مراسيم روجر تكتب بالعربية واليونانية واللاتينية ، وكان نصف الكتابة فى دائرة نقوده بالعربية والنصف الآخر باليونانية أو اللاتينية ، وكان بعضها يشتمل على رمز المسيح ، وبعض منها يشتمل على رمز محمد ، وبعض آخر يشتمل على كلا الرمزين »(١) .

وأما الطريق الأخيرة فهى الحروب الصليبية . لقد استمرت هذه الحروب قرنين من الزمان أثرت فى الادب الاوروبى تأثيرا ملحوظا ، كما يشير اليه جوستاف فون جريناوم (٢) فيقول اننا نعلم أن أول شاعر اكويتانى جوال وهو الكونت جيوم التاسع دى بواتييه الذى رحل الى الشرق فى غزوة صليبية (١١٠١ — ١١٠٢) قد تأثر شعره من تلك السفرة ، فاحدثت فيه تغييرا كاملا من حيث الروح والاسلوب ، ذلك انه بعد عودته من البلاد المقدسة اصبح ايقاع أغانيه وهيكلها العام يذكران بالموشح الأندلسى(٣)

وكما يشر اليه الاستاذ جوستاف لوبون (٤) حيث يقول : « ولم يكن تأثير آداب العرب فى الصليبيين صفرا وانما كان ضعيفا جدا ، فقد استوحاها كثير من شعراء الغرب وكتابهم ، فكان سحرة مصر وعجائب الشرق وغود وفرا وتانكريد وغيرهما ، موضوع قصصهم للشعراء المجولين الذين كانوا ينشدونه بين قصر وقصر » .

القافية فى الشعر الاوروبى :

يقول الاستاذ جورج يعقوب المستشرق الالمانى ما يلى (٥) :

والشىء الجدير بالملاحظة ايضا فى الشعر العاطفى الاوروبى اهتمامه بالقافية ، فنحن نعلم أن الشعر الكلاسيكى لم يوجه الى القافية عناية تذكر ، بخلاف الحال فى الشعر العربى منذ اقدم عصوره ، فهذه الظاهرة جعلت كثيرين من رجال الادب يميلون الى الاعتقاد بأن القافية جاءت أوروبا عن طريق الشرق . وهذا الرأى هو الذى دفع بعض المتعصبين المتغنين من رجال الغرب أمثال فيلاموفيتس الى محاربة القافية فى فى الشعر محتجا بعدم ورودها فى الشعر الكلاسيكى من ناحية ، وشيوعها بدرجة عدم الاستساغة من ناحية أخرى . والواقع ان القافية هى التى تخلق هذا الاثر القوى فى شعر (جوته) الوجدانى ، والقافية أيضا هى صاحبة العمل الأول فى ايجاد هذه الموسيقى الشعرية الجميلة التى نسمعها فى شعر (بلاتن) ونثر (ستيفن جورج) وغيرهما من اعلام وفطاحل اللغة وائمة الشعر ، ولولا هذه القافية لتلاشى علم النغم والصوت والجرس . ولكى ندرك الفرق بين الكلام المقفى والمرسل يكفى ان نجرد مثلا بعض ابيضات الشاعر (بلاتن) من قوافيها ونعالجها فى بحر الهكسامتر الطويل الممل ، وعندئذ فقط نستطيع ادراك التقدم العظيم الذى بلغه الشعر بفضل استعمال القافية . ومهما حاول انصار المدرسة الكلاسيكية محاربة القافية فلن يكتب لهم التوفيق . ونظرة الى الشعر الجرمانى القديم تكفى للاهتداء الى هذه المحاولات الاولية التى حاولها الشعراء المتقدمون عندما استخدموا القافية كوصلة صوتية لابد منها ، مما يؤيد شعور المتقدمين بالنقص ، ومحاولتهم اتمامه . ولا نذهب بعيدا ونقرر انه حتى انصار — الشعر الكلاسيكى اذا ما حاولوا اليوم التعبير عن آرائهم وعواطفهم بالفاظ قوية وعبارات رصينة لجأوا الى السجع والقافية ، بخلاف استخدام هذه العبارات المرسلة التى نجدها فى وزن هكسامتر مثلا . فقد أضر هذا الجر بالادب الالمانى ضررا بليغا . فلو قدر لشاعر المانيا — جوته — أن يضع قصة (هرمن ودروتيه) نثرا لصادفت من قراء الادب الالمانى قبولا حسنا ، بخلاف هذا النوع من الاعراض الذى يتلقاها به قراؤها فى اسلوبها الهكسامترى الطويل الممل . ومن حسن الحظ أن عنى بعض شعراء وكتاب الالمانية فى العصر القديم بضرب من ضروب القافية فسموا باللغة وهذبوها ، وثقفوا جرسها ونمقوا صوتها»

(١) لوبون ص ٣٠٨
(٢) دراسات فى الادب العربى ص ٢٠٦ وما بعدها (مترجم).
(٣) لقد سبق أن بينت أن هذا النمط الشعرى كان موجودا فى صقلية ومصر وبلاد اخرى .
(٤) حضارة العرب ص ٣٣٨ و ٣٣٩
(٥) اثر الشرق فى الغرب خاصة فى العصور الوسطى ترجمة فؤاد حسنين على سنة ١٩٤٦ ص ٨٤

ورايى أن هنالك رابطة وثيقة بين انتقـــال الشعر العربى فى احدى صوره الى أوروبا وبين تمكن القافية من الشعر الاوروبى ، فالمعقول أن تبهر القافية شعراء الغرب قبل أن يبهرهم نظم الشعر فى غصون وخرجات ، وليس من المعقول أن يأخذ الغربيون أوزان الشعر العربى دون أن يأخذوا القافية ، وهى اجمل ما امتاز به الشعر العربى على مر السنين .

أما الان وقد تبين لك أثر الزجل العربى فى أوروبا ، فان السيرجيب ــ يفسر لك سبب تهالك الاوربيين على هذا الادب بان الحضارة الاوروبية فى القرون الوســطى كانت قد برمت بالنظــم الاكليروسية الضيقة ، ولم يستطع الاوربيون أن يشبعوا رغبــاتهم فى الادب اللاتينى المحــدود ، فاضطروا الى الالتجاء الى العالم الاسلامى الذى كان مشهورا حتى الان عندهم بالتفوق الحربى فحسب ، ففوجئوا بأن المسلمين كانوا يبرزونهم فى ميدان الفكر أيضا ، وبذلك تأصلت جذور الاداب العربية فى أوروبا الحديثة وشارك فى الطفرة التى عمت فيها فى عصر النهضة (١) .

وبعد أن أفاض السير جيب فى أثر القصـــة الشرقية فى الادب الغربى الحديث عـــرج على تأثير الادب العربى والهنـــدى فى أدب القـــرن التاسع عشر الالمانى فقال أن هذا التأثير كان عظيما بدرجة لا نظير لها حتى لقد وجد جــوته فى الشعر الشرقى وسيلة للهروب الى دنيـــا الخيال من حقائق العصر القاسية(٢) .

وأن هذا التهالك على آداب المسلمين يذكرنا بانتشار رباعيات الخيام(٣) فى أوروبا منذ القرن التاسع عشر ، وقد كان المستشرق الألمانى فون عمر Von Hammar أول من لفت نظر العالم الغربى الى رباعيات الخيام سنة ١٨١٨ ثم ترجم **ادوارد فتزجرالد** Edward Fitzgerald سنة ١٨٥٩ ٧٥ رباعية منها الى الشعر الانجليزى الرفيع ، ومن أن ثمن النسخة من هذه الطبعة لم يزد على بنس واحد ، الا أن الطبعات افلحت فى تعـــديل الصورة التى كانت فى عقول الناس عن العالم الرياضى الفارسى حتى جعله من أكثر الشعراء شهرة ، وجعلت شعره من أكثر ما يقرأ من الشعر فى العالم(٤) .

أما مكانة رباعيات الخيام بين الادب الاوروبى ، فانه يكفى أن يقال أن هذه الرباعيات ترجمت الى اشهر لغات العالم ، وأن ثمن النسخة من الطبعة الاولى التى كانت لا تساوى بنسا عنـــد ظهورها قد وصل الى ستين جنيها انجليزيا ، وأنه تأسس فى لندن سنة ١٨٩٢ ، ناد باســـم الخيام ، بدأ نشاطه بزيارة قبر فتزجرالد أول مترجم للرباعيات بالانجليزية ، ثم ناشد النادى شاه ايران لترميم قبر الخيام فى نيسابور وتعهد الأزهار المغروسة حوله(٥) .

القصـــص :

عرفت أن كثيرا من القصــــص قـــد ترجم الى اللغة العربية فى عصر النهضـــة ، ومـــن هـــذا القصص كتاب كليلة ودمنة والف ليـــلة وليـــلة وسندباد نامه . و «برلام ويوسف » وغـــيرها . ومع أن هذا القصص يرجع الى اصل هنـــدى أو فارسى ، الا أن الفضل فى تهذيبه واعـــداده وحفظه يرجع الى المسلمين . كما يرجـــع الى هؤلاء أيضا أمر نقله الى أوروبا ، وخاصة عبر بلاد الاندلس .

وقد ترجم من القصص العربى الى الاسبانية كتاب كليلة ودمنة حوالى عام ١٢٥١ بأمر من الملك الفونسو العالم وكان له تأثير فى كتـــاب بدر والفونسو (٦) (سلك الــكتاب Disciplina clericalis) وكتاب العجائب Libro de los لرايمندو لوليو ، وكتاب القطط Libro de los وكتاب الامثال لسانشت دى فرثيال ، كما ترجمت الى الاسبانية الف ليلة وليلة وأخذت عنها قصة الفتاة تيودور التى كتبها Lope de Vega

---

(١) جيب فى مقاله فى « تراث الاسلام » عن الادب .
(٢) المرجع السابق .
(٣) هو أبو الفتح عمر الخيام بن ابراهيم ، المولود فى نيسابور سنة ١٠٣٨ ، من أكبر علماء الفلك فى العصور الوسطى .
(٤) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٣٤٤
(٥) أحمد رامى فى مقدمة ترجمته الى اللغة العربية لرباعيات الخيام ــ ص ٢٧ .
(٦) هو يهودى تنصر سنة ١١٠٦ م واورد فى كتابه هـــذا اكثر من ثلاثين قصة ذات مغزى اخلاقى يقصها أب على ابنه وقد كتب مؤلفه هذا بالعربية ثم ترجمه بنفسه الى اللاتينية .

وهى محرفة عن كلمة تودد فى حكاية « الجارية تودد » فى الف ليلة . واخذ كالدرون هيكل تمثيلية « انما الحياة حلم » La vida es sueno من حكاية « النائم الذى صحا » الواردة فى الف ليلة وليلة . كما أثرت مقامات الحريرى التى ذاعت ذيوعا عظيما فى الاندلس، فاوحت بقصص الصعاليك La Novela picaresca (١)

وكذلك نجد اثر ابى زيد السروجى بطل المقامات فى قصة Guzman de Alfarache التى وضعها ماتيو المسان (٢) ووضع الفرايلى (٣) « ومعناه الاخ » انسيلمودى تورميدا سنة ١٤١٧ م قصته « مجادلة الحمار للاب انسيلمودى تورميدا » . (Disputa del asno centra fray anselmo de Turmeda)

وقد اخذ افكاره من مجادلة الحيوان لبنى آدم الواردة فى رسائل اخوان الصفا(٤) .

اما عن كتاب السندباد ، ويعرف فى اسبانيا بكتاب « مكايد النساء وحيلهن » فقد ترجم الى الاسبانية سنة ١٢٥٣ بأمر من الامير دون فدريك شقيق الملك الفونسو الحكيم ،واستوحاها الدون خوان مانويل فى الكوندلوكانور وماتبودى فندوم فى قصة « ميلو » وبرانتوم فى كتاب « حياه المستهترات » وفيتريو فى أدبه الشعبى ، وفى كتابات الابروزيين وليفورنا ، وتراها عندالميديا جارت مختلطة بقطع بر غالية من طراز الجاكرا، ثم تنخرط فى الحركة الرومانتيكية هناك حيث ضمنت قصة حذاء الملك والكرم الاخضر .

وقد نقلت عن القصة ايضا قصة علماء روما السبعة التى ترجمت شعرا الى اللغة القشطالية ، وعرفت فى اسبانيا باسم حكاية الامير ايراستو (٥) .

ويبدو أن أصول قصة برلام ويوسف قد ظهرت فى كتاب الأحوال للدون خوان مانويل وربما نقل عن الأصل الفارسى كما ظهرت فى كتاب ابن الملك والدراويش El Hijo del Rey y el Derviche الذى كتبه اليهودى البرسلونى ابراهام ابن حسداى فى القرن الثالث عشر .

ولقد كانت الفكرة السائدة الى عهد قريب ان رسالة حى بن يقظان لابن طفيل هى التى اوحت الى جراثيان بلتازار بالفصول الاولى من قصة الكريتيكون ، وبهذا اشار الاب اليسوعى بارتولومى بو فى القرن الثامن عشر . ولكن الاستاذ غرسيا غومس يقول انه عثر اخيرا على قصة تسمى قصة الصنم ، ورأى فيها انها الاصل الذى اقتبس منه كل من ابن طفيل وجراثيان قصته ، فاستبعد نهائيا ان يكون جراثيان قد استلهم وحى ابن طفيل ، وايد رايه هذا بأن التشابه بين قصة جراثيان وقصة الصنم أقوى من التشابه بين هذه القصة الاخيرة وقصة ابن طفيل ، وأن قصة ابن طفيل نشرت لاول مرة مع ترجمتها اللاتينية سنة ١٦٧١ اى بعد نشر قصة جارثيان بعشرين سنة الامر الذى يجعل احتمال نقل جراثيان عن ابن طفيل بعيد الاحتمال(٦) ، وفى رايى ان هذا مجرد احتمال . فأما من ناحية عناصر القصة التى جاء بها ابن طفيل ، فانه يمكن جمعها من اصول عربية كقصة سيدنا موسى التى حدثنا بها القرآن الكريم عندما القت به أمه فى اليم ، وكقصص الشعراء العاشقين الذين كانوا يهيمون على وجوههم فى الصحراء ويعيشون بين الظباء والغزلان مستدرين عطف هذه الحيوانات ، واذن فلم يكن ابن طفيل فى حاجة لان يرجع الى قصة الصنم، حتى بفرض أن قصة الصنم اقدم من قصة ابن طفيل ، وهو أمر لا نعرف مقدار تحققه عند غرسيا غومس . واما فصول الكريتيكون الاولى قد الفت قبل أن ينشر النص اللاتينى لحى بن يقظان بعشرين سنة ، فان هذا الدليل غير منتج بذاته ، اذ أن النص العربى لحى بن يقظان ظل معروفا فى العالم الاندلسى ، حتى انها ترجمت الى العربية علىيد موسى التربوى سنة ١٣٤١ والى اللاتينية على يد بوكوك سنة ١٦٧١ ،وهو دليل على أن القصة كانت محط انظار الكتاب .

لقد ظل الادب العربى مؤثرا فى أدب القصة الاسبانية ، حتى فى المدن التى استولى عليها المسيحيون تدريجيا من العرب ، فقد كان يعيش فى هذه المدن وفى ظل البلاط المسيحى أدباء

(١) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٥٩٢
(٢) لطفى عبد البديع ص ١٣٥
(٣) هو الراهب انسيلمودى تورميدا ، اعتنق الاسلام باسمعبد الله على بن على .
(٤) رسائل اخوان الصفا ـ المكتبة التجارية ج ٢ ص ١٦٩وما يليها . وقد نشر الكتاب المنوه عنه فى المجلة الاسبانية سنة ١٩١١ مجلد رقم ٢٤ .
(٥) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٥٨٢ و ٥٨٣
(٦) تاريخ الفكر العربى الاندلسى ص ٦٠١ و ٦٠٢

مسلمون اطلق عليهم الاسبان لفظ الموريسكيين، فلما استولى المسيحيون نهائيا على اسبانيا ، ظن هؤلاء انهم قادرون على محو اثر الادب الاسلامي من اسبانيا واحلال ادبهم محله ، فلم يقدروا على ذلك ، وتفاعل التراث العربي القديم ، والموريسكي وعبرات العرب المدجنين الذين شهدوا زوال الدولة الاسلامية نهائيا من الاندلس، تفاعل كل هذا في أدب الاسبان المسيحيين من جديد . وفي ذلك يقول السير جيب (١) انه حتى سقوط الدولة الاسلامية في الاندلس حدث انتكاص في الادب الاسباني القومي ، فقد ضاق الاسبان بجمود الادب القشتالي وراوا الرجعة الى الادب العربي ، ويشهد بذلك الصقل والصفاء اللذان تميزت بهما قصة اماديس دي جولا Amadis de Gaula عن غيرها من القصص الخيالية ، كما ظهر في « تاريخ بني سراج » ثم في « الحرب الاهلية » Guerrasciviles لجيينز بيريزدي هتيا ، فهي تؤلف تزاوجا بين الثقافتين العربية والاسلامية ادى الى تكوين نقطة التحول في تاريخ الادب الاوروبي الحديث حيث ولدت القصة الطويلة الحديثة .

هذا في اسبانيا ، اما في بقية اوروبا فقد انتقلت اليها القصة العربية عن احدى طريقين الاولى طريق الترجمة ، والثانية طريق الرواية الشفوية .

اما عن الاولى فقد ترجمت جملة الى اللغة اللاتينية واللغات الاوروبية الحديثة ونبدأ بقصص كليلة ودمنة :

ان اقدم ترجمة وصل اليها علمنا هي ترجمة الكتاب الى الاغريقية ، قام بها سيمون سث في اواخر القرن الحادي عشر بأمر الامبراطور الكسيس كامينتس مع تغيير الاعلام الشرقية بأعلام اغريقية ، ثم ترجم الكتاب الى العبرية ترجمتين احداهما للحبر Rabbi Joel في مطلع القرن الثاني عشر ، والثانية قام بها يعقوب بن عزار من أهل القرن الثاني عشر . وقد نقل عن الترجمة الاولى نص لاتيني قام به جوان دي كابوا (يوحنا الكابوني) حوالى سنة ١٢٧٠ م وجعل اسم الكتاب Directorium Vitoe Humanae واهداه للكاردينال ماثيو اورسيني الذي جلس على الكرسي الرسولي سنة ١٢٦٣ وسنة ١٣٠٥ ومنها انتشر في العالم الاوروبي ، واتخذت هذه الترجمة اساسا للترجمة الألمانية . كما اتخذت الترجمة القشتالية التي أمر بها الفونسو الحكيم سنة ١٢٥١ ، وهي أدق من الترجمة اللاتينية ، لأنها اخذت عن العربية مباشرة ، اتخذت هذه الترجمة اساسا للترجمة الفرنسية التي قام بها الطبيب الفرنسي ريموندوس دي بيتريس ، واتمها سنة ١٣١٣ .

وقد ترجم جلاند (٢) (مترجم الف ليلة وليلة) عن أصل تركي ، الأبواب الأربعة الأولى الى الفرنسية في القرن الثامن عشر . ثم تمت ترجمة الكتاب كله الى الفرنسية سنة ١٧٨٨ على يد الأستاذ كاردون بالكلية الملكية بباريس .

وفي سنة ١٥٧٠ ترجم الى اللغة الانجليزية . وفي سنة ١٦٩٧ نشر استاركيوس الترجمة الأغريقية التي قام بها سث ، مصحوبة بترجمة لاتينية ، ثم ترجم الكتاب الى جميع لغات العالم الحديثة .

ولقد احدث ادب الحيوان الشرقي في الأدب الأوربي تحولا ملحوظا وفي هذا يقول المستشرق جورج يعقوب . وضرب آخر من ضروب الأدب شاع وانتشر في العصور المتأخرة في اوروبا ، الا وهو هذا النوع من القصص المتصل بالحيوان، والذي يتخذ الحيوان موضوعا له ، فهذا اللون من الأدب شرقي الأصل ، عرفه الشعر العربي الجاهلي قبل الأدب الأوروبي بقرون . ويستشهد الأستاذ جورج يعقوب على ذلك بلامية الشنفرى ، الى أن يقول(٣) : وبينما نقرأ في الشعر العربي هذا الضرب الرفيع من ضروب الأدب ، اذ برجال العصر الكلاسيكي يضعون أنفسهم في مستوى يعارض مستوى الشاعر الحقيقي الذي يجب عليه أن يستوحي سائر الكائنات ، سواء كانت حيوانات أو نباتات . لقد اهمل شعراء اوروبا الأولون الحيوان فلم يعنوا به ، ولم يتنبه اليه شعراء الغرب الا في العصور المتأخرة ، متأثرين بالعرب والشعر الاسلامي .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) يلاحظ أنه ظهر سنة ١٦٤٤ باللغة الفرنسية كتاب : Le livre des lumière sur la conduite des Royes. ترجمها داود سعيد الاصفهاني .

(٣) جورج يعقوب ص ٨١ .

ومن امثلة القصص الحيوانى المستوحى من اصول شرقية قصة الثعلب رينالد التى وضعت باللاتينية ثم ترجمت الى الالمانية والفرنسية ، ونظمها الشاعر جيته (١٧٤٩ — ١٨٣٢) .

ومن الذين تأثروا بقصص الحيوان أيضا ، لافونتين شاعر فرنسا (١٦٢٦ — ١٦٩٥) والشاعر الالمانى جتهولد افريم لسنج (١٧٢٩ — ١٧٨١) .

اما عن الف ليلة وليلة فلم يعرف عنه الأوروبيون شيئا الا من الترجمة الفرنسية الناقصة التى قام بها جالاند Galland فى سنة ١٧٠٤ ، ثم توالت ترجمات الكتاب الى اللغات العالمية .

واكمل ترجمات هذا الكتاب وأدقها ترجمة بيرتون Burton الى الانجليزية (بنارس ولندن) ١٨٨٥ . (وقد طبعت أخيرا بالالمانية فى انزلفرلاج) ، والترجمة الفرنسية التى قام بها ماردروس (باريس ١٨٩٩) وكتب عنه Oestrup فى كتابه Studier الذى اصدره فى كوبنهاجن سنة ١٨٩١ .

وترجم الكتاب أيضا الى اللغة الالمانية وزاد فيه وعلق عليه ونشرت هذه الترجمة فى شتوتجارت ١٩٢٥ ونقله كريمسكى Krymski الى الروسية وكتب له مقدمة طويلة ونشره فى موسكو سنة ١٩٠٤ كما لخصه بالفرنسية وعلق عليه جاليتيه Emile Galtier واصدره فى القاهرة عام ١٩١٢ .

يقول السير جيب فى أثر كتاب الف ليلة وليلة فى الأدب الأوروبى أن الروح الرومانتيكية التى عبرت عن شخصيتها فى روايات بريتون وفى الادب الشعبى التيوتونى وفى الدراما الانجليزية شاقت بالروايات الريفية وروايات البطولة وقصص اللصوص فسقطت هذه الرواية تدريجيا فى الوقت الذى ظهرت فيه ترجمة جالاند لألف ليلة وليلة سنة ١٧٠٤ فتنافس الناشرون على ارضاء رغبة الجماهير الفرنسية ، وملأ جيليت حياة جيل كامل بترجمات منتحلة ، وان فرنسا بعودتها الى الأساطير الشرقية ذات المغزى زودت فولتير ورجال الاصلاح بأسس يقيمون عليها مؤلفاتهم التهكمية فى السياسة والاجتماع .

ونهج فى انجلترا على نهج جيليت كتاب كثيرون، فعادوا الى آداب الشرق وصوره حيالهم الرومانتيكى السائد فى ذلك العصر واصبحت ترى فى خيالهم صور الخلفاء والقضاء والجن من آثار الشرق ، وانصهرت هذه الصور مع الأدب القديم فى حلم ميرزا The Vision of Mirza وفى قصة راسيلاس Raselas

واذا كانت صور الشرق قد انهارت أمام هاملتون وبوب وجولد سميث ، الا انها لم تسقط الا بعد أن تركت أثرها فى الأدب الانجليزى .

وفى انجلترا وفى فرنسا على السواء انتجت هذه الحركة كتاب Vathek لبدفورد وقد ادمج فيه الروايات القوطية والموضوعات الشرقية فأثر فى المؤلفات الخيالية التى ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . كل ذلك جعل الناس ينزعون ثانيا نزعة رومانتيكية لادب العصور الوسطى .

ويفسر الكاتب النجاح الذى أصابته قصة الف ليلة وليلة فى القرن الثامن عشر فتغلغلت فى الأدب الانجليزى والفرنسى لزيادة الطبقة القارئة وحاجتها الى ادب أكثر شعبية وضيقها ذرعا بالروايات الطويلة Novels لبدفوردوالتىظهرت فى القرن السابع عشر واذا كانت قصة الف ليلة تنقصها عناصر الفن الأدبى الرفيع الا أنها امتازت بروح المقامرة التى كانت تنشدها الجماهير ولولاها لما ظهرت كتب روبنسون كروزو وربما « رحلات جوليفر » كما نستطيع أن نتبين نفس الفكرة فيما اختار سوزى من موضوعات لقصائده الروائية ثعلبة Thalaba ولعنة كهامة(١) The curse of Kehama

اما عن كتاب السندباد فقد وصلت مجموعة من قصصه الى أوروبا عن طريق ترجمة يونانية نقلت عن السريانية ، وهذه عن الأصل العربى ، وصلت ضمن قصص « المجموعة الغربية » وعرفت فى أواخر القرن الحادى عشر باسم Sintipas ونقلت عنها قصة Polophatos (حكاية علماء روما السبعة) وقصة الوزراء العشرة .

وترجمت مجموعة أخرى من حكايات الكتاب الى اللغات الأوروبية عن أصول فهلوية وفارسية وعربية واسبانية ، وقد ضاعت هذه الأصول جميعا الا الأصل الاسبانى ، ولذلك فيعتبر هذا الأخير اقرب الترجمات الى الأصل(٢) .

---

(١) جيب فى المرجع السابق .
(٢) منندذ بلايو فى « أصول القصة » ج ١ ص ٤٢ و ٤٣ ط مدريد ١٩٤٣ .

وقد دخل الكتاب فى الأدب الغربى فى العصور الوسطى فوجدت منه نسخ بالفرنسية واللاتينية والايطالية والقطالنية والصقلية والأرمنية والالمانية ، وترجم حديثا بتصرف الى الايطالية والالمانية والهولندية والدنمركية والأسبانية .

أما رسالة حى بن يقظان لابن طفيل ، فقد ترجمها الى العبرية سنة ١٣٤١ موسى الربونى ، وترجمها الى اللاتينية سنة ١٦٧١ بوكوك تحت اسم « الفيلسوف المعلم نفسه Philosophus Autodictatos ونشر نسخها بالانجليزية جورج أوكلى سنة ١٧٠٨ ، وذلك لكى يقرأها الكويكرز ككتاب فى التقى والورع ، وترجمها الى الفرنسية ليون جوتييه سنة ١٩٠٠ ثم سنة ١٩٣٧ ، والى الأسبانية بونس بويجيس سنة ١٩١٠ وجندالذ بالنثيا سنة ١٩٣٤ .

وقصة حى بن يقظان هذه تعتبر صاحبة الفضل الحقيقى فى نشأة مجموعة القصص الغربية المأخرة والتى تنسب الى روبنسون كروزو(١) . وكذلك نبه اليه ا.ر. باستور .

ولقد أوضح الأستاذ جيب الصلة بين القصص الخيالية العربية وبين سليد قصة ايزولد بلانشمين لرولاند سليد الالمانى وابان كذلك الوحى العربى فى القصة الفرنسية القديمة فلوار وبلانشفلر ، ذلك الوحى الذى نالها من قصة القاسم ونيكوليت (Aucassin et Nicolette) التى يشهد اسم بطلها العربى وسياق مشاهدها بهذا الوحى .

أما الطريقة الثانية ، وهى الرواية الشفوية ، فان أثرها فى الأدب الغربى غير منكور ، يؤكد ذلك منندد بلايو ، اذ يرى ان طائفة من القصص نقلت الى الأوروبيين شفاها أثناء الحروب الصليبية(٢) .

كما تنوقلت أقاصيص كليلة ودمنة عن طريق أخرى غير طرق الترجمة ، فقد ثبت أن ريتشارد قلب الأسد استشهد ببعض ما فى الكتاب فى حكم وامثال لتحريض الصليبيين على القتال ، وقد تقاعسوا عنه ، وهى حكم ولا شك انها ترامت الى سمعه وهو فى فلسطين و « كتاب الحيوان » لراموند لول ليس الا صورة غير مقروءة من كتاب كليلة ودمنة تشعر بأنه الم بها الماما عاما اعتمد فيه على الذاكرة وحدها(٣) .

وعندى ان الرواية الشفوية لقصة « رسالة الغفران » كان لها أثر فى الكوميديا الالهية لدانتى اليجيرى ، اعظم شعراء ايطاليا فى العصور الوسطى . ولكنى قبل ان ابين هذا الأثر أعرض موجزا لهاتين القصتين :

تتلخص رسالة الغفران وقد اهداها أبو العلاء لعلى ابن منصور المعروف بابن القارح فى أن عليا هذا بعث من قبره فلبث فى الموقف أمدا طويلا رغم ان معه صك التوبة ، ففكر فى أن يخدع سدنة الجنة بما كان يخدع به الناس فى الدنيا من الشعر ، فأنشد القصائد يمدح بها رضوان خازن الجنة ، فلم يفهم منها شيئا ، لأنه لا يتكلم العربية، ثم يذهب ابن القارح الى خازن آخر فينصحه الخازن بأن يتشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيما هو كذلك اذ لقى شيخه ابا على الفارسى يخاصم طائفة من شعراء البادية فنسى صك التوبة ، والشفاعة ، وراح يذود عن أستاذه أولئك الأعراب ثم رجع الى أمر التوبة والشفاعة وما زال يتشفع بعلى بن أبى طالب وبهذا وذاك من بنى هاشم وفاطمة الزهراء وابراهيم بن النبى حتى وصل الى رسول الله صلى عليه وسلم فشفع فيه ومع ذلك فلم يستطع أن يتقدم على الصراط ، فأرسلت اليه فاطمة جارية تحمله فلما وصل الى باب الجنة منع منها ولكن ابراهيم بن النبى جذبه جذبة ادخله بها الجنة .

وبعد رحلة قصيرة فى الجنة يذهب على بن القارح لزيارة الجحيم وقد التقى أثناء سيره على هامش الجنة أسدا وذئبا . .

أما الكوميديا الالهية وتعرف ايضا بجحيم دانتى فقد تخيل دانتى أنه بدأ سياحة الى العالم الآخر ليلة ٢٤ — ٢٥ من مارس سنة ١٣٠٠ أى فى ليلة الجمعة المقدسة وقد استغرقت سياحته عشرة أيام فقد غادر الفردوس يوم الأحد . وقد بدأ

(١) جورج يعقوب ص ٨١ .

The idea of Robinson Crusoe part 1, 1930.

(٢) لطفى عبد البديع وقد نقله عن المؤلف المذكور فى كتابه

Origines de la Novela

(٣) لطفى عبد البديع ، ١٣٣ .

دانتى رحلته هذه بزيارة الجحيم بصحبة الشاعر فرجيل فرأى فى الجحيم طرائف الخاطئين ، وزار الى الاعراف (المطهر) ، حيث يطهر الخاطئون من آثامهم ، والجنه حيث لقى حبيبته باتريشيا التى ماتت فى الدنيا ولما تبلغ الرابعة والعشرين ورأى فى الجنة أهل الفضل والتقى والورع والطهارة ، وقسم دانتى الناس على حسب ما كان يعتقد بين آثم وطهور ، والقى فى جحيمه أرواح عظماء الوثنيين ، والاسلام ، ومنهم رشد حيث لم يستطع أن ينجو بنفسه لفساد عقيدته .

والآن اعرض لرأى آسين الذى يرى أن دانتى استقى بعض افكاره من قصة المعراج والبعض الآخر من اراء محيى الدين بن عربى الفيلسوف المرسى الأندلسى والتى أودعها « الفتوحات المكية فى معرفة الأسرار الملكية » فكلا الفيلسوفين فى رأى آسين ، يميل الى استخدام الهيئة الدائرية أو صورة قبة الفلك ، فأطباق الجحيم ومسارى النجوم ودوائر الوردة الصوفية وجماعات الملائكة التى تحف بمطلع النور الالهى ، والدوائر الثلاث التى ترمز الى الثلاث عند دانتى كل هذه وصفها الشاعر الفلورنسى كما وصفها الصوفى المرسى، بل ان ابن عربى رسم هذه الدوائر بيده وانه لما يدعو الى العجب أن الرسوم التى خططها الدائنون بعد قرون كثيرة ليمثلوا بها أوصاف الكوميديا الالهية تتفق تمام الاتفاق مع ما أودعه ابن عربى فى فتوحاته من رسوم .

ويرى آسين انه ليس من قبيل المصادفة أن يعلل هذا الوافق(١) . ثم ان المصادفة لمعارضة ليست تعليلا علميا للوقائع التاريخية ، والواقعة التاريخيةالتى تتجلى لكل ذى نظر،وهى أن محيى الدين بن عربى سجل فى القرن الثالث عشر وقبل ميلاد الشاعر الفلورنسى بخمس وعشرين سنة فى صفحات أربع متوالية من « فتوحاته » تخطيطات مواضع العالم الآخر كلها على شكل دائرى أو فلكى ، وهذه الهيئات الدائرية تعتبر فى مذهب ابن مسرة ، الذى يتبعه ابن عربى — تصويرا للكون وأصله ثم أتى دانتى بعد ذلك بثمانين سنة ، فأودع فى منظومة ضخمة رائعة تقع فى ثلاثة أقسام وصفا شاعريا لنفس هذه المواقع من العالم الآخر . وقد بلغ من وقع وصف هذه المعالم فى شعر دانتى أن شارحيه فى القرن العشرين تمكنوا من تمثيلها برسوم على هيئة أشكال هندسية مطابقة فى صميمها لتلك التى خطتها يد الصوفى المرسى قبل ذلك بسبعة قرون ، فاذا لم يكن دانتى قد قلد هذه الأخيرة فان هذا التطابق الذى قام الدليل عليه ، لا يكون الا لغزا لا تفسير له ، أو معجزة من معجزات الاصالة » .

ويقول الأستاذ لطفى عبد البديع تأييدا لآسين « والظاهر ان هذه العناصر قد نقلها برونيتولاتينى، استاذ دانتى ، وكان على علم تام بالثقافة العربية، او ريكولدو ، هذا الى أن الدومينيكان كانوا يهتمون بالأفكار الاسلامية اهتماما بالغا ليتمكنوا من مناهضتها والرد عليها مما يقتضى بالضرورة معرفتهم لها » (٢) .

ويظهر ان رأى آسين بناه على التشابه بين قصتى المعراج والكوميديا الالهية وان دانتى لابد أن يكون قد اضطلع على ترجمة المعراج التى قام بها بووفانتورة فى بلاطالفونس الحكيم (الفونس العاشر) ونشرها بالفرنسية واللاتينية انريكو تشاريلى سنة ١٢٦٤ ، أى قبل مولد دانتى بيوم واحد ، كما أن جميع الوثائق تشير الى أن هنالك ترجمات ثلاثا كانت منتشرة فى عهد دانتى للمعراج أحداها بالكتلانية والأخرى بالفرنسية والثالثة باللاتينية . وقد أيد لهذا الرأى الحظ ، فقد كشف أخيرا عن نص لاتينى وآخر بروفنسى لقصة المعراج الاسلامية(٣) مما يجعل وجهة نظر آسين أكثر قبولا .

وعندى أن النتيجة التى وصل اليها آسين فى الربط بين الكوميديا الالهية وبين قصة المعراج نتيجة صحيحة ولكنه هذا لا يمنع أن يكون دانتى قد أطلع على رسالة الغفران ، وان التشابه فى بعض التفصيلات بين القصتين وهو الذى فطن اليه آسين نفسه(٤) ، يقطع بأن دانتى لابد أن يكون قد اطلع على رسالة الغفران .

حقيقة ان التاريخ لم يمدنا الى الآن بدليل على ترجمة رسالة الغفران قبل ظهور دانتى ، ولكن آسين نفسه ومن يؤيدون له يقولون ان دانتى

---

(١) La escatalogia musulmana en la divina comedia, 2e ed. p. 66. Madrid 1943.

(٢) الاسلام فى اسبانيا ص ١٥٨ .

(٣) تعليق الدكتور حسين مؤنس على رأى آسين الواردفى ترجمة تاريخ الفكر الاندلسى ص ٥٥١ .

(٤) يرى آسين شبها بين الاسد والذئب اللذين قابلهماابن القارح على هامش الجنة فى قصة أبى العلاء ، وبين الأسد والذئبة اللذين قطعا الطريق على دانتى فى الغابة المظلمة . ويرى فى ابنة عم امرىء القيس وهى محاطة بصديقاتها فى قصة المعرى يتكرر فى وصول بياتريشيا تحيطهاهالة من الابهة والعظمة .

كان يعيش بين اساتذنه وبين طائفة الدومينيكان فى جو مشبع بالثقافة العربية . وكيف يسمع الشاعر دانتى بابن عربى الصوفى ولا يسمع بأبى العلاء وهو شاعر مثله طبق ذكره الآفاق وسمع الناس عنه فى أوروبا على الأقل ابان الحروب الصليبية ؟! وقد يكون هذا وذاك قد أخذا عن « رسالة التوابع والزوابع » لأبى عامر بن شهيد الأندلسى (٣٨٢ — ٤٢٧ هـ) التى صور فيها رحلة شاعر الى الجنة (١) .

بعض الكتب المترجمة

فى الادب

آثرنا أن نضيف على ما اوردناه فى هذا الباب اهم الكتب العربية التى ترجمت الى لغات اجنبية . ومنها :

المعلقات السبع :
نشرها كوسان دوبر سفال اصلها العربى وترجمت الى اللاتينية والانجليزية والالمانية .

امرؤ القيس :

نشر دوسلان ديوانه مع ترجمته بباريس سنة ١٨٣٧ .

الزمخشرى :

أطواق الذهب ترجمة مينار الى الفرنسية وطبع بباريس ١٨٧٦ ، ونوابغ الكلم ، ترجمة مينار أيضا . وطبعت الترجمة والأصل العربى بباريس ١٨٧٦ .

عنترة :

نقل هاملتون اشعاره الى الانجليزية وطبعها بلندن فى مجلدين سنة ١٨٢٠ ونقل ديفيك خماسياته الى الفرنسية وطبعها بباريس . ونقلها منيل بيتا فورم الى الالمانية سنة ١٨١٦ . وفى ترجمات المعلقات السبع نجد كثيرا من شعره باللاتينية والانجليزية والالمانية .

أمثال لقمان :

نقلها مارسيل الى الفرنسية ١٨٠٣ ولها ترجمات كثيرة .

المقدسى :

الطيور والأزهار : ترجمة دوناس الى الفرنسية وطبع بباريس ١٨٢١ .

---

(١) احمد امين — ظهر الاسلام ج ٣ ص ٢١٠ ويرى ان الرسالة المذكورة الفت قبل رسالة الغفران بعشرين سنة .

الفصل الخامس

العلوم الإسلامية في أوروبا

أولا : الفلسفة والتصوف

١
فى اسـبانيا

اصبحت مدينة طليطلة بعد ان استولى عليها الفونسو السادس سنة ١٠٨٥ المركز الذى انبثقت منه الثقافة العربية الى باقي نواحى اسبانيا وأوروبا فقد هرع الى هذه المدينة نفر من اليهود بسبب اشتداد عبد المؤمن بن على اول خليفة للموحدين فى تعقبهم ، فلم يلبث الفونسو ان كون فى المدينة هيئة للترجمة تعرف بمدرسة المترجمين الطليطليين ، أسندت رياستها الى رايموندو (١١٢٦ — ١١٥٢) أسقف طليطلة وكبير مستشارى ملوك قشتاله ، وكان يعمل فى مدرسته هذه جماعة من الأسبان وآخرون من اليهود ، ثم لم تلبث أن نزح اليها كل متعطش للعلم من صقلية ، ثم من دول أوروبا .

واشهر من وصلت الينا أسماؤهم دومينيكوس جنديسالفى (ويسمى فى بعض النصوص الأسبانية دومنجو جندالذ أو جنديسالينوس) وكان أسقفا لشقوبية واحد رجال كنيسة طليطلة الجامعة ، ويوحنا بن داود الأسبانى اليهودى الذى اعتنق النصرانية وسكن مدينة طليطلة ، ويبدو انه خلف ريموندو فى أسقفية هذا البلد .

كان هذان المترجمان : جنديسالفى ويوحنا يعملان مجتمعين ، فيملى يوحنا ترجمة النص العربى بالأسبانية الدارجة ، فينقلها جنديسالفى الى اللاتينية . ومن أهم ما نقل هذان المترجمان من كتب الفلسفة مؤلفات ابن سينا ، وهى كتب النفس ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة ، وبعض آثار الغزالى ، وهى كتاب مقاصد الفلاسفة ويعرف فى ترجمته اللاتينية بكتاب « الفلسفة » فحسب ، وكتاب ابن جبرول(١) «ينبوع الحياة»(٢) ورسالة « العقل والمعقول »(٣) للكندى ورسالة قسطا بن لوقا البعلبكى فى « الفرق بين النفس والروح » .

وترجم جيرار ودى كريمونا الايطالى المتوفى سنة ١١٨٧ وزميل جنديسالفى فى ديوان الترجمة، من كتب الفلسفة الاسلامية ، رسائل الكندى ، ومنها رسالة العقل والمعقول ورسالة النوم والرؤيا ورسالة الماهيات الخمس وشرح الفارابى على السماع الطبيعى .

ومن المترجمين ايضا ميخائيل سكوت المتوفى سنة ١٢٣٥ م ، وهو اسكتلندى . ترجم بطليطلة سنة ١٢١٧ شروح ابن رشد على أرسطو (السماء والعالم ، ورسالة النفس) ، ويقال انه قام بهذه الترجمة فى طليطلة بمعاونة رجل يهودى اسمه اندراوس ، ويرى البعض انه قام بهذه الترجمة وهو فى بلاط فردريك بصقلية بمعاونة نفر من المترجمين .

---

(١) فيلسوف يهودى ، كان البعض يظنونه مسيحيا وآخرون يظنونه نصرانيا — ولد سنة ١٠٢٠ م .

(٢) انظر تاريخ الفكر الاندلسى ص ٥٣٦ — ٥٣٨ .

(٣) تاريخ الفلسفة الاوروبية فى العصر الوسيط ليوسف كرم ص ٨٥ . ويقول فى موضع آخر أن رسالة العقل والمعقول ترجمها جيرارد ودى كريموناص ٨٧ .

وهرمان الالمانى المتوفى سنة ١٢٧٢ ، وقد اشتغل بالترجمة فى طليطلة . نقل شرح الفارابى على كتاب الخطابة لأرسطو ، والشرح الأوسط لابن رشد على الأخلاق النيقوماخية سنة ١٢٤٠ ، وكتاب الخطابة سنة ١٢٥٠ ، لأرسطو عن العربية ، مع جلاء النص العربى أو تكميله بالرجوع الى الفارابى وابن سينا وابن رشد سنة ١٢٥٠ . ونقل الشرح الأوسط لابن رشد على كتاب ارسطو فى الشعر سنة ١٢٥٦ .

وترجم هرمان الدلماشى بمعاونة روبرت دى ريتنس القرآن الى اللاتينية بناء على طلب بطرس الجليل .

هؤلاء بعض المترجمين والترجمات ، وهنالك ترجمات أخرى لا يعرف على وجه التأكيد أين عملت ومن أين انتقلت الى اوروبا ، كشروح ابن باجه ، وكتابه « تدبير التوحيد » ورسالة حى بن يقظان لابن طفيل ، وشرح ابن رشد على مؤلفات أرسطو وآراء محيى الدين بن عربى الصوفى ، وكتب موسى بن ميمون (دلالة الحائرين وقد وضعه صاحبه (١١٣٥ — ١٢٠٤) بالعربية وترجمه بنفسه الى العبرية ثم ترجم ثلاث ترجمات أخرى على الأقل .

واخيرا لا ننسى فضل مترجمى اليهود فى نقل كتب المسلمين ، ونذكر من هؤلاء يعقوب من طليطلة وشم طب بن يوسف قلقرى ، وقد نقلا مؤلفات ابن رشد الى العبرية ، وشرحها ليون ابن جرشون .

كان لهذه الترجمات فضل فى انتشار الثقافة الاسلامية فى كل من أسبانيا ودول أوربا الأخرى ، وكان لها تأثير على اتجاهات قرائها ، معارضة أو تأييدا لها ، ولكن « من الحقائق المقررة على أى حال فضل مؤلفات العرب على المفكرين الاسكولاسنيين(١) جملة ، فاما من كان منهم على مذهب أرسطو فنجد عنده آثار ابن باجة وابن طفيل وابن رشد خاصة ، واما من اتجهوا منهم اتجاها أفلاطونيا حديثا ، فنلمح فى تواليفهم وآرائهم آثار ابن مسرة وابن جبرول وابن عربى » (٢) .

لقد تأثر بمؤلفات المسلمين كثيرون نذكر من بينهم جنديسالفى (دومنجو جندالذ يساليوس) ، هو اسقف شقوبية ، واحد رجال كنيسة طليطلة الجامعة ، وكان مترجما فى طليطلة ، وتوفى سنة ١١٨١ ، وله كتب عدة ، أهمها خلود النفس وهى رسالة De immortalitate animae وجيزة استقى معظم آراءه فيها من ابن سينا فى طبيعيات « الشفاء » فقد ميز بين الادراك الحسى والادراك العقلى ، ورد ادراك المعقولات الى انفعال النفس بها عن عقل فعال مفارق كما قال ابن سينا ، غير انه لم يتابع ابن سينا فى قوله ان العقل الفعال هو عقل فلك القمر ، بل قال انه الله(٣) واخذ آراءه الأخرى من ابن جبرول وارسطو . والكتاب صار مرجعا لمن جاء بعده .

« تقسيم الفلسفة » وقد أخذه بتصرف عن كتاب الفارابى « احصاء العلوم » وعن ابن سينا واسحاق الاسرائيلى وبويس وايزيدور الاشبيلى وارسطو وهو يميز بين اللاهوت الصادر عن الوحى ، وبين الفلسفة المكتسبة بالعقل ، ويجعل الفلسفة هى العلم الشامل لكافة العلوم الأخرى .

ومع ذلك يؤكد بعض الكتاب انه بمقارنة الكتاب كله بالنص اللاتينى لاحصاء العلوم ، يظهر ان الخلاف بين النصين يكاد يكون معدوما (٤) .

وله كتب أخرى فى صدور العالم ، والوحدة ، والنفس ، وهو فى مذهبه متحيز بين الفلاسفة الآخرين وريمون لول ، وهو فيلسوف متواضع ، ولد بجزيرة ميورقة فى أسرة غنية ١٢٣٥/٦٣٢ . وعندما بلغ من العمر ثلاثين سنة رأى السيد المسيح فى احدى الرؤى ، ثم تكرر ذلك ، فعلم ان المسيح يطلبه للتوفر على خدمة الدين ، فأجاد اللغة العربية واللاتينية والمنطق ، وطوف فى البلاد فذهب الى باريس وعلم بها كتابة الفن الأكبر وجادل الرشديين ، وكان شديد الخجل فسجن فى تونس ثم فى الجزائر ، وفى الجزائر أيضا رجمه الجمهور بالحجارة فأواه اهل جنوة ، وقضى قبالة شاطىء ميورقة ١٣١٥/٧١٤ ، وكان متمكنا من اللغة العربية وألف بها ، وان لم يعثر على مؤلفاته العربية .

وأهم كتبه الفن الأكبر أو الفن الكلى ، وله كتب فى المنطق وفى الرد على ابن رشد والرشديين .

---

(١) أى المدرسيين ، معلمى الفلسفة فى الجامعات .
(٢) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٥٤٠
(٣) يوسف كرم ص ٨٦
(٤) De. L. Baur : Dominicus Gundessalenus de diversione philosophiae.

وللول كتاب يسمى كتاب الكافر والعلماء الثلاثه ، وربما استوحاه من حكايه برلعام . وقد صاغ الكتاب صيغة أخرى تحت اسم كتاب التترى والنصرانى ، وكتاب العجماوات ، الفه على نسق كتاب كليلة ودمنة(١) . ونظم بالقطالونية منطق الغزالى وكتابا آخر فى الجوهر والعرض(٢) .

تاثر لول بالمدرسة الأفلاطونية الحديثة والصوفية الاسلامية ، وكانت فيه رقة ظاهرة للمسلمين ، وكان يرمى الى تقليدهم ، فداب على استهلال رسائله باسم المسيح ، لأن المسلمين كانوا يستهلون رسائلهم باسم محمد صلى الله عليه وسلم . وكان يرى أن تتلى أسماء الله فى الكنائس كما يتلى القرآن فى المساجد ، وقد عرف كثيرا من الصوفيين المسلمين كابن سبعين وابن هود والششترى الزجال الذى كان يتغنى الصوفية بأشواقه فى أزجاله وموشحاته ، وابن مدين والعفيف التلمسانى ، ولكنه تعلق تعلقا شديدا بمحيى الدين بن عربى ، وهو يقرر فى كتابه بلا نكرنا انه الف كتابه الآخر ، الصديق والمحبوب على طريقة الصوفية ، وربما يكون قد ألفه على نهج ترجمان الأشواق لمحيى الدين بن عربى .

اخذ لليو عن محيى الدين بن عربى تعاليمه الأساسية ، فالعلم عند كليهما واحد ، هدفه البحث عن « الواحد » ، ويدرك العلم عن طريق الايمان أو عن طريق العقل ، فاذا عجز التفكير النظرى ، كشف الله عن كنوز العلم لعباده عن طريق الاشراق .

ويستعمل لليو نفس اصطلاحات ابن عربى حرفيا كلفظ النوريين والذوق المريض . وقال لول كما قال ابن عربى بالحضرات Digninitates مثل الربانية Senoria والرحموت Misericordia والعزة Gloua (١) .

ويرى لليوان الرمز الى الذات الالهية بشىء لا يصح لأن الرموز لا تناسب الذات الالهية ولكن النور هو أقل الصور الرمزية المعبرة عن كمالات الله .

وعن محيى الدين بن عربى اخذ لليو طريقته فى الرمز بالحروف للتعبير عن آرائه فيما بعد الطبيعة ومصطلحة الصوفى الخص ، لأن الآراء الخاصة بعلوم التصوف الالهيه انما تتحصل عن طريق الذوق الصوفى لا عن طريق العقل (٤) .

ورايموند مارتن،وهو قس دومينيكيقطالونى.

عاش بين سنتى ١٢٣٠ و ١٢٨٦ ، كان كمعظم الأخوان الدومنكان ، عدو الفلسفة الاسلامية ، ومن أكبر خصوم المسلمين ، لا يفوقه من طائفة فى هذا العداء الا القديس توما الاكوينى ، اجتهد فى تعلم اللغة العربية حتى اتقنها ، كما يدل على ذلك القاموس اللاتينى ، العربى المنسوب اليه ، ثم وضع هذا القس القطالونى كتابه المسمى خنجر الايمان ضد المسلمين واليهود ، ولا يفوق هذا الكتاب فى الطعن سوى كتاب جامع الحجج فى جدال الكافرين للقديس توما الاكوينى ، وكتابا آخر سماه شرح الرمز ، وأورد فى الكتابين نصوصا من الغزالى انتخبها من كتاب التهافت والمقاصد والمنقذ والاحياء ، ومن كتابات الفارابى وابن سينا ، ومن شرح ابن رشد على فلسفةارسطو، وشرحه ارجوزة ابن سينا ، وفصل المقال وتهافت التهافت ، وما وراء الطبيعة ، ورسالة الى صديق ، ومن كتاب فخر الدين الرازى المسمى « الرد على جالينوس » وكتابه « المباحث المشرقية » ، هذا الى ما أخذه عن القرآن وصحيح البخارى . ومن الملاحظ ان خصوم الاسلام لم يلجأوا الى كتب الغزالى حبا فيها ، ولكن ليردوا بها على فلاسفة المسلمين ، لا عن شهادة الغزالى على هؤلاء أوقع فى الدلالة ، ومع ذلك فقد سطوا على كثير من آراء الغزالى ونسبوها لانفسهم .

---

(١) منندذ بلايوفى : Estudios Ydis-coursos de gritica literaria

ج ١ ص ٢١١ — مدريد ١٩١١ وانظر تاريخ الفكر الاندلسى ص ٥٤٣ — ٥٥٠ .

(٢) يوسف كرم ص ١٨٣

(٣) آسين بلاثيوس فى Jbn Masarra

ج ١ ص ٢٠٨ — مدريد ١٩٤٧

(٤) جوليان ريبيرا فى أصول فلسفة رايموند لول ص ١٦٩—١٧٢ — مدريد ١٩٢٨

٢

فى دول أوروبا الأخرى

لا اجد عبارة أبلغ لبدء القول هنا من تلك العبارة التى قالها ــ لكى ــ والتى تعتبر من جوامع الكلم : ، منذ أن انتقل التعليم فى أوروبا من الأديرة الى الجامعات ومنذ أن انتشرت العلوم الاسلامية واثرت فى الافكار ، ومنذ ان حطم الانقلاب الصناعى سطوة الكنيسة ، بدأت النهضة الثقافية فى أوروبا .

ويعتبر القرن الثالث عشر فى أوروبا أبهى عهود العصر الوسيط ، ففيه تكونت الممالك الاوروبية الحديثة ، وآتت الحروب الصليبية ثمارا وان لم تكن مقصودة منها ، الا انها كانت ذات اثر كبير فى تطور أوروبا ، فتوثقت العلاقات الثقافية بين الغرب والشرق ، وفتح البحر المتوسط للتجارة الأوروبية ، فبرزت الطبقة الوسطى (البرجوازى) ونافست بثرائها نفوذ الاشراف ، وناصرت العلم والفن ، فقامت الكاتدرائيات البديعة تملأ أرض أوروبا ،فتوثقت العلاقات الثقافية بين الغرب والشرق ، وازدهر ادب محلى باللغات الحية فى قصص نثرية وشعرية تفيض بأفكار العصر واخلاقه (١) .

نشأة الجامعات الاوربية

تعتبر نشأة الجامعات الاوروبية نفحة من نفحات الحضارة الاسلامية ، ارسلت الى الغرب من خلال الحروب الصليبية ، فقد رحل طائفة من الملوك الأوربيين الى البلاد الاسلامية ، اشهرهم فردريك الثانى أمبراطور المانيا وايطاليا وصقلية ، وريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ولويس التاسع ملك فرنسا ،وشهد هؤلاء الملوك عظمة المسلمين ومظاهر حضارتهم ومدارسهم ، ثم رجعوا الى بلادهم يحملون لها آمالا عظاما ، وكانوا عضدا للاساتذة والطلاب فى تكوين اتحاداتهم الجامعية ضد سلطة الكنيسة التى كانت تريد لنفسها كل شىء من العلم الضئيل الذى كانوا يحتكرونه لأنفسهم . ولقد اضطر استقلال الجامعات بدوره اساتذة الجامعة الى خلع لباس الكهنوت ، واخذوا يدرسون العلوم بطريقة اكثر تحررا ويختارون ما يشاءون من المذاهب ويعتنقون ما ارادوا من النظريات ،ومن هذا الطريق تغلغل الفكر الاسلامى فى أوروبا ، كما تغلغل الفن مباشرة عن طريق الحروب الصليبية او التجارة .

واصبح للفكر الاسلامى فى قلب أوروبا وجامعاتها مؤيدون ومعارضون ، وانقسم الناس شيعا حول الفلسفة الاسلامية وتأويل آراء المسلمين وعقد الموازنة بين الفلسفة الاسلامية والفلسفة المشائية الاولى ، والبحث عن مدى توافق نظريات المشائين أو الاسلاميين للديانة المسيحية . كل هذا أدى الى تفتح الذهن الاوروبى ثم اتساعه لقبول النظريات الاسلامية وعلوم المسلمين .

ليس فى الامكان تحديد تاريخ دقيق لنشأة احدى الجامعات الاوروبية فى العصور الوسطى، ذلك بأن معنى الجامعة فى تلك العصور Universitates لم يخرج عن كونه اتحاد لطلاب المدارس ، كما كان هذا اللفظ نفسه يطلق على نقابات العمال ، فالجامعة اذن كانت عبارة عن نقابة أو اتحاد لطلبة المدارس التى كانت كلها تحت اشراف الكنيسة ، فيما عدا مدرسة سالسيرن فى ايطاليا ، لانها كانت تدرس علوم الطب من ناحية ومن ناحية أخرى فقد كان لهذه المدرسة طابع عربى كما علمت .

واقدم اتحاد لجامعات أوروبا التى نشأت على هذا الوضع ، هو اتحاد طلبة بولونيا (ايطاليا) فقد كافح طلبة هذه المدينة منذ منتصف القرن

---

(١) يوسف كرم ص ١٠٣

الثانى عشر حتى وصلوا الى عمل اتحاد . او اتحادات للطلبة وانتخبوا نوابا عنهم نائب للطلبة الوطنيين ، وآخر للطلبة الاجانب. وكان النائب، أو مدير الاتحاد (وهو الذى صار اسمه فيما بعد مدير الجامعة (Recteur de l'université) يقسم امام اساتذة الجامعة بأن يحترم قرارات الطلبة فيما يختص بشئون التدريس ، ولذلك لم يكن مباحا لمدير الاتحاد أن تقل سنه عن اربعة وعشرين عاما ، حتى يقدر قيمة قسمه .

وقام الاساتذة من ناحيتهم بتكوين اتحادات لهم Collegium وكان لهم نوعان من الاتحادات ، اتحاد الاساتذة المؤهلين Legentes واتحاد الاساتذة غير المؤهلين non legentes. وقد كافحت هذه الاتحادات من منتصف القرن الثانى عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر فى سبيل دعم استقلالها والخروج عن سلطان الكنيسة(١) وتعتبر جامعة بولونيا هذه أول جامعة منظمة نشأت فى أوربا ، ولكنها كانت فى الواقع معهد دراسات فقهية ورثتها عن بيزنطة . ولم تقم بها كلية نظامية للاهوت الا سنة ١٣٥٢ .

وعلى هذا النحو تكونت جامعة باريس وخطت نفس الخطوات التى سبقت اليها جامعة بولونيا ، فقد كانت مدارس باريس(٢) تحت اشراف كبير اساقفة Chancelier كنيسة نوتردام ، واكتسبت هذه المدارس شهرة واسعة خصوصا فى المنطق واللاهوت ، فكثر الموفودون اليها من الخارج ، حتى اضطر الامر الى انشاء مدارس حرة ، ورغم ذلك فان رجال الكنيسة حاولوا أن يخضعوا هذه المدارس الحرة لسلطانهم ، الامر الذى ادى الى تكتل اساتذة هذه المدارس ضد السلطة الاسقفية فى نوتردام، تلك السلطة التى كان يعاضدها الدومنيكان والفرنسيسكان والكارم والاوغسطينيون .

وفى سنة ١٢٠٠ بلغ احساس الاساتذة والطلاب بقوتهم مبلغا جعلهم ينشئون اتحادا يعلن استقلالهم عن السلطة الاسقفية ، واختصاص المدارس باختيار الاساتذة ومنح الاجازات العلمية ، فاعترف الملك فيليب أوجست باتحاد المدارس ، ونظم البابا الجامعة الجديدة فى سنة ١٢٣١ وذلك تفاديا لما حدث من حروب الطلبة الى أورليان وانجر وأكسفورد التى انشئت سنة ١٢٢٩ .

ذلك مدلول لفظ الجامعة Universitates فى باريس فى العصر الوسيط ، فلم تكن هنالك هيئة منظمة تشتمل على كليات ، بل كان المقصود منها مجموع الاشخاص من الاساتذة والطلاب ، المعنيين بالعلم فى مدينة ما ، على ان اتفاق المصالح جمع الاساتذة شيئا فشيئا فى طوائف اربع : اللاهوتيون ، والفنانون ، أى معلمو الفنون الحرة ، والفقهاء ، والاطباء . أما الطلاب (وكان أكبرهم عددا طلاب الفنون)، فكانوا يجتمعون بحسب الجنسية فى اتحادات تمثل الجامعة بأكملها . ولم تسلم هذه الاتحادات طوال القرن الثالث عشر من تدخل الكنيسة حتى كثرت الاضرابات والقلق والمظاهرات وانه وان كانت جامعة بولونيا اقدم عهدا من جامعة باريس، الا أن جامعة باريس كانت الاولى زمنا ومقاما من جهة الفلسفة واللاهوت (٣) .

وقامت جامعة اكسفورد بعد جامعة باريس بقليل ، وعلى غرارها ، وبمعونة نفر من خيرة رجالها . وقد كافحت هذه الجامعة كفاحا مريرا ضد الاخوان الدومنيكان الذين كانوا يبغون احتكار منح الدرجات وعمل اللوائح الامر الذى برم به الطلبة فهاجروا الى مدرسة كبردج ،التى اسست سنة ١٢٠٩ لمواجهة هجرة الطلبة من مدارس اكسفورد .

وقد انشئت ضمن اتحاد اكسفورد كلية باليول سنة ١٢٦٠ ، ومرتون ١٢٦٣ ونظمت الجامعة تقريبا سنة ١٢٨٠ .

على أن العمل الجامعى الفذ الذى ادى الى تغلغل الثقافة الاسلامية تغلغلافعالا فى الجامعات الاوروبية وأدى الى تنافس هذه الجامعات فى تأييد العلم الاسلامى أو معارضته انما جاء على يد الامبراطور فردريك الذي جمع العلماء

---

(١) المعلمة الفرنسية الكبرى La grande encyclopeie française

(٢) أصبحت من اشهر هذه المدارس مدرسة السوربون التى اقامها سنة ١٢٥٣ روبير دي سوربون كاهن الملك لويس التاسع .

(٣) يوسف كرم ص ١٠٤ .

فى بلاطه وأمرهم بالترجمة والبحث العلمى وأرسل منهم وفودا الى طليطلة لترجمة علوم العرب من مصادرها حتى اجتمعت لديه ثورة علمية ذات شأن كبير ، ولما كان فردريك يخشى ان تضيع بحوث العلماء الذين جمعهم عنده بعد موتهم ، انشأ فى عام ١٢٢٤ جامعة نابلى — وهى نموذج نادر من جامعات العصور الوسطى ، أقيمت من غير حاجة الى موافقة السلطات الدينية على انشائها . وقد استدعى اليها علماء متبحرين فى جميع الفنون والعلوم ، ومنحهم مرتبات عالية ورتب واعانات مالية ليمكن النابهين من الطلاب الفقراء من الدرس . وحرم على شباب مملكته أن يخرجوا منها فى طلب التعليم العالى ، وكان يأمل أن تنافس نابلى بعد وقت مدينة بولونيا فتصبح مدرسة كبرى للقانون وتدرب الناس على أعمال الادارة العامة (١) .

بيد أن القرن الثالث عشر لم يكد ينصرم حتى كانت قد تكونت طائفة من الجامعات الاوربية الاخرى عن طريق العدوى .

فى هذه الجامعات درست الفلسفة الاسلامية، وكان لها مؤيدون ومعارضون ، داخل الجامعات وخارجها ، وتكونت اتجاهات الفلسفة الاوروبية فى هذه الفترة اختيارا من المذاهب الاسلامية الفلسفية مع خلطها بكثير أو قليل من نظريات ارسطو . نعم كانت الفلسفة الاوروبية فى القرن الثالث عشر عبارة عن مختلف المواقف من ارسطو وابن سينا وابن رشد ، فالاوغسطونيون (٢) يأخذون عن ابن سينا بعض نظرياته ، وهذا ماسمى حديثا بالاوغسطينية المائلة الى السينية .

والأرسطوطاليسية الرشدية — وكانت لها السيادة فى جامعة باريس — تعتبر تأويل ابن رشد لمذهب ارسطو اصدق صورة له وأكمل مظهر للعقل وأعظم اسماء هذه المدرسة سيجر دى بارابان .

أما المعارضون للفلسفة الاسلامية فقد اعتنقوا الارسطو طاليسية المسيحية ، وكان معظمهم من طائفة الرهبان الدومينيكان ، ويتزعمهم القديس البرت الاكبر وتلميذه القديس توما الاكوينى(٣) .

الفلسفة السينوية :

لم ينقض قرن على الترجمات التى صدرت عن طليطلة للفلاسفة العرب حتى كان الرأى قد استقر عند الافرنج على اختيار فلسفة ابن سينا ممثلة للفلسفة الاسلامية ، فقد عرفوها قبل أن يعرفوا ميتافيزيقا ارسطو بنصف قرن(٤) . وقد بين الاستاذ جيلسون(٥) Gilson أن الفلسفة فى القرن الثالث عشر كانت عبارة عن مشتقات من ثلاثة فلاسفة : ارسطو وابن سينا وابن رشد ، وان مذهب القديس أوغسطين لم يكن سوى اختيار بين آراء هؤلاء الثلاثة . كما أثبت الاب دى فو (٦) R. de vause أن كثيرين من اللاهوتيين المسيحيين اتخذوا فلسفة ابن سينا مصدرا لالهامهم ، بل أن هناك مفكرين منهم صرحوا بآراء « سينوية » مخالفة للعقيدة المسيحية وهم الذين يسميهم الاب دى فو « السينيويون اللاتين » وسبب هذه الخطوة فى رأيه أن فلسفة ابن سينا كانت مكتملة وأكثر تفصيلا من فلسفة ارسطو ، فقد سكت ارسطو عن الكلام فى أصل الكون ، وتكلم قليلا عن الله فلما جاء ابن سينا ، ويعتبر له تلميذا مجددا ، افاض فى الكلام عن الله والملائكة والخلق والخير والعناية ، وحاول التوفيق بين العقل والايمان ، وهو أمر يتفق مع الاراء المسيحية التى تشبه الاسلام فى كثير من الامور . واذا كان ابن سينا يرى قدم العالم وأن علة الخلق هى الصدور مما لا يتفق مع العقيدة المسيحية ، فمما لاشك فيه أنه سد ثغرة عند رسطو .

على أن ابن سينا لم يسلم من الحاقدين عليه من أمثال جيوم الافرونى (جيوم ديفرونى) ، وهو فرنسى توفى سنة ١٢٤٩ ، أوغسطينى

---

(١) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٤ ص ٢٨٨

(٢) نسبة الى القديس اوغسطين ٣٥٤—٤٣٠ ولد بطاجسطا بن اعمال نوميديا (بالجزائر) ثم سافر الى روما وأنشأ مدرسة للبيان . وبعد رحلات عاد من الجزائر فعين أسقفا لطاجسطا وعاش بعد ذلك ٣٥ سنة يدعو للايمان والدفاع عنه باللسان والقلم .

(٣) يوسف كرم ص ١٠٨ و ١٠٩

(٤) محاولات فلسفية ص ١٦٠ .

(٥) «Archives d'hist. doct. et litt. du moyen age» 1926 - 33.

(٦) L'Avicennicisme lalin 1934.

المذهب . وكان ، كمعظم معاصريه ، يعتقد أن الفلسفة الاسلامية ارسطوطالية خالصة ،ولذلك يذكر فى نقده لارسطاليس والفارابى والغزالى وابن سينا على انهم اتباعه . ويذهب الى أن مذهب ارسطو واتباعه يخالف المسيحية ، لانه ينكر حرية الارادة التى هى اساس المسيحية ، كما ينكر نظرية ارسطو وابن سينا وغيره من الفلاسفة المسلمين فى أزلية العالم وفى توسط العقول المفارقة والنفوس المحركة للكواكب بين الانسان والله وقولهم أنه عن الواحد لا يصدر الا واحد .

وفى نفس الوقت يقتبس تعاريفه فى الحق وتفرقته بين الماهية والوجود ، والتدليل على أن النفس تدرك ذاتها بذاتها .

وممن تأثروا بابن سينا الاسكندر الهاليسى الكسندر اوف هاليس (١١٧٥ — ١٢٤٥) وهو انجليزى ، وكان استاذا بجامعة باريس ، يمتدح ابن سينا مرة وينقده أخرى ، ويأخذ عليه القول بأزلية العالم ، وبقوله أنه لا يصدر عن الواحد الا واحد . ومع ذلك فلا يذكر الهاليسى الا ابن سينا فى لاهوته ، ويرى أن ابن سينا قد اكتشف قوة نفسانية جديدة ، هى « القوة المتوهمة »(١)

وممن تأثروا به أيضا القديس انسلم (١٠٢٣— ١١٠٩)، وديكارت (١٢٦٠ — ١٣٢٧) فى تعليقه على كتاب الحكمة .

واقتبس منه القديس توما الاكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤ م) التمييز بين الماهية والوجود وغيرها، وان كان يأخذ على ابن سينا أنه قصر علم الله على الكليات دون الجزئيات فاضاف الى الله معرفة ناقصة الوجود وابطل عنايته .

أما روجيربيكون (١٢١٤ — ١٢٠٤) فانجليزى درس باكسفورد ثم ذهب الى باريس ، وأقام بها بضع سنين ، ثم عاد الى اكسفورد ، ثم كف عن التعليم لانه كان يدخل السحر والتنجيم ضمن العلوم التجريبية ، ورجع الى باريس وكان لهذا السبب موضع ريبة عند رؤساء رهبنته (الفرنسيسكان) ، وكان أكبر معاصريه معرفة بابن سينا ومصنفاته ويقدمه على ابن رشد ، ويعتبره أول اسم كبير بعد ارسطو ، واهم شراحه وزعيم الفلسفة ، كما يراه اعظم ممثلى الفكر العربى وثانى فيلسوف بعد ارسطو ، وأن كل ما عرف فى آرائه من تناقض يجب أن ينسب الى المترجمين ، فان فيلسوفا مثله لا يمكن أن يقع فى تناقض .

الفلسفة الرشدية :

نقل مؤلفات ابن رشد الى اللغة اللاتينية ميشيل سكوت سنة ١٢٣٠ ، القرن الثالث عشر من الميلاد ، ولما حاول لويس الحادى عشر تنظيم أمور التعليم فى سنة ١٤٧٣ م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربى ومذهب ارسطو (٢) .

أما فى انجلترا فقد ظلت الفلسفة الرشدية متسلطة الى ما بعد القرن الرابع عشر .

وليس معنى ذلك ان الرشدية قد كتب لها النصر المؤزر فى أوروبا ، ذلك بأن ابن رشد قد لقى من الحاقدين عليه مثل الذى لقى من الانصار فأما طائفة الدومينكان فكانوا يعارضون الفلسفة الرشدية بغير هوادة ، على عكس طائفة الفرنسيسكان ، وبسبب ذلك أن الرهبان الدومينكان كانوا اشد تعصبا على ابن رشد لانه كان اندلسيا مسلما ، وكان الدومينكان يملكون فرعا لهم فى اسبانيا واشتدت بينهم وبين المسلمين خصومات دينية ، ولعل ذلك يفسر لنا تعصب القديس توما الاكوينى ضد ابن رشد ، اذ بينما كان يعتبره المعلم الاول فى المنطق واستاذه فى المنهج كان يتهمه بالزندقة فى آرائه وخاصة الميتافيزيكية وعلم النفس ، وقد كان القديس توما الاكوينى ممن التحق بطائفة الرهبان الدومينكان بجامعة نابلى .

ويفسره ايضا مسلك الشاعر الايطالى دانتى، وكان منهم ، حيث وضع فى جحيمه فيلسوفنا العظيم بين من لم يستطيعوا النجاة بأنفسهم بسبب عقيدتهم الدينية !!

يقول دانتى ذلك فى ابن رشد فى الوقت الذى كان ينقل فيه آراء محيى الدين بن عربى الصوفى وينسبها لنفسه فى جحيمه ومظهره وجنته وفرارا ، واستمر حتى القرن السابع عشر وساد التفسير الاعظم سيادة مطلقة فى بادوا ، وظل جيتانودى تيينا فى القرن الخامس عشر علما من اعلام الرشدية ، حتى أن دروسه تلقى الى اليوم (٣) .

(١) مواضع متفرقة من محاولات فلسفية ص ١٦٤—١٦٨.
(٢) غوستاف لوبون ص ٥٦٩ .
(٣) Arabic Thought p. 290 - 291.

ويوربانو اليولونى ، وهو رئيس طائفة خدام العذراء شرحا لتفسير ابن رشد سنة ٣٣٤ وطبع هذا التفسير فى سنة ٤٩٣ . باذن من الطائفة .

لقد مرت هذه التراجم فى أول أمرها بجامعات ايطاليا دون أن تحدث تلك الضجة التى سمع عنها العالم فى باريس . وسبب ذلك حزم فردريك الثانى سعة ادخلت هذه التراجم الى ايطاليا ، ولان جامعة نابلى التى انبثق منهما العلم الجديد الى بقية جامعات ايطاليا ، انما انشئت خصصيا لدراسة العلوم الاسلامية الجديدة .

اما جامعة باريس فلم تهيأ لهذه الظروف فى اول امرها ، فما أن تسامح اساقفة باريس بوصول شروح ابن رشد على مؤلفات ارسطو ، حتى انعقد مجلس كنسى فى باريس سنة ١٢٧٠ واستنكر كتب ارسطو وشروحها فى الفلسفة والطبيعة . وفى سنة ١٢١٥ وضع نائب البابا لائحة للجامعة تنص على الاستمرار فى تدريس منطق ارسطو وكتاب الاخلاق وتحرم تدريس الطبيعة وشروحها وكتاب ما بعد الطبيعة وشروحه وفى سنة ١٢٢٩ انشئت جامعة تولوز برعاية نائب البابا واعلنت عزمها على تدريس الكتب المحرمة ، ثم انتهى الامر باباحة تدريس هذه الكتب فيها . وكانت هذه فاتحة انتشار الرشدية فى فرنسا .

القديس البرت الأكبر (١٢٠٦ — ١٢٨٠) . ولد فى بقاريا واقام بها ، فلما بلغ السادسة عشرة التحق بجامعة بولونيا بايطاليا ، ثم جامعة بادوفا ، ثم التحق بالرهبان الدومينكان ثم ذهب الى باريس سنة ١٢٤٠ وحصل على لقب استاذ فى علم اللاهوت وأخذ يعلم بها على كتب ارسطاطاليس ، رغم أنها كانت محرمة . واشار عليه البابا بكتابة رسالة ضد ابن رشد فكتب رسالة « فى وحدة العقل رداً على ابن رشد » .

وكان فى تأويله لارسطو يميل الى اتباع الفارابى وابن سينا وابن ميمون ويعارض ابن رشد وابن جبرول .

والقديس توما الاكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) ، وهو ابن كونت دى اكوينو بايطاليا الجنوبية . التحق فى الرابعة عشرة من عمره بجامعة نابولى (كلية الفنون) ثم انضم الى الرهبان الدومينكان ، ثم ارسل الى باريس وتتلمذ على البرت الأكبر ، وعاد معه الى كولونيا ثم رجع مرة أخرى الى باريس ليحضر لدرجة الأستاذية فى اللاهوت ، وهناك أخذ يعلم باعتباره حاصلا على البكالوريا . الف أول مرة كتاب شرح احكام ، وقد ظهر فيه ، اوغسطينيا ثم أعاد كتابته، ليمحو أثر الاغسطينية ويثبت آراءه الخاصة وهو يميل فى مسائل كثيرة الى كتابى ابن سينا فى العقول ، و «فى صدور الموجود» ويبدو اعتداده بابن سينا وابن رشد أيضا فى رسالة كتبها « فى الوجود والماهية » .

والقديس توما الاكوينى فى سبيل الظهور أمام معاصريه بمظهر المفكر المبتكر يأخذ آراء ابن رشد وينسبها لنفسه ، فقد نسب لنفسه نظريةً فى حرية الارادة بسطها جلسون ، باعتبار أنها له وهى « ان الله أعطانا حرية الاختيار ولكن هذه الحرية غير محدودة ، وهكذا يهب الله الانسان الارادة ، ولكن هذه الارادة غير محددة ، اذ يستطيع المرء بعد التفكير والتأمل أن يصمم على اختيار أمر دون آخر .

حتى براهينه فى هذه المسألة يسرقها(١) دون أن يشير اليه بشىء .

أما انصار الرشدية الحقيقيون فهم طائفة الرهبان الفرنسيسكان مثل روجير بيكون،وسيجر البرابانتى(٢) (١٢٣٥ — ١٢٨٢) ، وكان استاذا بجامعة باريس وقد طردته الكنيسة وصبت عليه اللعنة لأنه كان رشديا زنديقيا(٣) و (٤) .

فبينما كان توما الاكوينى يعمل على تحقيق أمل أستاذه البرت فى انشاء ارسطوطاليسية مسيحية وكان معظم أساتذة كلية الفنون بباريس يراعون

---

(١) الفيلسوف المفترى عليه — ابن رشدللدكتور محمود قاسم ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٢) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٣٦٨
(٣) المرجع السابق ص ٥٧٣
(٤) ارجع الى ما كتبناه فى هذا الكتاب

العقيدة فى عرضهم للفلسفة كان بعض زملائهم يرون فى فلسفة أرسطو كما شرحها ابن رشد **علما قائما بذاته ومثلا أعلى للعقل الانسانى وأيد** لذلك ان كلية الفنون لم يكن أساتذتها كهنة وانما كانوا اكليريكيين مرشحين للكهنوت ، فكان من الممكن أن يتجاهل بعضهم تعاليم الدين المسيحى الضيقة بزعم أنهم يشتغلون بالفلسفة دون غيرها ، وان ليس من شأنهم التوفيق بين الفلسفة والدين . وانشأ هؤلاء الأنصار من البرت الأكبر وتوما الاكوينى وضع رسالة « فى وحدة العقل ردا على الرشديين » حركة واسعة سميت بالرشدية اللاتينية وبلبلت أفكار الجامعة ربع قرن .

وأشهر هؤلاء الرشديين سيجرت دى برابان وكان يعلم بكلية الفنون حوالى سنة ١٢٦٥ وضم اليه فريقا من أساتذة الكلية وطلابها وكونوا لأنفسهم مذهبا رشديا ، وانتخبوا لهم عميدا ثم حرم زعيمهم سيجر من التدريس وطلبه رئيس محكمة التفتيش للمثول أمامه ، ويلوح أنه احتكم الى روما أو هرب اليها لأن محكمة روما حبسته فى هذه السنة وأصدرت ضده فرمانا كان القضاء المبرم على الرشدية بباريس وفى مدينة ارفينو جن كاتبه واغتاله سنة ١٢٨٢ .

ولقد كان الرهبان الفرنسيون(١) من الفرنسيسكان شديدى التعلق بتعاليم ابن رشد الى أن ظهر فيهم الراهب الفرنسيسكانى دينز سكوت سنة ١٣٠٨ م وعارض الفلسفة الرشدية .

أما الرهبان الأوغسطينيون ، فكانوا فريقين ، منهم من عارض الفلسفة الرشدية كما فعل جيل الرومانى ومنهم من تعصب لها كما فعل بول الفينيس .

كانت هذه حال الفلسفة الاسلامية التى شغلت الفكر الأوربى بقوتها وسلطانها منذ عهد الترجمة فى مدينة طليطلة ، وفرقت النصارى شيعا وأحزابا ، هذا عدو مبين ، وهذا صديق حميم ، وهذا يقتبس ويجحد ، وهذا ينقل ويعترف ...

واستمر النقل عن فلاسفة الاسلام الى عصور متأخرة ، واستمر الجحود أيضا ، فهذا رينيه **ديكارت** (١٥٩٦ — ١٦٥٠) يقول فى القرن السابع عشر بمبدأ الكوجيتو ، وهو اثبات وجود الذات فى أى فعل من أفعال الفكر (**أنا أفكر فأنا موجود(٢) ، ولا نستطيع أن نشك دون أن نكون موجودين(٣)** يقول بالراى وينسبه لنفسه ، وهو لم يخرج فيه عن « انية » ابن سينا التى أوردها كتاب الشفاء فى أكثر من موضع ، وفى التنبيهات والاشارات حيث يقول « ارجع الى نفسك وتأمل هل تنقل عن **وجود ذاتك** » .

وليس بعيدا أن يكون ديكارت قد اطلع على أقوال ابن سينا التى ترجمت فى العصور الوسطى وربما قرأها فى كتابات جيوم الافرونى أو غيره .

وفى « احصاء العلوم » قسم الفارابى العلوم ، وقدم عليها الرياضة المجردة ، لأنها واضحة فى العقل ، ثم العلوم الطبيعية وهى واضحة فى الخارج ثم العلم الالهى ، وهو الواضح فى نفسه ، **وان كان يخفى علينا لشدة وضوحه وقصور ذهننا عن ادراكه .**

هذا الراى هو الذى قال به ديكارت وجعله من قواعد منهجه .

فاذا لاحظنا أن « احصاء العلوم » للفارابى ترجمة الكرمونى فى القرن الثانى عشر وانه نشر على يد Guilliemus Comerarius استاذ الالهيات بباريس سنة ١٦٣٨ ، وان ديكارت مات سنة ١٦٥٠ ، لم نتردد فى القول بأن ديكارت نقل عن الفارابى وجحد مرجعه .

أما ان ينقل عن فيلسوف مسلم ولا يذكر اسمه ، فلم يكن ذلك غريبا على ديكارت ، فأمثاله كثيرون ، ولكن الغريب ، ان نار الحقد على فلاسفة الاسلام ، التى كنا ظننا انها قد انطفأت ، لم تزل تتأجج فى قلوب بعض الصليبين ، فقد طلع علينا فى القرن التاسع عشر ببدعة جديدة ، الفيلسوف الفرنسى ارنست رنان (١٨٢٣ — ١٨٩٢) ، أراد أن يجدد بها العصبية الدينية فى صورة جديدة ، هى التفرقة

---

(١) أوليرى فى الفكر العربى ص ٢٨٠ وما بعدها .
(٢) المقال فى المنهج طبعة آدم وتانرى القسم الرابع ٣٢—٣٣
(٣) مبادىء الفلسفة الكتاب الاول المادة ٧ ، ٨

بين الجنس الآرى الذى منه الأوربيون المسيحيون والجنس السامى الذى منه العرب المسلمون ، وهو لا يكتفى بالطعن فى الفلسفة السامية (العربية الاسلامية) ، وانما ينكرها من أساسها قال :

« ما يكون لنا أن نلتمس عند الجنس السامى دروسا فلسفية ، ومن عجائب القدر ، أن هـذا الجنس الذى استطاع أن يطبع ما ابتدعه من الأديان بطابع القوة فى أسمى درجاتها ، لم يثمر أدنى بحث فلسفى خاص ، وما كانت الفلسفة قط عند الساميين الا اقتباسا صرفا جديدا وتقليدا للفلسفة اليونانية »(١) .

ويقول ايضا :

« من الخطأ وسوء الدلالة بالألفاظ على المعانى أن نطلق على فلسفة اليونان المنقولة الى العربية ، لفظ « فلسفة عربية » مع أنه لم يظهر لهذه الفلسفة فى شبه جزيرة العرب مبادىء ولا مقدمات ، فكل ما فى الأمر أنها مكتوبة بلغة عربية »(٢) .

ويقول أيضا :

« أن الأسباب التى يعللون بها فى العادة ايثار العرب لأرسطو ، هى أقرب الى التمويه منها الى الحق ، فان العرب لم يؤثروا اذ لم يكن ثمت اختيار عن روية ، انما يقبل العرب معارف اليونان كما وصلت اليهم » (٣) .

ويقول اخيرا(٤) : « لا يزال حكمى بأن مباحث العقائد الدينية لم يكن لها كبير شأن فى نشأة هذه الفلسفة العربية حكما جازما ، وما صنع العرب شيئا سوى انهم تلقوا جملة المعارف اليونانية فى صورتها التى كان العالم كله مسلما بها فى القرنين السابع والثامن(٥) » وهذا عين ما قاله شمويلدرز الألمانى .

---

(١) Avercroes et Averroisme, preface, p. 7, 8

(٢) Histoire Générale et système des langues semitiques, Paris 6e édition, p. 10.

(٣) ابن رشد ومذهبه ص ٩٣

(٤) ابن رشد والرشدية ص ١١

(٥) انظر هذا الرأى معروضا ومردودا عليه فى
Dugat (Gustave) Histoire des philos et des the olahiens musulmans, Paris 1878 préface p. 15.

ثانيا : الرياضيات

الخوارزمى وعلم الجبر :

الف محمد بن موسى الخوارزمى كتابا فى علم الجبر سماه كتاب الجبر والمقابلة ونشرت نسخته العربية لاول مرة سنة ١٨٣١ على يد فردريك روزن . وطبعت بلندن ونشر معها تعليق باللغة الانجليزية ، ونشر Marreترجمة فرنسية للفصل الخاص بالمساحات من كتاب الجبر عن نسخة روزن(١) .

كان لكتاب الجبر والمقابلة هذا أثر كبير فى الرياضيات الأوربية ، ويكفى للتدليل على ذلك(٢) انه اسم الخوارزمى دخل معاجم أغلب لغات العالم ، ففى اللغة الانجليزية مثلا تستخدم كلمه Algarithim (٣) التى هى ولا شك تحريف لاسم الخوارزمى ، للدلالة على الطريقة الوضعية فى حل المسائل ، كما أن الشاعر الانجليزى تشوسر يستخدم كلمة أوجرم Augrim للدلالة على الصفر وذلك لان طريقة الحساب الهندية بما فى ذلك استخدام الصفر انما وصلت الى الغرب عن طريق كتاب الخوارزمى فى الحساب . كما أن اسم الجبر فى جميع لغات العالم مشتق من الكلمة العربية الجبر وهى التى استخدمها الخوارزمى اسما على كتابه ، وكانت الاعداد من ١ الى ٩ و(٠) الى أوائل القرن الثامن عشر تسمى باللاتينية الجورزمى Algorismus ، كما أن الكلمة الاسبانية التى معناها الاعداد أو الأرقام هى جوارزمو Guarismo وقد تعلم الغربيون علم الحساب عن كتاب الخوارزمى فى الحساب مترجما الى اللاتينية ، وعن كتب أخرى بنيت على كتاب الخوارزمى ، منها carmen de Algorismus كتاب الذى وضعه اسكندردى فيلادى حوالى ١٢٢٠ ميلادية ، وكتاب الجورزمى فالجاريس لمؤلفه جون أوف هاليفاكس Algarismus Valgaris جون أوف هاليفاكس (John of Halifac) حوالى سنة ١٢٥٠ ميلادية ، وكلا هذين الكتابين مبنى الى حد كبير على كتاب محمد بن موسى فى الحساب ، وكلاهما بقى مترجما فى تلقين هذا العلم عدة قرون .

كتب محمد بن موسى فى الحساب الهندى (١ — ٩ ، صفر) وبفضله ذاعت الطريقة الهندية فى جميع البلاد الأوروبية ، ومنها اسبانيا وايطاليا وكانت سببا فى تقدم الحساب التجارى فى المدن الكبرى (٤) .

أما الجداول الرياضية المعروفة اليوم باسم « اللوغاريتمات » فترجع الى اسمه «الجوريتمى» واليه تنسب .

ابو الوفا البوزجانى وحساب المثلثات :

يقول زوتر H. Suter فى المقال الذى كتبه عن أبى الوفا البوزجانى فى دائرة المعارف الاسلامية أن أهمية أبى الوفا ترجع الى أنه ساهم فى تقدم حساب المثلثات . ففى حساب المثلثات الكرية استعاض عن المثلث القائم بنظرية منيلوس ، مستعينا بقاعدة المقادير الأربعة (حا ١ : جا ج = جا ١ : ١) ونظرية الظل (ظا ١ = ظا ١ = جاب : ١) . واستخرج من هاتين القاعدتين كذلك (جتاجـ = جتا ١ × جتاب) . ويحتمل أنه فى المثلث الكرى ذى الزاوية غير القائمة أو جد أيضا نظرية الجيب كما يقول

---

(١) Nouvelles Amnales des Mathématiques مجلد ٥ ص ٥٥٧ (١٨٤٦)

(٢) مقدمة كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى كتبها الدكتوران على مصطفى مشرفة ومحمد مرسى أحمد عندما نشرا هذا الكتاب سنة ١٩٣٩ ص ١٤

(٣) كل طريقة متواترة فى الحساب غدت قاعدة من القواعد .

(٤) J. Draper : The intellectual development of Europe V. 2, p. 40, 41.

كارادى فو(١) ، وندين له كذلك بطريقة حساب جيب ٣٠/، حيث تتفق نتائجه فيها الى ثمانية ارقام عشرية مع القيمة لذلك الجيب كما يقول فوبك(٢) .

غير انه يضيف : أن فضل ادخال الظل وظل التمام والقاطع وقاطع التمام الى حساب المثلثات الكرية كما ينسبه اليه (الى ابى الوفا) بعض المحدثين ، انما يرجع الى احمد بن عبد الله المعروف بحبش الحاسب .

وعلى العموم ان صح هذا او ذاك فـ « أن العرب هم الذين أدخلوا المماس الى علم المثلثات وأقاموا الجيوب مقام الأوتار ، وطبقوا علم الجبر على الهندسة ، وادخلوا المعادلات المكعبة ، وتعمقوا فى مباحث المخروطات ، وحولوا علم المثلثات الكرية بردهم حل مثلثات الاضلاع الى بضع نظريات اساسية تكون قاعدة له » .

« ولادخال المماس الى علم المثلثات اهمية عظيمة ، واسمع ما قاله مسيو شال فى كتابه (خلاصة تاريخ اصول الهندسة) لم تؤثر تلك الثورة العلمية المباركة (ثورة العرب) التى ادت الى طرح تلك الطرق المركبة الثقيلة فى الجيب وتمام الجيب ، فى علماء القرون الحديثة الا بعد مرور خمسمائة سنة ، وذلك بدعوة ريجيو مونتانوس ، وان جهل تلك الثورة كوبرتيك الذى ظهر بعد نحو قرن »(٣) .

ابن الهيثم وعلم البصريات :

فى سنة ١٢٧٠ م صنف عالم بولونى فى ابلن يدعى Witello أو Vitelo كتابا فى البصريات . وقال المصنف عن كتابه انه وضعه على أساس ما جاء فى كتاب بطليموس القلوذى Claudius Ptolemaeus وكتاب لمؤلف عربى اسمه Alhazen (يقصد الحسن هو الحسن بن الهيثم) .

ولم يكن الأمر غريبا ان يعرف الحسن فى أوروبا فى ذلك العهد ، ذلك بأن الحضارة الاسلامية فى ذلك العصر كانت محط أنظار العلماء من جميع بقاع الأرض وكان تعلم اللغة العربية وتنقل علومها الى اللغة اللاتينية .

استمر الحال على هذا حتى نشر رزنر Risner سنة ١٥٧٢ ترجمة لاتينية كاملة لكتاب المناظر سماها «Opticae Thresaurus Alhazeni» اى « الذخيرة فى الأوبتيكى للحسن » وقد استبان بعد ترجمة رزنر هذه أن فتلو قد نقل كتابه السالف عن المناظر لابن الهيثم ، بشىء قليل أو كثير من التصرف الخاطىء ، الأمر الذى دعا بعض الكتاب الى انتقاد تصرفه ، فيقول عنه Della Porta (٣) اخطأ فيلتو فى جل أقواله التى لم يحذ فيها حذو الحسن ووصفه بالقرد المقلد » (٤) . ويعترف لابورتا هذا للحسن بالفضل فى تفسير تزايد الاجرام السماوية قرب الأفق ، الأمر الذى ينسبه الى Roger Bacon الى بطليموس .

ومهما يكن من شىء فان الترجمة اللاتينية لكتاب المناظر ظلت دستور البصريات فى أوروبا خلال العصور الوسطى وحتى القرن السابع عشر ، والا لما دعا الأمر الى نشر ترجمته اللاتينية عام ١٥٧٢ م ، فهو قد فاق كثيرا من كتب الغربيين التى الفت فى العصور الوسطى فى البصريات ، وتذكر منها كتاب Paralipomena and Vitellionen من تأليف Kepler

واذا اطلع E. Wiedemann على مخطوط عربى عنوانه « تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر » كان قد ألفه كمال الدين الفارسى وتبين له أن هذا التنقيح انما هو للاصل العربى للمناظر (الذى نقلت منه الترجمة اللاتينية) ، فألف فيه رسالة تثبت ذلك Zu Ibn Al Haitams Optik هذا عن كتاب المناظر ، أما عن رسائله الأخرى ، فله رسالة الشفق وقد ترجمها الى اللاتينية جيرار دى كريمونا ووجدت مع ترجمة كتاب المناظر .

---

(١) المجلة الاسيوية المجموعة ٨ ج ١٩ ص ٤٠٨–٤٤٠
(٢) المجلة الاسيوية المجموعة رقم ٥ ص ٢١٨–٢٥٦
(٣) عالم ايطالى من نابلى ومن الغريب انه وهو ينتقد فيلتو على سوء تصرفه نراه ينسب لنفسه كشف الحسن فى الخزانة المظلمة ذات الثقب دون أن يشير اليه ١٥٣٨ — ١٦١٥ .
(٤) نقل هذا القول مصطفى نظيف ص ٢ عن كتاب انجليزى اسمه Prietly نقله هو الاخر فى كتابه :
A history of discoveries melating the version of lights and colours (1774).

وقد ترجم فيدمان الى الألمانية ونشر « كيفية الاظلال » سنة ١٩٠٧ ونشر سنة ١٩٠٩ بعض فقرات من رسالته « فى المكان » و « فى مسألة عددية » و « فى أصول المساحة » بالألمانية . وفى سنة ١٩١٠ ترجم ونشر أيضا « فى المرايا المحرقة بالدوائر » واشترك فى نفس السنة مع هيرج فى ترجمة ونشر المرايا المحرقة بالقطوع .

اما مكانة ابن الهيثم فى علم البصريات فان جمهور علماء أوروبا وأمريكا يعترفون له بأنه رائد علم البصريات الحديث ، وما من واحد من مؤرخى العلم الاسلامى الا وشيد بفضل الرجل ورسوخ كعبه فى هذا العلم فيعترف له جورج سارتون(١) بالترجمة اللاتينية لكتابه المناظر — وهو أهم مؤلفاته،كان لها أول أثر عظيم على العلماء فى الغرب وخصوصا على روجير بيكون وكيلر وجون بكهام وفيلتو وجون اف باريس وديتريش اف فريبرج .

ويضيف سارتون الى ذلك قوله بأن التشابه بالملاحظ فى المؤلفات الغربية فى البصريات فيما بين بعضها والبعض وتشابها مع بعض المؤلفات العربية لا نجد لها تعليلا معقولا الا انها جميعا تنهل من منهل واحد ، وهذا المنهل هو كتاب المناظر للحسن ابن الهيثم .

يؤكد هذا ما يرهوف ، حيث ذكر من قبل أن روجر بيكون وفيلتو وليوناردو دافنشى وجميع الكتاب الغربيين قد نهلوا من مؤلفات الحسن ابن الهيثم (٢) .

وينسب بعض الغربيين بغير حق الفضل فى الكشف عن الخزانة المظلمة والصور المنعكسة عليها الى جيوفانى باتستادلا بورتا Giovani Battista della Porta فى كتابه Magia Naturalis أى « السحر الطبيعى » ، وهو كشكول فى تولد الحيوان واستحالة المعادن وعلم الاستاتيكا وتحضير الروائح والحصول على صورة مقلوبة من خلال ثقب فى حجرة مظلمة . وهذه الأخيرة ليست الا من مبتكرات ابن الهيثم .

ومع ذلك فقد وجد ابن الهيثم من ينصفه من الغربيين ، فيقول الأستاذ Joseph Heil فى كتابه Arab civilization (٣) « لقد اتجه ابن الهيثم بأبحاثه الى دراسة الحجرة المظلمة Camera obscura وربما كان روجر بيكون أول من تمكن من الانتفاع بها ، ويجب أن ينسب أيضا لابن الهيثم فضل التفريق بين الظل وشبه الظل » .

وابن الهيثم هو الذى قام بالتجارب على زوايا السقوط والانعكاس ولا يزال اسمه مقترنا بما يسمى قضية الحسن (٤) التى استعمل فى حلها قطاعا زائدا . وأثناء تجاربه على انعطاف الضوء (انكساره) أحدث تجاربا على قطاعات كريه (أوانى زجاجية مملوءة ماء) كاد يصل بها الى الكشف عن نظرية العدسات المكبرة التى طبقت فى ايطاليا بعد مضى ثلاثة قرون تقريبا وقبل أن يثبت Snell و Descartes قانون الجيوب فى الضوء بستة قرون (٥) .

ويقول الأستاذ اندريس أن روجر بيكون استقى مادة مؤلفه عن العدسات من الكتاب السابع لبصريات ابن الهيثم (يقصد المناظر) (٦) .

بل ان ابن الهيثم وهو يشرح نظرياته فى الأبصار امتد بحثه الى كيفية الادراك فرأى بحق أن الادراك لا يكفى فيه الحس المجرد (أو الاحساس فى المصطلح الحديث) ويبين وجود أنواع أخرى من الادراك ، كالادراك بالمعرفة عن طريق الاستعادة أو الادراك بالتمييز أو بالقياس (وهو ما يعبر عنه فى علم النفس الحديث بالادراك الحسى) (٧) .

وامتد به بحثه فى البصريات الى وصف العين . ويعترف له الأستاذ كاجورى Cajori فى كتابه History of Physics بأنه أول طبيب وصف العين وصفا مسهبا ، وقد استمد معلوماته فى وصف العين من مؤلفات فى التشريح . وكان هو وبعض معاصريه من علماء العرب وبعض العلماء المتاخرين منهم يعارضون رأى اقليدس

---

(١) Intraduction to the History of Science, V. 1 p. 141 (1947 - 1948).

(٢) ماير هوف ص ٣٣٤

(٣) نقل النص عبد الحميد حمدى مرسى فى مقدمة رسالته ابن الهيثم فى الضوء . وانظر ايضا رسالة سارتون . فى المرجع السابق فى الموضع ذاته .

(٤) على سطح مرآة مقعرة أو مجدبة سواء أكانت اسطوانية أو مخروطية توجد نقطة تنعكس عنها الاشعة الى موضع معين للعين من جسم فى وضع معين . وهى تؤدى الى معادلة من الدرجة الرابعة .

(٥) ماكس مايرهوف ص ٣٣٤

(٦) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٥٣٤

(٧) مصطفى نظيف ص ٢٤٨ و ٢٤٩ .

والافلاطونيين القائل بأن الأبصار يحدث عن اشعة تخرج من العين ، وكانو يؤيدون رأى ديمقريطس وارسطو القائل بأن السبب هو صدور أشعة عن الجسم نفسه »(١) .

لقد بلغ من بعد صيت الرجل ، أن علماء اكسفورد يرون المثل الأعلى للعلم فى كتاب المناظر للحسن بن الهيثم أكثر منه فى طبيعيات أرسطو ، التى هى فى الواقع أقرب الى الفلسفة منها الى الرياضيات (٢) .

وان علماء الطبيعة الى اليوم يهتدون بهديه ، وقد ذكر الأستاذ مصطفى نظيف أكثر من ستة عشر عالما من كبار رجال الطبيعة فى العصر الحاضر قد عنوا بترجمة الحسن وببيان بحوثه فى البصريات .

وفوق علم الرجل بالبصريات ، كان الرجل عالما بالرياضيات ، وفى ذلك يقول خودا بخش (٣) كان حسن بن حسين (٤) أول من وضع قواعد الهندسة التى قام بتنقيحها أخيرا كارنو Carnot وغيره من المهندسين الفرنسيين » .

بعض الكتب الأخرى المترجمة فى الرياضيات :

ثابت بن قرة : ظهر فى القرن التاسع الميلادى . وهو أول من طبق الجبر على الهندسة ونشر سيديو فصولا من مؤلفاته التى تشتمل على حل هندسى للمعادلات .

الحسن بن الهيثم : ظهر فى القرن الحادى عشر من الميلاد وترجم سيديو بعض فصول من كتابه فى الأصول الهندسية .

الكرخى : ظهر فى القرن الخامس من الهجرة ، وترجم فبكة كتابه الفخرى فى الجبر وطبعه سنة ١٨٥٣ .

عمر الخيام : ترجم له كتاب فى الجبر الى الفرنسية سنة ١٨٥٧ .

---

(١) أنظر عبد الحميد حمدى مرسى مقدمة رسالة الحسن بن الهيثم فى الضوء ص ١٦ .
(٢) يوسف كرم ص ١٠٥ .
(٣) مصطفى نظيف ص (ب) من المقدمة .
(٤) الحضارة الاسلامية ص ١٦٩
(٥) يقصد الحسن بن الهيثم ، وهو يسمى « أبو على الحسن بن الحسن أو ابن الحسين » زوتر فى دائرة المعارف الاسلامية .

ثالثا : فى الفلك

تقدم المسلمون بعلم الفلك تقدما ملحوظا ظهر مؤلفات علمائهم الذين نذكر منهم فى اسبانيا الزرقالى الذى ظهر فى طليطلة فيما بين سنتى ٤٥٢ ، ٤٧٢ هـ ووضع جداول فلكية وركب اسطرلابا واخترع أجهزة دقيقة كالزرقالية والصفيحة .

ونقل الفونسو العاشر وعلماؤه بعض كتبه وهى كتاب الأفق او افق الدنيا ورسالة العمل بالصفيحة وطريقة عمل اسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وافلاكها .

وجابر بن أفلح الاشبيلى الذى ظهر فى القرن الثانى عشر ، وله كتاب الفلك ، وكتاب الهيئة او اصلاح المجسطى وترجمة جيراردى كريمونا الى اللاتينية وطبع فى نورنمبرج سنة ١٥٣٣ .

وابو اسحاق نور الدين البطروجى وقد ظهر فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر وابتدع نظرية جديدة فى حركات النجوم ، ترجمها الى العبرية موسى بن طيبون سنة ١٢٥٩ ونقلها الى اللاتينية فالينسيوس بن داود سنة ١٥٣٩ ، وطبع فى البندقية سنة ١٥٤١ وقد ذهب مندذ بلايو الى انه نقض نظرية بطليموس من اساسها وعارضه فى اخص آرائه ، فقال بالحركة البيضاوية للكواكب ودورانها حول الشمس وحركات الأفلاك المتقابلة (١) .

وقد توصل أبو الوفا الى الاكتشاف الهام الذى ينسب عادة الى تيكوبراهى وهو تأسيس نظرية خسوف القمر على حساب المسافة بين الشمس والقمر ، ولكن سديو اثبت ان أبا الوفا هو المكتشف الحقيقى لهذه النظرية (٢) .

أما نسبة اكتشاف اختلاف أوجه القمر الى أبى الوفا فهى مسألة خلافية بين سيديو وشازلز من جهة وبيو ومونك من جهة أخرى(٣) .

والبتانى من علماء القرنين التاسع والعاشر وقد ظل ٤١ سنة يقوم بارصاد فلكية اشتهرت بدقتها واتساع مداها ووصل بهذه الارصاد الى كثير من « المعاملات » الفلكية منها تقديره الاعتدالين ب ٥٤ر٥ درجة وميل مستوى الفلك ب ٢٣ر٥٥ درجة وتمتاز بقربها العجيب من تقديرات الوقت الحاضر(٤) ، وعمل الزيج الصابى الذى ترجم عدة مرات وطبع بنورنبرج سنة ١٥٣٧

ومنهم البيرونى (القرن الحادى عشر) وقد الف كتابه الاثار الباقية وخص فيه الفلك الهندى باثنين واربعين فصلا من فصوله ، وقد فسر ظاهرة مغيب الشمس فى القطب عدة أشهر متوالية ولم يكن يخالجه أدنى شك فى كروية الأرض ودورانها حول نفسها مرة كل يوم ، ودورانها حول الشمس مرة كل عام .

وكلف المأمون جماعة من الفلكيين (ليعلم منهم اولاد موسى بن شاكر) للرصد وتسجل نتائجه وتحقيق كشوف بطليموس الفلكية ، فبدأ عملهم على أساس كروية الأرض ورصدوا موضع

٥

---

(١) قد اثبت مليباس فلكروسا أن الكتاب لعلى بن خلف ـ انظر تعليق الدكتور حسين مؤنس بهامش ص ٤٥٢ من تاريخ الفكر الاندلسى . وانظر أيضا ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٤٥٦

(٣) راجع مقال زوتر عن أبى الوفا فى دائرة المعارف الاسلامية .

(٤) ول ديورانت فى المرجع السابق .

الشمس من تدمر وسنجار فى وقت واحد وتوصلوا من هذا الرصد بتقدير الدرجة بستة وخمسين ميلا وثلثى ميل وهو تقدير يزيد بنصف ميل عن التقدير الحاضر وقدروا محيط الأرض لعشرين الف ميل، وكتب الفرغانى وهو أحدهم كتابا فى الفلك ظـل مرجعا تعتمد عليه أوربا وغربى آسيا سبعمائة عـام .

وابن يونس الذى كان مديرا لمرصد الحاكم فى القاهرة فى القرن العاشر الميلادى وبفضله عمل الزيج الحاكمى الذى حل محل الازياج السابقة عليه ، واستنسخ فى جميع كتب الفلك اللاحقة ومنها الكتاب الذى الفه كوشوكنج فى الصين سنة ١٢٨٠ ، وقد نقحه كوسان دبير سفال ونقل بعضه الى الفرنسية وطبعه بباريس سنة ١٨٠٤ ورصد ابن يونس كسوفين للشمس فى القـاهرة سنة ٩٧٧ ، سنة ٩٧٨ ، وهما أو كسوفين رصدا بدقة علمية واستفيد منهما فى تحديد كمية التسارع القمرى(١) .

وقد اهتمت جهود الفلكيين المسلمين (حفيد تيمور لنك) صاحب الكتاب الذى نشره أولوغ بك سنة ١٤٢٧ حفيد تيمور لنك وهو خلاصة المعارف الفلكية السـابقة ذكر فيه مقـدمة لعلم الفلك واقسام الوقت ، والتقويم ، وحساب الكسوف والخسوف وتأليف الازياج واستعمالها . وتشتمل هـذه الأزياج على فهارس الكواكب وحركات القمر والشمس والكواكب السيارة وطول أهم مدن العالم وعرضها . وقدر لأول مرة عرض مدينة سمرقند ٢٩ درجة ٢٧ دقيقة ٢٨ ثانية . وترجمت ازياجه الى اللاتينية وطبعت فى اكسفورد سنة ١٦٦٥ . وترجم سديو مقدمة هذه الأزياج الى الفرنسية وطبعها فى باريس سنة ١٨٤٧ .

قال لوبون : واذا كانت كتب العرب الفلكية مفقودة فانه يمكن معرفة كشـوفهم من كتب النصارى المعاصرين وقد توفر سديو على دراسة رسائل ادفونشى العاشر فانتهى الى أن العرب سبقوا كبلر وكبرنيك فى اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شـكل بيضى وفى نظرية دوران الأرض ، وان أزياج الفونس العاشر مأخوذة من العرب .

وعمل العرب اسطرلابا لرصد الكواكب ويوجد منه فى مكتبة باريس الوطنية ثلاثة . ومن ينعم النظر فى تركيبها يعلم انها دالة على حدق كبير وانه يصعب صنع ما هو أحسن منها فى الوقت الحاضر .

وتتلخص اكتشافات العرب الفلكية فيما يلى : ادخال المماس الى حساب الفلكى فى القرن العاشر الميلادى ، ووضع أزياج لحركات الكواكب وتعيين دقيق لانحراف سمت الشمس ونقصانه التدريجى، وتقدير مبادرة الاعتدالين بالضبط وتحديد صحيح لمدة السنة ، ونحقيق لشذوذ أعظم عرض للقمر ، وكشف للاختلاف القمرى الثالث المعروف بالاختلاف فى الوقت الحاضر والذى قيـل أن تيخو براهة اهتدى اليه فى سنة ١٦٠١ لأول مرة ولعل أكبر دليل على نفـوذ الفلك العربى فى الغرب تلك الأسماء العربية التى دخلت المعاجم الغربية (٢) .

آخر النهر ، الضليم ، ألفا النهر	Achernar
كبرى العذارى	Adaara, Adhara
الدبران ، نير الثور	Aldebaran
جنب الفرس ، جناح الفرس	Algenib
جبهة الأسد ، جما الأسد	Algieba, Algeiba
راس الغول	Algol
العضادة	Alidad, 14550
المقنطر	Almacantar 1391
المرىء	Almury 1391
المعتز	Almuten 1625
النصل	Alnasl
الفرد ، قلب الشجاع	Alphard
سرة الفرس	Alpherat, Alpheratz, (called rarely Sir-rah)
الفرق	Alphirk, Alfirk,
النسر الطائر ، نير العقاب	Allair
أوج	Auge 1594

(١) الموسوعة البريطانية تحت لفظ فلك .
(٢) تبين السنة التى استعمل فيها اللفظ فى اللغة الانجليزية

السماك الأعزل Azimech

السمت Azimuth 1391

القائد ، قائد بنات نعش
Benetmasch (called also Alkaid)

متكسب الجوزاء ، يد الجوزاء Betelgenze

ذنب الجدى Deneb Algedi

ذنب الليث ، ذنب الأسد
Denebola, Deneb Aleet

انف الفرس ، فم الفرس ، جحفلة الفرس
Enif

فم الحوت — الضفدع الأول Faumalhaut

هيلاج Hyleg, 1625

الكفة الجنوبية — الوزن الجنوبى
Kiffa Australis

الكفة الشمالية — الوزن الشمالى
Kiffa Borealis

مركب الفرس — متن الفرس Markab

السراق — جنب السلسلة Mirach, Mirac

مرفق الثريا Mirfak

الأزرار — مراق الأزرار — منطقة العواء
Mizor, izor, Mirack

نظير السمت — سمت الرجل — سمت القوم
Nadir, 1391

نير الزورق Nair Alzaurak

رجل الأسد Regulus

رجل الجبار — رجل الجوزاء اليسرى
Rigel, 1592

النسر الواقع Vega, Wega, 1638

سمت الرأس(1) Zenith, 1387

---

(1) دون هذه المصطلحات الاستاذ جلال مظهر فى كتابه« مآثر العرب على الحضارة الاوربية ص ١٦١ — ١٦٣ وقد جمعها من : A new english dictionary of historical principles, Oxford.

ونرجو مراجعة ما كتبناه عن الفلك فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

اهم الكتب المترجمة

فى الفلك

ابن يونس ــ فى القــرن العاشر الميلادى : الزيج الحاكمى ، وهو اهم كتاب فى الفلك . ترجم كوسان دوبر سيفال بعضه الى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٠٤ .

ابو الحسن المراكشى ــ فى القرن الثالث عشر الميلادى . له تواليف كثيرة . ترجم بعض مؤلفه « جامع المبادىء والغـايات فى علم الميقـات » سيديو الى الفرنسية وطبعه بباريس سنة ١٨٤٣

ابو الوفا البوزجانى ــ ترجم سـيديو بعض الفصول من كتبه الى الفرنسية وطبعها بباريس سنة ١٨٤٥ .

ابو معشر البلنجى ــ القرن الثامن الميلادى : « المدخل الصغير » ترجم الى اللاتينية وطبع فى أوغبرج سنة ١٤٨٩ . وترجم كتابه فى الأبعاد الفلكية الى اللاتينية أيضا . وطبع سنة ١٤٨٩ و ١٥١٥ .

أولوغ بك ــ القرن الرابع عشر الميلادى : وهو حفيد تيمور لنك ومن أكبر ممثلى مدرسة بغداد فى الفلك . ترجمت ازياجه الى اللاتينية وطبع فى اكسفورد سنة ١٦٦٥ وترجم سيديو مقدمة هذه الأزياج الى الفرنسية وطبعها بباريس سنة ١٨٤٧ .

البتــانى ــ القرن التاسع الميلادى : الزيج الصابى ترجم عدة مرات وطبع بنورنبرج سنة ١٥٣٧ ، وتوفر على دراسته كارلونلينو .

البيرونى ــ وله كتاب الاثار الباقية ترجمــة سخاو الالمانى الى الانجليزية وطبع اصله بلبسيك سنة ١٨٧٨ وترجمته بلندن سنة ١٨٧٩ .

جابر الاشبيلى ــ القرن الحادى عشر الميلادى ترجم كتابه فى الفلك الى اللاتينية . وطبع بنورنبرج سنة ١٥٣٣ .

الفرغانى ــ القرن التاسع الميلادى « المدخل الى علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم » ترجم الى اللاتينية ثلاث مرات . أولاها قام بها يوحنــا الاشبيلى فى القرن الثانى عشر وطبعت بفيرار سنة ١٤٩٢ والأخيرة طبعت سنة ١٦٦٩ .

القزوينى ــ القرن الثالث عشر الميلادى اشتهر بالفلك والجغرافية والطبيعيــات ترجــم سرى فصولا من كتابه « عجائب المخلوقات » فى الفلك والجغرافية الطبيعية الى الفرنسية وطبع بباريس ١٨٠٥ وترجم كتابه فى الفلك الى الالمانية .

رابعا : فى الطب

وصل الطب الاسلامى الى أوربا عن طريقين : أما الأولى فكانت الحروب الصليبية ، حيث شاهد الصليبيون مظاهر التقدم فى المستشفيات الاسلامية ، وخاصة فى الجراحة ، اذ الجراحة عادة ما تتقدم ابان الحروب ، أما الطريقة الثانية ، فكانت ترجمة مؤلفات المسلمين الطبية فى طليطلة وصقلية وغيرهما .

ولقد بلغ تقدم المستشفيات فى البلاد الاسلامية ابان العصور الوسطى درجة لم تبلغها أوربا نفسها فى القرن العشرين ! ويكفى أن تعلم ان مستشفى المنصور التى اسسها السلطان قلاوون (وكانت أضخم مستشفى فى عالم القرون الوسطى) كانت تضم أقساما منفصلة تختلف باختلاف الأمراض ، وأقساما للناقهين ومعامل للتحليل وصيدلية وعيادات خارجية ، ومطابخ لتقديم الغذاء على الطريقة العلمية ، وحمامات ، ومكتبة ، وجامع ، وقاعة محاضرات ، كما كانت به على الأخص أماكن مناسبة لمرضى العقل ، زودت بمناظر تسر العيون .

أما العلاج فكان بالمجان للرجال والنساء ، والاحرار والعبيد والأغنياء والفقراء على حد سواء ، وكان يعطى لكل ناقه عند خروجه مبلغ من المال حتى لا يضطر للعمل أثناء نقاهته . أما أولئك المصابون بالأرق ، فكان يرفه عنهم بالموسيقى الهادئة ، أو برواة القصص المحترفين أو يزودون بكتب التاريخ فى بعض الأحيان(١) .

وفى القرن العاشر (٩٣١ م) أخطأ طبيب فى علاج مريض فمات ، فاستدعى ذلك أن يعاد النظر فى أمر الأطباء وتقرر عقد امتحان لهم سوى من كانت شهرته فوق مستوى الشبهات (٢) وكان ممن يمتحن الأطباء ثابت بن قره فى بغداد ، ومهذب الدين الدخوار فى مصر .

وفعل مثل ذلك بالصيادلة . فعل ذلك الافشين فى بغداد ، وكلف زكريا بن الطيفورى بامتحانهم واجازة من يستحقون(٣) .

وكان المحتسب (ويقوم بوظيفة رجال الضبطية القضائية فى أيامنا) يقوم بمراقبة الأطباء والصيادلة والعشارين والعطارين والحجامين . وعرفت هذه الوظيفة فى اسبانيا أيضا حتى ان لفظ محتسب لا يزال يستعمل الى اليوم فى اللغة الأسبانية . وكان للاطباء نقيب فى بغداد والاندلس وسوريا ومصر (٤) .

على أن انتقال العلوم الطبية الى الغرب ، ان كان قد جاء عن طريق ترجمة كتب الأطباء المسلمين الأفذاذ ، فان الحروب الصليبية كان لها اثر كبير جدا فى تعرف الأوربيين على نظام المستشفيات فى الدول الاسلامية التى احتكوا بها ، فلم يلبثوا أن نقلوها الى بلادهم . ويذكر بعض كتاب الغرب أن تأسيس المستشفيات الحديثة فى أوربا ابان القرن الثالث عشر الميلادى كان الى حد ما أثرا من آثار الحروب الصليبية ، اذ كانت فى الظاهر تقليدا للمستشفيات الفخمة فى الشرق مثل المستشفى التى أقامها نور الدين بدمشق أو السلطان قلاوون بالقاهرة . فقد أعجب الرحالة الأوربيون بنظام هذا المستشفى الأخير ، وأسس أنوسنت الثالث فى روما فى أوائل القرن الثالث عشر مستشفى سان سبيريتو (الروح القدس) وأسس لويس التاسع مستشفى وملجأ باسم « لى كانزا فان » فى باريس على اثر عودته من حملته الصليبية (٥) .

---

(١) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٣٦١
(٢) طبقات الاطباء ج ١ ص ٢٢٢
(٣) أبو الفرج ص ٢٢٤
(٤) Leclerc : Histoire de la médecine arabe, V. 1, p. 576 - 578.
(٥) مايرهوف ص ٣٤٩ و ٣٥٠

فقد عرف البابا انو سنت الثالث حال التقدم الطبى فى الشرق من هؤلاء الصليبيين الذين كانوا يحاربون فى الشرق بأمره ، وعرف الملك القديس لويس التاسع مقدار تقدم الطب عند العرب عندما اسر هو وعشرة آلاف من جنوده فى المنصورة وعالجه من مرضه طبيب عربى (١) .

هذا عن اثر الحروب الصليبية ، اما عن اثر المؤلفات ، فانه لا يمكن تقديره الا اذا أحصينا جميع ما الف وجميع ما ترجم ، وهو أمر لا يخضع للعد والحصر ، وانما نستطيع أن نضرب له الامثال .

الف على بن عيسى البغدادى (ق ١٠) بحثا فى امراض العيون ترجم الى اللاتينية وفعل مثله عمار الموصلى وظل كتاباهما مرجعا فى طب العيون الى النصف الأول من القرن الثامن عشر (٢) ، والف على بن العباس كتاب « الملكى » ترجمه اتيان الانطاكى الى اللاتينية سنة ١١٢٧ ونشره فى ليون ميشيل كابلا سنة ١٥٢٣(٣) .

والف ابن الجزائر (ق ١١) زاد المسافر ، ويحتوى شروحا فى الطب الباطنى ، ولكن مترجمه واسمه قسطنطين نسبه الى نفسه(٤) .

وظهر فى القرن الحادى عشر الميلادى قسطنطين الأفريقى فأدخل طب العرب الى ايطالية ، واليه يعود الفضل فى شهرة مدرسة ساليرم والف عدة كتب نذكر منها DE morborum cognitione ونذكر منها De Remediorum الذى طبع غير مرة ، وكانت طبعته الأولى ببال سنة ١٥٣٦(٥) .

وكتب يوحنا بن ماسويه (القرن التاسع) وله رسالة فى الجزام وكتب فى الأدوية الطبية طبعت مرارا ، ونشرت أهم كتبه Conones Uneversales وذلك سنة ١٤٧١ بالبندقية .

وكتب ابو بكر الرازى أشهر رسالة فى الطب ، وهى رسالة فى الجدرى والحصبة . وترجمت له عدة كتب فى الطب هى أشهر ما عرف فى العصور الوسطى وظل الرازى الى القرن السابع عشر حجة فى الطب بلا مدافع . وكتابه الجارى اكبر موسوعة فى اللغة العربية ، ويقال انه انقطع خمس عشرة سنة لكتابته ، والظاهر انهمات قبل أن يتمه . وقد جمع الرازى فى هذا الكتاب مقتطفات أخذها عن الاغريق والعرب وختمه بنتائج محصلة من تجاربه . وما زالت بين ايدينا مذكراته العلاجية التى يصف فيها بغاية العناية سير مرض اولئك الذين طببهم (٦) .

وترجمت اكثر كتب الرازى الى اللغة اللاتينية وطبعت عدة مرات ، ولا سيما فى البندقية سنة ١٥٠٩م ، وفى باريس سنة ١٥٢٨ م وسنة ١٧٤٨م ، وأعيد طبع ترجمة كتابه فى الجدرى والحصبة سنة ١٧٤٥م(٧) ، وظلت جامعات الطب فى أوربة تعتمد على كتبه زمنا طويلا ، وكانت كتبه مع كتب ابن سينا أساسا للتدريس فى جامعة لوقان فى القرن السابع عشر من الميلاد ، كما ثبت ذلك من برنامج وضع سنة ١٦١٧م ، وقد ظهر من هذا البرنامج أن مؤلفات علماء اليونان الطبية لم تنل من الحظوة الا قليلا ، وأنها اقتصرت على بعض جوامع الكلم لبقراط وبعض الخلاصات لجالينوس .

ويقول عنه خودابخش(٨) .

كان أبو بكر الرازى طبيب الخليفة المقتدر وكان معروفا فى أوروبا الى القرن السادس عشر ، ونشرت أبحاثه عن الجدرى والحصبة سنة ١٩٤٨ وقام بترجمتها والتعليق عليها الدكتور جرينهل (...... Greenhill)

---

(١) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٤ ص ٥٨ .
(٢) سير مايرهوف ص ٢٣٢
(٣) سيديو ج ٢ ص ٧٧ ، وهذا الكتاب مؤلف من خمسين جزءا وسبق أن طبعت نسخته المترجمة الى اللاتينية فى البندقية سنة ١٤٩٢ (لوبون) .
(٤) سير مايرهوف ٣٢٦
(٥) سير مايرهوف ص ٣٢٦
(٦) S. Pines, P. Graus.
(٧) غوستاف لوبون ص ٤٨٩ ، ويحدد فى موضع آخر أنكتاب الحاوى طبع سنة ١٤٨٦ لاول مرة ورسالة الجدرى فى دائرة المعارف الاسلامية .
طبعت ايضا ١٧٦٦ .
(٨) الحضارة الاسلامية ص ١٦٨

والف ابن سينا كتاب « القانون فى الطب » وكان دستور الطب الغربى الى القرن السابع عشر(١) ، وظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب فى البندقية سنة ١٤٨٤ ، ولم ينقطع العلماء عن شرح مؤلفاته حتى القرن الأخير (الثامن عشر) .

اما منهجه فى الطب فكان يقوم على التجربة ، ثم هو بعد ذلك يحاول درس الحالات المختلفة التى يجد فيها أثرا للعلاج الناجع .

وفى لائحة جامعة لوفان الصادرة فى سنة ١٦١٧ ما يقنعنا بأن هذه الجامعة قد اتخذت من كتب الرازى وابن سينا أساسا للدراسات الطبية .

اما اليونان فلم يذكر عنهم فى هذه اللائحة الا حكم ابقراط المأثورة واولياء الطب لجالينوس(٢) .

وانك لتجد فى كلية الطب بجامعة باريس صورة الرازى الطبيب الى جانب صورة ابن سينا الطبيب . أما ابن رشد ، فكان له أثر فى الطب الأوربى كأثره فى الفلسفة الاسكولاسيته الأوروبية ، ومن كتبه فى الطب : كتاب السموم الذى ترجم الى اللاتينية وطبع فى لوغدونى سنة ١٥١٧ ، وكتاب الكليات فى الطب الذى ترجم الى اللاتينية وطبع فى البندقية سنة ١٥٥٢ وكتاب الترياق الذى ترجم الى اللاتينية وطبع فى البندقية سنة ١٥٥٢ أيضا .

واستفاد الافرنج أيضا من كتاب التيسير فى المداواة والتدبير لعبد الملك بن زهر ، ألفه لابن رشد الفيلسوف فى أواسط القرن السادس للهجرة (٣) وكان ابن زهر مجربا مصلحا موطئا لعلم المداواة . قال ان فى البدن قوة كامنة ناطحة للأعضاء كافية وحدها لشفاء من الأمراض على العموم وجمع بن زهر دراسة الجراحة والطب والصيدلة معا . وتشتمل مباحثه فى الجراحة على بيان صحيح فى الكسر والانخلاع (٤) وتظهر براعته فى وصف الامراض ، ويعرف بتحليلاته فى الورم المحزمى والالتهاب النامورى والشلل المعوى والشس البلعومى (٥) وقام الدكتور بارا فاكى Paravaci بمساعدة طبيب يهودى يدعى يعقوب بترجمة الكتاب الى اللاتينيه سنة ١٢٨١م عن ترجمه عبرية ليستفيد منه جون دندولو Dandolo دوق البندقية وطبع سنة ١٤٩٠ ثم أعيد طبعه مرات .

ومن الكتب الطبية الاسلامية التى استفاد منها الأفرنج فى نهضتهم الأخيره كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » لأبى القاسم الزهراوى ويمتاز عن سواه بالقسم الجراحى الذى ترجم الى اللاتينية سنة ١٤٥٣ كما ترجم اليها مرات غيرها ، وطبعت ترجمته الأولى فى سنة ١٤٩٧م ، واحسن ترجمة له طبعت فى بال سنة ١٥٤١ .

وقد نشر القسم الجراحى من كتاب الزهراوى Chamming فى اكسفورد فى القرن الثامن عشر ونشرت صور الآلات الجراحية كما رسمها الزهراوى(٦) واحدث طبعة للكتاب كانت سنة ١٨٦١(٧) .

وأبو القاسم القرطبى هذا المتوفى سنة ١١٠٧م هو اشهر جراحى العرب ، وتخيل ابو القاسم كثيرا من آلات الجراحة ورسمها فى كتبه ووصف ابو القاسم عملية سحق الحصاة فى المثانة على الخصوص فعدت من اختراعات العصر الحاضر على غير حق .

ولم يعرف أبو القاسم فى أوربة الا فى القرن الخامس عشر ، وذاع صيته فيها ، قال العالم الفز يولوجى الكبير هالر : « كانت كتب أبى القاسم المصدر العام الذى استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر » .

وقد الحق الجراح الفرنسى جى دى شولياك

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية العربية .
(٢) لوبون ص ٥٢٧
(٣) لوبون ص ٤٩٢
(٤) دورانت فى قصة الحضارة ص ٣٣٠
(٥) خودا بخش ص ١٨٢ .
(٦) تاريخ التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢٠٢ و ٢٠٣
(٧) لوبون ص ٤٩٠ ، ٤٩٢

(١٣٠٠ — ١٣٦٨ م) النسخة اللاتينية بأحد مؤلفاته(١) واكتشف ابن النفيس الذى عاش فى دمشق فى منتصف القرن الثامن الهجرى الدورة الدموية وان كان بعض الغربيين (٢) ينسبها الى وليم هارفى(٢) وقد اثبت العلماء الغربيون أنفسهم ان اطباء الاسلام هم أول من استعمل الكاويات فى الجراحة وأول من وجه النظر الى شكل الأظافر فى المصدورين وكشفوا علاج اليرقان والهواء الأصفر ، وعالجوا الجنون بمقادير كبيرة من الافيون . وقطعوا النزيف بصب الماء البارد .

واعادوا الكتف المخلوع بالطريقة المعروفة فى الجراحة الآن برد المقاومة المفاجىء ، ووصفوا أبرة الماء الأزرق وهو قدح العين(٤) وأشاروا الى عملية تفتيت الحصاة (٥) .

وأطباء الاسلام هم أول من استعمل المرقد (البنج) فى الطب(٦) يقال أنهم استخدموا له الزوان او الشيلم ، وأول من استخدموا الخلال المعروف عند الأطباء .

وتنطوى وصايا مدرسة سالبرم على نصائح غالية فى علم الصحة ، ولا أحد يجهل أن هذه المدرسة التى عدت أول مدرسة فى أوربا زمنا طويلا ، مدينة للعرب بشهرتها ، وذلك أن النورمان لما استولوا على صقلية وعلى جزء من ايطاليا فى أواسط القرن الحادى عشر من الميلاد، أحاطوا مدرسة الطب التى أنشأها العرب بما احاطو به المعاهد الاسلامية من الاعتناء الكبير وان قسطنطين الافريقى ، الذى كان من عرب قرطاجة ، عين رئيسا لها ، وأنه ترجم اهم كتب العرب الطبية الى اللغة اللاتينية فاقتطفت من هذه الكتب وصايا مدرسة سالبرم الى ظلتسبب شهرتها الفائقة زمنا غير قصير .

---

(١) Meyerhof The Legacy of Islam p. 331.

(٢) لمحة عن تاريخ الطب لبلاكسلاند ستبز ص ٣٨ و ٣٩ترجمة الدكتور أحمد زكى الحكيم ضمن مجموعة الالف كتاب .

(٣) عملية استخراج الكراكت من العين بالابرة وقد برع فيها أبو القاسم الزهراوى .

(٤) Wucstonfeld Coachichte der Aralruchok Oerzte und natur Nat Parschvr Getlingen 1840 ;
Lucien Leclerc Histoire de la Médecine arabe.

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٣١٢

(٦) لويون ص ٤٩٣

خامسا : الكيمياء والصيدلة والنبات

جابر بن حيان الكوفى :

ويلقب فى العالم اللاتينى فى العصور الوسطى بجابر ملك العرب geber rex arabum وهـو اقدم علماء العرب فى الكيمياء واكثرهم شهرة هو جابر الذى عاش فى أواخر القرن الثامن من الميلاد والذى الف كتبا كثيرة فيها ، ولكنه نشأ عن كثرة من تسموا باسمه من معاصريه صعوبة تميز ما يجب نسبته اليه منها ، وقد نقل عدد غير قليل من كتبه الى اللغة اللاتينية ، وقد نقل كتابه « الاستتمام » الذى هو من أهم كتبه ، الى اللغة الفرنسية فى سنة ١٦٧٢ م ، فدل هذا على دوام نفوذه العلمى فى أوربة مدة طويلة .

ويتألف من كتب جابر موسوعة علمية حاوية خلاصة ما وصل اليه علم كيمياء العرب فى عصره وتشتمل هذه الكتب على وصف كثير من المركبات الكيماوية التى لم تذكر قبله ، كماء الفضة (الحامض النترى) وماء الذهب المهمين اللذين لا نتصور علم الكيمياء بغيرهما .

ويقول أيضا :

واشتملت كتب جابر على بيان كثير من المركبات الكيماوية التى كانت مجهولة قبله ، كماء الفضة (الحامض النترى) وماء الذهب والبوتاس وملح النوشادر وحجر جهنم (نترات الفضة) والسليمانى والراسب الاحمر ، وكان جابر أول من وصف فى كتبه اعمالا أساسية كالتقطير والتصعيد والتبلور والتذويب والتحويل(١) وتحتوى المكتبة الوطنية بباريس على ستة مخطوطات لاتينية من كتبه طبعت جميعها خلا جزءا منها خاص بالمثلثات الكرية . واشهر مؤلفاته كتاب الاستتمام الذى طبع سنة ١٤٠٩ وترجم الى الفرنسية سنة ١٦٧٢ وتوجد ترجمة انجليزية لكتبه مؤرخة سنة ١٦٦٨ .

ومن الكيميائيين ابو بكر الرازى الطبيب (القرن العاشر) ، توصل الى استخراج حامض الكبريتيك (زيت الزاج) والكحول من المواد العضوية . قال « ان زيت الزاج يستخرج بتقطير كبريت الحديد ، وان الكحول يستخرج بتقطير المواد اللبية أو السكرية المتخمرة » .

ومن الصيادلة المسلمين الكندى وقد عاش فى القرن التاسع الميلادى ، وزادت مؤلفاته على مائتين ومنها رسالة فى معرفة قوى الأدوية المركبة ترجمت الى اللاتينية وطبعت مرارا بين سنة ١٥٣١ — ١٦٠٣ .

ويوحنا بن ماسويه ، وقد ظهر فى القرن التاسع من الميلاد ، وله عدة كتب فى الأدوية طبعت مرارا ونشرت كتبه المهمة باسم Canconez Universales فى البندقية سنة ١٤٧١ .

ويبدو لنا مقدار معارف العرب فى الكيمياء الصناعية من حذقهم لفن الصباغة واستخراج المعادن وصنع الفولاذ ودباغة الجلود (٢) .

ومما يدل على رسوخ علم الكيمياء الاسلامى فى التاريخ الأوربى دخول المصطلحات الكيميائية العربية فى المعاجم الغربية واليك بعضها :

الكيمياء	Alchemy 1362
القطران	Alchitram, alhitran 1325
الكحل	Alcohol
الانبيق	Alhali
القلى ، القلوى	Alkali

(١) لوبون ص ٤٧٥ و ٤٧٦ .

(٢) لوبون ص ٤٧٧ .

Altincar	التنــكار
Anatron (natron) 1706	النطرون
Anil 1587	النيــل
Antimony 1477	اثمــد
Arsenic 1386	زرنيخ
Athanor (acanor) 1471	التنــور
Attar 1768	عطــر
Borax 1386	بــورق
Carboy (karboy) 1754	قــرابة
Chlcothar 1605	كيميــاء
Colcthar 1605	قلقطــار
Elixir 1386	الاكســير
Jargon 1769	جارجون
Kermes (Qwrmiry)* 1753	قــرمز
Naphtha, 1382	نفط
Natron 1684	نطــرون
Otto Attar 1639	عطــر
Realgar 1400	رهج الفــار
Saffron 1681	زعفــران
Tabasheer 1558	تباشــير
Talc 1601	طــلق
Tartar 1386	طرطــير
Twrpethd — Turbith 1400	تربد
Tutty 1400	توتيــان
Zircon 1794	ذرقون (١)

ومن علماء النبات ابن جلجل ، وقد ظهر فى أواخر القرن الرابع الهجرى وله كتاب فينــافات وديسقوريدس ذكره من أسماء العقاقير والادوية وجعله ذيــلا على كاب « ديســتوريدس » فى النبــات .

وعلى كتاب ابن جلجل اعتمد ابن البيطــار (أواسط القرن السابع الهجرى) وتقدم بما فيه من معلومات عن طريق الرحلات لدراسة النبات والحشائش فى الشــام ومصر(٢) وترجم لوكير كتابه « جامع مفــردات الأدوية » والأغــذية الى الفرنســية وطبــع فى مجلــدين بين سنة ١٨٧٧ و ١٨٨١ وكان عليه معول أهل أوربا فى نهضتهم الأخيرة ومن الذين اعتمد عليهم فى عام النبات رشيد الدين بن الصورى (القــرن السابع الهجرى) وكان يصــور الحشائش فى سوريا ولبنان ، ويسجل لونها ومقدار ورقهــا واعضائها واصولها وله كتاب « الأدوية المضادة »

وابن العوام الأندلسى (القــرن الســادس الهجرى) وقد ترجم كلمان مولر كتابه فى الفلاحة الى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٦٦ .

هذا عن الكتب أما عن الرسائل العلمية فقد نقلت بلاد الأندلس الاسلامية من آسيا زراعة الأرز والحنطة السوداء وقصب السكر والرمان والقطن والسبانخ والأسفرج والموز والــكراز والبرتقال والليمون والسفرجل والليمون الهنــدى والخوخ ونخيل البلح والتين والشليك والزنجبيل والمر والزيتون واستحالت جــزيرة كيروته التى فتحها العرب فى القرن الثامن الميلادى بفضــل علمهم بالزراعة فردوسا مليئا بالفاكهة والأزهار، تشرف عليها أشجار النخيل التى سميت الجزيرة باسمها فيما بعــد(٣) ثم انتقــل كثير من هــذه الزراعات الى بقية أوربا عن طريق الأندلس .

يدلك على ذلك المصطلحات العربية فى النبات التى دخلت المعاجم الأوربية ، ونذكر منها :

Alfalfa 1845	الفضــة
Algarrola 1845	الخــروبة
Alhagi 1769	الحــاج
Alhandal 1683	الحنظــل
Alhenna (alcanna), henna	الحنــا
Alhanet 1326	الحنــا
Alhehengi 1440	الــكاكنج

(١) جميعها من قاموس اكسفورد لتاريخ المصطلحات جلال مظهر فى كتابه السابق الاشارة اليه ص ١١٧ ــ ١١٩ .
(٢) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٢٣ .
(٣) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٢١١ .
(٤) ول ديوررانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٩٤ .

Apricot 1551	البرقـــوق
Argan 1809	أرجـــان
Artichohe 1531	الخرشـــوف
Aubergine, also Prinyal 1794	البـــاذنجان
Ben 1559	يـــان
Bonduc 1696	بنـــدق
Calabash 1596	حـــربر
Caraway 1440	الـــكرويا
Carob 1548	الخـــروب
Carthamus 1548	قـــرطم
Chebulic	الـــكابولى
Coffee 1598	قهـــوة
Cost 1000	قســـط
Cotton 1400	قطـــن
Crocus 1000	كـــركم
Cubeb	كبـــابه
Cumin, Cummin 897	كمـــون
Diss 1855	ديس
Doum, Doom 1801	دوم
Durra 1798	ذرة
Fistic 1548 Later pistachio	فســـتق
Calaugal, Galingal	جلنجان أو خولنجان (١)
Gingili 1704	جلجـــلان

(١) جلال مظهر ص ١٢٥ — ١٢٨ نقلا عن معجم اكسفورد.

سادسا : فى الجغرافيا

اهتم العرب بعلم الجغرافية فكتب ابن خرداذبة (ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله المتوفى ٢٧٢ هـ — ٨٩٥ م) أول كتاب فى الجغرافية (المسالك والممالك وتبعه قدامه ابو الفرج ابن جعفر فدرس الجغرافية دراسة عملية ، وأودعها فصولا فى كتاب (الخراج وصنعة الكتابة) وقد اهتم بالتوقيت فى ولايات الدولة مما أدى الى تنظيم خدمات البريد بين الولايات . وذكر فون كريمر (١) ان معلومات قدامة الجغرافية كانت صحيحة ، وقد فطن الى كروية الأرض وقصر النهار فى القطبين ثم جاء شمس الدين المقدسى المتوفى ٣٨٧ هـ — ٩٩٧ م فألف (أحسن التقاسيم فى معرفة أحوال الاقاليم . فكان احسن مرجع جغرافى . وكتب فيها البيرونى والادريسى (٢) .

وقد أتيح لعلماء الجغرافيا المسلمين ما لم يتح لمن قبلهم ، ذلك بأن الواحد منهم كان يعرف قسطا وافرا من الرياضة والفلك وعلم النبات وطبائع الشعوب فى وقت واحد ، والجغرافية فى حد ذاتها تحتاج ممن يتعرض لها طائفة من العلوم تتكافل فى سبيل النهوض بها ، وذلك ما تحقق لعلماء المسلمين فى العصور الوسطى .

ثم ان وسائل الرحلة . والتجول فى بقاع الأرض كانت ميسرة لهؤلاء العلماء ، فالدولة كانت تقوم برعاية وسائل النقل البرى والبحرى وتؤمن المواصلات . قال الأستاذ احمد أمين (٣) .

« فى هذا العصر حبب الى الناس الهجرة من بلادهم ، شأن الأمم القوية فى أيام عزها ، أما الأمم الضعيفة فتحب مكانها وتلتصق بأرضها ، ولا تهتم بحياة غير حياتها .. وقام علماء الرحلات يضعون كتب الدليل لهذه الرحلات . وقامت الحكومات بناء رباطات ينزل فيها المسافرون ويتزودون منها ، وكانت فى أصل وضعها نقطا عسكرية لحفظ الحدود ، من أن يتسرب اليها الأعداء ، أو نقطا بريدية ، ثم اضافوا اليها غرضا آخر وهو معرفة التجار . وكتب الدليل هذه ككتب الدليل اليوم ، نبين المسافات بين البلاد ، واخلاق الأمم وعاداتهم واعتقاداتهم ، وما عندهم من انواع السلع والمصنوعات والحاصلات الزراعية وما اعتادوه من مكاييل ومقاييس واوزان ، واسماء المشهورين فى كل قطر واسس المسلمون فى أيام عزهم مراكز تجارية يحضر اليها التجار بسلعهم وأموالهم من مختلف الأقطار ، وبها السماسرة ، يبيعون ويشترون فى مختلف الأقطار . وكان هناك صيارفة المال ولهم وكلاء ، يصرفون الصكوك ويحررون الحوالات لوكلائهم فى الأقطار الأخرى . وكان من اهم تلك المراكز جاوة ، وكانت مركزاً للبضائع الصينية ، وعدن وكازرون والعريش .

ذهبوا الى بلاد روسيا وبلغوا كوتاهية ، وذهبوا الى اقصى السودان وذهبوا الى التتر لجلب جلود السنور ووصلوا الى كانتون ، وحيثما وصلوا الى بلد تعلموا لغتهم وعاداتها ، ونشروا لغتهم ودينهم واختلطوا مع أهلها بالزواج . وحكى لنا المسعودى فى تاريخه قصصا كثيرة عن حال هؤلاء الرحالة ، كابن وهبان الذى كان غنيا كبيرا وتاجرا عظيما ، وكان من أهل البصرة ، فرحل الى سيراف ، ورحل منها الى الهند ، ومنها الى بلاد الصين ، واعمل الحيلة حتى قابل ملكها ، وقد عاد فحدث اهلها بما رأى وحث أهله على الرحلات وتنظيم التجارات .

وقد كانت لهم رحلات بحرية كالرحلات البرية ، فانشأوا المراكب الكبيرة للملاحة فى البحر الأبيض، وكانت مراكبهم شراعية . ويحدثوننا أن المركب كانت تحمل أربعة آلاف راكب ، وفيها حوانيت

---

(١) خودا بخش ص ١٨٠ .

(٢) انظر تراجم هؤلاء من هذا الكتاب .

(٣) ظهر الاسلام ج ٢ ص ٢١٠ .

لبيع الخمر والطعام ، ومغـــازل (١) . وفيهـــا غواصون لسد النقوب ، حيث يطلون أجسامهم بالزيت ويسدون انوفهم بالشمع ، وفيها حمـــام الراجل الزاجل الأخبار(٢) .

وكانت مراكب المسلمين لا تسير الا وعليهـــا المقاتلة والنفاطون لحراستها ضـــد القرصـــان « متلصصة البحر » (٣) .

وبلغ من حب البعض للبحر ان رجلا لم يفارق السفينة أربعين عاما وكان اذا قارب البر أخرج صاحبه لقضاء حوائجه فى كل مدينة . وكان اذا انكسرت السفينة وتشعثت ، تحول منهـــا الى أخـــرى (٤) .

ويظهر أن مسلمى الأندلس قد وصـــلوا الى شواطىء أمريكا اذ يقص علينـــا الادريسى خبر جماعة يسميهم المغربين — أو المغررين فى رواية. ركبوا بحـــر الظلمـــات (المحيط الأطلنطى) من لشبونة ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه وكأنوا ثمانية ، أخذوا مركبا زودوه بمئونة تكفيهم لأشهر وجروا فى البحر أحد عشر يوما حيث وصلوا الى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير القروش قليل الضوء فايقنوا بالتلف فردوا قلوعهم الى ناحيـــة الجنوب اثنى عشر يوما حتى وصلوا الى جزيرة فيها من الغنم مالا يأخـــذه عد وهى ســـارحة لا راعى لها ولا ناظر ثم ساروا مع الجنوب اثنى عشر يوما حتى وصلوا الى جزيرة فيها عمـــارة وحرث فاعتقلوا ثلاثة أيام ، ثم جاءهم فى اليـــوم الرابع ترجمان للملك يتكلم اللسان العربى فسألهم عن حالهم فأخبروه بخبرهم فردوا الى حبســـهم الى أن بدأ جرى الرياح الغربية فوضـــعوا فى قارب وعصبت أعينهم وجرى بهم فى البحـــر برهة قدروها بثلاثة أيام حتى انتهـــوا الى بر فأخرجوا وكتفوا الى خلف وتركوا بالساحل حتى طلع النهار وجاء قوم بربر فحلوا وثاقهم وأخبروهم أن بينهم وبين بلدهم مسيرة شهرين(٥) .

هذه الوسائل ، بالاضافة الى حب المغامرة ، هيأت لعلماء المسلمين جوا مناسبا للكشف وعمل الاختبارات والتنقل لزيارة بقاع الأرض ، فالرحلات التجارية ووسائلها يسرت السبل للرحلات العلمية التى انتهت الى نتائج طيبة فى علم الجغرافيا .

ولقد أفاد الغرب من أحوال المسلمين الملائمة أمرين . أما أولهما فهو الافادة من دراســـات المسلمين العلمية وما وصلوا اليه من نتـــائج رائعة فى هذا الباب .

لقد وصلت نتائج الجغرافيين المسلمين الى الغرب عن طريق الترجمـــة أو الاطـــلاع على تصميماتهم الفنيـــة فى الجغرافيـــا ، فالشريف الادريسى كما علمت ، صنع كرة جغرافية لروجرو الثانى ملك صقلية كانت موضع العجب ، وقاس له طائفة من المناطق بمعـــاونة جمـــاعة من المهنـــدسين الجغـــرافيين كانت نتائجها غاية فى الدقة . ولمـــا أحضر جربير « البـــابا سلفستر الثانى » فى مدرسته التى أنشأها فى ريمنر كرة جغرافية معه من قرطبة أحدثت هـــذه الـــكرة انقساما دام عدة قرون واستشهد فيه اكثر من واحـــد (٦) .

لقد كان للمسلمين بحوث جغرافية أفاد منهـــا الغرب ، فصحح المسلمون جـــداول بطليموس الجغرافية التى ادعى ديليزل سنة ١٧٠٥ انهـــا من صنعه ، وفطنوا الى كروية الأرض ودورانها حول نفسـها مرة فى اليوم ، وحول الشـــمس مرة فى كل عام . وعللوا قصر النهار وطـــوله ومغيب الشمس عدة أشهر فى بعض المناطق ، وقاسوا محيط الأرض ، وجاذبية الأرض .

كل ذلك أفاد منه الغرب بالاطلاع عليه فى كتب المسلمين المترجمة الى لغات الغـــرب ، أو فى لغتهم العربيـــة ، حيث ولع بعض المستشرقين بدراستها أو بالمشاهدة فيما يكون الطـــريق الى العلم به المشاهدة والنظر .

واما الأمر الآخر الذى أفاده الغربيـــون من أحوال المسلمين من الناحية الجغرافيـــة فهـــو تقليدهم للمسلمين فى رحلاتهم الطويلة الجريئة ، وربما شجعهم على التقليد استعمال البحـــارة المسلمين للبوصلة البحرية فى الملاحة .

---

(١) ميتز ج ٢ ص ٤٢٢ نقلا عن مصادر أجنبية .
(٢) ميتز ج ٢ ص ٤٢٥ نقلا عن مصادر أجنبية .
(٣) ميتز ج ٢ ص ٤٣٠ نقلا عن مصادر أجنبية . ومعنى النفاطين : الجماعة الذين يقذفون بكرات من لهب ملثت بالنفط .
(٤) الاصطخرى ص ١٣٨ — ١٣٩ .
(٥) جغرافية الادريسى طبعة دوزى ص ١٨٤ .
(٦) دريبر : تطور أوروبا الفكرى ج ٢ ص ٤٠ .

لقد قلد المسلمون جماعة من الغربيين من أمثال مركو بولو ١٢٥٤ – ١٣٢٣ وهو رحالة ايطالى ولد فى فينس وسافر بطريق منغوليا وجاب آسيا ورجع بطريق سومطرة .

وماجلان (١٤٧٠ – ١٥٢١) وهو برتغالى قام برحلة حول العالم واكتشف مضيق ماجلان (جنوب أمريكا الجنوبية) ، واستأنف طريقه حتى وصل الى الفلبين وقتل فيها . وخريستوف كولمبس الذى ولد فى جنيز والتحق بخدمة الحكومة الاسبانية سنة ١٤٨٢ واكتشف أمريكا .

وامريكو فسبوتشى الذى ولد فى فلورنسه وسافر الى الأرض الجديدة بعد أن اكتشفها كولمبس أربع مرات ، وسميت باسمه « ظلما » .

لقد ساعد المسلمون فى هذه الاكتشافات بتأكيدهم لكروية الأرض ، وباستعمالهم للبوصلة البحرية ، وبأخبار رحلاتهم واقتحامهم البحار كما فعل المغرورون .

ومع الأسف فان هذه الرحلات التى انتهت بالكشوف الجغرافية كانت بالنسبة للغربيين بداية للاستعمار البغيض الذى سلطوه على امريكا وأفريقيا وآسيا فأخروا تقدم البشرية فى هذه البقاع قرونا عديدة وبعد أن كانت رحلات المسلمين وكشوفاتهم لم يقصد بها سوى خير البشرية أناخ الاستعمار الغربى بكلكله الى عهد مريب على جميع بلاد الشرق وخاصة بلاد المسلمين الذين كانوا أساتذة هؤلاء الغربيين فترة طويلة من الزمن .

بعض الكتب المترجمة (١)
فى الجغرافيا

ابن حوقل : احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ترجم أوزيلى ما هو خاص منه بجغرافية المشرق الى الانجليزية وطبع بلندن سنة ١٨٠٠ . وترجم دوسلان ما هو خاص منه بافريقية الى الفرنسية وطبع بباريس ١٨٤٢ . وترجم أمارى الجزء الخاص منه يوصف بلرم فى القرن العاشر . وطبع بباريس ١٨٤٥ .

ابن بطوطة :تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار وتعرف برحلة ابن بطوطة . ترجمها ديفريميرى وسنكونيتى الى الفرنسية وطبعت بباريس بين سنة ١٨٧٣ و ١٨٧٩ فى اربعة مجلدات .

ابن خرداذبة : المسالك والممالك . ترجمة مينار الى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٦٥ .

ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب فى الجغرافية . ترجمة هيلاند وطبع بلندن سنة ١٨٢٣ .

أبو الفدا : ترجمة رينو وجوبار الى الفرنسية وطبع بباريس بين سنتى ١٨٤٨ و ١٨٨٣ فى ثلاثة مجلدات . وترجم غانيه الجزء الخاص منه بجزيرة العرب سنة ١٧٤٠ وطبع باكسفورد . وترجم سولفا الجزء الخاص منه بالمغرب وطبع بالجزائر سنة ١٨٣٩ .

الادريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الافاق . ترجمة جوبر الى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٤٠ فى مجلدين .

البكرى : المسالك والممالك ، ترجم دوسلان ما هو خاص منه بافريقيا الشمالية طبع فى باريس سنة ١٨٥٩ .

التيجانى : رحلة التيجانى ترجمها الىالفرنسية الفونس روسو وطبعت سنة ١٨٥٢ .

القزوينى : عجائب المخلوقات (فى الجغرافيا والطبيعة والفلك) ترجم الى الألمانية وطبع فى ليبسك سنة ١٨٦٨ .

المسعودى : مروج الذهب . ترجمة باربيه دومينار سنة ١٨٦١ – ١٨٧٨ وطبع فى باريس فى تسع مجلدات وهو كتاب تاريخى جغراقى .

نصر الدين الطوسى : وله تاليف ترجم بعضها الى اللاتينية باسم التقويم الجغرافى وطبع فى لندن سنة ١٦٤٨ وفى لندن ١٦٥٢ .

ياقوت : ترجم منه باربيه دومينار الجزء الخاص ببلاد فارس الى الفرنسية وطبع فى باريس سنة ١٨٦١ .

---

(١) يلاحظ ان المستشرقين لم تقف جهودهم على الترجمة ،بل انهم قاموا بطبع كثير من كتب الجغرافية بلغتها العربية فى مطابع الغرب .

سابعا : فى التاريخ

نشطت حركة الترجمة للتاريخ الذى سجله المسلمون فى العصور الوسطى حوالى منتصف القرن التاسع عشر . وسبب ذلك ان علم التاريخ علم من العلوم الاجتماعية التى تكمل علم الجغرافية ، تلك التى اهتم بها الغربيون فى عهد متقدم على دراستهم لتاريخ الشعوب ، وتفصيل ذلك أن الأوربيين بداوا اكتشافاتهم الجغرافية فى نهاية القرن الخامس عشر وانتهوا الى استعباد كثير من شعوب الأرض ، فلما استقر بهم الحال بين هذه الشعوب أصبح لزاما عليهم ان يحتفظوا بمكاسبهم ، ولابد أن يعاملوا هذه الشعوب معاملة ترضى عنها ولو فى الظاهر ، وهذه الغاية تحتاج الى كثير من السياسة وعلم النفس والاحاطة بتاريخ هذه الشعوب واصل نشاتها حتى يمكن أن يتعرف على نفسية هذه الشعوب من خلال ماضيها وما كادت عليه من ثقافة . وهذه أمور تعرض لها المسلمون فى العصور الوسطى . والمسلمون أقدر من غيرهم على تفهم أحوال الشعوب ، ذلك بأنهم بحسب ماضيهم ، وخاصة العرب منهم ، كانوا مغرمين بتقصى الأنساب وأحوال القبائل ، الأمر الذى اكسبهم خبرة فى تدوين تاريخ الشعوب . فلما جاء الغربيون على أثرهم افادهم التراث الاسلامى فى تاريخ الشعوب فائدتين : الأولى انه كان خادما للاستعمار الذى سخر لرفاهية الشعوب الأوروبية ، فعاملوا الشعوب المستعمرة بحسب عقليتها واستنزفوا أموالها وجعلوها سوقا للمواد الأولية تخدم صناعتهم وحاجياتهم الاستهلاكية .

وأما الفائدة الأخرى فهى فائدة علمية بحتة ، ذلك بان الغربيين لم يكن لهم تاريخ مدون ، وكيف يكون لهم هذا التاريخ وقد كانوا يعيشون فى همجية مطلقة ولا يعرفون فائدة لتدوين التاريخ . ومن هذا العلم نشأ علم آخر هو علم الأجناس وهو يبحث فى تاريخ الجنس ويقسم العالم أجناسا كالجنس السامى والجنس الآرى ويبين خصائص كل هذه الأجناس من ناحية التكوين الخلقى والخلقى .

ولقد ساعد على التمكين لعلم التاريخ وتحريره من الخرافات ووضعه على قواعد سليمة ومقاييس دقيقة تلك المقدمة الفذة التى كتبها عبد الرحمن بن خلدون فى نهاية القرن الثامن الهجرى فجعل التاريخ علما وفلسفة بعد أن كان خرافة ، واصبحت له قواعد بعد أن كان مرسلا فى قصص أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة الأمر الذى كان يختلط فيه الحق بالباطل ولا يعرف الناقد كيف يميز بينهما . ثم لم يلبث كتاب الغرب ان جعلوا من مقدمة ابن خلدون للتاريخ انموذجا يحتذى فى كتاباتهم فى فلسفة التاريخ وفى الاجتماع وفى الاقتصاد ، ونقلوا معظم أفكار ابن خلدون الى مؤلفاتهم .

مقدمة ابن خلدون فى العالم الغربى :

بدأت عناية الغرب بآراء ابن خلدون والاهتمام بها فى أوائل القرن التاسع عشر ، فقد نشر المستشرق الفرنسى سلفستر دى ساس Isaac Sylvestre de Sacy سنة ١٨٠٦ ترجمة لبعض ما كتبه ابن خلدون فى مقدمته ، وتلاه المستشرق النمساوى فون هامر Von Hammer-Purgstail فنشر سنة ١٨١٢ رسالة بالألمانية عن اضمحلال الاسلام بعد القرون الثلاثة الأولى أشاد فيها بابن خلدون وبحوثه التى جاءت فى مقدمته ، ثم نشر بالفرنسية فى المجلة الأسيوية سنة ١٨٢٢ بحثا كشف فيه عن عظمة ابن خلدون ، وبين مقامه من علماء الاجتماع ومكان مقدمته .

وفى سنة ١٨٢٥ كتب شولتز Schulz فى المجلة الاسيوية ايضا بحثا كالسابق دعا فيه الى طبع المقدمة وترجمتها ترجمة كاملة .

وفى سنة ١٨٥٨ طبع المستشرق الفرنسي كاترمير Quatremère المقدمة باللغة العربية وفصولا منها باللغة الفرنسية .

واخيرا قدم المستشرق الفرنسي دوسلان de Slane ترجمة كاملة للمقدمة بالفرنسية بعنوان Les prolégomènes d'Ibn Khal. طبعت فى ثلاث مجلدات بين سنتى ١٨٦٢ و ١٨٦٨ .

وقد وضعت هذه الترجمة مقدمة ابن خلدون فى متناول جميع العلماء والمفكرين فى الغرب بعد أن كان امكان الاطلاع عليها هناك مقصورا على طائفة المستشرقين واتاحت للمشتغلين ببحوث علم الاجتماع معرفة قدرها وانزالها المنزلة اللائقة بها فى هذه البحوث ، بعد ان كانت مجهولة المكانة فى هذه الناحية ، لأن معظم المستشرقين الذين كانوا يستطيعون قبل ذلك الاطلاع عليها فى نصفها العربى كانوا بعيدين عن هذا العلم .

وكان من آثار ذلك أن تغيرت آراء علماء الغرب فيما يتعلق بنشأة العلوم ، فقد كانوا يزعمون مثلا أن فيكو Vico هو اول من بحث فى « فلسفة التاريخ » ، ولكنهم علموا حينئذ ان

ابن خلدون قد سبقه الى ذلك عدة تزيد على ثلاثة قرون ونصف قرن ، وانه قد أقام دراسة لتطور الحضارة الانسانية أى لما يسمونه « فلسفة التاريخ » وعلى درجة علمية قوية لايذكر بجانبها ما اتخذه vico اساسا لبحوثه . وكانوا يدعون ان أوجست كونت هو اول من انشأ علم الاجتماع ، ولكنهم علموا حينئذ ان ابن خلدون قد سبقه الى ذلك بمدة تزيد على أربعة قرون ونصف قرن ، وبطرق ومناهج مبراة من عيوب الطرق التى لجأ اليها أوجست كونت ومن مساوىء مناهجه . ووجدوا كذلك ان كثيرا من الآراء والمبادىء التى قال بها المحدثون من علماء الاقتصاد وفلسفة القانون والفلسفة السياسية كالفيزيوكرات وآدم سميث وجان باتست ساى مذ سكيو وجان جاك روسو وغيرهم قد سبقهم اليها ابن خلدون فى مقدمته (١) .

وكان من آثار ذلك أن تعددت البحوث (٢) عن ابن خلدون وعن مقدمته حتى لقد تألف منها فى مختلف مكتبات الغرب مجموعة من أوسع المجموعات .

اثر المقدمة فى علم الاجتماع :

ينظر الغربيون الى ابن خلدون من خلال مقدمته باعتباره من علماء الاجتماع ، وقليل منهم من يعنى ببحوثه الاقتصادية . أما فى الاجتماع ، فانهم قد خصصوا المقدمة كتبا مطولة وبحوثا مسهبة تزيد على العشرات ، وفصولا من كتب علم الاجتماع التى الفوها .

والذى دعا ابن خلدون الى كتابة مقدمته على النحو الذى كتبت به هو رغبته فى تخليص التاريخ من الخرافات والأكاذيب وايجاد مقاييس يستطيع الناقد أن يلجأ اليها وقوانين يفند بها الوقائع التى تروى ، وهذا ما يسمى فلسفة التاريخ .

وغرض آخر رمى اليه ابن خلدون ، وهو وضع موازين العمران ويقصد احوال الناس الاجتماعية ، قل اراد أن يضع قوانين اجتماعية للدول ، وبذلك يكون كما يقول عن نفسه أول من وضع هذه الدراسة . ولكن الغرض الأخير لم يكن مقصودا بذاته عند ابن خلدون ، فهو يذكر ان « علم العمران » انما ثمرته فى الأخبار فقط وان كانت مسائلة فى ذاتها وفى اختصاصها شريفة(٣) .

أما الغرض الثانوى الذى يتحصل من موازين كتاب ابن خلدون فقد جعله أوجست كونت غرضه الأول الذى اودعه كتابه .

فقد قصد أوجست كونت الى اصلاح المجتمع من الفوضى الاخلاقية والفساد الخلقى الذى يعيش فيه المجتمع . فقد كان الناس فى عهده وقبله يفترقون فريقين فى صدد تفسير ظواهر الطبيعة، فيذهب البعض الى طريقة وضيعة فى التفسير وهى البحث فى طبيعة الظاهرة وسببها المباشر ، ويذهب الاخرون الى تفسير الظاهرة تفسيرا دينيا ميتافيزيكيا بردها الى قوة مشخصة كالالهة او أية قوة ميتافيزكية أخرى .

---

(١) على عبد الواحد — المقدمة ص ١٧٩ .

(٢) تعرض الاستاذ ساطع الحصرى لبيان هذه البحوث فى كتابه « دراسات عن مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٩ — ٢٦٠ وص ٥٦١ — ٦٤٤ والاستاذ محمد عبد الله عنان » ابن خلدون حياته وأثره الفكرى ص ١٥٧ — ١٨٧ والدكتور احمد على نشأت فى رسالته « الأراء الاقتصادية لابن خلدون » .

(٣) أنظر المقدمة تحت عنوان « فى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ج ١ ص ٢١٩ وما بعدها لجنة البيان العربى» .

وهذا الخلط فى الفهم أدى الى فوضى عقلية انعكست على الأخلاق والسلوك . وفساد الاخلاق أدى بدوره الى فساد الحياة الاجتماعية بأكملها وقد كان بين يدى الفيلسوف وسائل ثلاثة لاصلاح هذه الفوضى العظيمة التى هى أساس الفساد الاجتماعى ، فاما ان يأخذ الناس بالطريقة الأولى فى الفهم ، واما ان يأخذوا بالثانية واما أن يوفقوا بين الطريقتين .

وفى رأى كونت ان الظاهرات انما هى ناحية من نواحى الكون ، والكون لا يجرى على المصادفات بل تحكمه قوانين محكمة ، واذن فلابد أن نأخذ بالطريقة الوضعية ، ولكن الأخذ بما يتطلب معرفة هذه القوانين وهو ما يجب على الباحثين أن يقوموا به ، ومن اجل ذلك وضع قواعد علم الاجتماع .

ومن هذا يظهر ان كلا من ابن خلدون وكونت قد رأى ضرورة انشاء دراسة جديدة للظاهرات الاجتماعية ، وان كلا منهما قد رأى أن تكون هذه الدراسة وضعية ترمى الى الكشف عن طبيعة هذه الظواهر وما تخضع له من قوانين ، وان كل منهما قد قام بانشاء هذه الدراسة (١) .

بيد أن ابن خلدون كان صادقا فى قوله انه سبق غيره الى هذا البحث الاجتماعى . اما قول كونت انه صاحب هذا العلم فبعيد عن الحقيقة وانما هو واهم خيل اليه (٢) . واذا كان كونت مات (١٧٥٨ — ١٨٥٧) قبل طبع المقدمة بتمامها (١٨٦٨) ، فان الاضطلاع على آراء ابن خلدون كان فى متناول يده ، فمنذ سنة ١٨٠٦ والمقالات تجرى حول ابن خلدون والترجمات لارائه تتوالى ، وليس ببعيد ، بل هو المحتمل أن يكون كونت هذا الفرنسى ، قد اطلع على هذه التراجم ومعظمها باللغة الفرنسية ، وأن يكون قد نقل عنها .

ويقول الأستاذ ناتانل شمدت أستاذ اللغات السامية بجامعة كورنيل الأمريكية : انابن خلدون كمؤرخ يمكن أن يوضع فى صف مؤرخين عالميين مثل ديودور الصقلى ونيقلاوس الدمشقى أو تروجوس بومبيوس ممن كتبوا فى القرن الأول الميلادى ، أو مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جاتيرر وشلتزر ، هذا مع كونه يتفوق عليهم .. على ان حق ابن خلدون لا يرجع الى تاريخه ، بل يرجع الى ذلك الأثر المدهش الذى كتبه مقدمة لتاريخه ، فهنا تبدو عبقريته فى روعة بهائها ، وهنا ينثر بيدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشرى .

ويرى شمت أن علم الاجتماع وجد قبل أوجست كونت وان ابن خلدون ذهب فى تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت وانه ، فيما عالج من خواص المادة والاقليم والأرض والغذاء قد سبق منتسكيو وبكل وسبنسر وغيرهم .

ويقول أيضا : ان المفكرين الذين وصفوا أسس علم الاجتماع من جديد ، لو كانوا قد اطلعوا على مقدمة ابن خلدون فى حينها فاستعانوا بالحقائق التى كان قد اكتشفها والطرائق التى سار عليها ذلك العبقرى العربى قبلهم بمدة طويلة ، لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد بسرعة أعظم مما تقدموا به فعلا ، واذ يقول كذلك : ان ابن خلدون قد تقدم فى علم الاجتماع الى حدود لم يصل اليها أوجيست كونت نفسه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر(٣) .

وقرظه سارتون فى مقدمته للعلوم(٤) بقوله ان ابن خلدون لم يكن من علماء الرياضة ، ولا من علماء الطبيعة ، فقد كان من هذه الناحية أقل مستوى من البيرونى .

ويقول العلامة التميرا الاسبانى « وقد اشتمل تاريخه (يقصد ابن خلدون) على مقدمة هى فى الحقيقة مؤلف فى الاجتماع والفلسفة التاريخية لم يفقه حتى أيامنا فى الاهمية اى مؤلف آخر » .

ويقول كلوزيو فى آراء ابن خلدون الاقتصادية « ان المؤرخ البربرى العظيم ، استطاع فى العصور الوسطى ان يكتشف مبادىء العدالة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ١٤٨ — تعليق الدكتور على عبد الواحد .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٩ .
(٣) Ibn Khaldoun, Historian, Socialist and Philosopher, p. 356, 257. New-York, 1930.
(٤) Sarton : Intr. V. 2. p. 1775.

الاجتماعية والاقتصاد السياسى قبل كونسيديران وماركس وباكونين » ويقول أيضا « اذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعه فى مقدمة فلاسفة التاريخ ، فان فهمه للدور الذى يؤديه العمل والملكية والأجور يضعه فى مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين » (١) قال الكاتب ذلك ، بعد أن استعرض آراءه فى عمل الدولة من الناحية الاقتصادية وآثاره السيئة وعن القوى السياسية والطوائف الاجتماعية وطرق التملك وانواع الملكية ووظيفة العمل الاجتماعية وتقسيم العمل الى حر ومأجور وكون العمل الحر مصدراً للرزق (المعاش) وقانون العرض والطلب ..

أهم الكتب المترجمة فى التاريخ (٢)

ابن جبير . رحلة ابن جبير : ترجم امارى ما يختص منها بصقلية (باريس ١٨٤٦) .

ابن خلدون ، تاريخ ابن‌خلدون : ترجم دوسلان القسم الخاص بالجزائر الى الفرنسية ونشره فى اربعة مجلدات (الجزائر ١٨٥٢ — ١٨٥٦) وترجم ديفرجيه الى الفرنسية القسم الخاص ببنى الأغلب وأفريقية وصقلية الى حين استيلاء الفرنج عليها (باريس ١٨٤١) .

ابن خلكان ، وفيات الأعيان : ترجمه الى الانجليزية دوسلان فى اربعة مجلدات (لندن ١٨٤٢ — ١٨٧١) .

ابن عبد الحكم ، فتح الأندلس ترجمة هارى جونس الى الانجليزية وطبع بلندن سنة ١٨٥٨ .

ابن القوطية — تاريخ الأندلس : ترجمة شاريونو الى الفرنسية (باريس ١٨٥٦) .

ابن مجير الدين العليمى — الأندلس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ترجمة سوفيرالى الفرنسية باريس سنة ١٨٧٢ .

أبو الحسن الفارسى : الأنيس المطرب وروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب ، وتاريخ مدينة فاس . ترجمة يومية الى الفرنسية باريس سنة ١٧٦٠ .

أبو عبيد البكرى — المسالك والممالك . ترجم جزءا منه ديفريمرى سنة ١٨٤٩ الى الفرنسية . وترجمه دوسلان الى الفرنسية — باريس سنة ١٨٥٦ .

أبو الغازى بهادرخان — تاريخ المغول ترجمه ديميزون الى الفرنسية فى مجلدين بطرسبورج سنة ١٨٧١ .

أبو الفدا — المختصر فى اخبار البشر ترجمه ادلر الى اللاتينية وطبع بليبسك سنة ١٨٧٩ — ١٧٩٤ فى خمسة مجلدات .

ابو الفرج الملطى — تاريخ مختصر الدول وهو يشمل تاريخ العالم من بدء الخليقة الى زمن المؤلف . ترجمه بوكوك الى اللاتينية وطبع باوكسونية سنة ١٦٦٣ . وترجمه بور الى الألمانية — ليبسك سنة ١٧٨٥ .

البيرونى — الآثار — الباقية عن القرون الخالية . ترجمة سخا والألمانى الى الانجليزية (لندن ١٨٧٩) .

رشيد الدين — تاريخ المغول — ترجمة‌كماترمير الى الفرنسية .

زين الدين المعيرى — تحفة المجاهدين .

ويشمل تاريخ مسلمى الهند — ترجمة‌رولندسن الى الانجليزية (لندن ١٨٢٣) .

سيد على أكبر : ثلاثة فصول من ختاينامة — النص الفارسى — ترجمه الى الفرنسية شارل شيفر .

---

(١) S. Colosio : Contribution à l'étude d'Ibn Khaldoun : Revue du monde musulman 26-1914.

وانظر ايضا :

Maunier (René) Lesidées : Economiques d'un philosophe arabe-Revue d'histoire économique et sociale - 1912.

ورسالة الدكتور نشأت فى الاراء الاقتصادية لابن خلدون — القاهرة .

(٢) اسقطنا الكتب التى نوهنا من ترجمتها من قبل .

الطبرى — كتاب أخبار الرسل والملوك ويشتمل على تاريخ العالم الى سنة ٣٠٢ هـ — ترجمه البلعمى الى الفارسية وترجمه عن الفارسية زوتنبرغ الى الفرنسية فى أربعة مجلدات (باريس ١٨٧٤) .

عبد اللطيف البغدادى — الافادة والاعتبار بما فى مصر من الآثار — ترجمه دوساسى الى الفرنسية (باريس ١٨١٠) .

العتبى — كتاب اليمنى ، ترجمه الى الفارسية الجريادكانى — وترجمه عنها الى الانجليزية رينولد (لندن ١٨٥٨) .

غلام حسن خان — تاريخ الاسلام فى الهند فى القرن الأخير. ترجمه بريجس الى الانجليزية فى مجلد واحد (لندن ١٨٣٢) .

فرشنة — تاريخ الاسلام فى الهند الى سنة ١٦١٢م . ترجمه عن الفارسية الى الانجليزية برجس فى أربعة مجلدات (لندن ١٨٢٩) .

القيروانى — تاريخ أفريقيه . ترجمه ديموزه الى الفرنسية (باريس ١٨٤٥) .

المسعودى — مروج الذهب . وهو تاريخ عام تمتد أخباره الى القرن العاشر الميلادى ، ترجمه باربيه دومينار الى الفرنسية فى تسعة مجلدات (باريس ١٨٦١ — ١٨٧٨) والى الانجليزية (لندن ١٨٤١) .

المقرى — نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . لخصه بالانجليزية باسكول دوكانيكوس فى مجلدين كبيرين (لندن ١٨٤٠ — ١٨٤٣) .

المقريزى — كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك. ترجمه الى الفرنسية كاترميد فى مجلدين باسم تاريخ السلاطين المماليك (باريس ١٨٣٧ — ١٨٤٥) ، وترجم بعضه الى الانجليزية مالان تحت عنوان « مختصر لتاريخ القبط » (لندن ١٨٧٣) .

المكين بن العميد — المجموع المبارك ترجمه قانيه الى الفرنسية (باريس ١٦٥٧) .

ثامنا : مناهج البحث الإسلامي

المنهج العلمى لابن الهيثم :

كانت الآراء العلمية والفلسفية صاخبة فى عهد ابن الهيثم ، فكان لابد له من منهاج يسير عليه فى بحثه ، وقد بدأ منهاجه بالشــك فى آراء ، المتكلمين ، يدلك على ذلك قوله « انى لم أزل منذ عهــد الصبا مرويا فى اعتقــادات النــاس المختلفة وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى فكنت متشككا فى جميعه موقنا بأن الحق واحــد »(١) .

ويظهر من هذا القول أنه وطــد العزم على السير بارائه فى طريقة منطقية ، ولذلك آثر أن يتتلمذ على أرسطو طاليس فيقول :

« فرأيت انى لا أصل الى الحق الا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها العقلية، فلم أجد الا فيما قرره أرسطوطاليس من علوم المنطق والطبيعيات والالهيات ، التى هى ذات الفلسفة وطبيعتها »(٢) .

« وفلسفة أرسطوطاليس تعد حلقة الاتصال بين الفلســفة الخيــالية النظرية وبين التعاليم العلمية والعملية ، حاول فيها أرسطو أن يجرد الفلسفة من الخيالات الشعرية التى صاغهــا فيها أفلاطون من قبله ، وأن يؤسسها على الواقع ومشاهده ، فيعيد الى عالم الحس شيئا من خطره الذى أنكره أفلاطون ، فان آثر ابن الهيثم هذا النوع من الفلسفة فلأنه وجد فيه العناصر التى أرادها متوفرة(٣) . درس ابن الهيثم اذن أرسطو وأعجب بمنطقه وتقسيماته وبراهينه ، كل ذلك أثر فى منهاج ابن الهيثم العلمى ، ولكن هل وقف ابن الهيثم عند هذا الحد ؟ أم أنه انتهى الى طريقة مبتكرة للبحث ، واذا كان قد ابتكر ، فاين طريقته من طرق البحث العلمية الحديثة ؟

من المعروف أن العالم الغربى فى عهده المظلم لم يكن يعرف طريقة علمية للبحث منظمة الى ان أتى الفيلسوف الانجليزى روجربيكون .

(١٥٦١ — ١٦٢٦) ، هذا الفيلسوف أمكن أن يمنح أوروبا طريقة للبحث العلمى المنظم ،وهى طريقة الاستقراء . وتعتمد هذه الطريقة على جمع المشاهدات والتأمل فيها وترتيبها وتبويبها بغيــة الوصول بالاستقراء الى معلومات تتفق والواقع وطريقة بيكون طريقة علمية سليمة ولكنها ناقصة فهى لا تصلح وحدهــا لمنهاج بحث علمى كامل لا يتطرق اليه الباطل والشك ، بل لا بد لهذا المنهاج المحكم من اضافة بعض العناصر لتكون طريقة البحث أكثر أحكاما ، ولتكون الحقــائق أقرب منالا ، من أجل ذلك ، وأحكم المنهاج العلمى الحديث على يد ديكارت فقدم طريقة تجمع بين الاستقراء والقياس وتعرف بهــا الحقائق على مراحل ثلاث ، الأولى : استقراء الوقائع وجمع المشاهدات وتبويبها وترتيبها . الثانية : البحث عن العلاقات التى تربط بين هذه الحقائق والعلل التى تجمع بينها وصوغها فى قانون ثابت أو نظرية علمية . الثالثة : هى العودة الى الشواهد مرة أخرى لتطبيق القانون عليها من جديد عن طريق القياس ، فأن كانت النتائج صحيحة عد القانون صحيحا وان فسدت النتائج فى بعضها وجب علينا أن نعيد السير والتقسيم والبحث عن الجوامع والعلل من جديد .

---

(١) مقالة ابن الهيثم التى أوردها ابن أبى أصيبعة فى ترجمته لابن الهيثم ج ٢ ص ٩٠ — ٩٨ .
(٢) المقــالة السابقة .
(٣) مصطفى نظيف ص ٢٤ .

هذه أحدث طرق البحث العلمى ، وهى من مميزات العصر الحديث ، وهى عين المنهج الدراسى الذى التزمه ابن الهيثم ، وقد سبق بما يقرب من تسعة قرون ، فهو أخذه عن أرسطو ؟ لقد تعرض أرسطو حقا لقياس ، ولكن قياس ارسطو قياس معقد يدور حول فكرة الجنس والنوع ويفسح المجال للقضايا الخلفية والمحتملة أما ابن الهيثم فيجعل القياس يتسع لكافة الوقائع على اختلافها ، ثم هو لا يقبل منها الا القضايا التعينية . ولعل الرجل أكمل طريقته بالقواعدالتى وضعها علماء أصول الفقه الاسلامى ، فالثابت أن طريقة السير والتقسيم والبحث عن العلة واستنباطها وتطبيقها على الوقائع الأخرى عن طريق القياس كل هذه العناصر عولجت فى الفقه الاسلامى منذ عهد أبى حنيفة وتلاميذه ووضعها الشافعىفى صورتها العلمية فى كتابه «الرسالة» .

واستقرار الطريقة العلمية فى مناهج البحث فى الفقه الاسلامى أمر مسلم به حتى من رجال الغرب انفسهم ولكن هؤلاء يغرونها بالباطل الى منطق أرسطو(١) واليك مثلا من عبارته يبين لك كيف أنه استعمل الطريقة الحديثة بجملة عناصرها ، جاريا على منهج منطقى فى أسلوب لا يضاهيه لو قيس فى الأدب الا أسلوب الجاحظ أو عبد الله بن المقفع .

قال « واذا كان كل جسم كثيف يثبت الضوء فيه ، وكل جسم مشف ينفذ الضوء فيه فليس لثبوت الضوء علة غير الكثافة ، فاذا كان قد تبين ان كل جسم من الأجسا مالمشفة التى تحت الفلك اذا أشرق عليه الضوء ففيه ضوء ثابت ، فكل جسم من الأجسام المشفة التى تحت الفلك ففيه كثافة ما مع الشفيف الذى فيه »(٢) .

من هذا النص نرى أن ابن الهيثم انتهى الى استقراء الأجسام فبوبها الى أجسام كثيفة وأجسام مشفة وشاهد بالاعتبار (بالتجربة) أن كل جسم كثيف يثبت فيه الضوء ، ثم انتهى الى كشف العلة فى ثبوت الضوء وهى الكثافة ، وهذا هو القانون أو النظرية العلمية ، ثم أخذ يطبق النظرية من جديد على الأجسام المشفة التى دون الفلك والتى يرى فيها ضوءا ثابتا ، ولهذا التطبيق للنظرية استنبط أن هذه الأجسام المشفة لم تكن خالصة الشفيف ، بل لابد أن تكون بها كثافة ما .

منهاج ابن خلدون فى البحث :

انتهج ابن خلدون أحدث طريقة للبحث العلمى وذلك قبل أن نسلك هذه الطريقة فى منهاج فرنسيس بيكون الفيلسوف الغربى الذى سبق أن تحدثنا عنه فى البحث . أقام ابن خلدون طريقته فى البحث على الاستقراء ، وقد قام بهذا الاستقراء فى رحلاته التى لم تنقطع حتى بلغ من العمر خمسة وأربعين سنة ، عرف فيها دولا كثيرة ذات أنظمة متعددة ، ودرس تاريخها وأسباب سقوطها . وما أظن رجلا جمع بين علمى التاريخ والاجتماع الا وكان أساس نظرياته الاجتماعية الاستقراء ، فدراسة التاريخ على الطبيعة أولا ثم فى الكتب ثانية هى أشد أنواع الاستقراء وأقواها . ثانيا — التأمل والجمع بين هذه الوقائع التى شاهدها أوقرأ عنها ليؤرخها ، والسير والتقسيم والبحث عن العلل وقد أتيح له هذا التأمل فى الوقت الذى كان يعاصر فيه الحادثات ، ثم فى معزله الذى قضى فيه أربع سنوات فى قلعة ابن سلامة ، وقد خرج من هذا المعزل بوضع قوانينه التى أوردها مقدمة كتابه العبر . ثالثا — البرهنة على هذه القوانين يدلك على ذلك أن ابن خلدون نقح مؤلفه حين زار مصر وعدل فيه ، ولعل القوانين التى وضعها فى المغرب كانت ناقصة ، اذ أثبتت الوقائع الجديدة التى رآها فى مصر أن بعض نظرياته كانت غير محكمة الوضع فأحكمها .

ومعظم القوانين التى انتهىاليها وضعها عنوانا لفصول كتابه ثم كتب تحتها براهينه المستمدة من العقل ومن حقائق فسيولوجية وبيولجية ، ثم أضاف اليها مشاهداته التاريخية لتكون دليلا على صحة هذ هالبراهين . واليك مثلا من مقدمته . كتب تحت عنوان «فصل فى أن عظم الدولةواتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها فى القلة والكثرة »(٣) قال:والسبب فى ذلك أن الملك انما يكون بالعصبية ، وأهل العصبية هم الحامية الذين ينزلون بممالك الدولة وأقطارها وينقسمون عليها ، فما كان من الدولة العامة قبيلتها وأهل عصابتها كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطانا ، وكان ملكها أوسع لذلك .

---

(١) دى بوير فى تاريخ الفلسفة الاسلامية ترجمة أبو ريدةص ٤٣ وأجناس جولد يسهر فى العقيدة والشريعة فى الاسلام (مترجم) ص ١٥١ — ١٥٣ .

(٢) الفقرة ٢٧ من رسالة ابن الهيثم فى الصوت نشرتها جمعية المعلمين بتحقيق عبد الحميد حمدى مرسى — ص ٣٨ — ٣٩ طبعة ١٩٣٨ .

(٣) ج ١ ص ٤٧٤ طبعة لجنة البيان العربى .

واعتبر ذلك بالدولة الاسلامية لما الف الله كلمة العرب على الاسلام وكان عدد المسلمين فى غزوة تبوك آخر غزوات النبى صلى الله عليه وسلم مائة الف وعشرة آلاف من مصر وقحطان ما بين فارس وراجل ، الى من أسلم منهم بعد ذلك الى الوفاة ، فلما توجهوا لطلب ما فى أيدى الأمم من الملك لم يكن دونه حمى ولا وزر فاستبيح حمى فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين فى العالم لعهدهم والترك بالمشرق والفرنجة والبربر بالمغرب والقوط بالأندلس .. » .

ثم يضرب الأمثال بعد ذلك بالعبيديين والزناتيين والمصامدة وغيرهم من الأمم التى غلبت أو غلبت .

واذا كانت قوانين ابن خلدون التى استمدها من مشاهداته فى دول الاسلام لم تصدق على جميع الدول فمعندى أن سبب ذلك لا يرجع الى نقص فى الاستقراء كما يقول الدكتور على عبد الواحد(١) وانما يرجع الى طبيعة القوانين الاجتماعية فهى ليست مطلقة الحجة كالقوانين الرياضية ، فقد لا ينتج القانون الاجتماعى أثره بسبب آن قانونا آخر يعارضه فلا يقال عن الأول أنه خاطىء ، لأنه لم ينطبق فى كل الأحوال ، هذان منهجان يعد أن أنموذج الطريقة العلمية الحديثة فى البحث فماذا كان أثرهما على الغرب ؟ أجاب لوبون عن هذا ، السؤال فقال :

« ويعزى الى بيكون على العموم انه أول من اقام التجربة والترصد اللذين هما ركن المناهج الحديثة ، مقام الأستاذ ولكن يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم ، وقد ابدى هذا الرأى جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولاسيما هنبولد ، فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والرصد هو ارفع درجة فى العلوم ، قال : أن العرب ارتقوا فى علومهم الى هذه الدرجة التى كان يجهلها القدماء تقريبا . وقال مسيو سيديو : أن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد فى البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التى كانت سائدة لأعمالها ، وكان استخراج المجهول من العلوم والتدقيق فى الحوادث تدقيقا مؤديا الى استنباط العلل من المعلومات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة مبادىء قال بها أساتذة من العرب ، وكان العرب فى القرن التاسع من الميلاد حائزين لهذا المنهاج المجزى الذى استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول الى أروع الاكتشافات(٢).

---

(١) فى تقديمه لابن خلدون ، ص ١٣٤ و ١٣٥ من مقدمة ابن خلدون — طبعة لجنة البيان العربى .
(٢) حضارة العرب ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

الفصل الثالث

الفنون

أولا : الصناعات

(١)

المنسوجات

تكلمنا فى الباب الثانى من هذا الكتاب عن صناعة المنسوجات فى البلاد الاسلامية . أما الآن فاننا نقصر البحث على أثر المنسوجات الشرقية على الغرب .

لقد كان أثر هذه الصناعة مزدوجا . أما الأول فيتلخص فى أنها أتاحت للغرب أن يلبس من أرقى ما وصلت اليه صناعة النسيج فى الشرق الاسلامى ، وأما الثانى فهو اتاحة الفرصة لصناع المنسوجات فى أوروبا لمحاكاة المنسوجات الاسلامية فى جمالها وزخرفها ودقتها .

لقد ذاعت المنسوجات الاسلامية فى أوروبا ذيوعا كبيرا . ودليلنا على ذلك تلك الأسماء الشرقية التى دخلت اللغات الأوربية . فلفظ Fustian جاء من لفظ فسطاط ، وكلمة Damascus من كلمة دمشق و Muslin من الموصل . ولفظ Baldacco الايطالى الذى كان يطلق على المنسوجات الحريرية الفاخرة مشتقة من لفظ بغداد . وأخذ منه اسم المظلة الحريرية التى كانت تغطى المذبح فى كثير من الكنائس وأطلق عليها Baldacchino ولفظ Grenadines من غرناطة ولفظ Tobis الذى يطلق على الحرير العتابى الوارد من اسبانيا ، مأخوذ من كلمة « العتابية » ، وهى حى فى بغداد شهر بهذا الحرير ، وقلده مسلمو الأندلس وسموه باسمه.

وقد استمد أوائل الصناع الايطاليين خبرتهم الفنية من صقلية(١) .

وفى القرن الرابع عشر ظهر فى المنسوجات الحريرية الايطالية أثر عوامل جديدة كانت فى ذلك الوقت تؤثر فى الفن الاسلامى .

واستخدمت الحراير الشرقية فى عمل الملابس الكنسية فى العصور الوسطى وفى عصور متأخرة أيضا ومثل ذلك خمر الصلاة(٢) .

ومن براعم الزهور التى كانت ترسم على المنسوجات الاسلامية أخذ الايطاليون عناصر الزهور والبراعم ووشوا بها القطيفة فى القرن السادس عشر .

أما فن السجاد فقد أثر فى الغرب أيضا من ناحيتين : الأولى أنه أدخل عادة فرش البيوت بالسجاجيد ، ولم تكن موجودة .

وعندما دخلت أوروبا كانت الكماليات حتى لقد بلغ من تهافت الموسرين عليها أن اشترى الكردينال Wolsey سنة ١٥٢١ ستين سجادة شرقية وضعها فى قصره فى Hampton court. أما الثانية ، فهى تعلم الأوربيين صناعة السجاد ذى الوبر . وقد سبق أن بينت أن هذه الصناعة انتشرت فى أوبيسون لما غزا المسلمون جنوب فرنسا .

والظاهر أن الرسوم الشرقية الجميلة على السجاد الذى كان يصنع فى هذه المدينة هى التى خلدت اسم « أوبيسون » كطراز عالى يستوحى جماله من شهرة هذه المدينة القديمة .

وكان الأوربيون يصنعون السجاد فى أول أمره على طريقة النول اليدوى كالشرقيين ، ثم أبدلوه بالنول الميكانيكى فى عصر الانقلاب الصناعى .

---

(١) مقال كريستى فى « تراث الاسلام » لارنولد ج ٢ ص ٦٧ .
(٢) كريستى — تراث الاسلام — ج ٢ ص ٦٩ .

الطبـــاعة

المعروف فى الأوساط الغربية ان الطبـاعة بالحروف من اختراع الألمـانى جوتنبرج سـنة ١٤٣٦ ، ولكن نسـبة الطبـاعة بالحروف الى جوتنبرج واعطاء الأهمية الكبرى التى اعطيت لهذا الاختراع العظيم ، هى محل نظر ، فقـد سبقه الى فكرة الطباعة بالحروف ، الهولنـدى كوسـتر . قال جورج يعقوب(١) « لكن فـات هؤلاء(٢) اننا اذا نسبنا الى عظماء أشياء ليست لهم وكللنا رؤسهم بأكاليل غار مزيفة أسأنا اليهم ونلنا من كرامتهم ، فالألمـانى جوتنبرج مثلا قد سبقه كثيرون مثل الهولندى كوستر وطبع بحروف متحركة ، ولو أنه استخدم نماذج رملية لا تصلح للطبع الا مرة واحدة . ونفس هذه الطريقة هى التى استخدمها جوتنبرج فى أول الأمر ، ومن ثم امكنه التغلب على النقص الموجود بها ، ووصل بها الى ما وصل اليه(٣) .

على أن فن الطباعة على الألواح كان معروفا عند الصين منذ القرن السادس الميلادى .ويحدثنا المؤرخ الفارسى رشـيد الدين عن فن الطباعة الصينى الأصل ، ومن وصفه لهذا الفن وحديثه عنه ، يتضح لنا أن الصين كانت تطبع من الكتاب او الوثيقة عددا معينا ، ثم تحتفظ باللوحة أو اللوحات للرجوع اليها عند الحاجة . وقد جرت العادة أن الشخص الذى كان يريد نسخة من كتاب ما ، كان يتوجه الى دار الكتب ويدفع الثمن المطلوب وتطبع له النسخة المطلوبة(٤) .

ومما اثار دهشة العالم المتمدين أنه عثر فى الفيوم على ثلاثين لوحا طباعة عـربية ، يرجع الكثير منها الى القرن العاشر الميلادى بينما يرجع ان اثنين من بينهمـا قد يرجعـان الى القرن التاسع(٥) .

وذكر كارابشيك(٦) فى الدليل ٢٤٧ أن الألواح العربية تكاد تتفق مع الحجم الصينى والطريقـة الصينية ويضيف الى ذلك أن الكتب العربية كثيرا ما تشير الى وجود نوع من الطباعة عند العرب، وقد اعتمد على ماجاء فىكتاب الروضتين لأبى شامة من ان نور الـدين اضـطر عام ١١٤٧ بسبب الحرب الصليبية الثانية وبسبب الضيق الذى حل بالبلاد أن يصدر فى شمال سوريا نقودا من الورق من فئة الدينار ، اعتمد على هذا النص ليستنتج أن مثل هذا النوع ما كان يتحقق لو لم توجد فى ذلك العصر لوحات للطباعة .

وفى سنة ١٢٩٣ أسست فى تبريز مطابع لطباعة النقود من الورق على نمط المطابع الصينية(٧) .

وكشفت الحفائر الألمـانية فى تركستان عن لوحات خشـبية أو جرية للطبـاعة . ونشر ن. ف. ك. مللر لوحا منها(٨) وفى عام ١٣٣٠ م طبعت ألف نسخة أوجرية عن كتاب سترا عن الدب الأكبر(٩) .

ويحاول الأسـتاذ جورج يعقوب أن يضـع جوتنبرج الألمـانى فى مكانه الحقيقى من هـذه الصناعة فيقول : « أما الفكرة التى نقلت الطباعة من استخدام الألواح الى الاسـتعانة بالحروف المتحركة التى تتكون من ٢٤ حرفا وهى الحروف الأبجدية فليست فكرة فى حاجة الى عبقرية أو ذكاء خارق بخلاف فكرة الطباعة ذاتها ، كما أنه ليس من السهل البت فى النزاع القائم حول الطباعة على الألواح والطباعة على الحروف المتحركة وأى النوعين أسبق »(١٠) .

(١) أثر الشرق فى الغرب ص ٤٧ .
(٢) يشير الى فون هوزن الذى جرى على نسبة كل شىء خطير الى اليونان .
(٣) جورج يعقوب ٤٧ .
(٤) جورج يعقوب ص ٤٥ .
(٥) Oesterrcichische Monatsschrift fiir den Orient, 1890, Tahrg, 16.
(٦) Carapacik : Das Arabrasche Papier.
(٧) جورج يعقوب ص ٤٤ .
(٨) Abhandlunger der Congl. Preuss akad d. Wiss, 1910.
(٩) B. Lauber. Zur Buddhistischen Literatur der Wiquren, 1907.
(١٠) جورج يعقوب ص ٤٦ .

صناعة الورق (الكاغد)

كان الورق معروفا لدى قدماء المصريين ، ولكنه كان ورقا طبيعيا غير مصنوع ، فقد كانوا يعالجون أوراق البردى ويلصقون بعضها فى بعض . أما صناعة الورق من عجين النباتات ولب الأشجار . فقد عرفتها الصين قبل كافة الأمم .

وكانت الكتابة فى عصر الاسلام الأول تجرى على الجلود والرق (جلد الغزال) ، ولم يكن هؤلاء يعرفون الكتب وانمـــا كانوا يكتبون على الجلد ويجعلونه دروجا (لفائف) ، الى أن جاءت الدولة العباسية واستوزر خالد بن برمك ، فغير طريقة اللفائف الى مجلدات من الكتب ، صحائفها من الجلد . فلما استوزر جعفر بن يحيى البرمكى استعمل الكاغد (الورق) فتداوله الناس من بعده . وقد عرف العرب الورق الخراسانى . وهو يعمل من الكتان ، ويقال أنه حدث فى أيام بنى أمية ، وقيل أنه قـــديم العمل ، وقيل أنه حديث ، وقيل أن صـــناعا من الصـــين عملوه بخراسان على مثال الورق الصينى »(١) .

واذا انتشر استعمال الورق فى الكتابة اصبح حجم الكتاب مقبولا ، فسهل ذلك أمر تداوله .

وعن الصين أخذه المسلمون وناله على ايديهم تغيير جوهرى ، يعتبر حدثا فى تاريخ العالم ، فقد نقوه مما كان يشوب صناعته فى الصين ، حيث كان يدخل فى صناعته ورق التوت والقنب الهنـــدى(٢) .

وكان فى القرن الثالث يصنع ببلاد ما وراء النهر فقط(٣) . وفى القرن الرابع وجدت مصانع الورق فى دمشـــق وطبرية بفلســـطين(٤) وبطرابلس الشـــام (٥) .

ولكن سمرقند كانت اكبر مركز لصناعة الورق.

وفى رسالة للخوارزمى(٦) انه كتب الى أحد اصحابه يداعبه وتساءل هل سمرقند بعدت عليه ، والكاغد عز عليه ؟

وكان صاحب خزانة كتب السلطان بهاء الدولة بشيراز يجمع اليها كل طريف عجيب من الكاغد السمرقندى و لصينى(٧) .

ويقول كرابا تشك : « يمكننا أن نقول مع كثير من الترجيح أن صناعة تجهيز ورق البردى بمصر للكتابة قد أصبحت منتهية بالاجمال حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، فنجد أن الورق البردى المؤرخ ينتهى فى عام ٣٢٣هـ — ٩٣٥م انتهاء تاما ، على حين أن الوثائق المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منـــذ عام ٣٠٠هـ — ٩١٢م »(٨) .

وانتقلت صناعة الورق من المشرق الى المغرب فى عصر لا يتجاوز القرن الحادى عشر الميلادى، ففى — عمدة الكتاب وعدة ذوى الالباب — الذى كتب للأمير التونسى المعز بن باديس وصف لصناعة الورق ، وقد جاء فى الكتاب كيف يهيأ اللب ويعمل قراطيس ويلون ويصـــقل . واذا كانت نسخة الكتاب التى وصلت الينا يرجع عهدها الى سنة ١٢٠٤ م ، الا أن ابن باديس كان حاكما فى تونس بين سنتى ١٠١٥ و ١٠٦١ ، مما يقطع بأن هذه الصناعة عرفت فى القرن الحادى عشر(٩) .

وأنشأ العرب أول مصانع للورق فى أوروبا فى بلنسية وشاطبة وطليطلة ، ودخلت صـــناعة الورق ايطاليا عن طريق الفتح العربى لصقلية ، ومن ايطاليا انتشرت فى المـــانيا . أما فرنســـا فانها تدين لصناعة الورق فيها لمصانع الورق فى أسبانيا(١٠) .

---

(١) الفهرست ص ٣٢ .
(٢) الحضارة الاسلامية لادم ميتز ج ٢ ص ٣١٠ .
(٣) الاصطخرى ص ٢٨٨ .
(٤) المقدسى ص ١٨٠ .
(٥) رحلة ناصر خسرو ص ١٢ .
(٦) رسائل الخوارزمى ص ٢٥ .
(٧) الارشاد لياقوت ج ٥ ص ٤٤٧ .
(٨) Carabacek, Mitteilungen aus den Papyrus Rainer, 1/2 S 114.
(٩) Sarton V. 1, p. 175.
(١٠) الموسوعة البريطانية تحت لفظ Paper

وعلى كل حال ، فان تتابع تواريخ دخول صناعة الورق فى البلاد العربية اولا ثم فى البلاد الاوربية ثانيا يدلنا على سبق العرب فى هذه الصناعة فقد استعمل الورق فى مكة سنة ٧٠٧م وبغداد سنة ٧٩٤ على يد الفضل بن يحيى وزير هارون الرشيد ،وفى مصر سنة ٨٠٠ ، وفى أسبانيا سنة ٩٥٠ ، وفى القسطنطينية سنة ١١٠٠ ، وفى صقلية سنة ١١٠٢ ، وفى ايطاليا سنة ١١٥٤ ، وفى المانيا سنة ١٢٢٨ ، وفى انجلترا سنه ١٣٠٩(١) .

— ٤ —

الطواحين المائية والهوائية

عرف المسلمون الطواحين المائية والهوائية منذ القدم . اما عن الطواحين المائية فيذكر المؤرخون انه كان على انهار أرحاء فى سفن(٢) ، وكان على النهيرات أرحاء مائية تدور(٣) . وأن اهل البصرة قد عالجوا مشكلة من أحدث مشكلات استخدام حركة الماء ، وذلك انه كان عندهم الجزر والمد ، وكان الماء يزورهم كل يوم وليلتين مرتين ، ففى أثناء المد يدخل الماء الأنهار ، وفى أثناء الجزر ينحسر راجعا ، فعمدوا الى أرحية أقاموها على أفواه الأنهار ليديرها الماء فى أثناء حركته خارجا وداخلا(٤) .

وكان على نهر الشيطان وحده — وهو بحيروفت فى كرمان خمسون رحى(٥) .

ولم يكن الناس يستعملون الدواب فى ادارة الطواحين الا فى الجهات التى ليس بها أنهار(٦) .

وكانت مطاحن الموصل تسمى الواحدة منها عربة ، وهى مصنوعة من الخشب والحديد ، لا يمازجه شىء من الحجر والجِص ، وهى تقوم فى وسط الماء بسلاسل حديد ، كل عربة فيها حجران ، يطحن كل حجر منها خمسين وقرا كل يوم (٧) .

أما الطواحين الهوائية فقد حدثنا عنها المؤرخون . ذكر المسعودى أن الرياح كانت تشتد باقليم سجستان وكرمان ، ويدوم هبوبها دواما غير مألوف وكان أهل هذه البلاد ينتفعون بهذه الرياح فنصبوا عليها ارحاء يسيرونها بها(٧) .

وحكى الغزولى(٨) المتوفى ١٤٢١/٨١٥ أن هذه الطواحين كانت تنظم سرعتها بواسطة منافس تغلق وتفتح فيها . قال :

« حدثنى من دخل سجستان وكرمان أن جميع أرحائهم ودواليبهم تدور بريح الشمال ، قد جعلت منصوبة تلقاءها ، وأن هذه الريح تجرى عندهم على الدوام ، صيفا وشتاء ، وهى فى الصيف أكثر وأدوم ، وربما سكنت فى اليوم والليلة مرة أو مرات ، فيسكن كل رحى دولاب بذلك الأقليم ، ثم تتحرك فيتحرك ، وذكر أن هذه الدواليب المنصوبة بها اثنا عشر الفا ، وتنقطع بانقطاعها . قال : والخصب والقحط فى بلادهم معتبر بكرة جريان ريح الشمال . ثم قال : ولهم فى الأرجاء منافس تغلق وتفتح ، لتثقل شدة دورانها وتكثر ، وذلك أنها كانت قوية أحرق الدقيق فخرج أسود ، وربما حمى الرحاء فانفلق ، فهم يحتاطون لذلك بما ذكرناه » .

وعن المسلمين أخذ الأوربيون هذه الطواحين . قال ول ديورانت :

وخطا الناس بعض خطوات فى تسخير القوى الطبيعية واستخدامها لمنفعتهم . وشاهد ذلك

---

(١) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ١٧٠ .
(٢) المقدسى ص ٤٠٨ والخوارزمى فى مفاتيح العلوم ص ٧١
(٣) المقدسى ص ٤٠١ و ٤٦٦ .
(٤) المقدسى ص ١٢٥ .
(٥) ابن حوقل ص ٣٢٢ .
(٦) الاصطخرى ص ٢٧٢ .
(٧) ابن حوقل ص ١٤٧ — ١٤٨ .
(٨) مروج الذهب ج ٤ ص ٢٢٧ .

ان « كتاب يوم الحشر » يسجل وجود خمسة آلاف طاحونة مائية فى انجلترا فى عام ١٠٨٦ وثمة رسم باق من عـــام ١١٦٩ يصــور عجـلة مائيـة يضاعف دوراتها البطيئة ويزيد سرعتها عدد من التروس المتعاقبة المتدرجة فى الصغر . وبفضل هذا الازدياد فى السرعة اضحت العجلة المـائية اداة رئيسية من أدوات الصناعة . وأخذت تنتشر فى بلاد أوروبا المختلفة ، فظهرت فى المـانيا عام ١٢٤٥ آلة مائية لنشر الخشب ، تدار بالمـاء(١) وكانت آلة اخرى فى دوية Douai (١٣١٣) تستخدم لصنع الآلات الحادة،وانتشرت الطواحين الهوائية التى عرفت لأول مرة فى أوروبا الغربية عام ١١٠٥ ، انتشارا سريعا بعد ، ان شاهد المسيحيون سعة انتشارها فى بلاد الاسلام(٢) وقد كان فى ايبر Ypre وحدها مائة وعشرون من هذه الطواحين .

— ٥ —

الصناعات الحربيـــة

البــــارود :

المعروف فى الأوساط الغربية أن مخترع البارود رجل اسمه برتولد شوارتز ، وقد ولد فى فريبورج اون بريسجو من اعمال المـانيا وذلك حوالى سنة ١٣٢٠ ميلادية و ٧١٩ هجرية ومع ذلك فقد شهد راهب انجليزى عاش فى القرن الثالث عشر الميلادى بأن مزيجا من قبيل البارود كان شائعا فى أيامه .

ويرى آخرون أن مخترع البارود هو روجير بيكون .

قال لوبون(٣) : وعزى اختراع البارود الى روجير بيكون زمنا طويلا مع أن روجر بيكون لم يفعل غير ما فعلـه البرت الكبير من اقتبـاس المركبات القديمة ، ولا سيما ما وصفه منهـا ماركوس جراكوس فى مخطوط كتاب فى سنة ١٢٣٠ بعنوان « كتاب النار لاحراق الأعداء » . والحق أن كثيرا من هذه المركبات يشابه تركيب البارود ، ولكنه كان يستعمل فى الأسهم النارية فقط ، وهو مقتبس من العرب لا ريب ، كجميع المركبـات الكيماوية فى العصور الوسطى . والعرب هؤلاء قد عرفوا الأسلحة النارية قبل النصـارى بزمن طويل كما يأتى بيانه .

وأثبتت مباحث رينو ومسـيو فافيـه ، وقد سبقهما اليها الغزيرى وأندريه وفياردو ، أن العرب هم الذين اخترعوا بارود المدافع السهل الانفجار الدافع للقذائف . وبيان ذلك أن ذينك المؤلفين رأيا بدء الأمر ، كما رأى غيرهما ، أن أمر هذا الاختراع يعود الى الصينيين ، وانهما رجعا فى مقالة ثانية نشراها سنة ١٨٥٠ ، وذلك بعد ما اطلعا على ماجاء فى بعض المخطوطات التى عثر عليها حديثا عن رأيهما معلنين أن العرب هم أصحاب هذا الاختراع العظيم الذى قلب نظام الحرب رأسـا على عقب . وممـا قاله ذانك المؤلفان « أن الصينيين هم الذين اكتشفوا ملح البارود واستعملوه فى النار الصناعية .... وأن العرب هم الذين استخرجوا قوة البارود الدافعة، اى أن العرب هم الذين اخترعوا الأسلحة النارية .

وقال جورج يعقوب(٤) :

وقد ظلت فكرة اختراع البارود بعيدة عن عناية العلم والعلماء حتى جاء عا م١٨٩٠ وأصـدر (روموكى) كتابه المشهور عن المواد المفرقعة وتاريخها وقد أردف هذا الكتاب العالم (أدموند فون ليبمان) بمحاضرة قيمة جدا عا م١٨٩٨ وهو نفس العالم الذى وضع كتـابا هاما فى تاريخ الكيمياء . وقد توصل العالمـان الأخصائيان أن

(١) ول ديورانت : مجلد ٤ ج ٤ ص ٨٧ .

(٢) William of Tyre : Siege of Jerusalem ch. cisci In Taylor, Medieval Mind T. 1. p. 551.

(٣) حضارة العرب ص ٤٧٨ و ٤٧٩ .

(٤) أثر الشرق فى الغرب ص ٣٢ ، ٣٣ .

(ثلج الصين) (الآن نترات البوتاسيوم أو ملح البارود) أول ما عرف كان فى الصين ، وفى زمن لا يمكن أن يكون قبل منتصف القرن الثانى عشر وقد وصلتنا مصادر تحدثنا عن الدفاع المجيد الذى أبلته المدينة الصينية (بيان كنج) (الان كاى فنج) عاصمة أقليم (هونان) بأسفل (هونج هو) ضد هجوم المغول بقيادة (أوجوتاى) عام ١٢٣٢م، فهنا نجد للمرة الأولى استخدام الصينيين للمواد المفرقعة التى هى عبارة عن أسهم ناربة ومواد مهشمةمحطمة كانوا يرمون بها العدو اذا ماحوصر فى زاوية لا يمكنه الافلات منها . ونستطيع أن نتصور هذا النوع من الأسلحة من الرسوم الواردة فى الكتب الصينية الخاصة بالنار . وفى القرن الثالث عشر نقرأ أخبارا تفيد أن العرب عرفوا نترات البوتاسيوم عن الصين واطلقوا عليها اسم (ثلج الصين) وفى كتاب (حسن الرماح) الذى الف فيما بين عامى ١٢٧٥ ، ١٢٩٥ عن النار ، والمحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس ، نقرأ عن ثلج الصين كعنصر أساسى فى صناعة الأسلحة النارية كما يصف لنا (حسن الرماح) هذا للمرة الأولى الالة المعروفة الآن باسم طوربيد فيقول عنها (بيضة تخرج وتحرق) وأردف هذا التعريف بصورة نشرها (روموكى) فى كتابه ص ٧١ . كذلك لفظ (مسكيت) فقد أثبت (ده جويه) انه مشتق من الكلمة العربية (مستق) ، وفى أوروبا نجد أقدم رسم لمثل هذا النوع من السلاح هو ذلك الوارد فى مخطوطة باكسفورد ترجع الى عام ١٣٢٦ (٧٢) وهو للمؤلف (ولتر ده مليمير).

ويرى الأستاذ كوندى وهو مستشرق أسبانى توفى سنة ١٨٢٠ م أن أهل مراكش استخدموا الأسلحة النارية فى محاربتهم سرقوسة سنة ١١١٨م (١) .

ولدينا نص صريح يثبت أن العرب استعملوه واستخدموا مركباته للقتال . وذلك حوالى عام ١٢٤٩م . والنص فى « كتاب التعريف بالمصطلح الشريف » تأليف شهاب الدين عبد العباس أحمد بن يحيى العمرى . حيث توجد اشارات الى « عقارب البارود المصرورة .. التى امتدت كأنها سحاب وهدرت كأنها رعود . واضطرمت كأنها حريق وجعلت الكل رماد .

وفى تاريخ ابن خلدون ما يؤيد ذلك(٣) : قال يصف فتح ابى يوسف سلطان مراكش لسجلماسة عام ٧٦٢ هـ (١٢٧٣ ميلادية) وهو تاريخ سابق على شوارتز بما يقرب من نصف قرن « ولما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وجه عزمه الى افتتاح سجلماسة من أيدى بنى الواد المتغلبين عليها وأدالة دعوته فيها من دعوتهم فنهض اليها فى العساكر والحشود فى رجب سنة اثنين وسبعين وسبعمائة ، فنازلها وقد حشد اليها أهل المغرب أجمع من زناته والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ، ينبعث من خزنة أمام النار الموقدة بطبيعة غريبة ترد الأفعال الى قدرة باريها .. » .

« وفى مكتبة بطرسبرج مسودة عربية قديمة فيها صور رجلين من العرب يشتغلان فى الأسلحة النارية ، أحدهما الى اليمين يحمل ما يشبه البندقية وفيها التنبلة والبارود وداخلها ، وقد أدناها من لهيب أمامه حتى يولعالبارود ويقذف التنبلة(٤) .

المدافع :

المدافع وتسمى المكاحل ايضا عرفها العرب قبل أن يخترعوا البارود . وكانت تطلق المدافع مقذوفات من الحجر غير أنه بعد اختراع البارود استعملت قذائف من البارود فى طلائق المدفع .

جاء فى كتاب المقريزى « نصب مدفعا زنة حجره ستماية رطل بالمصرى » .

وورد فى كتا بصبح الأعشى ما يأتى :

« ومنها « آلات الحصار » مكاحل البارود — وهى المدافع التى ترمى النفط(٥) . وحالها مختلف فبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر ، وبعضها يرمى عنه بندق من حديد من

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ٢٠١ .
(٢) السلاح فى الاسلام لعبد الرحمن زكى ص ١٥ .
(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٧ ص ١٨٨ .
(٤) تاريخ التمدن الاسلامى ج ١ ص ٢٠٢ .
(٥) ج ٢ ص ١٣٠ .

زنة عشرة أرطال بالمصرى الى ما يزيد على مائة رطل .. » .

وفى ابن أياس « فى يوم الثلاثاء رابع عشرة من شوال ٨٦٨ هـ رسم السلطان بتصريح المدفع السلطانى الذى سبكه للسلطان الأستاذ ابراهيم الحلبى بقلعة الجبل (قرب القاهرة) .. وقد سألنى السلطان عن أمره ومسافة سقوط حجر المدفع ، فعرفته أننى لم أحرره ، فسألنى ان احرره فى الثالثة فقلت له لا أعلم زنة المدفع ولا زنة حجره ولا زنة باروده .. »(١) .

ويستخلص من أقوال معظم المراجع أن المدفع استعمل فى بدء القرن الرابع عشر واستخدمه العثمانيون فى حصار القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م(٢) .

أما أصل اختراع المدفع فيقال انه صينى(٣) وعلى كل حال فان المدفع اذا كان اختراعا صينيا فان استعمال القذائف البارودية فيه انما كان من صنع المسلمين .

البنادق :

أما البندق (الرصاص) والبنادق ، فقد استعملت فى الاسلام . جاء فى كتاب « السلاح فى الاسلام(٤) : والبندق ورد ذكره فى شفاء الغليل للخفاجى . وورد فى مروج الذهب للمسعودى « خمسين بندقة رصاص » .

وفى ابن قطرب « رمى عصفورا بالبندق » . وفى كتاب السلوك للمقريزى «يقابلنا رماة البندق» وتذكر أيضا كلمة بندقية بلفظ الجمع فيقال بندقيات .

(٦)

الآلات الدقيقة

الاسطرلاب :

آلة دقيقة لقياس ارتفاع الكواكب وهو من اختراع اليونان كما يدل عليه اسمه ، غير أن المسلمين قد بلغوا به درجة الكمال ، وهو فى أرقى أشكاله التى وصل اليها على المسلمين . مؤلف من قرص معدنى مقسم الى درجات ، ويدور على هذا القرص عداد ذو ثقبين فى طرفيه ، ويعلق الاسطرلاب من حلقته تعليقا عموديا ثم يوجه العداد نحو الشمس فمتى مرت أشعة الشمس من ذينك القرصين قرىء ارتفاع الكوكب من الحد الذى وقف العداد عليه .

ويوجد فى مكتبة باريس فى الوقت الحاضر ثلاثة اسطرلابات ومن ينعم النظر فى تركيبها يعلم أنها دالة على حذق كبير ، وأنه يصعب صنع ما هو أحسن منها فى الوقت الحاضر(٥) .

وكانت قيمة الاسطرلاب للملاحين لا تقدر ، فقد دام استعماله فى شئون الملاحة الى القرن السابع عشر ، بينما عرفه العالم الاسلامى فى وقت لايكون أحدث من القرن العاشر حيث يوجد الآن فى اكسفورد اسطرلاب صنعه سنة ٩٨٤م أحمد ومحمد ابنا ابراهيم الاسطرلابى فى مدينة أصفهان(٦) .

البوصلة :

جرت العادة على نسبة اختراع البوصلة الى الايطالى الذى قيل أنه عاش فى القرن الرابع عشر والواقع غير هذا فأوروبا عرفت البوصلة منذ القرن الثانى عشر وسبقت أوروبا الصين التى استخدمتها فى عهد لن يكون أحدث من القرن العاشر وفى الخطاب المفتوح المشهور للعالم كلابروت الى اسكندرفون هابولدت على اختراع البوصلة نقرأ أخبارا كثيرة هامة عن

(١) تاريخ مصر ج ٢ ص ١٨٩ وانظر أيضا ص ٢٨٥ .
(٢) عبد الرحمن زكى ص ٥٥ .
(٣) عبد الرحمن زكى ص ٥٢ .
(٤) المرجع السابق ص ١٦ .
(٥) لوبون ص ٤٦٣ .
(٦) كريستى — فى تراث الاسلام لارنولد ص ٢٢ .

اختراع هذه الآلة . واضاف اليها العالم هرت الشىء الكثير . اما اكمل مجموعة للنصوص العربية فهى التى جمعها ايل هرد فيدمان فمن الثابت أن البحـارة فى الشرق استخدموا فى أول عهـدهم بالملاحة سمكا مجوفا مصنوعا من الحديد الممغطس وكانوا يضعون السمكة فى طبق يطفو على المـاء ويتجه اتجاها جنوبيا وشماليا وهناك مصـادر فارسية وأخرى عربية ترجع هذه السمكة الى القرن الثالث عشر .

ويفهم من هذا الرأى أن الصـين هى التى اخترعت البوصلة ، وأن المسلمين قد استعملوها فى الملاحة وهذا الرأى يؤيده العلامة سـارتون حيث يقـول : ان الصـينيين هم الذين اخترعوا البوصلة واستعملوها فى أغراض هندسية ، ولكن البحارة المسلمين الذين كانوا يحتكرون التجـارة فى البحار هم أول من استعملها فى البحرية(١) .

وقد وصفها القبانى سنة ١٢٨٢(٢) وذكرهـا المقريزى المتوفى سنة ١٤٤٢/٨٤٥(٣) .

السـاعة :

بدأت فكرة قياس الوقت بالمزولة الشمسية . فيقدر الوقت بحسب اتجـاه الظل النـاتج عن قضيب منصـوب فى ضوء الشمس ، والفكرة اسلامية ، فقد كتب ثابت بن قرة أحد كبـار مهندسى العرب مؤلفا فى الساعة الشمسية أى المزولـة ، وهو أول كتاب من نوعه فى هـذا الموضـوع .

وهذه المزولـة لا تزال تسـتعمل فى الوقت الحاضر ، وقد شهدت مزولة من الحديد غاية فى الدقة كان يستعملها الحلفاء الغربيون فى الصحراء ابان الحرب العالمية الثانية .

ولم يستطع المؤرخون أن يتتبعوا تاريخ تطور الساعة من الجهاز المـائى الى الرقاص . فقد ذكر جهاز الساعة فى مناسبات كثيرة ولكن لم يذكر تاريخ بدء استعمال الساعة الميكانيكية(٤) .

ويستعرض الدكتور لوبون تاريخ السـاعات فى الاسلام فيقول :

« ورأى الدكتور ا. برنارد الاكسفوردى أن ألعرب هم الذين طبقوا الرقاص على الساعة ، غير أن ما أبداه من الأسـباب لا يكفى ، عـلى ما يظهر لاسناد هذا الاختراع المهم الى العرب والذى نرجحه هو أن السـاعة الدقاقـة التى أرسلها هارون الرشيد الى شارلمـان هى ساعة مائية تدق فى كل ساعة بسقوط كرتها النحاسية على قرص معدنى .

ولكن الذى لا ريب فيه ، هو أن العرب عرفوا السـاعة ذات الاثقـال التى تختلف كثيرا عن الساعات المـائية . ودليلنا على ذلك ما وصفت به ساعة الجامع الأموى الشهيرة فى كتب كثيرة من المؤلفين ولا سيما بنيامين التطيلى الذى زار فلسطين فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وقد اقتطفنا الوصف الآتى من ترجمة مسيو سلفتر دوساسى لابن جبير . قال ابن جبير :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون فى جوار البلاط الذى أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صغرى قد فتحت أبوابا صغارا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا ، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمى بازرين مصـورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما ، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب والثـانى تحت آخرهـا ، والطاسـتان مثقوبتان فعنـد وقوع البندقيتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازرين يمدان عنقيهما بالبندقيتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سـحرا ، وعند وقوع البنـدقيتين فى الطاستين يسمع لها دوى ، ويغلق الباب الذى هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ولا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار ، حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات ، ثم تعود الى حالها الأل ، ولها بالليل تدبير آخر وذلك أن فى القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة تعترض فى كل

---

(١) سارتون — مقدمة تاريخ العـلوم ج ١ ص ٧١٤ ولوبون ص ٤٨٢ .
(٢) كلابروت فى خطابه السابق .
(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٠ .
(٤) سارتون — مقدمة تاريخ العلوم ج ١ ص ٧١٨ .

دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة ، يدير ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح ، وفاض على الدائرة أمامها شعاع فلاحت للابصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل وتحمر الدائرة كلها ، وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها ، درب بشأنها وانتقالها، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنوج الى مواضعها»

ويرى ول ديورانت ان عباس بن فرناس هو مخترع الساعة الدقاقة(١) .

واذا كان الرأى منقسما بالنسبة لاختراع المسلمين للساعة الميكانيكية فان هنالك أمرا يقينا يشهد بسبق المسلمين فى هذا الميدان منذ بداية اختراع آلات التوقيت ، فالمسلمون هم الذين اخترعوا المزولة والساعة المائية والساعة الدقاقة ذات الأثقال وليس هنالك دليل ينفى ان ساعة الجامع الأموى لم تكن ذات رقاص . واذا ثبت ان الغرب قد اخترع الرقاص ولم يكن موجودا من قبل فان هذا الاختراع لا يكون الا تحسينا لأجهزة الساعات الاسلامية .

النظارات والطائرات :

واخترع عباس بن فرناس الطبيب الأندلسى فى القرن التاسع الميلادى — كما يذكر لنا المقرى — النظارات ، كما اخترع آلة طائرة(٢) . ومعروف أن عباس هذا حاول الطيران فى أول الأمر بشخصه مقلدا الطيور فكسا نفسه الريش وطار ولكنه سقط على زقلة فتأذى مؤخره .

---

(١) نقلا عن المقرى : انظر قصة الحضارة . مجلد ٤ج ٢ ص ٢٩٥ . وكان ذلك فى القرن التاسع الهجرى الميلادى .
(٢) نفس المرجع .

ثانيا : الفنون الجميلة

(١)

الموسيقى

بدأت الموسيقى الاسلامية بالألحان والأشكال السامية القديمة ، ثم تطورت على ضوء صلاتها بالتقاسيم اليونانية الأسيوية النشأة ، وتأثرت تأثرا قويا بالموسيقى الفارسية والهندية . وللكندى وابن سينا واخوان الصفا كتابة مطولة فيها أما كتاب الفارابى فى الموسيقى فهو أشهر ما الف فى العصور الوسطى فى النظريات الموسيقية وهو يضارع أى كتاب وصل الى الغرب من المصادر اليونانية أن لم يفقه . وقد وضع المسلمون منذ القرن السابع السلم الموسيقى (ويبدو أن ذلك لم يكن معروفا قبل عام ١١٩٠ م)(١) .

وبدأ المسلمون بوضع النوتة الموسيقية ، وذلك أن اسحاق (الموصلى) كتب الى ابراهيم بن المهدى بجنس صوت صنعه واصبعه ومجراه واجزاء لحنه ، فغناه ابراهيم من غير أن يسمعه فادى ما صنعه . وقيل ، كتب اليه بشعره وايقاعه وبسيطه ومجراه وتجزئته واقسامه ومخارج نغمه ومواضع مقاطعه ومقادير أدواره وأوزانه، فغناه(٢) .

وبينما كانت بغداد فى عهد الرشيد تطن مجالسها بالغناء الرقيق واللحن الطروب ، وتتلألأ لياليها بالغيد الحسان ، ويترقى علم النغم على يد ابراهيم بن المهدى واسحق بن ابراهيم الموصلى كتب للأندلس أن تشهد ليالى أرق من ليالى بغداد ، فقد زادها الجو الاندلسى رقة وعذوبة وجمال الطبيعة فى الأندلس جمالا وجلالا . كان ذلك عندما وفد الى قرطبة على بن نافع الملقب بزرياب ، الطائر الأسود ، ناجيا بنفسه من غيرة أستاذه اسحاق بن ابراهيم الموصلى ، فتلقاه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦/٨٢١ — ٢٣٨/٨٥٢) وأغدق عليه النعم ، وقد حمل زرياب معه الى الأندلس فيضا من الأنغام الشرقية ، فأصبحت هذه الأغانى الأصل النغمى للموسيقى الأندلسية ، وكان زرياب ينشد هذه الأغانى على عوده الخاص الذى كان يضربه بمضراب من ريش الطيور ، بعد أن زاد فيه وترا خامسا وكانت الأوتار الأربعة هى الأصفر والأحمر والأبيض والأسود(٣) .

ولقد تأثرت نظرية الموسيقى الأوربية بالمؤلفين المسلمين (كغيرها من نواحى العلم الاخرى فى العصور الوسطى) ، ذلك أن عدة أبحاث يونانية فى الموسيقى ترجمت الى العربية فى الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والحادى عشر ، واضيفت اليها كتب مبتكرة لها أهميتها فى هذا الفن ، كتبها بالعربية الكندى والفارابى وابن سينا وغيرهم ، فلما وفد الطلاب من الشمال على قرطبة أخذوا يظهرون على هذه المؤلفات بعد ترجمتها الى اللاتينية ، وأنه لمن غرائب الاتفاق أن تظهر فى هذا الأوان (النصف الأول من القرن الثانى عشر) النظرية التى تقول بأن الاشارات الموسيقية لها قيم زمنية مضبوطة ولها نسب فيما بينها ، والتى تحل محل النظرية التى تجعل للغناء المطلق نسبا زمنية .

---

(١) ول ديورانت مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٥٧ .
(٢) الاغانى لابى الفرج ج ٦ ص ٥٤ .
(٣) غرسيا غومس فى الشعر الاندلسى ص ٣٣ و ٣٤ ، واحمد أمين — ظهر الاسلام ج ٣ ص ٣٣ .

ويقال أن مخترع هذه الموسيقى المقيسة هو فرانكو الكولونى(١) ولكن فرانكو هذا يتحدث عن الموسيقى المقيسة كشىء سبق أن عرف ، ويظهر أن « الخليل » عرفها قبل ذلك فى القرن الثامن ، وكذلك الفارابى (القرن العاشر) . وقد ترجم ما كتبه هذا الأخير الى اللاتينية وعرف باسم Alpharabius واطلع عليه نفر كبير من موسيقى الشمال ، فهذا والتر أودنجتون شيخ الموسيقيين فى القرن الثالث عشر يتحدث عن أساطين العرب بحماس ، وهذا موسيقى انجليزى من الذين كتبوا فى نظرية الموسيقى فى ذلك الزمان ، يتطرق الى ان يسمى قيم الاشارات الموسيقية الجديدة باسماء عربية فيذكر : elmuarifa, elmuahim

ويقول الاستاذ Trend فى مقال له(٢) عن اثر المسلمين فى الآلات الموسيقية فى أوروبا عامة واسبانيا خاصة : لقد جلب كثير من الآلات الموسيقية الى اسبانيا ، ومن ثم الى أوروبا على يد المسلمين فى كثير من الأحيان ، فالعود lute والقيثارة guita والرباب هى rebeck, ribible وهى آلة محببة الى شوسر ، وبالاسبانية rabel والبرتغالية rabeca ، ولا يزال هذا اللفظ الأخير يطلق على القيثارة الى اليوم فى البرتغال .

وتوجد فى شبه الجزيرة آلات موسيقية أخرى اشتقت اسماؤها من العربية ، مثل pandero panderata, الاسبانيتين المشتقة من كلمة بندير العربية ، وتسمى الصنوج التى حول حافته sonajas بالاسبانية (من صنوج بالعربية جمع صنج وبالفارسية صنج) وال anafil الاسبانى القديم هو المعروف فى العربية بالنفير ، ويرى الدكتور فارمر(٣) أن كلمة fanfar وهى اسم آلة موسيقية يشتغل عليها عدة أشخاص (جمع نفير) مشتقة من احدى صيغ الجمع للنفير وهى انفار ، وتسمى المزامير ذات الحقائب بالاسبانية gaita وهى بالعربية (الغيطة Haut-boy) وتعرف فى أفريقية الغربية باسم alligator وهى اشبه كلمة انجليزية بالنطق العامى للكلمة العربية ، وهناك كذلك الالة الاسبانية القديمة المعروفة باسم Albogon, Albogue من العربية : البوق (وهى باللاتينية buccinum) ، وقد ظلت هذه الأخيرة زمنا طويلا سرا من الأسرار حتى كشف الغطاء عنها بالوصف والتصوير وعرف انها من الآلات التى تعزف عليها الى اليوم فى البلاد البشكنسية ، واخيرا لاشك فى أن كلمتى Trovbodour Trobar عربيتا الاصل — من طرب يطرب — اى يغنى أو يوقع أنغاما موسيقية

وقد دخلت الموسيقى العربية فى أوزان بعض المنظومات الغنائية فى الأندلس وخاصة فى « اغنيات الفونسو العاشر » Les cantigas de Alfonso X ومعظمها منظوم على طريقة الأزجال ، وقد أثبت ريبيرا عندما درس موسيقى هذه الكنتيجات أنها قامت على اساس من الموسيقى الأندلسية الاسلامية(٤) .

وأثبت الأستاذ ريبيرا أيضا وهو يدرس موسيقى العصور الوسطى أن « انشودة العربيات الثلاث » وهى من آخر مظاهر الزجل الاندلسى، مأخوذة فى موضوعها وموسيقاها من عصرهارون الرشيد ، ومع هذا فقد كان يتغنى بها فى أسبانيا فى القرن السادس عشر ونقلتها الى البرتغال فى القرن التاسع عشر السيدة ميخايليس فاسكو نفليوس Michaelis Vasconcellos

واذا كانت الان الموسيقى العربية قد تخلفت عن الموسيقى الاوروبية فافترقت كل منهما فى طريق الا أن هنالك أثرا اسلاميا لا يزال باقيا فى الموسيقى الاسبانية فانها قد تميزت بطابع خاص وهو طابع مشتق من اصول اسلامية ، وتطرب لهذه الموسيقى آذان مستمعيها من الشرق والغرب وتستطيع أن تميزها الاسماع من بعيد ، فهى حلقة الاتصال بين الفن الموسيقى الشرقى والغربى .

---

(١) Art. Franco (Groves dictionary)

(٢) تراث الاسلام لارنولد ص ٣١ وما بعدها وانظر أيضا : Coussemaker, Scriptores de musica medii aevil, p. 339. A. H. Christie

(٣) مقال فارمر Farmer

(٤) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٦٢٤ .

— ٢ —

الزخــرف

تعريم الكتب (تجليدها) :

شهرت صناعة تعريم الكتب بالجلد المزخرف فى الشرق الاسلامى شهرة بلغت الحد . وقد جاء فن تجليد الكتب من انصار المانوية ، وقد تقدهم فى ذلك انصار الحلاج فكانت كتبهم تكتب بماء الذهب وتبطن بالديباج والحــرير وتجلد بالادم الجيد(١) . ثم اصبح بعد ذلك صناعة وقد انتقل هذا الفن الى أوربا ، فالكتب المجلدة فى مصانع التجليد الايطالية فى القرن الخامس عشر كانت تبدو عليها المسحة الشرقية . وظهرت فيها فى ذلك الوقت ظاهرة شائعة فى الكتب الاسلامية ، وهو اللسان الذى يطوى لحماية الاطراف الامامية للكتاب .

وادخل المسلمون الى أوروبا ايضا فن تزيين اغلفة الكتب بالرسوم المضغوطة الى اسفل ، وكانت الزخارف الأوربية بارزة فقط . وقد استفاد المســلمون من الرســوم المضغوطة فملأوها بصبغات ذهبية . وقد أخذت أوربا هذه الطريقة من المسلمين المقيمين فى البندقية ، ثم تقدمت صناعة التجليد فأصبح تذهيب الكتب يتم بالضغط بآلة محماة على صفائح من ذهب توضع على الغلاف . وذلك فى أواخر القرن الخامس عشر ، ويظهر أن هذه الطريقــة شاعت فى أوروبا عن طريق قرطبة .

قال كريستى : ـــ

وما يزال التذهيب والكتابة شائعين فى عصرنا هذا على جلود الكتب الجميلة ولم يزل الأوربيون يؤدونها بوسائل كان للصناع المسلمين فضــل ابلاغها درجة الكمال . وفى القرن التاسع عشر بدأت الطرق الآلية تحل فى صناعة جلود الكتب محل الطرق اليدوية القديمة ، ولكن الطرق الالية فى صناعة الكتب كانت الى حد كبير تنتج زخارف وتتبع اساليب ترجع الى أصول فنية اسلامية(٢)

الخزف والزجاج :

بلغت صناعة الزخرف والميناء مبلغا رفيعا فى الحياة الاسلامية ، وقــد سبق أن بينا مراكز صناعة الخزف فى البــلاد الاسلامية . وكان المسلمون يرسمون بالميناء على الكؤوس والاوانى الخزفية المطلية بالالوان الفيروزى أو الأسود أو الازرق القاتم . وعرفت هذه الاوانى فى ايطاليا باسم البارلو Albarello. وقد يكون هذا الاسم مشتقا من اللفظ العربى (البرنية) بمعنى وعاء لحفظ الادوية . وهو يدل على الغرض الذى استعملت من اجله هذه الانية فى الشرق ، والذى ظلت تستعمل من أجله فى ايطاليا . وكان يرى فى الصيدليات الايطالية فى القرن الخامس عشر كثير من هذه الاوانى مملوءة بالادوية والمحفوظات المســتوردة من الشرق . ولاشــك أن النماذج الشرقية التى نقلت عنها أوانى الادوية الايطالية المذكورة انما جاءت الى الغرب عن طريق التجارة من الشرق . وكان الايطاليون يحصــلون على هذه الأوانى الخزفية ذات البريق المعدنى من بلنسيا التى كانت تعتبر المركز الاسلامى لصناعة الخزف . وقد كانت تصــنع أحيانا تلبية لطلب المشترين من الاجــانب ، وكانت تنقش عليها شاراتهم . والدليل على ذلك وجود طبق من خزف ذى بريق معدنى أصفر وأزرق صنع فى بلنسيا فى أواخر القرن الخامس عشر ، لشخص من أسرة Dogli, Agli بفلورنسا(٣) ، وعليه شارة هذه الاسرة . وقد أثارت آنية الفخار الأسبانية ذات البريق المعدنى غيرة ناجحــة فى نفوس الايطاليين ، حتى استطاع صانعو الفخار الايطاليون فى القرن السادس عشر أن يكسبوا

(١) المنتظم ص ٢٣ ـــ ١ .
(٢) تراث الاسلام ص ٩١ .
(٣) الاتية المذكورة موجودة بمتحف فكتوريا والبرت .

زخارف عصر النهضة ذلك البريق الذى لاينطفىء سناه ، وذلك بأســـاليب صناعيـــة تخالف كل المخالفة ما كان معروفا فى ايطاليـــا قبل ذلك العهـــد(١) .

وقد وصلت الى أوربا من ايران رسوم بعض الزهور التى شاعت الآن فى الحدائق الاوربية فى وقت من الاوقات لا يعرفونها الاعلى الفخار والخزف الواردين من الشرق الاسلامى . وكان بوشيك سفير الامبراطورية فى القسطنطينية أول من احضر زهور الخزامى tulips ، وذلك فى منتصف القرن السادس عشر (٢) .

ومنذ القرن الثالث عشر ذاعت فى أوروبا شهرة صانعى الزجاج من البندقية وفى القرن الخامس عشر وجه هؤلاء الصناع اهتمامهم الى الاساليب الشرقية وأجادوا عملية تمويه الزجاج بالمينا الى درجة لم يعد بعدها هذا الفن احتكارا فى أيدى المسلمين ، وانتشرت هذه الصناعة من البندقية فى غيرها من المراكز الأوربية . ولكن التحف التى قلد بها الغربيون فنون الشرق الادنى وان كانت لا تخلو من متعة طيبة ، الا أنها لاتضارع النماذج الشرقية التى نقلت عنها فى جمال شكلها ودقة صنعها وسلامة زخرفها(٣) .

الزخرفة بالخط العربى :

وقد الف الصناع الاوربيون شكل الخط العربى بالتـــدريج مع انهم لم يســـتطيعوا أن يقرأوه . والدليل على ذلك قطعـــة من العملة محفوظة بالمتحف البريطانى ســـكها أوفاملك مرســـيه (٧٥٧ — ٧٦٩) وهى شبيهة بالدينار الاسلامى وعلى أحد وجهيها اسم Ova eRx وحوله كتابة عربية منقولة نقلا دقيقا عن قطعة نقود اخرى اسلامية ، حتى ليظهر فيها تاريخها (١٥٧هـ) والى جوار هذا النقل عبارة اسلامية .

ويظهر كذلك أثـــر الخط العربى فى صليب ايرلندى مطلى بالبرونز البراق ومحفوظ أيضـــا بالمتحف البريطانى ، ويرجع عهـــده الى القرن التاسع الميلادى وكتب فى وسطه على الزجاج بالخط الكوفى عبارة عربية « باسم الله » قال لوبون(٤) .

وقد بلغ الخط العربى من الصلاح للزينة ماكان رجال الفن من النصارى فى القرون الوسطى وفى عصر النهضة يكثرون معه من استنساخ ما كان تحت أيديهم اتفاقا مع قطع الكتابات العربية على المبانى المسيحية تزيينا لها سائرين فى ذلك مع الهـــوى . وقد شـــاهد ذلك مســـيو لونجـــريه ومســـــيو لافوا وغيرهما الشىء الكثير منهـــا بايطاليا . ومما شاهده مسيو لافوا فى مكان الأمتعة من كاتدرائية ميلانو « باب مبنى على طرازيسمى البيكارين، يحيط به افريزحجرى مؤلف من كلمة عربية مكررة عدة مرات وكتابة عربية حول رأس المسيح المصور فوق أبواب القديس بطرس التى أمر بانشائها البابا أوجين الرابع ، وخطوط كوفية طويلة على قميص القديس بطرس والقديس بولس . ومن دواعى أسفى عدم ترجمة هذا الكتاب لهذه الكتابات فلعل الكتابة التى على رأس المسيح هى كلمة « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

الرسوم والنماذج :

وفى القـــرن الســـادس عشر انتشرت كتب الرسوم والنماذج كتلك التى وضعها فرنسيسكو دى بلليجرينو وأكثر أمثلته من مصـــادر اسلامية ومثله بطرس فلوتنر وفرجيل سوليس ومارتنوس بطرس وغيرهم ، فكان عملهم هذا خطوة الى رسوم Halbein الذى استطاع فى مهارة أن يدمج ما استلهمه من الزخارف الاسلامية(٥) .

تكفيت المعادن وزخرفة الخشب والعاج :

كان الصناع المسلمون يزاولون تزيين المعادن بطريقة التكفيت فيطعمون البرنـــز والنحـــاس بالذهب والفضة لخلق رسوم عليها موضوعات زخرفية مختلفة وقد بلغ فن تكفيت المعادن عند

---

(١) مقال كريستى المنشور فى تراث الاسلام لارنولد ج ٢ص ٤٧ و ٤٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٥٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٦ .
(٤) مقـــال A.H. Christie فى كتاب تراث الاسلام ص ١٦ — ١٨ .
(٥) ص ٥٣١ .

المسلمين غايته من الاتقان فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وظل محافظا على منزلته زهاء قرنين . وبدات صناعة التكفيت تضمحل فى آخر القرن الرابع عشر بعد غارة المغول على سوريا ونهب تيمور لنك لمدينة دمشق سنة ١٤٠١ م ، كما أن فتح العثمانيين مصر سنة ١٥١٧ م فرق البقية الباقية من الصناع فى القاهرة . ومع ذلك فقد ازدهرت هذه الصناعة فى ايطاليا فى القرن الخامس عشر ، وكانت قد بدأتها ابان الحروب الصليبية ، ففى البندقية أثرت صناعة المعادن الشرقية تاثيرا عميقا على الصناع الاوربيين حتى نشأت مدرسة بندقية شرقية وفق فيها بين الصناعة الاسلامية والمصنوعات الزخرفية الاسلامية ، وبين الذوق الايطالى فى عصر النهضة(١) .

وما يقال عن تكفيت المعادن يقال عن تطعيم الخشب بالعاج والحفر على الاوانى العاجية ، وتنشيق الحشوات الخشبية فى رسوم غاية فى الدقة ، مما استوحى جماله الفن الغربى الرفيع .

هذا ، وقد استطاع الاوروبيون أن يدرسوا الاساليب الاسلامية دراسة عميقة وأن يصلحوا ويزيدوا من أساليبهم الفنية الخاصة ويساعدوا على نمائها ولكنهم فى هذه المرة لم يكتفوا بنقل العناصر الزخرفية التى كانوا يعثرون عليها ، بل شرعوا فى أن يدرسوا بامعان قوانين الزخرفة عند المسلمين ، وبدأوا يطبقون هذه القوانين بروح جديدة فى تحف أوربية خالصة . ولم تكن ممارسة الرسوم والزخارف الشرقية مقصورة على الطبقة الدنيا من الصناع ، بل تعدتها الى الشخصيات الفنية البارزة : أمثال ليوناردو دافنشى ، الذى يتجلى لنا اهتمامه بدراسة هذه الرسوم الشرقية(٢) .

تلك خلاصة عن فن الزخرف ، وأحب أن استعير من الأستاذ كريستى(٣) نبذة ذكرها فى التعليق على الفن قال : لقد ظلت أوروبا نحو الف سنة تنظر الى الفن الاسلامى كأنه أعجوبة من الأعاجيب ، وكان أكبر باعث لهذه النظرة فى أول الامر هذا الفن كان يتصل أوثق الاتصال بالاراضى المسيحية المقدسة . ولكن أصبح بعد ذلك مصدر الدهشة من ذلك الفن جماله الذاتى ليس غير . وكثير من التحف الاسلامية النفيسة مدينة ببقائها فى حالة جيدة من الحفظ الى عاطفة التقوى الدينية التى كانت سائدة فى العصور الوسطى ، فان عددا ليس بالقليل منها ظل محفوظا بالكنائس قرونا عديدة حيث كنت ترى علبة من العلب ربما كانت توضع فيها قديما حلى الخليفة فأصبحت تحفظ فيها مخلفات مسيحية مقدسة ، وربما كانت هذه المخلفات قد أتى بها من البلاد المقدسة فى العلبة نفسها ملفوفة فى قطعة من الديباج الفاخر ، مقتطعة من خلعة اسلامية ممتازة فاخرة .

« وقد كان القوم فى العصور الوسطى ينظرون الى مثل هذه التحف نظرة رهبة ويفسرون الاشكال الغريبة والكتابات الغامضة التى تزينها تفسيرات متفقة وهذه النظرة . فلقد كانوا يظنون احيانا ان هذه الكتابات طلاسم وحروف لاتباع سليمان أو لسليمان نفسه .. وسواء أكان تاريخ هذه التحف الفنية ونسبتها صحيحة أم لم يكونا كذلك ، فليس الى أنكار عظمتها وجمالها من سبيل . فالحق أنها كانت آيات فنية يجلها كل صانع وتستلهم منها الوحى كل من وقف حياته على الفنون المهملة فى الغرب » .

التصــــوير :

قلنا فى فصل سابق أن التصوير فى الاسلام كان محرما على الاقل فى العهد الاول ، ولكن الفنانين المسلمين خرجوا عن هذا التحريم شيئا فشيئا ورغم ذلك فان فن التصوير الاسلامى ظل متأخرا عن مثيله فى أوربا ، اللهم اذا استثنينا الزخارف ، وسبق أن بينا أيضا رأى الاستاذ ول ديورانت فى أن سبب نبوغ المسلمين فى فن الزخرفة والاشكال الهندسية كان سببه تحريم الاسلام لرسوم صور الانسان سدا للذريعة الى عبادة الاوثان ، الامر الذى جعل الفنانين المسلمين يتجهون الى الزخارف الهندسية(٤) . واذن لم يتقدم فن التصوير تقدما كبيرا فى الاسلام الا فى نطاق الزخارف التى كانت ترسم على الاوانى الخزفية والزجاج والعاج والخشب والجلد والمعادن والمنسوجات . ومهما يكن من شىء فانه ليس لدينا ما يدل على أن اى صور اسملاية جاءت الى أوربا قبل القرن السابع

---

(١) كريستى : مقالة فى كتاب : تراث الاسلام ج ٢ ص٢٦ وما بعدها .
(٢) كريستى ـ تراث الاسلام ج ٢ ص ٩٦ .
(٣) تراث الاسلام ٢ ص ٩٢ ـ ٩٤ .
(٤) ول ديورانت ج ٣ ج ٢ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

عشر ، ويظن أن رمبران Rembrandt (١) كان أول رسام فى الغرب اهتم اهتماما كافيا بالفن الشرقى ، اذ قام بنسخ بعض صور وصلت الى هولنـــدا من الشرق ، وكانت تمثل بعض افراد الأسرة المالكة فى دلهى . ولهذا نستبعد أن يكون هناك لفن التصوير الاسلامى أى تأثير فى فنان بعينه فى اوروبا ، وكذلك ليس هنالك مايدل على أن اية حركة عظيمة فى فن التصوير بأوروبا كان الباعث عليها مؤثرات من الشرق الاسلامى ، فانه ليستحيل مثلا أن نلمس للاسلام أثرا ما فى الاتجاهات الجديدة التى اتخذها فن التصوير على النحو الذى ظهــر فى الفن الايطالى ابان القرن الخامس عشر والسادس عشر ، نتيجة الاهتمام الجديد بالفنون اليونانية والرومانية القديمة . ولذا فان ما يمكن تبينه من أثر اسلامى يكاد يكون سطحيا ، ولكنه على كل حال بدأ يظهر فى أوروبا منذ زمن بعيد عندما انتشرت سيطرة العرب على ضفاف البحر الابيض المتوسط ، فقد نسخت عدة صــور للحيوانات المنقوشـــة على المنسوجات الشرقية ، كمـــا يظهر فى مخطــوط من القرن الحادى عشر موجود فى المكتبة الاهلية وضعه بباتس Beatus عن شرح سفر الرؤيا ، وكما يظهر كذلك فى مخطوطات عدة أخرى ولا سيما مخطوطات مدرسية ليموج limoges فى أوائل القرون الوسطى . ولكن الاثر الذى نشأ عن الاحتكاك المباشر بين العالم المسيحى والثقافة الاسلامية وعن استيراد البضائع الشرقية ، لم يظهر فى فن التصـــوير ظهوره فى فنون النحت والعمارة وصناعة المعادن(٢) .

(١) مصور هولندى ولد فى لندن سنة ١٦٠٦ وتوفى فى امستردام سنة ١٦٦٩ ونبغ فى تصوير المناظر التاريخيه فى لوحاته .

(٢) Thomas arnold

فى مقاله المنشور فى كتاب « تراث الاسلام » ج ٢ ص ١٠٣و ١٠٤

ثالثا : فنون الاناقة

الحمامات العامة :

شهر العالم الاسلامى بكثرة الحمامات العامة الساخنة ، ويرى بعض الكتاب أن أصل الحمام العام كان موجودا فى الدولة الرومانية . كما يرى البعض أنها كانت موجودة فى الفرس قبل الاسلام فى أيام الملك بلاش (٤٨٤ — ٤٨٨ م) وفى أيام الملك قباذ(١) .

ويرى بعض المؤرخين مثل الطبرى أن الفرس لم يكن لديهم حمامات قبل الاسلام وكان دخول الحمام فى أول أمره مكروها سدا للذريعة للفساد . ويحكى عن أبى بكر السلمى المتوفى عام ٣١١ هـ أنه لما قيل له لو حلقت شعرك فى الحمام قال لم يثبت عندى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حماما قط(٢) . ويحكى عن الزمخشرى أنه قال يكره أن يعطى الرجل امرأته أجرة الحمام لأنه يكون معينا لها على المكروه(٣) .

ويؤثر عن على بن أبى طالب أنه قال بئس الحمام تكشف فيه العورات وترتفع فيه الاصوات ولا تقرأ فيه آية من آيات الله(٤) .

على أنه من جانب آخر صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : نعم البيت الحمام ، يزيل الدرن ويذكر النار ، وقد اعتمد بعض الفقهاء على هذا الحديث وعلى أن الضرورة تقتضى وجود مثل هذه الحمامات فأجازوا دخول الحمام استحسانا(٥) ، وسبب ذلك أن الأصل فى دخول الحمام بأجر معين باطل حسب القياس ، فالأجرة محددة ، ولكن مدة البقاء فى الحمام وقدر استهلاك المياه غير محددين ، فهو عقد من عقود الغرر الباطلة .

وعلى كل حال كانت الحمامات فى الدولة الاسلامية وخاصة فى الدولة العباسية منتشرة جدا ، فقد كان فى الجانب الشرقى ببغداد فى القرن الثالث الهجرى خمسة آلاف حمام(٦) . وكان فى جانبى بغداد فى النصف الأول من القرن الرابع عشرة آلاف حمام ، وقيل كان بها ستون ألفا(٧) .

وكانت الحمامات تزخرف وتصور عليها الطيور(٨) ، وكانت تطلى بالقار وتسطع به حتى يخيل للناظر أنها مبنية من رخام .

ورغم أن الرومان كانوا يعرفون الحمامات العامة الا أن هذا النظام توقف فى العصور الوسطى ، ويظهر أن المسيحية كان لها دخل فى ذلك اذ كان المسيحى الحق يربأ أن يتدنس جسمه بماء بعد ماء التعميد . وكان أهم عمل من أعمال البطولة لمسيحى الاندلس بعد طرد العرب من هناك أن أحرقوا كتبهم وهدموا حماماتهم ليخلص لهؤلاء المسيحيين صفاء العقل والجسم معا .

ومع ذلك فقد وجدت فى أوروبا حمامات عامة .

---

(١) ميتز ج ٢ ص ٢١٧ .
(٢) طبقات السبكى ج ٢ ص ١٣١ .
(٣) مطالع البدور للغزولى ج ٢ ص ١٧ .
(٤) نفس المصدر فى نفس الموضع .
(٥) حاشية النزى على التوضيح ج ٣ ص ٣ .
(٦) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٤ . ويلاحظ ان هذه الارقام مبالغ فيها جدا ولكنها تدل على كل حال على انتشار الحمامات العامة فى البلاد الاسلامية .
(٧) تاريخ بغداد ص ٧٤ ، ٧٦ طبعة سلامون .
(٨) مروج الذهب ج ٢ ص ١٧ .

ويعزو بعض الكتاب انتشارها الى الحروب الصليبية حيث نقل الصليبيون هذه العادة من بلاد الاسلام ونقلوا معهم أيضا انشاء المراحيض الخاصة(١) .

وفى رايى أن عادة انشاء الحمامات كما يمكن أن تكون قد وصلت الى الغرب على أيدى الصليبيين ، يمكن أن تصل ايضا عن طريق الاندلس .

القلانس :

امر أبو جعفر المنصور فى عام ١٥٣ هـ الناس بلبس القلانس الطويلة(٢) ثم حرمها الرشيد(٣) واعادها المعتصم(٤) .

ولما اتصل أهل أوروبا بالشرقيين أيام الحروب الصليبية نقلوا الى بلادهم هذه القلانس الطوال ومعها الخمر ، وجعلوها لباس النساء فى الغرب .

قص الشعر وادوات الزينة :

عندما جاء زرياب من بغداد ، نشر فى الاندلس — خاصة فى قرطبة الطف مستحدثات المشارقة ، وخاصة مستحدثات الزينة النسائية كتقصير الشعر دون الجباه وتسويته على الحواجب وتدويره الى الأذن واسداله الى الصدغين(٥) .

وأكبر الظن أن الأوربيين قد رجعوا الى العادة الرومانية القديمة عادة حلق اللحى ، نتيجة لاتصالهم ببلاد الشرق الاسلامية(٦) .

واخذ الأوربيون كذلك عن المسلمين أدوات الزينة كالأصباغ والعقاقير والعطور مثل حجر الشب والعود والقرنفل واللبان والصندل وادوات اللبس الفاخرة كالكامليت (قماش من شعر الجمل) والجيب gupe والمساحيق والمرايا(٧) .

---

(١) قصة الحضارة مجلد ٤ ج ٤ ص ٦٤ .
(٢) لب الالباب فى رد جوابات دوى **الالباب** مخطوط ببرلين وأشار اليه ميتز ج ٢ ص ٢٢٠ .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٤٢ .
(٤) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٠٢ .
(٥) غرسيا غومس فى الشعر الاندلسى ص ٣٤ .
(٦) ول ديورانت مجموعة ٤ ج ٤ ص ٦٤ .
(٧) باركر — تراث الاسلام ج ١ ص ١١٨ .

رابعا : فنون التخاطب

لغـة الشفرة :

عرفت الحروف الرمزية عند العرب ، على الاقل منذ نزول القرآن الكريم فقد وردت حروف فى اول سور القرآن لا تزال موضع أخذ ورد الى اليوم كقوله تعالى « يس والقرآن الحكيم » ، وقوله « ق والقرآن المجيد » ، وقوله « كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا » ، وقوله « الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » .. وكثير من المفسرين يرى ان هذه الرموز تخفى بعض المعانى التى لايدركها العامة .

وربما ادرك جعفر الصادق من الشيعة مثل هذا النظر بالاضـافة الى معتقداته الشيعية الاخرى ، فألف كتابا فيه مفاتح الغيب التى تقع لمثله عن طريق الكشف ، وتنبأ فيه بما سوف يقـع لآل البيت . وروى الكتـاب عن جعفر الصـادق هارون العجلى وسماه كتاب الجفر (بفتح الجيم) ، وذلك بسبب أنه كان مكتوبا على جلد ثور صغير ، وجلد الثور الصغير يسمى فى اللغة جفرا .

وجاء يعقوب بن اسحاق الكندى منجم الرشيد والمأمون فألف كتابا فى القرانات (التنبؤات) فى الملة ، واطلق الشيعة عليه فيما بعد كتاب الجفر نسبة الى كتابهم الأول . وتتابع الناس فى كتابة القرانات والاحـداث المستقبلة التى تحدث فى الدولة والملة وسموها بالملاحم . قال ابن خلدون فى مقدمته(١) ووقفت بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربى الحاتمى فى كلام طويل شبه الغاز لايعلم تأويـله الا الله لتخلله أوفاق عددية ورموز ملغوزة(٢) .

وفى رايى أن لغة التخاطب السياسية التى تسمى « الشفرة » لا يمكن الا أن تكون نتاجا لهذه الفكرة الاسـلامية ، ولابد أن لفظ جفـر العربى رد الى اقرب لفظ اليه فى الفرنسية .

واذا لاحظنا أن الغرض من الشفرة هو الالغاز ، زاد الاحتمال بأن تكون الفكرة اسلامية . ويمكن أن تستوحى ببساطة من التراجم العديدة للكتب الاسلامية ، وقد علمت أن مقدمة ابن خلدون وهى احد المراجع فى هذا الباب كانت فى متناول الفرنسيين منذ منتصف القرن التاسع عشر .

الحمام الزاجل :

كان الحمـام الزاجل معروفا عند الرومان والصين ولكن استعماله كوسـيلة من وسائل التراسل لم تعرف الا عند العرب . ويظهر أن مؤسس فرقة القرامطة فى القرن الثالث الهجرى كان أول من نظمه واستغمله للتراسل على صورة واسعة النطاق فجعل لنفسه طيورا تحمل اليه فى مقره بالعراق أخبـارا من جميع الجهـات ليستعين بها للشعبذة والأخبار بالغيب(٣) .

وحكى عريب فى حوادث عام ٣١١ هـ أن القرامطة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بعزل ابن الفرات وولاية حامد بن العباس قبل أن يجىء الخبر الى البصرة بأربعة أيام وذلك بواسطة الحمام الزاجل(٤) .

---

(١) المقدمة ج ٢ ص ٧٧٦ (لجنة البيان) .
(٢) وكان لمنجمى المسلمين حساب اسمه حساب الجمل ،تترجم فيه القرانات الى أرقام والارقام الى الفاظ وهكذا .
(٣) ويظهر ان هذا النوع من الحمام استجلبه العرب من الصين او الهند .
(٤) عريب ص ١١٠ وما يليها .

ولما قرب القرمطى من الانبار تشوف المقتدر الى معرفة اخباره فلما عرف ابو على بن مقلة ذلك طلب اخباره وانفذها الى الانبار وكتب له عليها اخبار القرمطى وقتا بعد وقت(١) .

وفى سنة ٣٢١ هـ استطاع ابن قرابة أن يحمل الى الوزير ابن مقلة اخبار سلامة الكوفة من القرمطى عن طريق الحمام الزاجل(٢) .

وفى النصف الثانى من القرن الرابع كان عند محمد بن عمر بن الحسن الشريف — وكان علويا — وجيه متمول ببغداد طيورا كوفية ، وبالكوفية طيور بغدادية ، وكان يكتب على الطير بالكوفة فيأتيه الخبر فى ساعة أو نحوها(٣) .

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٣٠٦ وابن الاثير ج ٨ ص ١٣٥، ٢٤٠ .
(٢) نفس المصدر ص ٤١٦ .
(٣) عمدة الطالب للاصيلى — مخطوط باريس رقم ٢٠٢١ص ١٧٠ — أ ١٧٠ — ب .

خامسا : فن العمارة

تأثرت أوربا بفنون المسلمين المعمارية عن ثلاثة طرق : أولها الحروب الصليبية ، فقد تأثر بهذه الفنون جماعة الصليبيين الذين بهرهم ما رأوا فى الشرق من روائع الفن وعلو مكانته ودقته وجمال مجاليه . وفى ذلك يقول مسيو شارل بلان(١) « أن الصليبيين الذين شاهدوا ما اشتمل عليه الفن العربى من المشربيات وشرف المآذن والافاريز ، ادخلوا الى فرنسا المراقب والجواسق والابراج والاطناف والسياجات التى استخدمت كثيرا فى العمارات المدنية والحربية فى القرون الوسطى » .

أما الطريق الثانى الذى وصل به فن العمارة الاسلامى الى أوربا ، فقد نشأ عن استخدام الأوربيين فى العصور الوسطى كثيرين من البنائين الاجانب وخاصة العرب وفى ذلك يقول جوستاف لوبون(٢) : « ولا يغرب عن بالك أن الاوروبيين كانوا يستخدمون فى القرون الوسطى كثيرا من بنائى الاجانب فى اقامة مبانيهم ، وأنهم كانوا يوحون اليهم مثلما كان يوحى به العرب الى بنائى الأجانب فى اقامة مبانيهم ، وأنهم كانوا يجيئون من كل مكان ، وأن شارلمان كان يأتى بالكثير منهم من الشرق ، وقد نقل مسيو فيارد عبارة من كتاب تاريخ باريس لدولور ، جاء فيها أن مهندسين معماريين من العرب ، استخدموا فى انشاء كنيسة نوتردام الباريسية »

وأما الطريق الثالث الذى اقتبس عنه الاوربيون الفن الاسلامى فقد نشأ عن العمارة التى أقامها المسلمون فى الاندلس نفسه . نعم لقد كان فى أسبانيا عند الغزو الاسلامى لها فن قوطى أصيل اشتق من الطراز الرومانى الذى هو وليد الطرز اللاتينية والبيزنطية . ولكنه مع ذلك اقتبس الفن القوطى ما يعرف بالاقواس القوطية المصنوعة على رسم البيكارين من العرب الذين استعملوها فى مصر وصقلية وايطاليا منذ القرن العاشر من الميلاد .

ومن نماذج الفن الاسلامى والفن القوطى بعناصره المختلفة نشأ فن جديد مدجن اشتهر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر على الخصوص . وما أبراج كثير من كنائس طليطلة الا مقتبسة من المآذن . وليست المبانى التى شادها النصارى فى الولايات المستقلة فى العهد الاسلامى الا عربية أكثر منها نصرانية ، وذلك كقصر شقوبية الشهير الذى أقيم فى القرن الحادى عشر الميلادى « أجل تقديرى أن تأثير العرب فى أسبانيا زال تماما ، ولكن بعض المدن الاسبانية ، ولا سيما اشبيلية ، حافلة بذكريات العرب ، ولا تزال بيوتها تبنى على الطراز الاسلامى ، وهى لا تختلف عن نماذجها الا بفقر زخارفها ، ولا يزال الرقص والموسيقا فيها على الطريقة العربية ويشاهد السدم الشرقى فيها بسهولة كما ذكرت ذلك سابقا . أجل ، يمكن أن تباد أمة وأن تحرق كتبها وأن تهدم آثارها ، ولكن تأثيرها يكون أقوى من القلز(٣) غالبا ، ولا يستطيع الانسان محوه ، ولا تكاد تقدر عليه » .

وبعد أن استعرض الاستاذ مارتن بريجز بعض ما أخذته العمارة الغربية عن العمارة الاسلامية قال(٤) :

---

(١) نقله لوبون فى حضارة العرب ص ٥٧٢ .
(٢) ص ٥٧٤ .
(٣) لوبون ص ٥٧٥ .
(٤) Martin S. Briggs
فى مقاله فى كتاب « تراث الاسلام » لارنولد ص ١٥٩ .

« ولم يكن كل ما ذكرناه حتى الآن الا نقطا خاصة مميزة ، لكن الاتصال الوثيق بين الشرق والغرب فى أثناء الحروب الصليبية ، ذلك الاتصال الذى اصبح وديا فى العصور الوسطى المتأخرة ، لابد أن يكون قد خلف أثرا فى فن العمارة ربما غاب فى عجلة قصيرة كهذه ، وفى اسبانيا ظلت الاساليب الاسلامية فى الرسم والتصميم باقية الى آخر عصر النهضة ، واليها يرجع ما نرى فيما كان بالعمارة الاسبانية من خصائص وتعقيدات » .

والغرب مدين للمسلمين بالزخارف الصغيرة البارزة المعروفة فى الفن القوطى والزخارف الحجرية التى تملا بها الشبابيك فى العمارة القوطية ويركب بينها الزجاج ، والعقود ذات الفصوص المتعددة والزخارف المصنوعة من فروع النباتات وتبرز بروزا خفيفا(١) .

واسم أرابيسك الذى يطلق على الموضوعات الزخرفية التلقيدية التى كانت ترسم بارزة بروزا بسيطا فى انجلترة منذ عصر الملكة اليزابث يدل على أن الانجليز مدينون بهذه الزخارف للعرب فى العصور الوسطى(٢) .

وابتكر المسلمون لعمل الزخرفة نوعا من البيتون ، وهو مزيج من الكلس والرمل والصلصل والحصباء التى لا تلبث أن تصبح صلبة كحجارة النقش(٣) .

وتأثر الصليبيون بروعة الزجاج المنقوش الذى شاهدوه فى بلاد الاسلام ، فنقلوا أسراره الفنية التى أدت الى تحسين الزجاج الملون الذى يشاهد فى الكنائس القوطية(٤) .

وكان للقباب الاسلامية(٥) أثر فى أبراج النواقيس فى ايطاليا فى آخر عصر النهضة ، وهى التى نقل عنها المهندس الكبير السير كرستوفررن ما صممه من الابراج(٦) .

وقد استعار الغرب من فن العمارة الاسلامي المشربيات التى وجدت فى قصر الحيرة على مقربة من الرصافة فى سوريا سنة ٧٢٩ م . وفوق باب النصر (١٠٨٧) الذى بناه فى القاهرة بناؤون من أرمينيا . توجد مشربيتان ، ولاشك ان هاتين المشربيتين المعماريتين وضعتا لاستحكامات الدفاع عن سور المدينة ومع ذلك فانهما أقدم بنحو مائة سنة عن تلك المشربيات المعمارية التى وجدت فى شاتو جايار (١١٨٤) وشاتيون (١١٨٦) ونورويتش (١١٨٧) ووينشستر (١١٩٣) .

« وهكذا يظهر جليه ان الصليبيين استعاروا فكرة هذه الظاهرة المعمارية من العرب ، وان العكس لا يمكن أن يكون صحيحا . ومهما يكن من شىء ، فان المشربيات المعمارية التى تبنى على صف من الدعائم لم تلبث أن أصبحت ظاهرة أنيقة جدا فى القصور الفرنسية والانجليزية ابان العصور الوسطى »(٧) .

وهناك أسلوب معمارى آخر أخذه الغرب عن مصر وسوريا هو جعل المدخل الموصل من باب القلعة الى داخلها على شكل زاوية قائمة أو جعله ملتويا لكى لا يتمكن العدو الذى يصل الى الباب من أن يرى الفناء الداخلى أو يصوب سهامه الى من فيه . ويوجد مثل لهذه المداخل الملتوية فى Beaumaris بانجلترة وفى Carcasomne بفرنسا ، وهو فى هذه أكثر ظهورا(٨) .

وبنيت فى صقلية كنيسة بلرمو المسماة capella palatina سنة ١٣٢ اوكنيسة martorana سنة ١٩٣٦ ، وقصر العزيزة la ziza سنة ١١٥٤ وقصر القبة la cuba سنة ١١٨٠م ، ومع انها بنيت جميعا بعد زوال حكم المسلمين ، أى أيام الحكم النورماندى ، فانها تحتفظ بمظاهر عربية بحتة(٩) .

---

(١) بريجز فى المرجع السابق ج ٢ ص ١٥٧ و ١٥٩ .
(٢) بريجز فى المرجع السابق ص ١٥٥ .
(٣) لوبون فى حضارة العرب ص ٥٢٤ .
(٤) ول ديورانت ج ٤ ص ٦٤ .
(٥) المعروف ان القباب كانت موجودة فى الغرب وفى فارس قبل الاسلام ، الا ان المسلمين أحدثوا فيها تطورا كبيرا .
(٦) بريجز فى المرجع السابق ص ١٥١ ويؤيده بريس الافينى حيث يرى أن هذه الابراج كانت كثيرة الاستعمال فى الغرب حتى أواخر القرن السادس عشر . ونقل هذا الراى عن بريس : لوبون ص ٥٧٣ و ٥٧٤ .
(٧) بريجز فى المرجع السابق ص ١٣٩ .
(٨) بريجز فى المرجع السبق ص ١٣٩ و ١٤٠ .
(٩) المرجع السابق ص ١٤٢ و ١٤٣ .

والحال كذلك فى ايطاليا بمدينتى امالفى وسالرنو .

اما عن التأثير المشرقى فى فرنسا فيقول المسيو باتيسييه : ولا يجوز الشك فى ان البنائين الفرنسيين اقتبسوا من الفن المهمة والزخارف فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد ... ألم نجد فى كتدرائية بوى التى هى من اقدس البنايات النصرانية ، بابا مستورا لكتابات العربية ؟ أو لم تقم فى أربونة وغيرها حصون متوجة وفق الذوق العربى ؟

وذكر مسيو لوفورمان ، الذى هو حجة فى هذه الموضوعات مثل باتيسييه أن تأثير العرب واضح فى كثير من الكنائس الفرنسية ، ككنيسة مدينة ماغلون (١١٧٨ م) التى كانت ذات صلات بالشرق وكنيسة كنده (مين ولوار) وكنيسة غاماس (سوم) الخ(١) .

هذه المامة بحضارة الاسلام لست أدرى أن كانت تفى بالغرض وأنا أستسمح الكاتب الامريكى العظيم ول ديورانت فى أن أختم هذه الالمامة بما اختتم هو به المجلد الذى خصصه لحضارة المسلمين فى معجمه الكبير « قصة الحضارة(٢) » .

قال : وبعد فان القارىء العادى ستعتريه الدهشة من طول هذه الالمامة بحضارة المسلمين ، وسيأسف العالم الباحث لما يجده فيها من ايجاز غير خليق بها . أن عصور التاريخ الذهبية دون غيرها هى التى انجبت فيها المجتمع ، فى مثل هذا الزمن القصير ، ذلك العدد الجم من الرجال الذين ذاع صيتهم فى الحكم ، والتعليم ، والاداب ، واللغات والجغرافيا والتاريخ والرياضة والفلك والكيمياء ، والفلسفات والطب كما انجب الاسلام فى الاربعة القرون الفاصلة بين هرون الرشيد وابن رشد . وقد استمد بعض هذا النشاط المتلالىء مادته من تراث اليونان ، ولكن الكثير منه ، وبخاصة فى الحكم ، والشعر ، والفن كان نشاطا مبتكرا لاتقدر قيمته . ولقد كانت هذه الذروة من نهضة الاسلام من بعض نواحيها تحريرا للشرق الادنى من سيطرة اليونان العلمية ، ولم تمتد الى فارس الساسانية والاكيمينية فحسب ، بل امتدت كذلك الى بلاد اليهود وبلاد سليمان والى اشور بانيبال ، والى بابل حمورابى ، واكاد سرجون . وسومر بلد الملوك الذين لاتعرف أسماؤهم . وهكذا يثبت مرة أخرى اتصال حلقات التاريخ بعضها ببعض : ذلك أن الاسس الجوهرية فى الحضارة لا تضيع ابدا مهما حل بها من زلازل وأوبئة ، وجدب ومجرات مدمرة وحروب مخربة مهلكة . بل أن ثقافات فنية تمتد ايديها الى هذه الاسس فتنتشلها من هذا اللهل وتمد حياتها بالتقليد والمحاكاة ثم بالخلق والابتكار حتى أينعت فى الشعب الناشىء شباب جديد وروح وثابة جديدة . وكما أن الناس أعضاء فى مجتمع والاجيال لحظات فى تسلسل الاسر فان الحضارات وحدات فى كل أكبر منها وأعظم اسمه التاريخ ، فهى مراحل فى حياة الانسانية . أن الحضارة متعددة الأصول ، وهى نتاج تعاونى لكثير من الشعوب والطبقات والاديان وليس فى وسع من يدرس تاريخها أن يتعصب لشعب أو لعقيدة . ومن أجل هذا فان العالم وأن كان مواطنا فى بلدة يحبه لما يربطه به من صلات وثيقة يحس ايضا بانه مواطن فى بلد العقل الذى لا يعرف عداوات ولا حدودا . وهو لا يكاد يكون خليقا باسمه اذا ما حصل معه فى أثناء دراسته اهواء سياسية ، أو نزعات عنصرية ، أو عداوات دينية ، وهو يقدم لكل شعب حمل مشعل الحضارة وأغنى تراثها شكره وأجلاله .

---

(١) نقله لوبون ص ٥٣٣ .
(٢) مجلد رقم ٤ ج رقم ٢ .

الفصل الرابع

عودة رسل العلم

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر

وحسن فعل كما يجزى سنمار

لست أريد أن اتعرض فى هذا الحديث الختامى لحضارة المسلمين وأثرها فى ايطاليا وفرنسا وانجلترة ، وما لحق المسلمين من وسائل الاستعمار والاستغلال الجماعى واشاعة الفرقة على أيدى هؤلاء الايطاليين والفرنسيين والانجليز، فأنا اجد لهم العذر ، ذلك بأن بعد العهد بين تمدن هؤلاء الناس على أيدى المسلمين فى القرون الوسطى ، وبين استعمارهم لبلاد الاسلام فى العصر الحديث ، قد طوى فضل العرب المنشور وانسى تراثهم المشهور . وهم معذورون كذلك ، لأن نقلهم لحضارة العرب كان فى أغلب صوره عن طريق الكتب او فى أوقات المقت والغضب كما حدث فى الحروب الصليبية ، وعلى أيدى جماعات قليلة رحلت للحرب أو للحج أو للسياحة ، ولكن الايطاليين لم يشهدوا المسلمين باشخاصهم فى روما ، كذلك لم يشهد الفرنسيون ولا الانجليز حضارة العرب مجسمة فى ديارهم ولا لمسوا خلقهم الا عن طريق الرواية والرواية غير العيان .

ولكى أوجه خطابى الى الاسبان . لقد انشأ العرب فى كل ناحية من نواحى اسبانيا مدارس ومكتبات ومختبرات وترجموا كتب اليونان ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعة والكيماوية والطبية بنجاح . ولم يكن نجاحهم فى الصناعة والتجارة أقل من ذلك ، فكانوا يصدرون منتجات المناجم ومعامل الاسلحة ومصانع النسيج والجلود والسكر الى افريقية والشرق بواسطة تجار من اليهود والبربر . وبرع العرب فى الزراعة براعتهم فى العلوم والصناعات . ولا يوجد فى اسبانيا اليوم من اعمال الرى خلا ما اتمه العرب . وادخل العرب الى حقول الاندلس الخصبة زراعة قصب السكر والتوت والارز والقطن والموز الخ ، واصبحت اسبانيا التى هى صحراء حقيقية فى الوقت الحاضر عدا بعض اقسام فى جنوبها ، جنة واسعة بفضل اساليب العرب الزراعية الفنية واستطاع العرب أن يحولوا اسبانيا ماديا وثقافيا فى بضعة قرون ، وان يجعلوها على راس جميع الممالك الاوروبية وكانت البحرية قوية جدا وكانت تتم بفضلها صلات العرب التجارية بجميع مرافىء أوروبا وآسيا وأفريقيا وظل وحدهم سادة البحر المتوسط زمنا طويلا !

واذا ما نظر المرء الى الحمراء من اسفل الصخور التي تتوجها رآها ابراجا مربعة ذات الوان قرمزية يناطح أعلاها السحاب ويسفر أدناها عن نبات أخضر كثيف . واذا ما مر المرء من تحت الاشجار التى تجف بها وسمع تغريد الطيور التى عليها وخرير الماء الذى يجرى فى السواقى والقنوات القريبة منها فدخل ذلك القصر الشهير راى ما تغنى به الشعراء ، ولا سيما صاحب المشرقيات ، فيكتور هيجو الذى انشد قائلا « ايتها الحمراء ايتها الحمراء ! أيها القصر الذى زينتك الملائكة كما شاء الخيال وجعلتك آية الانسجام ، ايتها القلعة ذات الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والاغصان والمائلة الى الانهدام، حينما تنعكس اشعة القمر الفضية على جدرك من خلال قناطرك العربية يسمع لك فى الليل صوت يسحر الالباب ! » .

لقد شهد الاسبان فروسية المسلمين فى عقر

---

(١) لوبون ص ٢٩٢ .

دارهم ، ولمسوا شهامتهم ومروءتهم ، بين اعينهم لا قراءة من الكتب ، ولقد شهدت السيدة بيرنجر ملكة طليطلة ، والى قرطبة المسلم وقد ضيق الخناق على طليطلة ، شهدته الملكة ينسحب ، محييا اياها ، عندما نبهته الى انه لا يليق بفارس بطل شــهم كريم أن يحاصر امراة . فماذا لقى العرب من الاسبان ؟

لما دعا الطاغية بطره ابا سعيد ملك غرناطة ، اعجبه ما كان يتحلى به أبو سعيد من جوهر فلم ير غير سلبه اياه بقتله غدرا ! ولا تزال باتورة حمراء مما سلب من أبى سعيد تحلى تاج ملكة انجلترة ، اهديت من احد ملوك الاسبان(١) !

وما أظن لوبون عندما قال « ومما لاريب أن قواعد الفروسية التى جاء بها العرب أدت الى اصلاح طبائع الأوربيين أكثر من جميع التعــاليم الدينية » ما أظنه عندما قال ذلك ، كان يعتقد أن الاسبان قوم أوربيون !

ان فروسية المسلمين شذبت ماعدا الاسبان ، فماذا فعل الاسبان أيضا بالمسلمين ؟ هذا نص ما كتبــه لوبون(٢) ، ولم يبق للعرب فى اواخر القرن الثالث عشر سوى مملكة غرناطة ، ولما تزوج ملك أرغونة فــرد يناند الكاثوليكى ملكة قشتالة ايزابيــلا ، وتمت بــذلك وحدة تينك الدولتين ، حاصر فى سنة ١٤٩٢ غرناطة التى كانت آخر معقل للاسلام فى اســبانيا وفتحها ثم ضم اليه مملكة نبره ، فأصبحت جميع اسبانيا خلا البرتغال تابعة لعرش واحد ..

« وعاهد فرديناند العرب على منحهم حرية الدين واللغة ، ولكن سنة ١٤٩٩ م لم تكد تحل حتى حل بالعرب دور الاضطهاد والتعذيب والذى لم ينته الا بطرد العرب من أسبانيا ، وكان تعميد العرب كرها فاتحة ذلك الدور ، ثم صارت محاكم التفتيش تأمر باحراق كثير من المعمدين على انهم من النصارى ولم تتم عملية التطهــير بالنار الا بالتدريج لتعذر احراق الملايين من العرب دفعة واحدة ونصح كردينال طليطلة التقى الذى كان رئيسا لمحاكم التفتيش ، بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالا ونساء وشيوخا وولدانا ولم ير الراهب الدومنيكى ، بليدا الكفاية فى ذلك فاشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ومن بقى على دينه منهم وحجته فى ذلك أن من المستحيل معرفة صدق ايمان من تنصر من العرب فمن المستحب اذن ، قتل جميع العرب بحد السيف لكى يحكم الرب بينهم فى الحياة الاخرى ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم ولم تر الحكومة الاسبانية أن تعمل بما أشار به هذا الدومنيكى والذى أيده الاكليروس فى رأيه لما قد يبديه الضحايا من مقاومة . وانما امرت فى سنة ١٦١٠ م ، باجلاء العرب من أسبانيا فقتل أكثر مهاجرى العرب فى الطريق وابدى ذلك الراهب البارع ، بليدا ارتياحه فقتل ثلاثة أربــاع هؤلاء المهاجرين فى أثناء هجرتهم وهو الذى قتل مئة الف مهاجر من قافلة واحــدة كانت مؤلفة من ١٤٠،٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت متجهة الى افريقية وخسرت اسبانية بذلك مليون مسلم من رعاياها فى بضعة أشهر ، ويقدر كثير من العلماء ومنهم سيديو ، عــدد المسلمين الذين خسرتهم اسبانية ، منذ أن فتح فردیناند غرناطــة حتى اجلائهم الاخير ، بثلاثة ملايين ، ولا تعد محنه ســان بارتلمى ازاء تلك المذابح ســوى حادثة تافهه لا يؤبه لها ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين جيوش الفاتحين من يؤاخــذ على اقترافه مظالم كتلك التى اقترفت ضد المسلمين »

لقــد اضطهدوا المســلمين ، عذبوا البعض وحرقوا البعض أحياء وهددوا من بقى تهديدا شاملا ، ولقد ثبت لنا انه لم يأت عام ١٥٢٦ الا وكان كل مسلم فى أسبانيا قد نصر ، فقد عمد كثير منهم بالقوة ، وما داموا عمدوا فقد أصبحوا مسيحيين مسئولين عن تنفيــذ نظام الكنيسة الذى كانت تشرف عليه محاكم التفتيش طوال المدة الباقية من القرن السادس عشر ، فاخضع المنصرين الجدد الى أشنع ما يمكن أن يتصور من الهمجية ، ولقد شــكوا فى حقيقــة اخلاصهم للمسيحية ، فكانت مهمــة الكنيســة يعاونها السلطات الحاكمة أن تتحرى عن حقيقة ايمانهم . ومن القوانين العديدة التى أصدرها فيليب الثانى مرسوم ١٥٦٦ يأمر فيه هؤلاء المنصرين أن يهجروا كل شىء يخشى منه أن يذكرهم بشعائرهم القديمة وأمروا تحت تهديد العقوبات الشنيعة أن يهجروا جميع الكتب العربية .

ومنعوا من قراءة العربية وكتابتها والتحدث بها فى بيوتهم ، وحرمت عليهم أنواع اللهو التى

---

(١) لوبون ص ٣٨٠ .
(٢) ص ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٧٢ .

كان يمارسها اباؤهم او يتزيوا بزيهم القديم . واجبر نساؤهم على الخروج بغير حجاب ، ودمرت جميع الحمامات العامة والخاصة .

ولما طرد آخر بقايا المسلمين من هذه البلاد سنة ١٦١٠ كان هؤلاء الاهالى المساكين لايزالون يتمسكون بدين آبائهم ، مع انهم ارغموا على اظهار تدينهم بالمسيحية اكثر من قرن ، وقد توالت الهجرات التى حدثت منذ سقوط غرناطة حتى قيل انه طرد فى ذلك الوقت اكثر من خمسمائة الف (١) .

وقد هجرت مدن وقرى برمتها ، تخربت بيوتها واصبحت اطلالا بالية ، حتى لم يعد فيها شخص واحد يقوم ببنائها من جديد(٢) .

لقد ثار الكاردينال ريشليو الذى لم يكن بطبعه واسع الرحمة فوصف هذه الحركة بانها اكبر حركة بربرية متهورة عرفتها العصور الوسطى(٣)

وظن رئيس الأساقفة الاسبانى اكنز منيس انه باحراقه مؤخرا ما قدر على جمعه من مخطوطات أعداء دينه العرب (اى ثمانين الف كتاب) محا ذكرهم من صفحات التاريخ الى الإبد ، ومادرى أن ماتركه العرب من الاثار التى تملأ بلاد اسبانيا ومؤلفاتهم ، يكفى لتخليد اسمهم الى الابد .

وكانت عاصمة الخلافة ، قرطبة ، دارا للعلوم والفنون والصناعة والتجارة ونستطيع أن نقابلها بعواصم دول أوربا العظمى الحديثة ، وهى على خلاف قرطبة الحاضرة التى اصبحت مقرا للاموات

ومن المؤلم انى كنت اسير عدة ساعات فى هذه المدينة الواسعة التى كان يقيم بها مليون شخص قبل أن أصادف مارا نشيطا !

اجل كان من النصر العظيم أن احل النصارى الصليب محل الهلال فى قرطبة ، ولكن الهلاك كان يهيمن على أغنى مدن العالم واجملها واكثرها أهلا ، فيشرف الصليب اليوم على بقايا تلك الحضارة القومية التى قوضها عبده من غير أن يقيموا حضارة أخرى مقامها(٤) .

« وفى نفس الوقت الذى كان يحدث فيه هذا الاضطهاد وما تبعه من تعذيب وأحراق للاحياء وتشريد لافناء امة بأسرها ، كانت اجراس الكنائس تدوى فى جميع انحاء العالم العربى ، جنبا الى جنب مع اذان المؤذنين ، هذه تدعو النصارى وتلك تدعو المسلمين لاداء فريضة الله ، يؤديها كل فرد للديان الاعظم ، لا اكراه فى الدين ، ولا ديان غير الله » (٥) .

ولكن ماذا جنى الاسبان ؟ قال لوبون : وكان من سرعة الانحطاط الذى عقب اجلاء العرب وقتلهم ما يمكننا أن نقول معه أن التاريخ لم ير أمة كالاسبان هبطت الى الدرك الأسفل فى وقت قصير جدا ، فقد توارت العلوم والفنون والزراعة والصناعة وكل ماهو ضرورى لعظمة الامم ، غن بلاد أسبانيا على عجل وقد اغلقت أبواب مصانعها الكبرى واهملت زراعة اراضيها وصارت أريافها بلاقع(٦) .

وها هى ذى عدة قرون مضت على ذلك الدور من غير أن تستطيع أسبانيا أن تنهض من هبوطها مع ما بذل من جهود(٧) .

ولم تستطع أطيب الجهود أن تنهض ببلاد

---

(١) Lea : The Mouscus p. 259.
(٢) Morgon V. ii. p. 337.
(٣) Buckler. 2 p. 283
(٤) لوبون ص ٢٧٤ و ٢٧٥ .
(٥) جلال مظهر فى مآثر العرب على الحضارة الاوروبية ص ٥٨ .
(٦) حضارة العرب ص ٥٨٤ . وقد عقد مقارنة بين أحوال المدن الهامة أيام العرب وعقب اجلائهم من اسبانيا فذكر ان اشبيليه كان بها ١٦٠٠ حرفة تكفى لاعاشة ١٣٠ الف شخص فأصبحت ٣٠٠ حرفة وفقدت ٢/٤ سكانها كما جاء فى رسالة الكورتى الى الملك فيليب الرابع . وخسرت طليطلة جميع مصانعها الحريرية التى كانت تعول ٤٠ ألف شخص . وانه عندما اراد الاسبان فى أوائل القرن الثامن عشر انشاء مصنع للصوف فى شتونيه جلبوا له العمال من هولنده — ص ٥٨٤ .
(٧) لوبون ص ٢٧٢ وعقد مقارنة بين حال اسبانيا فى عهد العرب وبين حالها اليوم فقال ان طليطلة كان سكانها ٢٠٠ الف فصارت اليوم ١٧ الفا وقرطبة كان سكانها مليونا فصار اليوم ٤٢ الفا وكان بولاية شلمنتة ١٢٥ مدينة بقى اليوم منها ١٣ (نفس الموضع من نفس المرجع) .

اسبانيا التعس ، فاليوم لا تجد فيها زراعة ولا صناعة(١) واليوم تستعين بالأجانب فى كل ماتحتاج الى استعداد يزيد على أدنى مستوى . واليوم يدير الاجانب مصانعها ويمدون خطوطها الحديدية ويمدونها بما يسوق قطاراتها ولكل ماله علاقة بالعلوم والصناعات .

وبلاد هذه حالها تعد من البلاد التى لا تقدر على معالجة امورها اية حكومة قديرة حرة أو غير حرة ، وذلك ان الحكم لا يمكن بغير موافقة الجمهور وان الجمهور الاسبانى دون حكومته دائما مهما كانت هذه الحكومة قليلة الرقى . أجل تتمتع اسبانيا بمظاهر الحضارة ، ولكن هذا لا يعدو حد المظاهر ، فالجهل عام فيها كما كان فى العصور الوسطى(٢) ولو قيض لمحاكم التفتيش ان تعود اليوم الى اسبانيا لرأت جميع طبقات الشعب الاسبانى ظهيرا لها . والحكم العادل الشديد الذى أصدره المؤرخ الانجليزى الكبير بكل منذ بضع سنين على اسبانيا يسرى على حاضرها وعلى زمن طويل من مستقبلها لاريب . قال بكل :

« لا تزال اسبانيا نائمة هادئة فاقدة للحس غير شاعرة بكل ما يجرى فى بقية العالم ، اى معدومة غير موجودة . واسبانيا هناك ، حيث اقصى نقطة فى القارة لم تكن وهى جامدة ضخمة الجرم ممثلة لغير مشاعر القرون الوسطى وأفكارها . ومما يحزن فيها كثيرا اقتناعها بحالها واعتقادها أنها أرقى أمم اوربا مع أنها أكثرها تأخرا . هى فخور بكل ما يجب أن يحمر وجهها منه خجلا ، فخور بقدم آرائها ، فخور بقوة ايمانها فخور بسرعة تصديقها الطائش الذى لا حد له ، فخور برفضها لاصلاح معتقداتها وعاداتها ، فخور بحقدها على الملحدين ، فخور بيقظتها الدائمة فى أبطال كل ما يعملونه ليستقروا بأرضها استقرارا شرعيا ، ومن مجموع هذه الامور تتألف تلك الخلاصة الكئيبة التى تسمى اسبانيا (٣) .

والآن ، نلاحظ أن التاريخ قد سجل للدولة الاسلامية نكبات شداد وعارات عليها أشد عتوا وأكثر دويا ، ومع ذلك طأطأ المغيرون رؤوسهم للاسلام ، فقد استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ ــ ١٢٥٨ م ، وخربوها تماما، وخنقوا آخر العباسيين ، المستعصم بالله ، بأمر رئيس الغالبين ، هولاكو ، ونهبوا ما فى بغداد من الأموال ، وحرقوا كتبها(٤) التى جمعها قبل هذه الكارثة الهائلة محبو العلم والقوها الى نهر دجلة ، فتألف منها جسر كان يمكن لناس أن يمروا عليه رجالا وركبانا ، وأصبح ماء دجلة أسود من مدادها كما روى قطب الدين الحنفى .

ولكن أولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار فى المبانى وأحرقوا الكتب وخربوا كل شىء نالته أيديهم خضعوا لسلطان حضارة المغلوبين بدورهم ، حتى ان هولاكو الذى خرب بغداد وأمر بجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب ، الجديدة فى نظره ، فلم يلبث أن صار من حماتها ، وفى المدرسة العربية تمدن المغول واعتنقوا دين العرب وحضارتهم وشملوا متفننى العرب والعلماء برعايتهم ، واقاموا فى بلاد الهند دولة قوية عربية من فورهم ، وأحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة ولا يزال سلطان حضارة العرب مسيطرا هناك حتى اليوم .

فكيف يحدث لمثل هذه الأمة ما حدث لها فى اسبانيا ؟

الجواب عن ذلك يسير ، فقد كان مسلمو الأندلس يختلفون عن مسلمى المشرق كان مسلمو الأندلس قلة من العرب من السهل ابادتهم ومحو آثارهم ، ولقد ظلوا قلة منذ فتح الأندلس حين قطعوا صلتهم السياسية بالدولة العباسية فى أيام مجدها وحين كانت قادرة على ملء كل فراغ فى شعاب الأندلس ، ولو أن الامويين بالأندلس وطدوا صلتهم بالدولة الاسلامية وقتئذ لظلت

---

(١) ذكر مسيو لوتا ملادة فى مجلة الجمعية الجغرافية المدريدية سنة ١٨٨٢ أن ٤٥٪ من اراضى اسبانيا لا تصلح للفلاحة الان مع انها كانت غنية جدا أيام العرب وان نسبة القسم الخصب منها لا يجاوز ١٠٪ بعد أن احرق الاسبان غاباتها (ص ٥٨٦ هامش ٢) .

(٢) ذكر لوبون ان الاحصاء الاخير لاسبانيا يفيد ان ٣/٤ سكانها البالغ ١٦،٦٠٠،٠٠٠ اميون لا يقراون ولا يكتبون (ص ٥٨٦) .

(٣) لوبون ص ٥٨٦ و ٥٨٧ .

(٤) أنظر تفصيل الكارثة فى ول ديورانت مج ٤ ج ٢ ص ٢٨٠

الأندلس درة فى تاج الدولة الاسلامية ولكنهم لم يفعلوا ، فلما تكاثر عليهم النصارى لم يجدوا من ينصرهم ، فقد كانت الدولة الاسلامية فى ذلك العهد نهبا لحكام لم يخلصوا الا لشهواتهم . ولولا أن عهد الترجمة فى اسبانيا بدأ قبل خروج العرب من هناك لكان من المحتمل أن يتغير وجه التاريخ، فينسد باب من مسالك الثقافة الاسلامية الى الدول الأوربية وينطفىء شعاع لم تعرف أوروبا طريقها الى الحضارة الا على هداه .

دمعة على الأندلس :

لقد بكى أبو البقاء صالح بن شريف الرندى(١) حال الأندلس لما اقتطع فردناندو الثالث وحاكمه gaimel بعض مدن الأندلس الاسلامية رأينا اثباتها لنبين مدى فظاعة الاسبان قال :

لكل شىء اذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش انسان

هى الأمور — كلما شاهدتها — دول
من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقى على احد
ولا يدوم على حال لها شان

اين الملوك ذوو التيجان من يمن ؟
وأين منهم أكاليل وتيجان ؟

وأين ما شاده شداد فى أرم ؟
وأين ماساسه فى الفرس ساسان ؟

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له
هوى له أحد وانهد ثهلان

أصابها العين فى الاسلام فامتحنت
حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بلنسية : ما شأن مرسية
وأين شاطبة ، أم أين جيان ؟

وأين قرطبة ، دار العلوم ، فكم
من عالم قد سما فيها له شأن ؟

وأين حمص ، وما تحويه من نزه
ونهرها العذب فياض وملآن ؟

بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم
واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
عليهم من ثياب الذل الوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
لهالك الأمر واستهوتك احزان

يا رب ام طفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبدان

وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت
كانما هى يا قوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهة
والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد
ان كان فى القلب اسلام وايمان(٢)

---

(١) الزهار الرياض للمقرى ج ١ ص ٤٧ ط ١٩٣٩ وورد اسم صاحبها « أبو الطيب صالح بن شريف » .
(٢) صارت هذه القصيدة رثاء عاما لمدن الأندلس ، كلماسقطت مدينة أضيفت الى القصيدة أبيات بشأنها كما حدث ذذلك عند سقوط بسطه وغرناطة — انظر المرجع السابق .

مراجع الكتاب

المراجع العربية

— الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبى الريحان البيرونى . ليبسك ١٨٧٨ .

— آثار البلاد وأخبار العباد — القزوينى — ١٨٤٨ جوتنجن .

— آراء ابن خلدون الاقتصادية — رسالة — الدكتور أحمد على نشأت .

— أبجد العلوم لحسن صديق خان .

— ابن خلدون — حياته وأثره الفكرى لمحمد عبد الله عنان — ١٩٥٣ .

— احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم — المقدسى — ١٨٧٦ ، ١٩٠٦ لايدن .

— أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى طبعة ليبزج ١٩٠٣ م .

— اخوان الصفا — عمر الدسوقى سنة ١٩٤٧ دار احياء الكتب العربية .

— الادارة الاسلامية فى عز العرب لمحمد كردعلى .

— الارشاد لياقوت .

— أزهار الرياض للمقرى .

— الاستبصار فى عجائب الأمصار — الأدريسى ١٨٥٢ فيينا وترجمة لبعض أجزائه بالفرنسية ١٨٦٦ ، ١٩٠٠ .

— الاسلام فى اسبانيا — دكتور لطفى عبد البديع — ١٩٥٨ — مكتبة النهضة المصرية .

— الاشارات والتنبيهات لابن سينا دار المعارف ١٩٦٠ .

— اصول القانون — الدكتور مختار القاضى ١٩٦٠ — لجنة البيان العربى .

— الاعتبار لابن منقذ ١٨٨٤ — لايدن .

— الاعتصام للشاطبى .

— الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ١٢٨٥ هـ .

— البخارى .

— بدائع الزهور فى وقائع الدهور محمد ابن أحمد بن اياس — طبعت مختارات منه فى مطابع الشعب سنة ١٩٦٠ .

— البيان والتبيين للجاحظ .

— بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى — دكتور صوفى حسن أبو طالب — مطبعة نهضة مصر بالفجالة .

— تاريخ ابن خلدون .

— تاريخ أبى الفدا — ١٢٨٦ هـ الاستانة .

— تاريخ بغداد — أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادى — ١٩٣١ — مطبعة السعادة .

— تاريخ التمدن الاسلامى . جورج زيدان ١٩٥٨ — مطابع دار الهلال .

— تاريخ الحكماء للقفطى .

— تاريخ سنى ملوك الأرض والانبياء لحمزة الأصفهانى .

— تاريخ الطبرى طبعة ليدن وطبعة الحسينية .

ـ تاريخ الفلسفة الأوروبية . يوسف كرم ١٩٥٧ ـ مطبعة المعارف بمصر .

ـ تاريخ مصر فى عهد البطالمة ـ دكتـور ابراهيم نصحى ـ ١٩٦٠ ـ مكتبة الأنجـلو المصرية .

ـ التصوير الاسلامى للدكتور حسن الباشا ـ ١٩٥٩ ـ النهضة المصرية .

ـ تجارب الأمم لابن مسكويه .

ـ تجديد ذكرى أبى العلاء ـ دكتور طـه حسـين ـ طبعة ثالثـة ١٩٣٧ ـ مطبعـة المعـارف .

ـ تراجم الحكماء لابن القفطى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، ونشر ١٩٠٣ فى ليبسك .

ـ التعريف بابن خلدون (مطبوع ضـمن ديوان العبر ١٢٨٤) و ١٩٥١ القاهرة (ترجمـة كاترمير الى الفرنسية وعلق عليه ١٨٥٨ ـ ١٨٦٨ باريس) .

ـ تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية . الشيخ مصطفى عبد الرازق . طبعة ثانيـة ١٩٥٩ ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ـ تنقيح المناظر لذوى الأبصار والبصائر ـ كمال الدين أبو الحسن الفارسى .

ـ تهافت التهافت لابن رشد .

ـ تهافت الفلاسـفة للغـزالى المطبعـة الكاثوليكية .

ـ جامع مفردات الأغذية والأدوية ـ ابن البيطار ١٨٧٨ ـ ١٨٨٣ باريس (مع ترجمـة فرنسية) .

ـ جغرافية الادريسى .

ـ حاشية الغزى على التوضيح .

ـ حسن المحاضرة فى مصر والقاهرة للسيوطى ـ ١٢٩٩ هـ القاهرة .

ـ الحسن بن الهيثم ـ مصطفى نظيف ١٩٤٢ مطبعة نورى بمصر ، وفيها شرح لكتاب المناظر .

ـ حق المؤلف ـ الدكتور مختار القاضى ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠ ـ مكتبة الأنجلو المصرية .

ـ حى بن يقظان ـ لابن سينا ـ ولابن طفيل

ـ وللسهروردى ـ تعليق الأستاذ أحمد أمين سنة ١٩٥٩ ـ دار المعارف بمصر .

ـ دانتى ـ مصطفى آل عيال دار المعارف بمصر .

ـ دائرة المعارف الاسلامية العربية .

ـ دائرة المعارف الحديثة لأحمـد عطية الله ١٩٥١ .

ـ دائرة معارف البستانى .

ـ الذخيرة لابن بسام .

ـ الرأى فى الفقه الاسلامى . دكتور مختار القاضى ـ ١٩٤٩ ـ مطبعة الفكرة .

ـ رباعيات الخيام لأحمد رامى الطبعـة الخامسـة .

ـ رحلة ابن بطـوطة .

ـ رحلة ابن جبير ـ ليدن ١٩٠٧ والقاهرة ١٩٥٥ .

ـ رحلة ناصر خسرو .

ـ رسـالة الحسـن بن الهيثم فى الضـوء عبد الحميد حمدى مرسى ١٩٣٨ ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ـ رسائل اخوان الصفا طبعة دار صـادر ودار بيروت ـ لبنـان .

ـ رسائل البلغاء ـ جمع محمد كرد على سنة ١٩٤٦ ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمـة والنشر .

ـ سرح العيون لابن نبـاته .

ـ السلاح فى الاسلام لعبـد الرحمن زكى ١٩٥١ .

— الشاهنامه لأبى القاسم الفردوسى (ترجمتها للنثرية التى قام بها الفتح بن على البندارى) — طبعة سنة ١٩٣٢ .

— صورة الأرض (المسالك والممالك) لابن حوقل ١٨٧٣ ، ١٩٤٠ لايدن .

— ضحى الاسلام الأستاذ أحمد أمين ١٩٣٨ — ١٩٤٣ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

— طبقات الأمم لأبى القاسم صاعد بن أحمد — مطبعة السعادة بالقاهرة — بيروت سنة ١٩١٢ مع ترجمة فرنسية .

— ظهر الاسلام — الأستاذ احمد أمين — طبعة ثانية ١٩٥٧ — ١٩٦١ — مكتبة النهضة المصرية .

— عجائب المخلوقات للقزوينى ، على هامش الدميرى ١٣٠٩ هـ .

— عدة الطالب للأصيلى .

— العرب قبل الاسلام — جورجى زيدان مطابع دار الهلال .

— العقد الفريد لابن عبد ربه سنة ١٣٠٥ هـ — ١٩٤٠ ميلادية — طبعتان .

— عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١٨٨٢ .

— الغزالى — للدكتور أحمد فريد رفاعى سنة ١٩٢٦ مطبعة عيسى البابى الحلبى .

— فتوح البلدان — البلاذرى — ١٨٦٦ ليدن — ١٩٢٢ القاهرة — ١٩٥٦ — ٥٨ القاهرة .

— فجر الاسلام لأحمد أمين .

فجر الأندلس — الدكتور حسين مؤنس ١٩٥٩ — الشركة العربية للطباعة والنشر .

— الفرق بين الفرق للبغدادى .

الفصل فى الملل والاهواء والنحل — ابن حزم الظاهرى ١٣٤٧هـ — مكتبة محمد على صبيح .

— فصل المقال لابن رشد .

— فصل من « آراء » أهل المدينة الفاضلة للفارابى « تعليق الدكور على عبد الواحد وافى سنة ١٩٦١ — لجنة البيان العربى » .

— فضل العرب على الحضارة الأوربية سعيد عبد الفتاح عاشور — ١٩٥٧ .

— فضل العرب على الحضارة العالمية — بحث أحمد فؤاد الأهوانى — مطبعة جامعة القاهرة — ١٩٥٩ .

— فضل هاشم على عبد شمس نشر بين رسائل الجاحظ — جمع السندوبى .

— الفكر السامى فى تاريخ الفقه الاسلامى للحجرى .

— فلسفة ابن طفيل ورسالة حى بن يقظان — الدكتور عبد الحليم محمود مكتبة الأنجلو المصرية .

— الفلسفة الهندية مع مقارنة بفلسفة اليونان والتصوف الاسلامى (فصول من كتاب البيرونى«فى تحقيقماللهند منمقولة مقبولةفىالعقل أو مرذولة » تقديم الدكتورين عبد الحليم محمود وعثمان عبد المنعم يوسف — مطبعة أحمد على مخيمر .

— الفهرست لابن النديم — المكتبة التجارية الكبرى .

— فوات الوفيات .

— فى ذكر محاسن فضلاء جزيرة صقلية — للعماد الأصفهانى .

— فيلسوف العرب والمعلم الثانى — الشيخ مصطفى عبد الرازق .

— الفيلسوف المفترى عليه (ابن رشد) تأليف دكتور محمود قاسم — مكتبة الانجلو المصرية .

— القانون لابن سينا — ١٥٩٣ روما — القاهرة .

ـ قصص الحيوان وكتاب كليلة ودمنة فى الآداب الشرقية والغربية ـ حامد عبد القادر ـ مطبعة لجنة البيان العربى .

ـ قصص الحيوان فى الأدب العربى ـ عبد الرازق حميدة ١٩٥١ ـ مكتبة الانجلو المصرية .

ـ قضاة الأندلس للخشنى .

ـ الكامل لابن الأثير ـ ١٣٠٢ هـ .

ـ كتاب البلدان ـ اليعقوبى ، ١٨٨٥ ـ ١٨٩٢ لايدن .

ـ كتاب الجبر والمقابلة ـ محمد بن موسى مشرفة ومحمد مرسى أحمد ، تقديم الدكتور على مصطفى نورى ١٩٣٩ مطبعة فتح الله الياس نورى .

ـ كتاب الخراج وصنعة الكتاب لقدامه بن جعفر ـ مخطوط . باريس .

ـ الكتاب الذهبى للعيد الألفى لابن سيناء بغداد .

ـ كتاب الصلة فى تاريخ علماء الأندلس لابن بشكال مدريد ١٨٨٢ .

ـ كتاب العبر وديون المبتدا والخبر لعبد الرحمن بن خلدون فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ـ ١٢٨٤ هـ بولاق .

ـ كشف الظنون لكاتب جلبى (حاجى خليفة) .

ـ « الف باء » لأبى البقاء يوسف ابن الشيخ البلوى ـ مادة الاسكندرية .

ـ لب اللباب فى رد جوابات ذوى الألباب .

ـ لطائف المعارف للثعالبى .

ـ مآثر العرب على الحضارة الأوروبية . جلال مظهر ـ ١٩٦٠ ـ مكتبة الانجلو المصرية .

ـ متنوعات ـ الدكتور محمد كامل حسين (طبيب) ـ مكتبة النهضة المصرية .

ـ مختصر الدول لأبى الفرج الملطى الشهير بابن العبرى ١٨٩٠ بيروت .

ـ المدخل الى تاريخ الحضارة . دكتور جورج حداد ـ ١٩٥٤ ـ مطبعة الجامعة السورية .

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ أبو حسن على المسعودى ـ ١٣٠٤ هـ القاهرة ـ ١٨٦١ ـ ١٨٧٧ باريس (مع ترجمة فرنسية) .

ـ المسالك والممالك لابن خرداذبه ١٨٨٠ ليدن .

ـ المسالك والممالك للاصطخرى ١٨٧٠ ليدن .

ـ المستصفى للغزالى .

ـ مسكويه .

ـ مطالع البدور فى منازل السرور ـ الغزولى ـ ١٢٩٩ هـ القاهرة .

ـ معجم الأدباء (ارشاد الأريب الى معرفة الاديب ـ شهاب الدين ياقوت الحموى ١٩٣٨ القاهرة .

ـ معجم البلدان ـ شهاب الدين ياقوت الحموى ١٨٧٠ ليدن و ١٩٠٦ القاهرة .

ـ المقايسات لأبى حيان التوحيدى طبعة السندوبى .

ـ مقدمة ابن خلدون (مطبوعة كجزء من كتاب العبر ١٢٨٤ هـ) ، ١٩٠٠ بيروت و ١٩٥٧ القاهرة ، ترجمة دوسلان للفرنسية ١٨٦٢ ـ ١٨٦٨ باريس .

ـ الملل والنحل ـ الشهرستانى ـ ١٣٤٧ هـ مكتبة محمد على صبيح .

ـ المنتظم لابن الجوزى .

ـ الموافقات للشاطبى .

ـ النجاة لابن سينا .

ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ١٨٦٢ ، ١٩٤٩ القاهرة (١٨٥٥ ـ ١٨٦٦) لايدن ، وهى غير كاملة .

ـ وفيات الأعيان ـ لابن خلكان و ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣ القاهرة وترجمة دوسلان الى الفرنسية فى باريس . ولندن ١٨٤٣ ـ ١٨٧١ .

كتب اجنبيـة مترجمـة

ــ اثر الشرق فى الغرب . جورج يعقـوب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على ١٩٤٦ (الترجمة بتصرف) مطبعة مصر .

ــ تاريخ الحضارة الشرقية القديمة (فصول من كتاب انتصار الحضـارة) تأليف ج.هـ. برستيد) ترجمة الدكتور احمد فخرى . سـنة ١٩٥٧ مطبعة وزارة التربية والتعليم .

ــ تاريخ الحضارة الاسلامية ف . بارتولو سنة ١٩١٨ ترجمة حمزة طاهر ١٩٥٨ مطبعة دار المعارف .

ــ تاريخ الفكر الأندلسى لأنجل جينثالث بالنثيا سنة ١٩٢٨ ترجمة الدكتور حسين مؤنس سنة ١٩٥٥ (الترجمة كانت للطبعة الثانية ــ مدريد ١٩٤٥ (مكتبة النهضة المصرية) .

ــ تاريخ الفلسفة الغربية برتراند راسـل ترجمة الدكتور زكى نجيب محفوظ ١٩٥٤ .

ــ تاريخ الفلسفة فى الاسلام ليرى بوير ترجمة عبد الهادى أبو ريده .

ــ تراث الاســلام ــ السير توماس أرنولد والفريد جيوم . ترجمة لجنـة الجامعيين ١٩٣٦ مطبعه النهضة المصرية .

ــ دراسات فى الأدب الشرقى جوستاف فون جرينباوم . ترجمة الدكاترة احسان عباس وأنيس فريحة ومحمد يوسف نجم وكمال يازجى ١٩٥٩ .

ــ الدعوى الى الاســلام ــ السير توماس أرنولد ترجمـة الدكتورين حسن ابراهيم وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى الطبعة الثانية ١٩٥٧ مكتبة النهضة المصرية .

ــ الحضارة الاسلامية لخودا بخش ترجمة الدكتور على حسنى الخربوطلى ١٩٦٠. دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى .

ــ الحضـارة الاسـلامية فى القرن الرابع الهجرى او عصر النهضة فى الاسلام ــ آدم ميتز سنة ١٩٢٢ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده الطبعـة الثانية ١٩٥٧ مطبعـة لجنة التأليف والترجمة والنشر . حضارة العرب . جوستاف لوبون ١٨٨٤ ترجمة عادل زعيتر طبعة ثالثـة ١٩٥٦ دار احياء الكتب العربية ــ لعيسى البابى الحلبى .

ــ الشعر الاندلسى غيرسيا غومس سـنة ١٩٤١ ترجمـة الدكتور حسين مؤنس ١٩٥٦ مطبعة مكتبة النهضة المصرية .

ــ العقيـدة والشريعة فى الاسـلام لجولد تسهير ترجمة الدكتور على حسن عبد القـادر وآخرون .

ــ فتح العرب لمصر لا لفريد بتلر .

ــ قصة الحضارة ول ديورانت ١٩٥٠. ترجمة محمد بدران ١٩٥٧ لجنـة التاليف والترجمـة والنشر .

ــ الكوميديا الالهيـة . دانتى الجبيرى ــ ترجمة نثرية لكامل كيلانى ــ دار مكتبة الأطفال .

ــ لمحة من تاريخ الطب من السحر الى الطب القديم بلاكسلاند ستبز ــ ترجمة الدكتور احمد زكى الحكيم ١٩٥٨ لجنة البيان العربى .

ــ مسالك الثقافة الأغريقية الى العرب ــ لأولرى (دولاسى) ترجمة دكتور تمام حسـان ١٩٥٧ ــ مكتبة الأنجلو المصرية .

مراجع أجنبية

— A History of discoveries relating the
— A History of discoveries relating the

— A history of the intellectual development of Europe, by J.W. Draper, 1914.

— Albattani, Carlo Nallino.

— Arabic thought and its place in its place in history, by De Lacy O'leary.

— Archives d'hist. doct. et litt. du moyen age, Gilson, 1926 - 23.

— Averroes et Averroisme par Ernest Renan, (Paris 1925, 8e edition).

— Clues for the Arabian influence in Europe music theory H.G. Farmer J.R. A.S. Jan. 192 p. 61 - 80.

— Cours de l'histoire de la philosophie, par Victor Cousin (Paris, 1841).

— Der Altindischte Giest, M. Haberlandt, 1887.

— Descriptive Astronomy, Chambers.

— Dictionnaire encyclope - dique, Qwllet.

— Did India influence early Greek philosophy East and West ?, George P. Conger 1952.

— Die Altesle Arabrsche Barlaam - Version, F. Hommel, 1887.

— Die philos, Sectis, Vossins.

— Diserty Opusc, Julian Ribera.

- Dominascus Gundissa- lions de divisione philosophiae, Dr. L. Baur.

— Encyclopedia Britanica.

— Encyclopedia d'Islam.

— Estudio y discursos de critica y literraria, Menendez Pelayo, 1911 Madrid.

— Etude sur la metaphysique de l'Avreenne, par Djemil Saliba, Paris, 1966.

— Fables de la Fontaine, Aubatin.

— Grande Encyclopedie française.

— Greek thinkers, Theodor Comperz.

— Groues dictionary of music and musicians, 1927.

— Histoire de la médecine arabe, Leclerc, 1876.

— Histoire des musulmans d'Espagne, Dozy, 1861.

— Histoire des philosophes et de théologiens musulmans par Gustavee Dugat (Paris 1878).

— Histoire générale des arabes, Sedillot 1877.

— Histoire générale et système Compare des langues semitiques par Ernest Renan, Paris.

— History of civilization in England, 1908.

— History of Commerce, Day, Clive.

— History of Nationalism, Lecky.

— History of the Hellenistic World, S.E. Rosloviseff.

— Huellas del Islam Menendez perlayo, 1941, Madrid.

— Ibn Khaldoun, Historian, Socialist and Philosopher 1930, New-York.

— Introduction à l'étude de la philosophie musulmane, par Léon Gauthier, 1923).

— Introduction to the history of science. by George Sarton (Baltimore 1947-48).

— L'avicennime latin, R de Vausc, 1934.

— La escatalogia musulmana en la divina Comedia, Asin, 1943, Madrid.

— La recension égyptienne de mille et une nuit, Chaurin.

— Le Thomisme, Gilson.

— Les penseurs de l'Islam, Carra de Vanx, Paris, 1921.

— Lettre sur l'invention de la boussole, Paris, 1834.

— Medieval Mind, In Taylor.

— Mohametism explained, Morgan, 1723 - 5 London.

Mohamm. Studien, Goldtseher (Agnas).

— Muslem theology, Mac Donald, 1903 London.

— Oxford dictionary of Historical principles.

— Scriptores de musica meduacvil, Coussemaker.

— Siege of Jerusalem, William of Tyre.

— Studier 1001 nat, Oestrup, 1891.

— The Arabian nights 1839, London.

— The Moriscus, Lea.

The ursdom of India, Michel Jareth.

— Traité de droit Romain, par M.P.C. Savigny.

— Wiener Jabrbucher, Von Hammer, 1819.

— Zu den Agyptischer Nurchen Zettcher d' Deutsch Morgent Gesellech, Nuldeke.

فهرس الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الباب الثالث

التراث الاسلامى فى الحضارة الغربية

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

مسالك الحضارة الاسلامية الى الغرب

المبحث الأول

المبحث الثانى

الفصل الرابع

الفصل الخامس

العلوم الاسلامية فى أوروبا

الصفحة

الفصل الثالث

الفنون

الفصل الرابع

مراجع الكتاب

مطابع الاهرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
٥١٩١ / ١٩٧٢


الأهرام
مطابع الأهرام التجارية
القاهرة


Bibliotheca Alexandrina
0511004